

تاريخ المصريين ٤٥

الحروب الصليبية

تأليف

وليم الصوري

ترجمة

د. حسن حبشي

الجزء الأول



مكتبة دار الكتب والوثائق القومية



رئيس مجلس الإدارة
د. سمير سرحان

رئيس التحرير
د. عبد العظيم رمضان

مدير التحرير:
عبد العظيم الشبلي

اهداءات ١٩٩٨

مؤسسة الأهرام للنشر والتوزيع
القاهرة

الحروب الصليبية

(١٠٩٤ - ١١٨٤ م)

الجزء الأول

تأليف

وليم الصوري

ترجمة وتقديم

د. حسن حبشي



مركز الدراسات والبحوث

١٩٩١

هذه ترجمة لكتاب :

A
*HISTORY OF DEEDS DONE
BEYOND THE SEA*

BY
WILLIAM OF TYRE
TRANSLATED BY
EMILY ATWATER BABCOCK
&
A C. KREY

Columbia University Press
1943

تقديم

يسرني أن أقدم للقارئ هذا العمل العلمي العظيم ، المؤلف عظيم ، ومترجم عظيم . أما العمل فهو تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصوري ، الذي يعرفه طلاب الدراسات التاريخية كأحد أعظم المصادر في تاريخ هذه الحروب الخالدة ، وكأقدمها أيضا ، فقد رأى النور في صورته الأصلية في القرن السادس عشر الميلادي . وهو يعالج الفترة التي امتدت من عام ١٠٩٤ الى عام ١١٨٤ ، أي على مدى تسعين عاما من عمر مصر والشام ، فضلا عن بعض أقاليم أعالي العراق وآسيا الصغرى . وهذه الفترة والتي نلها على مدى قرن ونصف آخر من الزمان ، هي التي أخذت تدفق فيها من عرب أوروبا تلك الهجرات الشعبية المسلحة المتسرلة بمسوح الدين والمتمسحة بالصليب وهي التي عرفت باسم الحملات الصليبية .

أما مؤلف الكتاب فهو ولیم الصوري ، الذي ولد في ١١٣٠ م ، والذي بعسده بعض المؤرخين الأوروبيين واحدا من أعظم مؤرخي العصور الوسطى قاطبة . وقد توفرت له من أدوات الكتابة التاريخية ما لم يتوفر لغيره ، فإلى جانب إتقانه للغة اللاتينية والفرنسية واليونانية ، والمناهج بالعربية ، فقد كان تحت يده من الوثائق ما يجعله مبرزاً في الكتابة التاريخية وحجة في عصره . وقد سغل من المناصب ما جعله جزءاً من الأحداث التي يؤرخ لها ، فقد كان مشرفاً على ديوان الإرسائل في بلاط مملكة بيت المقدس ،

وسعيرا للملك عموري في بلاط اماويل امباطور بيزنطة ، الى جانب شغله لمراكز دينية تدرج فيها حتى بلغ الذروة في سلك الكهنوت ، وصار رئيس أساقفة صور . ومعنى ذلك أنه وصل الى أسمى المناصب غير الحربية في الدولة بعد الملك .

أما المرحم فهو الأستاذ الدكتور حسن حبشي ، أستاذ تاريخ العصور الوسطى ، الذي حصل على درجة الدكتوراه من جامعة لندن . واختير للتدريس في كلية « ساوث ايلنج » بلندن ، ودرج في سلك التدريس الجامعي في جامعة عين شمس ، مدرسا فأستاذًا مساعدًا ، فأستاذًا لكرسي التاريخ بكلية الآداب ، ولعمومه باللعه اللاتينية والعربية العديدة ، فقد ترجم العديد من الكتب الى اللغة العربية ، فترجم عن اللاتينية أول وثيقة عن الحروب الصليبية ، التي سماها بالعربية « تاريخ الفرنجة وحجاج بيت المقدس » ، ثم أتبعها بترجمة حياة الملك لويس التاسع وحملاته على مصر والشام للمؤرخ العرسى جوافيل ، كما ترجم عن الفرنسية القديمة كتاب « فتح القسطنطينية » على يد الصليبيين لروبر كلاري . كما نشر مخطوطه « مضمار الحقائق وسر الخلائق » لنقى الدين الحموي ، ابن أحي صلاح الدين الأيوبي ، وفيه جزء يتعلق بمعركته في سبيل اسرداد بيت المقدس . ثم ترجم مذكرات « حودفري فلهاردوان » الفرنسي عن الحملة الصليبية الرابعة

ونعد ترجمة الأستاذ الدكتور حسن حبشي لكتاب « الحروب الصليبية » أوليم الصوري ، التي سوف تصدرها في أربعة مجلدات ، من أهم الأعمال العلمية التي ينبت بها الأستاذ الدكتور حسن حبشي مكانته العلمية الرفيعة في بلدنا وفي العالم العربي ، وهي دليل على عظمة هذا الأستاذ الكبير الذي كرس حياته لخدمة علم التاريخ ، وتفرد الى حد كبير بقدر عظيم من الدقة العلمية التي

ترسم للجيل الجديد من مؤرخينا الشبان الطريق السليم والوحيد
للاوصول الى الاستاذية بمعناها الصحيح .

لذلك لا يسعى الا أن أعرب عن شرف هذه السلسلة من
« تاريخ المصريين » بشرف هذا العمل العلمي العظيم ، الذي يهم
المثقف والعالم المخصص ويضعه في أكرم مكان من المكتبة العربية .

والله الموفق ،

رئيس التحرير

د. عبد العظيم رمضان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

يتعلق هذا الكتاب الذى بنى بدى القارىء بخفيه من الزمن امتدت من ١٠٩٤ حتى ١١٨٤ أى على طول تسعين عاما من عمر مركزى الثقل فى الشرق الاسلامى وهما مصر والشام ، وينسحب ذلك - الى حد ما - على بعض أقاليم أعالي العراق وآسيا الصغرى ، وقد شهدت هذه الفترة والتحرر، نليها - لمدة قرن آخر ونصف قرن من الزمان - جموعا كثيفة وجيوشا حاررة هي فى الواقع هجرات شعوبية أخذت تتدفق - على وجه الخصوص - من غرب أوروبا ، متسرلة بمسوح الدين ، ومتخذة لها شعارا زائفا هو « انقاذ بيت المقدس من أبدي المارقين » ، ولو صدقت لقاتل امتلاكه لنفسها واحتلالها منطقة الشرق الأدنى ناكملها بعد نغريبها من أصحابها الحققة من أبا كان دينهم ومذهبهم .

والواقع أنه كانت هناك دوافع أعمق من هذه السمعارات الخادعة ، ذات الرنين الدينى المحرك للسعور الغربى لا سبعا بين السامة ، وكانت هذه الدوافع تكمن وراء الزخوف الذى عرفت بالحملات الصليبية .

أما مؤلف هذا الكتاب فيعرفه المؤرخون منذ عصره حتى اليوم باسم « ولم » ، فان رادوا في التعريف به قالوا « الصوري » ، وإذا رحنا سألته من يكون أبوه فلا نحظى منه ولا ممن ترجموا له وكتبوا عنه - وهم كثيرون - بإجابة ما ، إذ يسكنون عن الرد ولو بسىء يكون مثار حوار وجدل ، وما نعه بالصوري إلا نسبه إلى المدينة المعروفة باسم صور بالساحل الشامي والتي لها تاريخ - وأى تاريخ - في العصور المحلفة قدمها وحديثها ، فقد صار مؤرخا « ولیم » رئيس أساقفتها سنة ١١٧٥ أى بعد دخول الصليبيين بلاد الشام بأكثر من ثلاثة أرباع القرن وبعد بضع سنوات فلائل من فتح الصليبيين للمدينة .



أصله ونسأته :

إذا كان الناس لم يعرفوا سلسلة نسب « ولیم » فأنهم لم يعرفوا أيضا سنة مولده بل اختلفوا فيها اخلافا بسا ، فمنهم من عدوها سنة ١١٢٧ وعلى رأس هؤلاء المؤرخ الانجليزى « بيورى » وذلك حين قام سر كتاب « ادوارد جيبون » عن « تدهور وسقوط الامبراطورية الرومانية » ، وهو الكتاب العظيم المعدد من عمون التراب الكلاسيكى فى الأدب والتاريخ على السواء .

وأخر غيرهم سنة مولده فجعلوها سنة ١١٣٠ دون أن يجزموا جزما باتا بتلك السنة ، وذلك أنهم حين يشيرون إليها يسردون فى كلامهم عنها ويسبقونها بقولهم « حوالى سنة ١١٣٠ » ، وأيا كان عام مولده فالمتتبع لأحداث عمره التى تعرف جزءا كبيرا منها لا سيما منذ أن قارب سن الشباب يرى أنه عاش فى هذه الدنيا أكثر من نصف قرن من الزمان صرف الشطر الأخير منه طالبا للعلم سواء فى

مملكه بيت المقدس اللابيه أو فى فرسا وإطاليا . ومكيا على الدراسات الدينيه ومسرقا على ديوان الرسائل فى بلاط مملكة بيت المقدس اللابيه وسفيرا للملك عمورى الى بلاط « اماويل » امبراطور بنزطة ، الى جاب شغله لمراكر دينية ندرج فيها حنى بلغ الذروه فى سلك الكهنوب المسيحي اذ صار رئيس أساقفة صور ومات وهو يطلع فى حسره لأن يكون بطرك بيت المقدس . ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه . فاذا عرفنا ذلك كله عنه مملكتنا العجب من جهل التاريخ لأسره جهلا حمل بعض المؤرخين المحدثين على القول بأنه كان من أسرة من عامه الناس فى القدس ، ويريد هذا العريى أن يقول أنها لبسب من الفرسان ولا النبلاء ولا الأشراف ، بيد أن ذلك كله لم يمنعه أن يكون فى القمة من المؤرخين اد كسب ما كسب ، وأن يشغل أسمى المناصب غير الحربية فى الدولة اللاتينية بعد الملك . وأن يسبى أقرانه فى العلم والذكاء والمعرفة وسعه الاطلاع ودراسة أعماق النفس الانسانية سبفا لم يجاره فيه أحد من أئاده ومعاصريه .

على أية حال فقد أدى جهل المؤرخين بأسره الى التضارب البين فى أين كان مسوؤه والاختلاف الكبير فيه فقال بعضهم أنه ولد بالقدس بعد أن صارت مملكة ضلبيبة ، ودرج على ثراها فأحبها حبا تمثل فى أن جعلها مركز كتاباته التاريخية التى اتسعت مساحتها القلمية ولكنها كانت تصدر عن تلك المدينة المبجلة فى التاريخ والموقرة عند جميع الأديان السماوية ، والتى هى عنده واسطة العقد ، لذلك نراه يطيل فى دراستها ويجعلها مسنهل كتابته التاريخية منذ أن فتحها المسلمون زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب وإن كان قد أوحز ايجازا شديدا فى عرضه للفترة الممتدة منذ الفتح العربى لها عام ٦١٤ م حنى اغتصبها الصليبيون سنة ١٠٩٩ م .

فاذا أخذنا بالرأى القائل بمولده في المملكة جاز لنا أن نقول انه كان من أبناء فلسطين بعد الغزو الصليبي ، وهو قول غير بعيد عن الصحة ، لكن هذا يدفعنا للسؤال : أكان أبوه هو أيضا من أهلها ؟ ، أم انه كان وافدا عليها ؟ . فان كان وافدا فمتى كان ذلك ؟ وكيف كانت هيئة حضوره ؟ وهل كان مجيؤه اليها صحبة الجماعات الطارئة عليها من بلاد العرب الأوربي ؟ .

وفد ثارت هذه السؤالات في أذهان كثيرين ممن ترجموا له وذهبوا في ذلك الموضوع مذاهب شتى ، فمنهم من رد أباه الى أصل فرسى ، ومنهم من قال انه ايطالي ، وزعم آخرون انه انجليزى ، وقال غير هؤلاء وهؤلاء انه ألماني ، دون أن يبين أى واحد من هؤلاء علام كان اعتماده في تقرير نسبه الى هذا القطر أو ذاك .

هذا التصارب الكبير في تحديد مسقط رأس الأب يرجع الى سكوت الابن « وليم » عن هذا الجانب سكوتا مطلقا ، مما حمل مؤرخيه على أن يخلفوا في أصله حيث لم يشر هو اليه من قريب أو بعيد ، هذا على الرغم من أنه هو نفسه كان شديد الحرص على أن يورد أكثر القادة والزعماء ورجال الدين وأصحاب الأمر الذين وردت الاشارة اليهم في كتابه الى مواطنهم الأولى حتى ولو كانوا شرقيين ، مع ذكر أنسابهم في معظم الأحوال ، لكنه لم يفعل ذلك بأصله هو دانه ، مما فتح باب الاجتهاد والكهس واسعا أمام من لبوا عنه فكان اجتهداهم أقرب الى الخدس والتخمين منه لأن يصل الى أمر مقرر ، وصار هؤلاء المجتهدون شيئا وإحزابا يذهب كل منها في هذا الموضوع مذهبا يخالف ما يذهب اليه الآخرون ، فردته كل طائفة الى بلد أوربي غير البلد الذى ردنه اليه الأخرى ، هذا الى جانب من جعلوا القدس مهبط رأسه .

فاذا استعرضنا آراء هؤلاء الذين يردونه الى اصل أوربى عجريا معهم عن تحديد ذلك الأصل تماما ، وأول من نطالعهم هم من قالوا أنه المانى الأصل ، غير أن المطالعة الدقيقه لكتاب « وليم » الباريحى هذا تحملنا على استبعاد هذا الرأى ، لأنه حين يعرض لبعض من اشتركوا فى الجريدات الصليبية من السويون « الألمان » نراه يندد بهم سديدا بالما بسبب سوء مسلكهم وهمجبتهم الى يميظ عنها اللنام دون تحرج من جانبه أو رعايه لهم وهم على دينه ومذهب . كما أنه يشير الى أن بعضهم كانوا لا يورعون عن الافساد فى بلاد « احوانهم » المسيحيين الأوربيين ، مدمرين للأرض وهاتكين للعرض وهم فى طريقهم لانقاذ احوانهم « المسيحيين النسرقيين » ٠٠٠ فلو كان وليم جرمانى السبعة لما ساولهم هذا المناول المر ولأعصى عن بعض مخازيهم أو قلل من حدته عليهم .

ومما يؤكد عدم سريان الدم الألمانى فى عروقه أنه حين يعرض لمن ساهموا من الألمان فى الحملة البانيه فانه يقدم الدليل - عن عبر قصد - على جهله بأكر المدمرين من وجوههم .



اذا كما قد استبعدنا أن يكون المابا فهل يمكن أن يكون انجليزيا ؟

هناك لفيق من الناس يعتقدون أنه من هذه الجريه ، وهم معذرون فى اعتقادهم هذا اذ خلطوا بينه وبين شخص آخر انجليزى كان يحمل نفس الاسم ، كما أنه صار رئيس أساقفه صور وبيع أيضا لذلك « بوليم » الصورى ، ولكنه كان غير صاحب مؤلف هذا الكتاب ، ويحق لنا - بناء على ما ستقدمه حالا - أن نسميه « بوليم » الصورى « الأول » على حين نسمى مؤلف كتابنا هذا بوليم الصورى

« الباني » ، ولد كان هذا الوليم الصوري الأول انجليريا وحا وكان يسفل وظيفه حارس القبر المقدس في بيت المقدس والقيم عليه ، وكان مؤلفنا يعرفه ويكتب عنه في تاريخه (١) ويسى على أحلامه ومهجه في الحياة بناء عاطرا ، ويحول عنه بصريح العبارة أنه « انجليزى المولد » ، ثم يسابع بعد قليل كلامه عنه فينبه « بسلفنا وسلف جميعنا نحن الدين جئنا من بعده » ، أى في رياسة أسقفيه صور التي كان وليم الأول رئيس أساقفها سنة ١١٧٠ ، لذلك يؤرخ له مؤرخا ويعتبه « بسلفنا العظيم صاحب الذكر المجيد » ، ثم يشير الى ذهابه الى روما لبسليم عصا الرعويه من البابا بعد أن مسح بطرك القدس بالزيت .

هذا هو بعض الخبر عن وليم الأول الصوري .

ثم ان مؤلفنا وليم الصوري الباني (صاحب الكتاب الذي بين يدي القارئ، ترجمته العربية الآن) يتابع كلامه عنه مع ايراده لكامل الوثيقة التي كتبها أدريان بابا روما حينذاك لتأييد وليم الصوري الأول والتي يقول فيها الجالس على كرسى بطرس برومة موجها الخطاب الى بطارقة المشرق وأساقفته ومطاربه : « ٠٠٠ انا نؤمن ايمانا جازما بأن كنيسةكم الأم في صور مستجنى منه (أى من وليم الانجليزى) أحسن الثمار ٠٠٠٠ » .

ويكتب نفس البابا خطابا الى « جورموند » بطرك القدس يقول له فيه شأن هذا الأسقف « ٠٠٠ ايماء الى خطاب محبتكم الأخوية فقد رحبا بأحبنا وليم (الأول) الذي اخترتموه رئيسا لأساقفة الكنيسة في صور » (٢) .

(١) الكتاب ١٣ . الفصل ٢٣ .

(٢) نفس الكتاب والفصل .

لقد كان هذا الاسم « وليم » ، ونعته « برئيس أساقفة صور »
 ثم تاريخ هذا الحدث ووقوعه في السبعينات من القرن الثاني عشر
 دافعا للكثيرين على أن يربطوا زلة ناريجية كبرى ، ادخلوا بين الاسين
 خلطا يندفعه المتتبع لتاريخ كل منها ، ولقد رعموا ان وليم الأول
 ، الانجليزى « هو نفسه وليم مؤلف تاريخنا هذا ، فعالوا أن الباي
 « انجليزى » الأصل وما هو بانجليزىه .

وبناء على هذا التصحيح الذى سبقناه فان هذه النسبة تسقط
 عن صاحبنا وليم ، كما أن هذا التصحيح يحملنا على أن نقول مع
 القائلين بنفى هذا الأصل الانجليزى ، كما أنه يؤيدنا فى هذا البنى
 ما نراه فى كتابه هذا الذى بين يدي القارئ الآن من بنديه بالانجليز
 مملين فى شخص البابا أدريان الرابع - وهو انجليزى - حيث
 يصفه وليم بالمرشئ ويتهمه بالمحاباة فى الانتخابات الكنسية
 مما يسلم كرامته كرجل دين يفترض فيه أن يكون الحق منهاجه (٣)،
 وكان هذا الهجوم العنيف من صاحبنا وليم حين آثر هذا البابا
 « الانجليزى » الأصل أحد مواطنيه وهو الكاهن « رالف » بمنصب
 ليس من حقه فيقره سنة ١١٥٦ أسقف لبيت لحم ، ويرى وليم أن
 نجاح رالف هذا فى « تولى شئون هذه الكنيسة العظيمة راجع الى
 عطف مواطنه البابا أدريان الرابع (الانجليزى) » (٤) .

ولا يصحنا هنا قول وليم فى رالف « الأسقف » ولكن يهنا
 نهجه على رالف « الانجليزى » ، وهذا ما نسبته أيضا من نسايا
 كلامه عن هنرى الأول ملك انجلترا ، ووصفه اياه « بمغتصب العرش
 المستحوذ عليه بالخديعة » ويشير الى أنه فى سبيل الاحتياط بهذا

(٣) ك ١٨ ، ف ٨ .

(٤) ك ١٧ ، ف ٨ .

العرس حس كل قوى المملكة لدفع أحبه صاحب الحق اسرعى (٥)

نخلص من هذا ومن كثير غيره مما ورد في الكتاب الذي بين أيدينا الى بهجم مؤلفه على الانجلز أو على الأهل بقده اللاذع لهم مما بباعد بيته وبين أن يكون له عرو فيهم ، والا كان أخف نقدا في محومه عليهم .



ودهب آخرون للقول بأنه « فرسي » الأصل ، معتمدين في ذلك على أنه فلما يرد ذكر فرنسا الا ويكون لسان ثناء عليها وبمحدد لها (٦) ، وسرى المطالع لهذه الترجمة العربية ذلك المديح في مواضع متعددة منها . وفي رأينا أن هذا المديح هو الذي حمل دائره المعارف الأمريكية (٧) لأن نذكر في نبذة قصيرة أنه من أبوين فرنسيين ، على أنه يبدو أن هذا الأصل الفرنسي لم يجد استجابته من دائره المعارف البريطانية (٨) فلم نقل به وآثرت السكوت عنه تماما ، ولعلها خافت ان سزلى في هوة لبس لها فرار ، ان هي ذكرت بالتحديد ما يمكن أن يكون موطنه الأصلي ، ومن قال لا أدري فقد أفتى ، كما أن الدائرة لم تعتبر فرنسا الا موطن ثقافته له ، وهو قول حق .



(٥) ف ، ° ، ف ١٣ ، واطر .

Private Orton . The Shorter Cambridge Medieval History vol 1, pp 591 et Seq.

(٦) وسرى في مقدمتنا هذه أن هذا كان موقفه أيضا اراء اطالبا .

American Ency Art William of Tyre (٧)

Ency Brit. Art William of Tyre (٨)

على أن دهابه الى فرنسا كان — كما نعرف — لتابعه دراسه
 للقانون ، غير أن هذا لا يهصر دليلا على أنه ذو عرق فرسى والا صح
 أن نقول أنه ايطالى ، اذ المعروف أنه ذهب الى ايطاليا هي الأخرى
 أكثر من مرة ، ولكن كان دهابه اليها هي الأخرى من أجل دراسه
 القانون أيضا ، كذلك ذهب الى رومة لحضور مجمع كان منعقدا بها
 فى أكتوبر ١١٧٨ على رأس وفد كهنوتى يضم طائفة من كبار رجال
 الدين منهم هرقل رئيس أساقفة قيصرية ، الى جانب أساقفة بيت
 لحم وسميساط وعكا وطرابلس وغيرهم (٩) .

حقيقة أن مطالعة ما كتبه وليم عن ايطاليا يبين معرفه العصفه
 بها ويرسم لها صورة طيبة فى ذهن القارئ ، ثم أنه كان لا يدع
 فرصة تمر الا وينسب اليها حتى لو لم يكن الموضع موضع حديث
 مباشر عنها ، وتستدل على ذلك مما قاله حين عرض لهجوم المسلمين
 على أحد موانئ صقلية ، اذ وجد الفرصة مناسبة للاشارة الى ايطاليا
 وذكر أنها ملجأ الأمان (١٠) لقوات روجر كونت صقلية ، كما أنه
 كان كثير النساء على الجالبات الايطالية ومساعى المدن التجارية
 الايطالية الحمدة فى خدمة الصالح المسيحى ، فبذكر أن طائفة منهم
 وهم الأمالغون كانوا قد قدموا النماسا للخليفة العاطمى بسألونه
 السماح لهم بقطعة من الأرض فى القدس — وقت أن كانت القدس
 تابعة لمصر — ليعموا لهم كنيسة فيها ، ولما كان هؤلاء الأمالغيون
 « أصدقاء لمصر ويحملون اليها المواد المفيدة » فقد أجابهم الخليفة
 لما سألوه وكان عطفه عليهم جملا تمثل فى ضخامة ما منحهم إياه ،
 فشبدهوا ديرا عرف بدير مريم المجدلية مما جعل مؤرخنا ولهم بشنى

(٩) ك ٢١ ، ف ٢٦ .

(١٠) ك ١٣ ، ف ٢٢ .

على الأمازيغيين ثناء مستطابا ، وانسحب هذا البناء بالنال عنده على
إيطاليا (١١) .

لكن هذا كله لا يمكن أن يحملنا على نسبه هائله الى إيطاليا -

★★★

إذا كنا قد رفضنا أن يكون فرنسيا ، ونعينا عنه أن يكون
ألمانيا ، وأنكرنا عليه أصلا انجليزيا ودحضنا الرأي القائل بأنه كان
إيطاليا ، فلا يسعنا الا أن نقول - على الترجيح - أنه كان من مواطني
مملكة بيت المقدس بل ومن مواليد القدس ، بل ونضيف الى ذلك
أن أباه كان واحدا من اثنين إما أنه ولد هو الآخر بفلسطين ونسأ
بها فكانت القدس وطننا له ولولده ولیم ، وإما أنه كان من آلاف
الناس من طبقة العامة الذين وفدوا مع الجيوش الصليبية وسبهم
في حروب الفرنج ثم شاء القدر أن يتخطاه القتل فيمن قبلوا في
معاركها فصار مواطننا عاديا ثم تزوج فأنجب - فيمن أنجب - مؤرخا
ولیم في سنة ١١٣٠ ، وإن قال البعض أنه ولد سنة ١١٢٧ .

وسواء أكان مولد ولیم الصوري في هذه السنة أو تلك - وإن
كما نرجع سنة ١١٣٠ - فقد تفتحت عيناه على القدس التي كانت
أول أرض مس جلده ترابها ، حتى انه لينعنها في كثير من المواضع
« بوطني » وقل أن يسير اليها الا في اجلال وحب .

وحبب أوطان الرجال اليهم ماأرب قضاها الشباب هنالكا

وحسبنا أن نقرأ في تمهيد لتاريخه في هذا الجزء الأول لنرى
كيف سيطر عليه حب القدس ، كما يعزو تأليفه كتابه هذا الى ذلك

الحب » وأنه استجابة لارادة هذا الوطن ونداءه شرع فى مهمة يأبى الشرف التنحى عنها « (١٢) ويقصد بها وضع تاريخه .



إذا لم يكن قد وصلنا الى رأى فاطم فى أبيه : هل كان وادعا على العدى أم انه من أهلها فان رأينا حيسال الابن أنه كان من مواليد القدس ، لان سنة ١١٣٠ (وحتى ١١٢٧) متأخرة نسبيا فى تاريخ الجريعات الصليبية ، اد كان قد انسلك من عمر الزمان منذ مقدم أولاهها ثلث قرن ، تضاءلت فيه أعداد الجماعات الأوروبية الوافدة ، كما أن المسيحى الأوروبى الذى عاش فى فلسطين منذ أول الحملات الصليبية عد نفسه فلسطينيا ، وكان يرفض فى سريره فى يادى الأمر بقاء الوافدين الأوربيين ولا يعتبرهم الا حجاجا ، وأما من أقاموا واحدوها سكنا لهم بدلا من ديارهم فى أوربا فقد عدتهم دخلاء مطلقين ، لس لهم حق فى الإقامة الدائمة بها ، وأن واجبهم - اذا فرعوا من حجهم - العودة من حيب جاءوا ، لأنهم لم يجيئوا الا حجاجا وزوارا ، فاذا اننھوا من أداء سعائهم ومناسكهم وحب عليهم العودة الى ديارهم .

ان ذلك الحب الذى فى نفس مؤرخنا ولیم لهذا البلد يجعلنا نرجح أن العدى كانت مهبط رأسه فى أحد عامى ١١٢٧ أو ١١٣٠ ، أو فيما بينهما وان نشأته بالقدس جعلته يعرف كل نواحيها الطوبوغرافية والتاريخية ، فهو يذكر وقوعها فى منطقة جذباء شحيحة بالماء (١٣) كما يعرف أماكنها الأثرية وما ننضج به من

(١٢) نظر التمهيد الذى قدمه ولیم بين يلى كتابه هذا .

(١٣) ٨ ، ١ ، ٤ ، ٧ .

ذكر يات فدييه قد يرجع الى زمن النبي يوح (١٤) ، كما أنه قل ان يسير الى القدس - كما قلنا - الا بكلمة « وطني » ، ثم انه يخصص مواضع كثيرة من صفحات كتابه هذا لذكر بطاركتها وما أحاط بكل واحد منهم من ظروف كانت تؤيده أو تعارصه (١٥) .

هذا هو مجمل القول في وليم من حيث نسبه الى القدس .

★★★

أظهر وليم مد بعومه أظفاره ملا كبيرا للدرس والحصل ، ولابد أنه الحق ببعض مدارس عصره التي كانت ملحفة بالأديرة والكنايس ، وبعضها بقصر الملك ، وكان يلاميزها بطبيعه الحال وفي الغالب من أبناء الطبقة العليا في المجتمع اللاتيني الغربي في المسرى ، ثم سئني له أن يتم تعليمه في فرنسا .

ويبدو أنه أظهر ولعا متزايدا بدراسة الفقه المسيحي مما جذب اليه أنظار الكيرين من رجال الكنيسة ورجال الدين ، الذين كان أكثرهم اهتماما به بطرس من أهل برشلونة بإسبانيا وستنسميه هنا بطرس الاسباني أو البرسلوني وكان فيما على الأنار المسيحية والعمر تكسسه السامه ، ثم انتهى المطاف أخرا به ليكون رئيس أساقفه صور (١٦) وكان بطرس هذا حقا بوليم راعيا له ، محيطا اياه مند وقت مبكر برعايته ، مسبقا عليه عطفه ، كما أنه فربه اليه ادراكا منه يمكن أن يكون لهذا الساب من عد مرموى ان وجد من

(١٤) ك ٨ ، ف ١ .

(١٥) ك ٩ ، ف ١٥ ، ك ١١ ، ف ٤ ، ١٥ ، ك ١٢ ، ف ٦ ، ك ١٣ ،

ف ٢٦ ، ك ١٦ ، ف ١٧ .

(١٦) الكتاب ١٦ ، ف ١٧ .

بأخذ بيده . وبدلها هذه العبارة من جانب بطرس الاسبانى على أنه رأى فيه سوعا - فى حفل الدراسات الدينية - لم نلاحظه بمثل هذه الصور عند غيره ، لذلك اعزّم أن يكون هو راعبه والآخذ بيده فى طريق العلم ، فكان له ما اعزم ، وحفظ ولهم له هذه اليد البيضاء عليه وأشاد بلك المكرمة التى اخصه بها ، ومن هنا تعددت اشاراته الى بالاجلال فى صفحات علمه من تاريخه ، ثم ان ولم كان يرى نفسه الله فى ميدان العمل الكنسى شرفا كبيرا له ، وراى قدره - بعد حب - أنه كان أحد من بولوا قبله أسقفية صور ولذلك كان كبيرا ما يسر الله بقوله « سله ١ » ويرى فى ذلك مغفرة له .

وهكذا وجد ولهم فى بطرس الرجل العالم الذى يساعده على ريادة حظه من العلم والبروز فى مجال اللاهوت ، هذا الى جانب أنه كان عوناً له فى الاطلاع على أمور كانت من خبايا السياسة فى المملكة .

★★★

كذلك وجد ولهم - منذ فجر شبابه - حذبا من رجل آخر من رجال الدين اعقت نظرتة اليه مع نظرة بطرس الاسبانى ، ذلك هو « فولشرز » بطرك القدس ورئيس أساقفة صور أيضا الذى يكثر مؤرخنا من الاشارة اليه والاشادة بفضله عليه (١٧) وقد ساعده فولشرز هذا على أن يكون من بين رجال الكهنوت الذين بحث بهم الى ايطاليا لبنهلوا مزيدا من الثقافة الدينية ، فذهب الى بعض معاهدها الكبرى فى بعثة طالت مدتها حتى بلغت عامين وذلك من عهد فصيح ١١٦١ حتى سنة ١١٦٣ ، حيث انكب مؤرخنا فى هذين العامين على

(١٧) انظر على سيجل للمثال الكتاب ، ١٦ المصول ١٧ و ١٨ و ١٩ ، والكتاب ١٨ ، الفصل الثالث .

دراسه القانون والآداب ، ثم رجع الى المملكة ليعاود سطاظه فى
أسقفية صور ، رئيس شمامسة لها ، (١٨) .

★★★

ولقد انسح مجال ثقافته بفضل اتصاله المباشر بأماكن بعد من
مصادر العافه ، رادت من اطلاعه الشخصى ، ذلك أنه نسنى له
الدهاب الى بيربطه ١١٦٧ موفدا من الملك عمورى سفيراً له لدى
الامبراطور « مانويل » حتى يضمن انضمام القسطنطينية اليه فى
مسروعه الضخم لمهاجمة مصر ، وعهد اليه بأن يفره بنويع اتفاقيه
بين بيربطه وبين باب المقدس ، وانطلق ولم الى وجهه (١٩) ليجهد
امبراطورها مستغولا فى الصرب من نواحى البلقان ، ولكنه أبحر
ما عهد به اليه على أحسن صورة ، وعاد فى خريف ١١٦٨ بمعاهده
بين المملكة اللاتسيه والامبراطورية الاغريقية حسب نسمية أهل ذلك
الوقت لها (٢٠) ، وقد وقع وليم من نفس الامبراطور مانويل
موفا كريماً بجلى فيما أبداه له من ود وما أعدده عليه من
البله يا .

لم يكن لرحل ميل وليم أن يمضى وقته فى بيربطه دون عمل
لا سيما أن هذه الإقامة طالب حتى بلغ - كما يقال - ستة أشهر
ففضى جزءاً منها فى الاتصال برجال الكنيسة اليونانية وإن كانوا
على غير مذهبه وزاده هذا الاتصال انقانا للغة البونانية .

ومن هذا نستطيع القول بأنه كان واحداً ممن يمكن أن يعال

(١٨) الكتاب العشرون الفصل الثانى .

(١٩) وليم الكتاب الثانى عشر .

(٢٠) الكتاب ٢٠ ، ف ٤ .

فيهم أنهم من علماء عصره وأعرفهم بالسياسة المحلية والدولية .
كما يمكن أن يقال أن ذهابه الى القسطنطينية كان كسبا علميا الى
جانب نجاحه الدبلوماسي .

ويتجلى لنا ما كان عليه من علم ومعرفة وثقافة من أنه استطاع
أن يبرىء ساحته عند البابا مما رماه به فردريك رئيس الاساقفة
من بهم ظلمة ، كما استطاع بعونه حخته ودلائه لسانه ، ووضوح
بيانه أن يعود من عند حليسه نظرس مصورا مبرءا من كل مذمة
وبقيصه .



وأدرك من حول وليم كفاءه التي لم تغب عن عمورى فعهد اليه
سنة ١١٦٩ بأن يؤلف كتابا عنه يساؤل فيه حكمه ، ممجبل ذلك
عن طيب خاطر ، وحين سرع في تدوين هذا التاريخ الذي سماه
Gesta Amalrici regis رأى فجوة لا يعرف عنها سببا الا لافه
اليسير والنادر الذي تلقفه سماعا من أفواه الناس دون أن يكون
واثقا منه تمام الثقة ، أما هذه الفجوة فكاتب خلال عيبه هو دانه
في بيزنطة ثم انشغال الملك في حملته على مصر التي بادر الى القيام
بها غير منظر عودة سفيره من القسطنطينية (٢١) لذلك رأى وليم
أن الأمانة التاريخية تفرض عليه أن يقف على أخسار هذه العبره
منلقعا اياها من مصادرها الأولى وفي مقدمها عمورى كساهد العيان
لها وهو الذي شارك في رسمها على حين غاب هو عنها ، فلم يخل
عليه مولاه بما أراده لا سيما وقد توثقت بينهما مودة عميقة رفعت

(٢١) لم يخف على مؤرخي العبره للمسلمين النواضع والصعوبات التي كان يعرض
لها عمورى حتى تحمل الرحف على مصر ، مساولها ابن الأثير في كتابه الكامل
واتانكة الموصل ، وأبو شامة في الروستين .

سهما كل حجاب وحملت عمورى على أن يصرح له فى ذات مرة عن
مسأله خطيرة جدا كزعيم للنصرانية وحام للصليبية ألا وهى
ما اضطرب فى صدره من حاله السكك فى أمر أجمع عليه
جميع الأديان السماوية ويكون أساسا من أسس الإيمان ، ألا وهى
البعث والسنور بعد الموت .

وكان نه الملك فى مؤرخا عظيمه حتى أنه عهد اليه - حين
كلفه بوضع كتاب عن حكمه - أن يعوم على تربيته ولده وولى عهده
بولدوين الرابع الذى لم يجاوز حينذاك التاسعة من عمره ، فأقبل
ولم على هذه المهمة بنفس راضية وظل يرعى الغلام فكريا وخلقا
وحساسا أربع سنوا مساليب لم يعصر فيها على بدل ما ينبغي عليه
بذلك لصبح الغلام مؤهلا لحكم المملكة ، بل راد فكان من بين
ما درسه له الآداب الكلاسيكية القديمة ، وعلمه هو وعلمان فى مل
عمره من أولاد النبلاء والأشراف ما ينبغي أن يتعلمه هؤلاء من
الفروسية وركوب الحبل وألعاب القوى التى تفوق فهم الصبر على
احمال الآلام ، وأنه ليعول عن هذه العزلة « لقد كرسب نفسى طول
مدة اشرافى على تليينى الملكى على رعايه وبذلك من أحله عادة
جهلى وحاولت تربيته خلقيا وأديبا » ثم يصف حادثا نجم للصبي
ذات يوم وهو بلعب مع أنزابه تكشف له عن اصابه بمرض خطير
استلزم من أبيه علاجه بسنى الأدوية والمراهم فما أحدث بها
ثم بعث فى كل ناحية فى طلب أحسن الأطباء لكنهم لم يسعفوه
فى وقف هذا الداء الذى كان قد استشرى ببلدوين الصغير ، « فقد
عرفنا بعدئذ أنه اسكو من ذلك الداء الخطر الذى لا رحاء منه » (٢٢)
على حد قوله ويصنى بذلك الجذام .

هكذا نولى ولم تربية الصبي بلدوين .

على أن الذى يهمنا من فتره قيامه بضعف الغلام أنها أتاح
له الفرصة لأن يكون أكبر اتصالاً بالعديد من رجال البلاط وبلاء
المملكة ، وساعده هذا الاتصال على زيادة الوقوف على ما يبطلح اليه
من المعلومات التى يساعده فى تأليفه التى ستعرض لها حالا وكان
الجزء الهام من بعضها يتعلق بأحداث وقته لذلك كان عمله يتطلب
منه الاطلاع على الوثائق والمعاهدات والمراسم التى صدرت إبان تلك
الحصبة ، وكذلك المراسلات التى وردت الى المملكة أو صدرت عنها
وكان عند هؤلاء الرجال الذين أتى له زياده الاتصال بهم ما يساعده
على أداء مهمته على أكمل وجه .



وشغل وليه وظيفة المستشار الملكى التى كان يشغلها قبله
« رالف » رئيس أساقفة بى لحم الذى كانت وفاته فى ابريل
١١٧٤ (٢٣) ، واد داك وقع الاحصار على مؤرخنا لحمل مكانه ، وأنه
ليقول فى ذلك « ولكى يكون هناك من يحل موضعه فى وظيفة
المراسلات الملكية ، فقد استجاب عمورى لمسورة ناروناه وعينى
فى هذا المكان وخلع على وظيفه المستشار » (٢٤) .



(٢٣) الكتاب ٢٠ ، ف ٣٠ و ٣١ .

(٢٤) الكتاب ٢١ ، ف ٥ .

مؤلفاته

لقد خللت وليم مؤلفاه الى فقد منها ما فقد وبقي منها ما بقى ، ولولا كتابه الحالى لما عرفناه الا واحدا من كبار رجال الدين لا نذكرهم الا حين نقرأ عنهم فى ثنايا الكتب ، أما هو فقد بقى اسمه على ألسنة طلاب الدراسات التاريخية لا سيما فى تاريخ الحروب الصليبية بفصل هذا الكتاب الذى نترجمه الآن الى العربية ، والذى رأى النور لأول مرة فى صورته الأصلية فى القرن السادس عشر أى بعد أكثر من ثلاثة قرون من وفاة مؤلفه .

ولقد نوفرت أدوات التأليف عند وليم من سعة اطلاعه على ما وصل الى يده من كتب نعلها اليوم المصدر الأول للحروب الصليبية خاصة باللغة اللاتينية وما يوفر لديه من الوثائق مما هباً له الفرصه لأن يكون بارزاً فى الكتابة التاريخية وحجة موفوا به فيما ألف . حتى لقد عدّه العالم رسماً « واحداً من أعظم مؤرخي العصور الوسطى » على الاطلاق (٢٥) . هذا الى جانب انقائه لكثير من اللغات الغربية والشرقية وفى مقدمتها اللاتينية وفرنسية العصور الوسطى واليونانية كذلك المامه باللغة العربية المأما ساعده على الاطلاع على بعض ما كتب فيها ، كما يذكر هو وكما سنسر اليه فى موضعه ، ولن نقول مع بعض القائلين بأنه كان عارفا بالعبرية والفارسية فذلك قول لا نستطيع أن نؤكد ، وزيادة على ذلك كله فقد كان

كبير النظر فى الآداب والمؤلفات القديمة لا سيما اللاتينية و على
كتابات كبار رجالها أمثال « أوفيد » و « شيشيرون » الذى يسميه
أحيانا بصاحبنا مما ساعد على أن يكون له فلم سيال ولغة
مطوعة وقدرة على التعبير فى غير عسر على ما يريد أن يوصله الى
قارئه .



والمعروف أن وليم وضع ثلاثة كتب تاريخية ذات سمه معيه ،
يعمل انسان منها عن حرب بالحروب الصليبية ، هذا اى جانب
كتاب آخر سجل فيه أعمال المجمع الكنسى المنعقد فى روما فى بهايه
سنة ١١٧٨ ، وحضره مؤرخنا على رأس وفد من كبار الأساقفه
والمطاربه ، الى حاسب ممثل لبطرك بيب المقدس الذى حال مرضه
اد ذاك بيه وبين حضوره هذا المجمع الذى يعبر أكبر المجمع الى
سهدتها المسيحية الغربيه ، وشارك وليم فيما دار فيه من مناقشات
حظيرة ، وقدم بفربرا عن وضع الكنيسة والدولة فى مملكة بيب
المقدس اللاتسيه ، وقال البعض من مؤرخى هذا المجمع - وهم صادقون
مما قالوا - ان المجمع أعجبوا بوليم وعرفوا فيه رجلا فقيها ، وحجه
فى الملة ، وملما بما ينبغي أن يلم به من يهتم بدراسة أحوال اللاتين
فى الشرق دينا ووضعها ، كما رأوا فيه محدثا لبقا ومجادلا يحسن
الجدل ويفهم معارضيه ان احتاج الموقف الى الافحام .

وعاد وليم من هذا المؤتمر الدينى وقد سبقته أخباره ، فسأله
رفاقه كما سأله رجال من البلاط البابوى والكنائس اللاتينية أن
يضع كتابا عن أعمال المجمع ، فنهض بما التمسوه منه ، وجمع فى
ذلك سفرا قبل انه أودع نسخة منه فى أرشيفات صور لكن
الباحثين فى تاريخه وأعماله أجمعوا على ضياع هذه النسخة للأسف،
كما ضاع اثنان من مؤلفاته الأخرى .

وعلى الرغم من عدم وجود نسخه من هذا التقرير في الأيدي
الا أن الأمر الذى لا يرمى اليه السك هو أن « بعض » جلسات
المؤتمر نصبت بعض ما فى تقرير ولیم ، والعكس صحيح ، خصوصا
وأن ولیم كان أحد مقررى المؤتمر (٢٦) .

★★★

إذا كان رفاى ولیم قد التمسوا منه وضع هذا التقرير الذى
صار كتابا من كتب تاريخ المجامع الكنسية فإن الفضل فيما ألفه من
كتب أخرى فى ميدان التاريخ يرجع الى الملك عمورى الذى كان
حريصا على أن يبقى اسمه حيا على السنة الملائمة من أهل عصره والأجبال
التي تليهم ، لذلك فإنه سأل صاحبا ولیم أن يضع كتابا عنه هو
ذاته حاكما لمملكة بنت المقدس اللاتينية ، وترك سبطم هذا الكتاب
لمؤرخا واثقا من أنه بفضل كفاءته والمعننه - سوف يطاع على الناس.
بكتاب يرضيه .

واسجباب ولم لرغبة الملك لما رأى فى تحقيق هذه الرغبة من
حفظ لتاريخ مملكه بيت المقدس فى قسره كان هو نفسه « ساهلها
وعرض لما قد يعوم به عمورى من حروب برفع رايه المسخه اذ كان
الأمل معودا على أن ينصر الملك على القوة الاسلامة ممثلة فى مصر
فتخلص له بسقوطها وحده السرى الاسلامى بأجمعه .

وأقبل ولم يخطط للكتاب الذى كلف بوضعه والذى سماه
« انجازات الملك عمورى » Gesta Amalrici regis ، ثم جاء يوم
بدا للملك أن يمهده لعهد بعرض شامل لتاريخ ملوك مملكة بيت.

(٢٦) أدین بالصل فى معظم هذه المعلومات الى مقدمه الترجمة الانجليزية لهذا
الكتاب الذى اشتمل الى جانب مادته التى كتبها ولم ما أضافه المرحمان من حواش
وتعليقات لو برحمت لكاتب وحدها كتابا كبيرا فى حد ذاته .

المقدس مند « جودفروى دى بويون » الذى رأى عاية معاهره أن يعال له حامى القبر المقدس فكان له وحده ما أراد ولم يشاركه فى هذا اللقب غيره ، اد نعت الذين جاءوا من بعده بالملوك حتى يسم لهم بطمس النظام الانطاعى على الصورة المعروف بها فى أوروبا العربيه .

صاح عمورى مؤرخه برأيه فيما سنكون عليه صوره الكتاب الذى يريده .

وفى رأينا أن عمورى كان يعتقد اعتقادا جازما - ويساركه وليم الى حد ما - بأن مصر لابد واقعة فى يده - بعد العهد أو قرب - وكن يرى أن فتحه اباه واسسلاه عليها سيكونان فقط اسقال كبرى فى تاريخ العوى الصليبيه وأنه يعادل فتح اللابن لبنت المقدس ان لم يرد عليه ، وبذلك تكمل حلقات الحصار حول العالم الاسلامى ، ولعله كان يرى أن استلاءه على مصر ييسر له الطريق الى مكة والمدينة ، ولعل هذا كان فى سريره الامر الصليبيى . « رينو دى شاتيون » الذى نعرفه المراجع الاسلاميه باسم « أرناط » ، والذى كانت نهايته وبأديه على يد صلاح الدين بعد قليل .

★★★

ونعرف أن شروع ولم فى وصح نارينخ الملك عمورى كان سه ١١٦٧ ، ونمئلت الخطوة الأولى منه فى اتصال مؤلفه بالقادة وكبار الشخصيات التى ساهمت فى الحملة على مصر ، وأما الخطوة الثانية فكانت جمعه كل ما يسر له أن يجمعه ممن صحبوا الحملة وشاهدوا أحداثها وكان لهم نصيب فيها ، ولم يقصر اهتمامه على الأحداث السياسيه والحربييه بل حاورها الى وصف الحكومه فى مصر والبلات الفاطمى وعرض لأولى الأمر من مخططى السياسه المصريه اد ذاك ، وبلاحظ أيضا أن نساط الاسكندريه الحجارى استلقت انتباهه .

على أنه اذا كان هذا الكتاب أصبح الآن فى عداد الكتب
المفقودة فلا بد أن بعضه لا سيما ما يتعلق بمصر وارد فى الأقسام
الأخيرة من تاريخه الكبير الذى توجد الآن ترجمته العربية بين يدي
فارئى هذه الصفحات •

★★★

ثم افرح عمورى على وليم أن يكتب تاريخا للمملكة منذ قيامها
على أيدي اللاتين ، وصادف هذا الاقتراح قبولاً عند المؤرخ ، وصفق
له قلبه اذ لبس أحب الى نفسه من تأليف كتاب عن القدس ، يحدد
اسمه هو ويسرف قدره ويكون تاريخاً لأحب بلد الى فؤاده •

وهكذا نلاحظ ما لعمورى من فضل على طلاب الساريح
والناظرين فيه حتى الآن اذ فكر فى أن يكون هناك كتاب عن
المملكة ، وأن يقوم بوصفه الرجل الذى رأى فيه الملك كل ما يحبه
اليه سمناً وخلقاً وديناً وكفاءة وقدرة تساعده على انجاز هذا العمل
الذى أدرك عمورى انه يجمع بين ثلاثة أمور كبرى ، أولها روعه
الموضوع اذ هو عن بيت المقدس ، وثانيها شأن عظمة عمورى ذاته ،
وثالثها دقة جامعته وليم •

على أن قبول وليم اقتراح مولاه كان معناه ارجاء ما شرع فيه
وما أنجزه منه عن عهد الملك عمورى ، كذلك كان لابد له من أن
ينصرف الى تدوين ما قبل هذا العهد جاعلاً نقطة الابتداء هى قيام
بطرس الناسك بالحج الى الأحرار المسيحية فى بيت المقدس ثم رجوعه
الى أوروبا حاثاً أمراءها وشعوبها والبابا أوبان الثانى لمساعدة مسيحيي
الشرق وارسال الحملات الى أرض فلسطين وبلاد الشام •

كان عمورى هو الدافع لوليم لكتابة كل ما كتب من كتب فى
التاريخ ، فقد اقترح عليه القيام بوضع تاريخ لعهد ثم زاد فطلب
اله أن يكتب له محلاً عن تاريخ ملوك المسرى ، ولكى يسر عليه

المهمة فقد روده بكتاب في هذا الموضوع لأسحق مسرى ، يعرف العربيه هو أوبوسوس سعيد بن بطريق اسعصر في العالم الاسلامي منذ ظهور النبي عليه الصلاه والسلام حتى السنة الخامسة من خلافة الراصي العباسي ، وهي سنة ٣٢٦ هـ (= ٩٣٧ م) (١) واستجاب وليم لطلب مولاه ووصح كتابه الذي سماه كما قال - أو قال من وقفوا عليه اذ ذاك - « بأعمال أمراء المسرى » "Gesta Orientalium Principum" ولنا أن سوهج أن جزءا كبيرا منه لم يكن سوى ترجمه لكتاب ابن بطريق ، وان لم يستطع الجزء بما نصمه كتاب وليم هذا لعدم وصول نسخة منه إلينا ٠٠٠ لكن ٠٠ أين يوجد هذا الكتاب الآن ١٩ ٠٠٠ ذلك ما لا نعرفه مما يدفعنا لاعتباره في عداد الكتب المفقودة بناء على خلو فهرس دور الكتب العامة من أية إشارة إليه أو الى صفحات يرجح أنها منه (٢٧)، هذا على الرغم من أن مقدمة الترجمة الأمريكية لتاريخ وليم نسير الى أن « ماتيو باري » ذكر في «مختصره التاريخي» وجود كتابي ولم : التاريخ الكبير وتاريخ أمراء المشرق في مكتبة سانت البانز التي حاو بها ما حاو بمعظم المكاتب الديرية في القرن السادس عشر ، وتمضي هذه الإشارة فنبين أن نسخة من تاريخه الكبير وحده - التي نترجمها الآن - هي التي قدر لها النجاة فانتقلت الى مكتبة المتحف البريطاني ولا تزال محفوظة به حتى اليوم ، أما مخطوطة أمراء المسرى فقد فقدت ولم يوقف لها على أثر حتى وما هذا .



(٢٧) ولم نشر ولم الى عنوان كتاب سعيد بن بطريق الذي هو التاريخ المصنوع عل التحقيق والمعروف بسلط الجوهر ، وكان في مكتبة الملك وهو الكتاب الذي نشره المستشرق الانجليزي « ادوارد بوكوك » في اكسفورد سنة ١٦٥٩ وارفقه بترجمة لاتينية ، كما طبع مرتين بعد ذلك بمرتين وصف قرن من الزمان في مطبعة الآباء السويجيين بروت الأولى منهما سنة ١٩٠٥ والثالثة سنة ١٩٠٩ .

تاريخه الكبير

على أنه بدأ للملك في سنة ١١٧٠ - أى قبل وفاته بأربع سنوات - أن يهدد لحكمه بكتاب يؤرخ للمملكة اللاتينية منذ بدء الدعوة الصليبية حتى مسهل حكمه سنة ١١٦٢ .

وان اسفراء ما جرى - وما بين أيدينا - ليفصح في حلاء عن أن هذا الافراح قد وقع موقع الرضا من نفس وليم الصورى لأنه رأى أنه حين يفرغ من هذا الكتاب فإنه يكون قد أرخ - كرجل دى أولا - لما يعتبره جهادا دينيا مسيحيا من وجهة نظره ، فیرصى بذلك مهوله ودراساته التى برأه مكانة كبيرة فى عالم الكنيسة فى القرن الثابى عسر ، كما أنه يكون قد أرخ لخمسة من حكام وملوك المملكة اللابسية فل عمورى (٢٨) ، كما يكون قد أرخ للنشباط الصليبيى بعد استقرار اللاتين فى الشرق ، وما كان بينهم وبين الجماعات المسحنة الأخرى من غير مذهبهم كالأرمن والسريان والبعاقبة والأرثوذكس ، ثم ما بس هؤلاء حمعا وبين المسلمین من صلات سلسة أحيانا وعنوانية أحيانا أخرى .

لذلك فل وليم ما افترحه عليه عمورى مما أسفر عن نألفه لتاريخه الكبير "Gesta Hierosolymitorum regus" الذى لم يقف به عند سنة ١١٦٢ (وهى بداية حكم عمورى) بل حاوذاها

(٢٨) وحى بهم حودفرى دى ترويون واى لم تلفظ مللك . ثم بولدوس الاول مالتانى ، ثم فولك داسجر فولدوين الثالث .

فسمّل كل عهده ، ثم طالّت حتى وقفت عند سنة ١١٨٤ ، أي بعد موت الملك بعسر سنوات تناول فيها حكم ولده بولموين الرابع

والواقع أنّه اعتد في المسم الأول الذي يمدّ حتى سنة ١١٢٧ على مصادر لادبينة عاصر أصحابها أحداث العرة من ١٠٩٥ حتى ذلك التاريخ ، ويمكن أن نقول انهم كانوا ثلاثة أو أربعة ، في مقدمهم من نسمه بالمؤرخ المجهول الذي كان من غير شك من أهل ايطاليا ، والذي رافق حملة بوهمند بن روبرت حسكراد وكان بوهمند هذا مؤسس أول اماراة صليبية هي انطاكية منتزعا اياها من أدنى المسلمين .

وقد نبعثرت أوراق كتاب هذا المؤرخ المجهول ولم يبق منها الا القليل الذي جمعه الباحثون وسموه باسم *Gesta Francorum Hierosolymitanorum* وقد ترجمناه الى العربية بعنوان « أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس » (٢٩) .

والى جانب هذا فقد نظر وليم فيما كتبه روبرت داجمل الذي ترجمه الدكتور حسين محمد عطية باسم « تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس » (٣٠) .

كذلك نرى وليم يعتمد على ما سبقه اليه فولسر دي ساردر ويعرف كتابه باسم *Fulcheri Carnotensis historia Hierosolymitana* (1095-1127) ، وهو آخر ما لدينا من تاريخ ساعد عمان لفترة

(٢٩) فيما يملأ مصاحف هذه المذكرات فانا نحيل القارئ الى ما ففناه عنه والى دراسنا لمذكراته في مقدمنا للرحمة العربية المشار اليها وقد شرناها دار الفكر العربي ، الطعة الثانية سنة ١٩٦٢ .

(٣٠) نشره دار المعرفة بالاسكندرية سنة ١٩٨٩ .

امتدت ما يقرب من ثلاث وثلاثين سنة تقريبا منذ أن حطب البابا
ايربان الثاني خطبه التاريخية المشهورة في كلير مونت بجنتوب
فرنسا فاشتعل نيران حروب استمرت عدة قرون .

ويتبين لنا - من سرد هؤلاء المؤلفين - ان المادة التي تضمنها
مذكراتهم أو أوراقهم وقعت عند سنة ١١٢٧ م ، وكان مادده وفبره
راح يقارن بعضها ببعض ، فما صح منها في نفسه أبعاه . وما أنكره
بحل عنه ولم يأخذ به .



ولعل السمة البارزة في كتابات ولم عن هذه الفترة بالذات
هي أخذة بوحية النظر الغربي في سرده وعلقه على الأحداث ،
وذلك راجع كما قلنا الى وجهة نظره في الأصول التي خلفها كتاب
مسيحون وقساوسة ورهبان صحبوا الجيوش الصليبية المتكررة على
اختلاف حنسيات زعمائها وقوادها ، ونرى هذا الطابع واضحا في
نقده المر للامبراطورية البيزنطية ولا سيما امبراطورها الكسوس
كومنن (٣٥) ، وهو نقد أميل للهجو المقذع أكثر فيه من نقدها
« بالحياة » حتى فضيل عليها المسلمين في بعض الأحيان وقد ترسبت
هذه النهمة القطعة في نفوس الأوربيين حلا بعد جيل لمدة قرن
من الزمان حتى انعرج في سنة ١٢٠٢ م فيما عرف بالحملة
الصليبية الرابعة التي توجهت الى القسطنطينية وأزالت امبراطوريتها

(٣٥) شيع هذا الى اعراسا نادى الله شر ترجمتنا العربية لكتاب « الكسياد »
للمؤرخة انا كومنن Anna Comnena بعد فراغنا من شر كتاب ولیم الصوري
هذا .

لعود - رعم آف الصليبيين العربيين - للوجود بعد ما يييف على
نصف قرن (٣٦) .

وقد غيرت هذه الحملة الصليبية الرابعة الميهوم الصليبي
وبدلت معالم الوضع عامة والخريطة الجغرافية لبلاد اليونان وحاولت
ببديل الساحية الديموجرافية بصورة ملحوظة .

كانت هذه فى الواقع هى صفه المرحلة الاولى من تاريخ ولم
الكبير أما المرحلة السابيه فنبداً من تكوين مملكه بيت المقدس
واستكمال البسه اللاتينية بأأسيس الرها وأطاكه وطراباس
كامارات لاتينية استبعدت كلها القاعدة الأساسية التى كان يجب أن
ترتكز عليها لتضمن بقاءها لأننا نراها أهملت تماماً أهل البلاد
الأصليين حتى من كان منهم مسيحياً ، اذ عدهم المحلون طبقه
ثانيه فى المجتمع الجديد وربما وضعوهم فى مرتبه أدنى من هذه
أيضاً فلم يسيطروا الهم الا كعملاء أو فعلة أو صناع . يبدلون الجهد
للتحقيق مأرب الساده الوافدين الذين لم يسمحوا لأهل هذه الطبقة
الثانية بأن يكون لهم رأى فى توجيه السياسة بل صيروها أورية
افط عنه ، وظلوا أهم فادرون بذلك على الاحتفاظ بها الى الأبد ،
ناسين أن هناك أجبالاً - من بين اللاتين - سنظهر على مر السنين
ويخدم فى نفسها الكراهية لأهل البلاد ، كما يملئ عليها الزمن
والطور أن تباعد الرابطة بينها وبين اللاتين ، على حين تزداد هذه
الرابطة بين هذه الأجيال وبين الأهالى الأصليين .

على أن وليم يشتر فى أكثر من موضع من تاريخه الكبير الى
اطلاعه على وثائق ومراجع عربية دون أن يذكر موضعها وسكت عن

(٣٦) انظر صبح القسطنطينية لروبرت كلارى ، ترجمة حسن حشى وشتر مكتبة
الشرق الأوسط ، وانظر أيضاً مذكرات فلهااردوان ترجمة حسن حشى ، وقد بشرته
جامعة الملك عبد العزيز بجلده سنة ١٤٠٥هـ .

سُميها كما هو شأنه في مراجعته بغير هذه اللفظة لا سيما اللابيينه .
وما بحسب هذه الوثائق الا أنها كانت موجودة في أرشيفات القصر
الملكي بالقدس وكذلك ربما اصنعان بما في مكتبة الملك عموري الى
لايد وأنها كانت حافلة - الى حد ما - بكتب عربية وقد أشار أحد
المؤرخين (٢٧) الى أن سفينه كانت تحمل فيما تحمل كتباً لأساعة
ابن منعد جرح قرب صور فاستولى عليها بولدوين الثالث وأضافها
الى مكتبة القصر .

★★★

أما الفترة الثالثة من كتابه فهي التي تميزت بظهور المنازعات
بين الصليبيين أنفسهم وبفكرهم تفكيراً بوسعيًا لم يقف عند حدود
بلاد الشام وشمال العراق بل جاوز هذه الحدود الى ما وراءها من
موى اسلامه صغره ، وبلغت هذه الفكرة دروبها عند الملك عموري
في تخطيطه لتوسيع رقعة مملكة بيت المقدس الى خارج حدودها
الحديثة حب مصر الفاطمية فالأيوبية بل ان بعض هؤلاء الأمراء
اللابين كانوا من المحاطرين الذين ذهب أحدهم مذهبا حاداً بعيداً
مطلع الى مكة والندبه .

وكان رجال هذه الفترة الثالثة يرون أن فتح القدس والاسلام
عليها سنة ١١٠١ هو الخطوة الأولى على طريق دعم الصليبيين في
السوق الاسلامي وأن هذا الفتح قد أدى مهمته وأنجز عاينه بالاستيلاء
على بعض الامارات في الشام ، وأن الخطوة الثانية لهذا الدعم
الصليبي هي فتح مصر ، وساروا في هذا الطريق خطوات عملية
ملحوظة في هجوم عموري أكثر من مرة على مصر ، وهو هجوم أطل

(٢٧) راجع: Hitti A Syrian Gentleman, p 61. حيث أشارت اليه
مقدمة الترجمة الانجليزية لكتاب ولم .

ولم فى عرضه وان عاد مة الغزاة مقلدى الأظفار ، مهوكى القوى ،
 وفدر لولم أن يشاهد أولبات هذا الانهاك ممسلا فى ظهور
 صلاح الدين الأيوبي بعد أن استقر فى مصر وحمل راية الجهاد التى
 ورثها عن نور (٣٨) الدين محمود بن زنكى صاحب حلب والموصل
 وتمرب هذه الأحداث بعكس ما كان يرحوه دعاة الغزو اذ أدب الى
 نفكك الهبكل الصلبي ، ولعد واكب وليم فى أحرىات أيامه هذه
 الفسة بل وكان فى ركب بولدوبس الرابع فى محاربته لصلاح ببلاد
 الشام ولم بعتة الاشارة الى ذلك كله مما يشكل الجزء الأكبر من
 الكنب السلاية الى ختم بها مؤلفه حى رحرب ما عداها ، مما يخیل
 الى قارئه أنه يكسب تاريخ مصر - من وجهة نظره - أكثر مما بكتب
 تاريخ القدس .

★★★

ان مباحة الكلام عن هذا التاريخ الكبير الذى سرجمه الآن الى
 العربية هى فى الوقت ذاته كلام عن سيرة مؤلفه الذى لو كان قد
 وقف فيه عند سنة ١١٧٤ الى مات فيها عمورى وهو فى الثامنة
 والثلاثين من عمره لما لاهه أحد ، اذ يكون بما كسه حتى ذلك العام
 قد أوفى بعهده للملك الراحل فى ادراج عهده عى هذا الكتاب
 التاريخى وألحقه بتاريخ المملكة منذ تأسيسها .

لكن كانت هناك ثلاثة أمور تحمله على متابعة الكتابة عن الملك
 الصعر أولها أنه هو ابن مولاة الراحل ، وثانها الوفاء لذكرى أبه ،
 وثالثها أنه هو نفسه كان ولا يزال معلم الملك الجديد ومثقفه ، وهكذا
 كان وليم يعيش فى جو يعبق بكل ما يذكره بعمورى ، وهل هناك

(٣٨) اطر حسن حشى . نور الدين والصلبيون او حركة الاقافة الاسلامة
 فى القرن السادس الهجرى .

أكثر من أن يكون ولده بولدوين الصبى قد حل مكانه يوم ١٥ يوليو
١١٧٤ (٣٩) .

وعاش وليم بعد موت عموري ليكنب عن بولدوين الرابع ثلاثة
أيام أو « كنب » كما يسميها (٢٠) ، ولا يحسب الناري أنه أطال
في الكتابة عن عهد تلميذه الملك ، بل لقد خالف كل ظن إذ أوجز
حين كان الاسهاب موفعا منه ، وكان ظن الدين لا يدرون شيئا عن
بواطن الأمور ولا يعرفون منها غير ظاهرها أن له دالة على بولدوين
لغيره منه ، وأنها سبج له فرصة أكبر مما قد سماح لغيره في الوقوف
على كل أسرار الدولة ، لكن الوضع الجديد في المملكة كان مهينا
الفرصة لعموم حاولوا جهدهم إبعاده عن الملك أو قرص رقابة عليه
حتى لا يبعد الى تكوين حزب موال لبولدوين يفسد بطاعات الطامعين
في الوصاية على الملك .

ورأى وليم سماء المملكة تتلبذ بالغيوم والعواصف السياسية .
كما حاله استعجال القوة المصرية استفحالا شجع أهل دمشق على أن
يسلموا بلدهم وما حوله الى صلاح الدين مما جعل المملكة بوشك أن
تقع بين سفي الرحى من الشمال والجنوب ، ورأى من الخير أن
يتسمل نفسه بالاهتمام بالأمور الكنسية والانصراف الى معاودة الاهتمام
بكتابة تاريخه الكبير وكان يجد بين هذا وذاك ساعات يعاود فيها
هوايه العذبة ، ونعى بها مطالعه كتب الراب القديم الغربي .

وقد أحس وليم بالحزن الشديد يسيطر عليه وزاد آله أن
يضجع أمه في أن يصبح بطركا لبيت المقدس في أعقاب وفاء بطركها

(٣٩) الكتاب ٢١ . الفصل الثاني .

(٤٠) هي الكتب ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ .

أمالريك فقد تمكن منافسه هرقل يوم ٦ أكتوبر ١١٨٠ من أن يسلبها منه بفصل الملكة الأم « أحنس » وحربها . ومما يطهر الله الشديدي لصياع أمله هذا أنه سكنت سكونا سبه مطبق عن ابداء رأيه في هذا الانتخاب لما برره في نفسه من آلام وأحزان فكل ما قاله في هذا الصدد « ٠٠٠ ماب أمالريك بطرك بيب المقدس بعد عشرين سنة من توليه بطركه القدس ، واد ذاك أخمر مكانه هرقل رئيس أساقفة قيصرية » (٤١) .



منهجه :

سار ولبيم على نهج القدامى في تقسيمه لمؤلفه هذا الى ما سماه ب « الكتب » الى هي في مصطلحننا اليوم «الفصول» أو «الأبواب» ، كما قسم كل كتاب الى ما سماه «بالفصول» ، وعنى بها «الفقرات» التي تضمنها هذا « الكتاب » .

وقسم ولبيم تاريخه الكبير هذا الى ثلاثة وعشرين « كتابا » تكاد تكون منساوية في الطول الا الآخر منها ، كما يبدو أنه خص كل ملك من ملوكها « بكتابين » لم يستثن من ذلك سوى « جودفروي » فقد أفرد له كتابا واحدا ، وطسعى أن يكون ما خصه به قاصرا على كتاب واحد لأن فترة حكمه لم تتجاوز سنة واحدة ولم يكن معدودا بين من تولوا حكم مملكة بيت المقدس وسمى كل واحد منهم بالملك ، اذ انفرد هو عنهم جميعا بلقب حامى القصر المقدس .

كذلك خص بولدوين الرابع بثلاثة كتب ، أما الفصول التي يشتمل عليها كل كتاب فكانت فقرات بسيطة قد لا تتجاوز الفصل

منها - حسب سميحه - صفحة واحدة فان راد كان صفحتين ، وكان كل كتاب يشمل على ما يقرب من ثلاثين « فصلا » الا الأخير فلم يشمل على أى فصل بل كان ملخصا شاملا برجم فيه عما يشعر به من احباط .



وقد مهد لذلك كله بمائية كتب قبل أن يبدأ بكتابه عن جودفروى أسار فى أولها الى ما أسماه بصحوة المسيحية لتخليص القدس وبين فيه نساط بطرس الناسك وطلائع الحملة الأولى غير النظامية ثم نسي سحجعات الصليبيين فى القسطنطينية بالاسنيلاء على بيقية والزحف على آسيا الصغرى ، فاذا كان الكتاب الرابع قد تناول احياح الصليبيين لسمال الشام وبده حصار أنطاكية التى استغرو حصارها عنده والاسنيلاء عليها الكتاب الخامس أما السادس فيتعلق بما لاقاه الصليبيون من حصار وانصارهم الذى مهد للاسحاق فى صفوفهم لولا أنهم تابعوا زحفهم الى بيت المقدس وهو ما استغرو بأجمعه الفصل السابع . أما الثامن فهو نهاية رحلة الحج والاسنيلاء على القدس ثم يلى ذلك ما كبه عن جودفروى فالملك بولدوين الأول ووسع المملكة فى عهده واتساع رقعة أنطاكية ثم بولدوين الثانى والاصطرابات فى شمال الشام وهذه استغرو منه أربعة كتب هى السابع والعاشر والحادى عشر والثانى عشر وهما ينهى الجزء الأول من هذا التاريخ كما رسمه ولم لبدأ الجزء الثانى «الاستيلاء على صور وامداد النفوذ الملكى على الامارات اللابنية أما الكتاب الذى لذلك وهو الرابع عشر فمن عهد فولك دانجو ويليه الخامس عشر عن محالوت الامبراطور البيزنطى حنا لبيسط نفوذه على الامارات الصليبية ثم يجرى عهد بولدوين الثالث والملكة الأم « ملريد » وحبر الحملة الصليبية الثانية ويرتبط بذلك مباشرة الاستيلاء على عسقلان وفصل الحملة المذكورة

حالا تم السطوع الى مصر وكل ذلك بضمه الكتب . السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر فاذا كان الكتابان السابع عشر والعشرون فهما امتداد لترجمة هذا التطلع الصليبي الى صراع مع مصر حول مصر ومحاولة عهد بحالف صليبي يينظي لفتحها وذلك في عهد الملك عموري ، ثم يبدأ الكتاب الحادي والعشرون ببولوين الرابع الأبرص وننازع المصالح الشخصية بين الجماعات الصليبية ثم ختام ذلك كله في الكتاب الثالث والعشرين وفيه نرى ولم ينسأل : أمن الممكن أن يتم انقاذ القدس على يد ريموند صاحب طرابلس ؟ وبدل هذا الاستفهام من جانبه على أنه كنبه في أثناء الصراع بين الأمراء الصليبيين في محاولة كل منهم السيطرة على بيت المقدس ، وكانت الأحوال لا سيما ظهور القوة المصرية الصلاحية يمثل خطرا على الصليبيين أدركه ولم وصرح به ثم أثبت سير الأحداث صحة توقعاته .

★★★

وبعد فهذا تعريف عاجل بولم الصوري وكتابه الذي كان الحافز لي على برحمه هو سامي تدرّس الحروب الصليبية في كلية الآداب (جامعة عين شمس) بعد عودتي من إنجلترا ، ثم شاعت الظروف أن أقوم بالمحاضرة في نفس المادة في قسمي الكالوريوس والدراسات العليا بكلية الآداب والعلوم الانسانية بجامعة الملك عبد العزيز بجدة ، واعتبرت هذا الكتاب - وهو وثيقة تاريخية معاصرة لبعض الأحداث والتجريدات الحربية على العالم الاسلامي - من متطلبات محاضراتي هناك ، ثم طرأت فكرة تقديمه للنشر بالكلية بجدة ، فرأى زميلي وصديقي الدكتور حمد محمد العرينان أن تكون « مذكرات فلهااردوان » عن الحرب الصليبية الرابعة هي ناكورة ما تنشره لجنة البحث العلمي بها ، وحظي الكتاب بموافقة المجلس العلمي للجامعة هناك .

وان كتاب رلسم الصوري هذا لهو واحد من مجمعة الكتب
والوثائق المتعلقة بیده الحروب والمکتوبة بأفلام معاصرین لها من غیر
العرب والمسلمین ، وحمدًا لله ان مکشی من نسر خمسة مصادر منها
حسب الآن ، وهی الطريق - ان شاء الله - اثنان ، أحدهما هو
« الاستیلاء علی دمیاط » لبادر بورن ، والآخر هو « ألكسییاد »
أر نارینخ الامراطور البزنطی ألكسیوس کومین بفلم أبسه
« أنا کومنی » .

ولقد اعتمد فی ترجمتی العربیة هذه علی السیخة الانجلیریة
الی اضطلع بترجمتها والعلیق علیها المؤرخان السیة اسمی اتوانز
بانکوک ، و أ کرای سنه ١٩٤٣ وهی فی مجلدين ضحین ، وقد
بصلت مکتبة جامعة القاهرة فأدنت لی بتصویرها .

ولقد عسیت من جانبی بالمحافظة علی مفهوم النص وروحه بقدر
الامکان ، مع مراعاة الجانب العربی من حب اللغة والأسلوب ، غیر
أننی أبحت لنفسی أن أستعمل لفظ « الصلیبین » فی مواضع خاصة
حين رأیت سباق الموضوع یطلب ذلك حی لا یخلط الأمر علی
العاری ، فلا یعرف أى الجماعات المسیحة بمصداها المؤلف .

أما ما أضفه الی الترجمة العربیة - وهو قليل - فقد وضعته
بین حاصرین علی هذه الصورة [٠٠٠] ، لكن حذقت من الترجمة
الربیة بضعة أسطر أملها علی المؤلف طبیعة العصر والاحداث
ومركزه الدینی ، وهی سطور قد تكون لحمتها العصب وسداها
الحمل بالاسلام وعدم إدراك کنهه ، ولم یؤد هذا الحذف الی فراغ فی
سباق الموضوع أو اختلال به .

وسصدر هذه الرحمة بأذن الله في أربعة أجزاء بدلاً من
اثنى كما في الانجليزية وأرحو من الله التوفيق والهداية •

القاهرة في :

د: حسن حبشي

الطبع من المحرم سنة ١٤١١ هـ

الحادي والثلاثين من يوليو ١٩٩٠ م

كلمة شكر

أرى لراما على أن أنعم بالسكّر الخالص للصدّيق الكريم
الأسّاد المذكور عبد العظم رمضان اد بفضل فجعل هذه الترجمة
من سلسله مطبوعات « تاريخ المصريين » التي يشرف على إصدارها .

كما أشكر الصديق العالم الأب جورج قنواى بدير الآباء
الدومنيكان بالعباسيه فقد أعاسى بكثير مما يعرفه هو وأجهله أنا من
أرسادات العهدين القديم والحديد وأدنى لى فى الرجوع الى مكتبه
الدر .

والله فى عسمى لمكسه جامعه القاهرة اد أدنى لى بصـ
الرحمه الانجليزية كامله وبذلك يسرب لى العكوف على نفسه الى
العربية أنى كتب ، وشكرا للقوامين على مكاتب جامعات القاهرة
واسكندريه وعين سمس والملك عبد العزيز بجده ، ولزملائى وتلاميذى
وأصدقائى فى مصر والخارج ، وللميذى القديم نركمى هزاع
الركامى من السعوديه فقد طالع معى مخطوطه هذه الترجمة
وبفضل مسعها ثم كتابتها على الآلة الكاسه .

ج.ح

الحروب الصليبية

(١٠٩٤ - ١١٨٤)

التمهيد

من وليم - الذى لولا رحمة الرب ما استحق ان
يكون خادما للكنيسة المقدسة فى صور - الى الاخوة
المسيحيين الموقرين الذين قد يصلهم هذا الكتاب
لكم الخلاص الأبدى من أجل السيد .

لا يشك اسنان عادل فى أن تدوين أعمال الملوك مهمة محفوفة
بالصعاب والمخاطر ، وإذا نحينا جانبا ذكر الجهد الذى لا يسهى
والماناة التى لا تنقضى ، وما يتطلبه عمل من هذا النوع من النحل
بالبفظة الدائمة ، فإن هوة سحيقة تفتح فاما أمام كاتب التاريخ
الذى يلقي المشقة العظمى فى محاولته نجنب هذا الأمر أو ذاك ،
ذلك لأنه فى الوقت الذى يحاول فيه النجاة من « خاربيديس » ،
فالأرجح أنه سوف يقع فى براثن « سكيلا » التى تعرف كيف يدمره
الدمار الشامل وهى محاطة بكلابها ، ذلك لأن الكاتب اما أن يؤح
غضب الكثيرين ضده وأثناء جريه وراء حقيقة ما وقع ، واما أن يلتزم
الصمت ازاء مسيرة الأحداث أملا منه فى أن يقلل ما أمكن من

الامعاص منه ، حتى يبدو بلا أخطاء ، وذلك لأن نعهد مجاوزة الصدق
واخفاء الحقائق عن قصد يعبر أمرا مخالفا تمام المخالفة للواجب
الملقى على عاتق المؤرخ ، ومما لا شك فيه أن فصل الفرد فى أداء
الواجب المفروض عليه انما هو خطأ ، اذا كان مفهوم الواجب فى
الواقع هو « مطابقة سلوك كل فرد لما يفتق وعادات بلده ونظمه » .

ومن ناحية أخرى فان أخرى وراء سلسلة من الأحداث دون
ادخال تعبير عليها أو تحريها عن محبة الصدق انما هو مسلك ينير
الغضب على الدوام ، اذ يقول الملل القديم « ان النفاضى عن الحق
يكسب المرء الأصدقاء ، أما التصريح به فبورث الكراهية » وينرتب
على ذلك أمران :

اما أن يتراخى المؤرخون فى أداء الواجب الذى تقتضيه مهمتهم
فيبالغون فى اظهار النوقير الذى يجاوز كل حد ، واما أنهم فى بحهم
الجاد عن حقيقة مسألة من المسائل يجلبون على أنفسهم الكراهية
الى نجم عن قول الصدق ، ومن ثم فان السائد هو أن من سمة
هذين السبيلين أن يخالف كل منهما الآخر ، وأن يصبح مصدر
بعب لما يعرضه من مسلمات لا ماص منها .

لقد قال كاتبنا شيشيرون « لئن كان الحق مضميا لما ينجم عنه
فى الواقع من كراهة مطبوعة للصدى فان الاسنسلام أشد رزية » ،
وذلك لأن تعامل المرء بلين مع الصديق يحمله على الاندفاع فى
التهور المؤدى للخراب « وهذا احساس ينعكس على المرء الذى يجوز
على مقتضيات الواجب فيكتم الحقائق الثابتة رجاء أن يكون أريحا .

ان الكتاب الذين ندفعهم الرغبة فى المداهنة الى أن يئضمّنوا
عن قصد فى ثايا مؤلفاتهم التاريخية ما ليس بحق انما يسلكون
مسلكا شائنا ، والأحرى أن لا يدرجوا فى عداد المؤرخين ، واذا كان

اخفاء الحقائق النابتة المتعلقة بأمر من الأمور يعتبر أمرا شبيها بإفصاح
مهمة الكاتب أمام المافضة ، فالأند ساعه مه هو أن يحلط الحق
بما ليس بحق ، فيقدم للأجيال القادمة التي نعتقد فيها قول الحق
ما هو كذب صراح على أنه حقيقة ثابتة .

وزياده على هذه المحاطر فان كاتب التاريخ كثيرا ما يقابل
مثل هذه الصعوبة - بل وما هو أشد منها - مما يحتم عليه أن يبدل
قصارى جهده لتجيبها بقدر الامكان ، وأعني بذلك أن كرامة الأحداث
التاريخية الشامخة قد تنهار بسبب ضعف العرض ونقصان البلاغة ،
لذلك ينبغي أن يكون أسلوب الكاتب في عرضه للأحداث على نفس
المستوى العالي للأخبار التي يروها ، ولا يسعى أن تكون له الكاتب
وطريقة عرضه للموضوع دون المستوى الرائع الذي يجب أن يشمر
للموضوع ، ومن ثم فإن أكبر ما يخساره المرء هو أن يؤدي العرض
السقيم الى افساد عظمة الفكرة ، فتبدو الأعمال الجوهرية وكأنها
نافية عديمة القيمة بسبب الضعف الذي يعتور سردها ، وقدما
لاحظ الخطيب المصقع (شيسرون) في القسم الأول من كتابه
« الحوار التوسكاني » أن تدوين المرء لأفكاره - بدون أن تكون عنده
القدرة على حسن ترتيبها أو إبرازها في جلاء تام ، أو جعلها شقة
تجذب القارئ اليها إنما هو عمل رجل يسعى الى الأدب بجهالة وبدد
وقته هباء » .

★★★

ويبدو أننا في كتابنا الحالي هذا قد وقعنا في محاذير متعددة
وسببها حمة ، ذلك لأن سرد الأحداث يطلب منا أن ندرج في هذه
الدراسة التي نعوم بكتابتها الآن كثيرا من التفاصيل عن أخلاق الملوك
الشخصية وحياتهم وطباعهم الذاتية ، غير ملقين بالا عما اذا كانت
هذه الحقائق حيوية في حد ذاتها ، أم أنها خليقة بالنقد الذي

تستحقه ، ومن المحتمل أن نجد الأجيال التالية لهؤلاء الملوك - حين مابصهم هذا الكتاب - صعوبة في قبول ما احبواه بين دفتيه ، أو فد نقصب هذه الأجيال من المؤلف غصبا لا يستحقه • وحيداًك سوف يعبروه أحد رجلين : اما أنه كذاب أشمر ، أو حاسد كفور •

ويعلم الله أننا بذلنا جهدنا كي سجنب النهمين نجنب المرء للطاعون •

أما ما سوى ذلك فما لا شك فيه أنه كان اندفاعاً منا أن نحاول القيام بعمل هو فرو طافسا • كاتب فيه لعنا لا مرفى بحال من الأحوال الى روعة الموضوع وحلالة قدره ، ومع ذلك فقد نسنى لما أن نجز شيئاً ما ، شأننا في ذلك شأن الذين لا دراية لهم بالرسم ولم يقموا على أسرار هذا الفن حين يسمح لهم في العادة برسم الخطوط الأولى لمصوره ما فيضعون الألوان غير المناسبة ، ثم بجىء بعد ذلك يد الفنان الصانع العارف بالألوان فيضيف لمسات جمالية أحسن من هذه اللمسات ، ولذلك فنحن - مع شدة تمسكنا بالصدق الذى لم يحد عنه قط - فد قمنا بمحاولات كبيرة لوضع الأسس التى يمكن للباني الذى يبرزنا بمقدوته الرائعة - أن يقيم عليها صرحاً متكاملًا •

وربما كان الأحدى أن أنوذ بالصمت بسبب القصور الخطير والعثرات الجمة التى تنتظر هذا المجهود ، وكان الأخرى بى أن أصمب وأرغم فلمى على الكف عن الكتابة ، غير أن ما تملكنى من حب دائم لوطنى قد دفعتنى لولوج هذا السبيل ، اذ كانت احباجات الوقت تتطلب رجلاً مطبوعاً على الاخلاص ، مستعداً لبذل حياته فى هذا السبيل •

وأعود فأكرر أنه من حق الوطن ألا تظل تلك الأعمال التى أنجزها هذا الوطن مطبورة فى زوايا الجهل وطيات الاهمال على مدى

قرن من الزمان ، وأن يسمح للسيان أن يسحب عليها ذبوله من غير حق بل ان هذا الوطن بأمرى بعكس ذلك اد يأمرنى بالحفاظ عليها عن طريق قلمى من أجل نفع الأجيال القادمة .

لذلك فقد استنجبت لارادته ، وشرعت فى مهمه يابى الشرف التحي عنها ، ونهضت غير عابىء بعد الأجيال الناليه ، ولا مكثرت بأى حكم بحكم به على أسلوبى الصعيف فى معرض تناول مثل هذا الموضوع الجليل .

وليس من شك فى أننى لبيت بقاء الوطن بنفس الحماسة التى بذلها هذا الوطن ، عسى أن يكون العمل جديرا بالثناء الذى يتفق مع الاخلاص .

لقد انجذبنا بروعة تراب وطننا ، ولم نعبأ بضالة امكانياتنا ، ولا الجهد الذى يبذل ، من غير اتكال على مساعدة ما ، ولكننا فمنا بهذا العمل مدفوعين بالود الصادق والحب الخالص .

يضاف الى هذه الحوافز ما أمر به الملك عمورى الأول فدىس الله روحه وصاحب السجل الباهر فى الجهاد من أجل السيد .

ولقد حفزنى هذا الأمر - وأسباب هامة أخرى - على أن آخذ على عاتقى القيام بهذا العمل ، أضف الى ذلك أننى فمت بوضع تاريخ آخر غير هذا التاريخ استجابة لأمر الملك الذى أمدنى بالوائى العربية الضرورية ، وكان المصدر الرئيسى الذى اتخذناه لذلك هو استعمالنا كتاب تاريخ بطرك اسكندرية الموقر سعيد بن البطريق الذى يبدأ من زمن [النبى] محمد [صلعم] متضمنا أحداث خمسمائة وسبعين سنة ، أى حتى عامنا الحالى هذا الذى هو عام ١١٨٤ من مولد المسيح ، ومع ذلك فليس بين أيدينا لهذا الكتاب الحالى مصادر مكتوبة سواء فى اليونانية أو العربية للاسترشاد بها .

واسما كان اعتمادا على الرواية السفهيه وحدها ، الا فى ايراد دليل من الاحداث التى ساهداها بنفسها ، وسبعما سير الحوادث ، فيبدأ الكتاب بسفر أولئك الرجال والرعاء المصاوير الذين أحبههم الله فخرجوا استنجابه لبدء السيد من ممالك الغرب ، واسنولوا - بيد فويه - على أرض الميعاد ومعظم بلاد السام ، ولقد نايصنا بإخلاص عظيم البارخ ابدء من هذه النقطة لغتره تجاوزت أربعة وثمانين عاما ، انتهت بعهد بلدوين الرابع - وهو السابع فى ثبت الملوك ، اذا أدرجنا معهم لورد جودفروى الذى كان أول حاكم هناك ، ورغبه منا فى أن يرداد ويكمل علم أى راغب فى مزيد من التفاصيل. بأحوال البلاد السرمه بعد وصعنا أولا - فى ايجار واحصار - مى كان احلال هذه البلاد وكم كانت المأسى التى نحلتها كثيرة ، كما المما أيضا بوصف حال المؤمنين من أهل تلك الحبة الوسطى الذين كانوا يعيشون بين مارقى هذه الأرض .

ثم ذكرنا كيف نهض أمراء ممالك الغرب لتحيل مسئولية الحج بهدف تحرير احوانهم بعد طول الأسر الذى عانوه .

★★★

فادا قدر العارى المهام المعددة المتباينة التى تقع على كاهلنا فإنه سوف يكون على يقين من أننا قد قاسينا مشقة كبرى ازاء نوع هذه المهام ، التى كان أولها المسئولية الضخمة المتعلقة بأمور نتصل بأسقفية صور الشهيرة الداخلة تحت حماية الرب ، والتى تم اختارنا لنوليها ، لا لميزة خصصنا بها دون سوانا ، ولكن فضلا من الله وحده .

وأما ثانيها فقد وكل الى القيام بأعمال خاصة بجلالة الملك حيث نيطت بى - فى قصره الشريف - وظيفة المستشار ، هذا بالإضافة الى ما كان هناك بين آونة وأخرى من شتى الأمور التى تتطلب

اهتمامنا ، فاذا أخذ القارئ هذه الأمور بعين الاعتبار فانه سوف يكون أكثر تسامحا معنا ان هو وجد في الكتاب الذى هو الآن بين يديه شيئا لا يعيله ، ذلك لأنه حين يكون المرء مسعولا بمساعل مביاية فانه من المستحيل على الذاكرة أن تنسب على الوجه الأكمل ، كما يشق عليها أن تولى كل موضوع ما هو ممين به من العناية ، كما أنه من المستحيل على الانسان أن يصرف عنايته الكلبة الى شئى المواضع ، وأن يوزع اهتمامه عليها جميعا ، ثم يطلب منه أن يكون له من النشاط الذهني مثل الذى يفرض أن يكون له لو أنه كان قد صرف همه الى أمر واحد فقط •

ومن ثم فان المرء اراء هذه الطروف يكون أهلا لتسامح أكبر •
ان هذا العمل فى مجموعه يحتوى على ثلاثة وعشرين كتابا ، ويفسّم كل منها الى عدد معين من الفصول حتى ييسر للقارئ أن يجد ما ييحب عنه فى الأجزاء المختلفة من الرواية وانى أعتمزم – ان مدت لى الحياة – أن أضيف من وقت لآخر الى ما كتب أحداثا وفسنا التى قد تتمخض عنها نظورات المستقبل وأن أزيد عدد الكتب بفرد ما يسمح به الموضوع •



واننى أعتقد ولست مخطئا فى هذا الاعتقاد – أن هذا الكتاب يقدم بنة واضحة عن تجربتنا ، كما أننا وقد كتبناه استجابة لتجربتنا – قد أمطنا اللثام عن سلبيات كان لابد لها أن تظل مخفية لو أننا لذنا بالصمت ، غير أننا نؤثر أن لا نجد ما يزدهينا على أن نكون فى حاجة الى ما يهلب النفس (١) •

(١) أشار وليم فى النص الى قصة لا يدرك معناها الا من يعرا لإصحاح
الثانى والعشرين من اجبل متى (١ - ١٢) من أن ملكا صنع عرسا لابنه وأرسل =

وأدعو الرب القسادر وحده على كل ذلك أن يكملنا برحمته
فلا يحى بنا هذا المصير ، كما نعرف معرفة تامة أن للخطأ فى العادة
الاعطاء كبره « وأن يخفى المعص فسفاه كادبان ومسيح المذمة
جاهل وكثرة الكلام لا نخلو من معصية » .

ومن ثم فاننا بروح من المحبة الأخوية ندعو مطالع هذا الكتاب
فى الله ، اذا وجد ما يستحق النقد ألا يتردد فى نبياه فى رحمة
صادقة وأن يعرف ما اعوج منا فيكسب لنفسه نعمة الحياه الأبدية .

كذلك نرجو مطالع هذا الكتاب أن يذكرنا فى صلواته فكسب
عطف الرب علينا ، فان وصفا فى ثايا هذا الكتاب فى خطأ فنرجوه
ألا يتمنى لنا الموت ، عسى أن يفضّل مخلص العالم – بفضل طيبته
الوفيرة ورحمته التى لا تفشل أبدا فيتغمدنا بغفرانه ، ذلك لاننا
نحن التعمساء والخدم الذين لا جدوى منهم فى بيته مخطئون كل
الخطأ أمام ضميرنا ، ونحنى يوم الدنونة خسة عظمى .

هنا ينتهى التمهيد

= عبيده ليدعوا للدعوى الى العرس فلم يريدوا ان يأتوا . فأرسل غيرهم الى آخرين
يدعوه للوليمة « لكنهم نهأوا » فقد مضى منهم الى حقلة من مضى ، والى بحاربه
من كان يتاجر ، أما الذين بقوا فقد « أمسكوا عبيده وشتموه وقتلوه » ، فلما
سمع الملك غضب وأرسل حوذه وأهلك أولئك القاتلين ، وأحرق مدينتهم ، ثم
قال لصبيده « أما العرس فمستحق ، وأما المدعوى فلم يكونوا مستحقين » ثم
أرسلهم أمرا اياهم ليدعوا كل من وحدوه الى العرس ، فجمعوا له « كل من
وحدهم » . أشرازا وصالحين ، فامتلا العرس من المتكئين ، فلما دخل الملك ليعمل
راى هناك اسنانا لم يكن لاسنا لاس العرس فقال له « يا صاحبي كيف
دخلت الى هنا وليس عليك لباس العرس ؟ » ، ثم يكمل ولهم الصورة بالاشارة الى
ما جاء فى الاصحاح العاشر من سفر الأمثال (١٩) فى « أن من يحيى العصاة فسفاه
كاذبان ، ومسيح المذمة جاهل وكثره الكلام لا تخلو من معصية » . كما جاء فى
المزمور . وقد ساق ولهم هذا كله فى استشهاد قصير ليبرر موقفه ، وكان قصير
الاستشهاد حاملا ايانا على هذه الحاشية فى هذه الترجمة العربية .

الكتاب الأول

المسيحية تهب لاستخلاص بيت المقدس ، وبطرس
الناسك يبدأ في الزحف مع جماعات أخرى •

فصول الكتاب الأول :

- ١ - ذكر قيام عمر بن الخطاب ثاني خلفاء محمد
(صلعم) بالاستيلاء على بيت المقدس زمن
الامبراطور هرقل •
- ٢ - الظروف التي مكنت عمر بن الخطاب من
الاستيلاء على الشرق ولم تكن في الحسبان ،
وكيف أنه لما جاء الى بيت المقدس أمر باعادة بناء
هيكل السيد •
- ٣ - كيف نحملت سورية طويلا أسر الرق تحت
حكم الولاة المختلفين ، وكيف أحلت صداقة
الامبراطور شارلمان العظيم مع هرون الرشيد ملك

فارسي(*) على المسيحيين الذين كانوا يعيشون في
كنف المسلمين .

٤ - كيف انتعلب المدينة المقدسة الى نفوذ خليفة
مصر ، وكيف أن نير عبودية المؤمنين صار غير
محتمل زمن الخليفة الحاكم [بأمر الله] ، كذلك
ما يتعلق بهدم كنيسة القيامة بالقدس .

٥ - عرض للطروف التي كانت سائدة حينذاك بين
الصادقين الذين كانوا يعيشون بين غير المتألهين .

٦ - الخليفة الطاهر يخلف أباه الكريه كحاكم لمملكة
مصر ويعيد تشييد الكنيسة بناء على النحاس
رومانوس امبراطور القسطنطينية وبجهود
« جون كارينان » و « قسطنطين مونوماخوس »
ويمدهما بالمواد اللازمة .

٧ - العول في أصل الجبس الركي وباريخه القديم .

٨ - ذكر أنواع الأحوال الكبيرة التي خضع لها العالم
يومذاك .

٩ - كيف تمكن الفرس من احتلال كل البلاد .

١٠ - ذكر ذهاب كل جيوش المؤمنين معا الى المدينة
المقدسة ، وما لقيته من المعاملة داخل القدس
وخارجها ، وكيف وقعت المدينة مرة ثانية في
أيدي الترك .

- ١١ - ذكر مجيء رحل الرب بطرس الناسك واللقاء
بينه وبين سمون الموقر بطرك بيب المقدس .
- ١٢ - الوحي الذي جاء لبطرس الناسك هذا في كبسة
القيامة المباركة .
- ١٣ - السفاني بين الامبراطور هنري والبابا جريجورى
السابع ، وكيف كان استقبال اربان الثانى
- خليفة جريجورى - لبطرس العائد من القدس
استقبالا كريما .
- ١٤ - مجيء البابا اربان الى مناطق ما وراء الجبال وعقده
المؤتمر فى كلرمونت .
- ١٥ - عظة البابا [ايربان الثانى] للناس بشأن الحج
الى بيت المقدس .
- ١٦ - الزعماء الذين خرجوا للحج وكانوا حاضري
الاجتماع ، وذكر علامة الصليب التي وضعها من
أزعموا السر - على ملابسهم - رمزا لايمانهم
وحجهم المقبل .
- ١٧ - أسماء أمراء مملكتى الفرنجة والتبوتون الذين
قاموا بالحج .
- ١٨ - وولتر المفلس يصل الى القسطنطينة .
- ١٩ - مجيء بطرس الناسك بعددثه ، ومعرفة -
أثناء اجتيازه المجر - بخيانة أهلها .
- ٢٠ - نشوب شغب خطير بين الحجاج والبلغار فى
« تيش » احدى مدن بلغاريا .

٢١ - بطرس الباسك يسندعى قوائمه الهاربة ويحاول الوصول من جديد الى نفاهم سلمى مع البلغار ، ولكن يحدث شعب جديد - أنكى من سالفه - ويفرق كتاب بطرس .

٢٢ - بطرس يجمع سرادم جيشه المهروم ويمضى الى القسطنطينية ، ثم يعبر البسفور ويعسكر فى سسسا .

٢٣ - جيش بطرس يستولى فى غيابه على الماشية من الاقليم الواقع حول مدينة نيفبة ويحتل احدى القلاع القريبة منها .

٢٤ - فلج أرسلان - أحد أمراء الترك - يسرد المكان المذكور آنفا ويقتل بالسيف كل من وجده فيه .

٢٥ - الجيش الصليبي يحرك بكافة عساكره ضد فلج أرسلان لقتله اخوانهم التنوون ، ولكنه يلقى الهزيمة وهو يحاربه .

٢٦ - فلج أرسلان المنصر على شعبيا يدمر المعسكر ويأخذ من وجده فيه ما بين قنبل وأسير ، ثم يمضى لمحاصرة مدينة سفصوت ، غير أنه يرنده على أعقابيه حين يسمح برسالة الامبراطور .

٢٧ - القسيس البيرونى حوتسوك يصل الى المجر وهو يقود جيشا ثانيا ولا يردد فى ارتكاب أعمال فاضحة فى حق المجريين يمف اللسان عن روايتها .

٢٨ - رساله ملك المجر الى المدعو جوتشوك وجيشه والقضاء على هذا الجيش قضاء مبرما .

٢٩ - كف أن حمصا كبيرا من العوم المقننين الذين
خرجوا في أعقاب الجماعات الأولى راحوا يفلون
اليهود ويسرون في غير نظام .

٣٠ - فلعة فيزنبرج ومصرع سبعمائة محرى ، ثم
بيان كيف هلكوا أخيرا بأرادة الهية وفتلوا جميعا
تقريبا على يد العدو .

هنا يبدأ الكتاب الأول

المسيحية تهب لاستخلاص بيت
المقدس وبطرس الناسك يبدأ
الزحف مع جماعات أخرى

- ١ -

تذهب التواريخ القديمة والرواية السرفية للقول بأنه فى زمن
الامبراطور الرومانى هرقل بدأت بعالم محمد [صلعم] تبيت
أقدامها سبيتا فويا فى السرف .

ولما عاد هرقل من فارس متوجا بأكاليل النصر عاد أيضا
بصليب المسيح ، وأقام فترة من الزمن فى بلاد النمام رسم خلالها
« موديسنوس » المبجل أسقفا لمدينة القدس التى كان خسرو - كسرى
فارس الطاغية - قد خرب كنائسها ، فعهد الامبراطور الى
« موديسنوس » هذا باعادة ترميمها ، آخذا العهد على نفسه أن ينفق
من ماله الخاص كل ما يتكلفه هذا الترميم .

فى هذا الوقت بالذات كان عمر بن الخطاب - ثانى خلفاء محمد
[صلعم] فى مملكته وملنه - قد اسولى على عزمه - احدى مدن فلسطين
الشهيرة - بجيش لجب من العرب لا يحصيه العد ، ثم ما لبث أن

يمكن بما يحب يده ، من الكائنات والحسود التي جمعها آتاء زحفه
 أن يفسح بلاد الدماشقة ويستولى على دمشق ، كل ذلك والامبراطور
 هرقل في فيليقية « لا يعمل شيئا سوى مراقبة الأحداث في بطورها ،
 فلما جاء الخبر بأن العرب قد دفعهم أعدادهم الكبير بجموعهم
 الضخمة الى عرو الأراضى الرومانية ولم يترددوا في ضم مدنها لهم
 أدرك أن دونه ليست كافية لصد مثل هذا الجبش وقمع غلوائه ،
 فأثر السلامة بالرجوع الى بلده ، بدلا من أن يقاتل فواب لا تكافئها
 فوائه ، وألا يفاخر صدها في حرب لا يعرف ما سمحى عنه ، وكان
 الأهالى المغلوبون لا يطعمون الا في حمايته اياهم ، لكنه غادرهم
 فازداد بأس العرب شدة مما ساعدتهم في رمس وجير على الاسيلاء
 على جميع البلاد الممندة من اللادقية بالنسام حتى مصر .

ولقد شرحنا في كتاب آخر ، وفي دقة بالغة ، ما كان من شأن
 محمد [صلعم] ومضى كان طهوره ، كما ألمنا بالأحداث التي اسبغ
 الى أن يعلن أنه النبی المرسل من الله ، كما وصفنا هناك أسلوب
 حياته ودعوته والأراضى التي بسط عليها سلطانه ، وكم عاش من
 السنين وذكرنا حلفاءه وكيف اتبعوا طريعه في نشر هذه المبادئ
 في أرجاء الدنيا .

- ٢ -

لقد كانت هناك ظروف خاصة سهلت فتح الشرق ، ذلك أنه
 قبل سنوات قلائل من هذا الفتح فام خسرو - الذي أشرنا اليه حالا -
 بغزو بلاد الشام بالسيف ، فدمر المدن ، وأحرق ما حولها من البقاع ،
 وهدم الكنائس ، وزج بالناس في السجون ، ثم استولى على المدينة

المقدسة ، وقبل يحد السيف منه ويلابى العا من احديها ، ثم
رجع الى فارس حاملا معه الصليب الأعظم ، هذا الى جانب استصحابه
ايضا « رثيا » سيف باب المقدس اسرا وكذلك من بهى على قد
الحية من سكانها ومن اهالى السواحى المجورة .

كان هذا الحاكم الفارسى الجبار قد تزوج من ماريه احدى
بنات الامبراطور [البيزنطى] موريس الذى كاتب بربطه روابط
الصداقة القوية بالبابا المبارك جريجورى [العظيم] الذى عمد أحد
أطفال الامبراطور عند حوض المعمودية ، كما أن خسروا عمد هو
الأخر ارضاء لحاطر روحه وظل محافظا على ما ببسه ويزن الروم
من العلاقات الودية طيله حياه موريس الذى مات فحلله على العرس
العيسر فوكاس بعد أن غدر بموريس فاعتاله ، واد ذاك أعار الملك
حسرو على الامبراطوره ورحف عليها بجنس حرب الاراضى السابعة
لها ، وذلك بسبب تعززه من خيانه أولئك الذين ارضوا أن يولوا
أمورهم رجلا دينيا قد لطخت يده بدم مولاة ، فعدمهم خسرو شركاء
لعوكاس فى اتفاق سرى واعبرهم حللاء فى الجرم داه ، كما أن
زوجه ماريه راحب هى الأخرى يزيد ما بصدرة من غضب من أجل
النار لأبيها ، فلما فرغ كسرى من فتح بقية الأراضى التى كاتب يحب
الحكم الرومانى كانت بلاد النمام هى آخر ما استولى عليه كما فلنا ،
فقتل من أهلها من قتل ؛ وأسر منهم من أسر وساقهم معه الى فارس .

لذلك لما دخل العرب بلاد [النمام] وجدوها خالصة قد غادرها
أهلها ، فبادروا لاغنام العرصنة التى لم يكونوا سوفوعوها
لبسط سلطانهم ، وفرضوا نفس المصير على مدينة القدس الحبيبة
الى الرب وان متوا بالجباة على سكانها القلائل ممن لا زالوا مقيمين
بها عساهم يفعونهم فى جمع الجزية التى فرضوها عليهم ، غير أنهم
سمحوا للمفلولين أن يعملوا ترميم ما دمر من الكنائس وأداء

سعائهم الدينية ، كما أبقوا لهم أسقفهم ، وأذنوا لهم بممارسته
الديانة المسيحية بلا قيد .



وفي أثناء إقامة عمر [بن الخطاب] ببيت المقدس راح يستقصي
في دفة عن موضع هيكل (١) السد ويسأل عنه الأهالي لا سيما
الأسقف الموفر « سفرونوس » حليعه « موديسسوس » الطيب
الذكر ، ويقال ان الأمير الروماني « تبتس » هو الذي دمر هذا
الهكل أثناء تخريبه المدينة ذاتها ، فدل القوم [عمر] على موضعه
وأشاروا الى ما سقى من أطلال ضئيلة نشير الى هذا الأثر القديم ،
واذ ذاك أمر [عمر] باعادة بنائه ، ورصد قدرا كبيرا من المال
للفقة على ذلك الغرض ، كما حلب لبائيه العمال ، وحمل اليه
- عن طيب خاطر - شتى مواد البناء اللازمة له من الرخام والحشب ،
فما لبث الهيكل أن كمل فى زمن قصير ، واستوى على الصورة التى
رسمها عمر له فى ذهنه ، والنبي يراها اليوم زائر القدس .

ثم أوقف [الخليفة] على الهيكل كثيرا من الأملاك الفسيحة
الغنية التى كان دخلها كافيا للحفاظ عليه سليما ، وللصرف على
تجديد أجزائه القديمة ، وزوده بمصاييح لا نطفى أنوارها أبدا
بفصل أولئك الذين يقومون بالخدمة فيه .

لكن لما كان كل واحد يعرف تمام المعرفة شكل هذا البناء
وفاسة صنعه فإن تفصيل ذلك ليس من شأن هذا الكتاب الحال .

على أنه توجد داخل هذا البناء وخارجه آثار قديمة قيمة ،
ونقوش عربية محلاة بالسيفساء التى يعتقد أنها راجعة الى هذا
العهد ، وهى توضح اسم بانيه ، وما أنفق عليه وتواريخ ذلك كله
منذ البداية حتى كمل البناء .

(١) يقصد بذلك كنيسة القيامة .

لقد دانت المدينة المقدسة - حبيبه الرب - لحكم الأعداء بسبب خطايانا وبحملت على مدى أربعمائه وسعين سنة فيدا لا سنحقة وعانت المشقة على الدوام رغم اختلاف ظروف هذا الاسر بعضها عن بعض ، وكان تغير الأحداث المستمر يتمثل في بديل ولايها وحكامها الواحد بعد الآخر ، كما مرت عليها مرار وضاء وأخرى كالحه بيعا لطبيعة كل حاكم نؤول اليه معاليد الأمور بها ، وكان حالها أشبه بحال مريض نتحسن صحته تارة ، وسوء أخرى بغير الأيام ، ولكن السفاء كان أمرا مستحيلا ما دامت في قبضة حكام طفاة وشعب لا يدين بدينها ، بيد أن السلام وفرف بجناحيه على شعب الله اباان عهد ذلك الحاكم الجدير بكل ساء ، وأعى به هرون الملقب بالرشد الذي دان له الشرق ، والذي لا زال تسامحه وعطفه النادري المثال وطبيعته الرائعة محل تقدير عميق وثناء لا ينقطع في السرو حتى اليوم .

ولقد قامت العلاقات الطيبة بين هرون وبين المسيحيين على أساس من التفاهم الرائع الذي أرسى دعائمه الامبراطور الورع الخالد الذكر « شارلمان » عن طريق السفراء المستمرين جيئة وذهابا ، وكان الود العظيم من جانب ذلك الخليفة مصدر راحة كبرى للمؤمنين ، حتى لكانهم يعيشون في ظل حكم الامبراطور شارل وليس نحن حكم هرون ، ونطالع في سيرة ذلك الخليفة الشهير قول القائل « ان علاقات شارلمان مع ملك الفارسيين (١) هرون صاحب السلطان على كافة أنحاء العالم - باسننء الهند - كانت علاقات كريمة حتى ان الأمير [شارلمان] كان يؤثره بمودته على سائر ملوك الدنيا وحكامها ، وكان يرى أنه لا ينبغي أن يكون التعظيم والاجلال الا له وحده دونهم جميعا ، ولما وفد على هرون الرسل الذين بعنهم شارلمان لزيارة القصر

(١) قصد بذلك المسلمين .

المقدس وكيسه انيامه ودخلوا عليه بالهدايا والحف ، واعلموه
بما جاءوا من اجله ، واصبحوا له عن رغبة مولاهم لم ينف هرون
باجابهم الى كل ما سألوه اياه بل راد فمكتهم من ملكيه هذا المدن
واعبارة من امرك سارلمان ، فلما حن موعد اوبه الرسل الى مولاهم
اوفد الرشيد سفراء من قبله الى سارلمان ، حاملين اليه هداياه البمييه
من الباب الحريره والوايل وغير ذلك من مسجات الافطار السرفيه ،
كما كان قد أرسل قبل بضع سنواب من ذلك انباريح الى سارلمان
- بقاء على رجائه - فيلا كان الوحيد عنده اد داك :

وكان سارلمان يمد يد العون السحي على الدوام لمن يعيس في
القدس من المؤمنين الموجودين تحت حكم المارفين ، كما سمل بره من
كان منهم يسكن مصر وافريقيا التي يحكمها الشرفيون المعصبون ،
ونعرا في ترجمه حياته « انه لما كان سديد القوى فقد جرب عاده
على بسط يده بالمال للفقراء في سحاء باله ، سماه الاعريق بالركاه ،
آحدا بعسه بهذا العمل عطاها منه عليهم لسد حاجتهم ، ولم يقصر
فعله هذا على من هم في مملكته ، بل تعداهم الى كافه المسيحيين
الذين يعسون في مرية حتى ولو كابوا وراء البحار في بلاد الشام
ودهر وبنت المقدس واسكندرية وقرطبة .

أما الدافع الخاص الذي حمله على عقد آواصر الصداقة مع
الملوك فهو طمعه في أن يسكن من مد يد الغوب والمباعد له لمن
يعسون تحت رحمة هؤلاء الحكام .

وإذا أراد القارئ الوقوف على ما كابت نكابه القدس : مدنة الله
وما حولها من شدة بسبب كثرة التغيرات للظروف والأحوال خلال
هذه الفسره الانقالية ، فليقرأ كتابي المسمى « تاريخ أعمال أمراء
المسرق » فقد أجهدت نفسي في أن يكون سجلا شاملا لأحداث حوليات
خمسائة وسبعين من السنين ، أعني منذ زمن محمد [صلعم] حتى
الوق الحاصر . وهو سنة ١١٨٢ من مولد المسيح .

كان هناك في ذلك الوقت صراع موصول الحلقات بين المصريين والفرس أشعلت جذوته المنافسة الضارية بينهما حول الزعامة ، على أن الامر الذي لا يكره احد هو أن كل واحد من هابن الامين كتب بعض مذهباً يخالف المذهب الذي تعسفه الأخرى تمام المحالفة ، مما أدى الى حد كبير الى اثاره شعور البعض بينهما ، ولا يزال اختلاف المذهبين الدينيين بينهما حتى اليوم هو موضوع الجدل الناشب بين هابن الامين سوباً أقصى للقضاء على كل براحم بينهما ، حتى ان كل واحد منهما يعتبر الأخرى كافرة ، وقد ذهب هذا الشعور مذهبا بعيدا أدى برغبة كل منهما في محالفة الأخرى حتى في الاسم ، فيطلق أنباع المذهب الشرقي على أنفسهم اسم « أهل السنة » على حين أن الذين يؤثرون اتباع المذهب الشرقي المصري - وهو أقرب ما يكون اليها - يطلقون على أنفسهم اسم « السسنة » غير أن سرح الاختلاف في الخطأ بينهما لا يدخل في نطاق هذا الكتاب .

وقد أخذت مملكة مصر برداد قوة يوما بعد يوم اد اسولت على الولايات والأقطار الممدة حتى أنطاكية ، كما وقعت في يدها مدينة القدس وغيرها من المدن التي خضعت لعس الغوايين ، ورب على ذلك أن خعت بعض الشئ متاعب المسيحيين الذين دخلوا تحت سيطرتها ، شأنهم في ذلك شأن سجناء يسمح لهم بالتمتع بعلل من الاسنجمام ، وأخيرا أصبح الحاكم [بأمر الله] خليفة لهذه المملكة جزاء وفاقا للؤم الانسان ، فجاوزت خطايا هذا الخليفة خطايا جميع سابقيه ولاحقيه على السواء ، حتى غدا اسمه مضرب الأمثال عند الأجيال التالية التي تطالع خير جنونه ، وكان هذا الرجل مشهورا بشئى ضرؤب الاثم والاجترأ على ارتكاب المعاصى مما جعل حانه - وهنى كربة تنند الله والخلق معا - سننحو رسالة خاصة فائمة

بداها ، فكان من الأفعال الذميمة التي اجترحها قيامه بهدم كنيسة القيامة التي شيدها في الأصل « ماكسيموس » الموقر أسقف بيت المقدس بأمر الامبراطور قسطنطين ثم أعيد ترميمها - زمن هرقل - على يد « موديسوس » الموقر .

وكان وإلى الرملة واسمه « ياروق » وهو أحد رجال الحاكم بأمر الله - قد أخذ على عاتقه تنفيذ أمر الخليفة ، وسرعان ما أعمل معول الهدم في البناء حتى سواه بالأرض ، وكان رئيس الكنيسة يومذاك هو « أوريسوس » المعظم حال من هذا الخليفة السعبي ، وتقول الرواية ان الخليفة اتخذ هذا الاجراء البعيد المدى ليبرهن لأهل ملته على مدى اخلاصه للملّة ، اد كانوا يعتقدونه بالنصراني قدسا فيه ونبلا منه لانه ولد من أم نصرانية ، ومن ثم حملته الرغبة في محو هذه التهمة منه على أن يقترب تلك الجريمة ، ولما كان يعتقد أن لن يكون هناك بعدئذ اتهامات توجه الى شخصه وان خصومه لن نواهم الفرصة بعد ذلك لشن حملات ضارية عليه فقد هدم مهد الايمان الكاثوليكي الذي تصدر عنه الديانة المسيحية .

- ٥ -

أخذت أحوال مسيحيي بيت المقدس منذ ذلك الوقت تزداد سوءا ، ولا يرجع ذلك فحسب الى ما يشعرون به من حزن دقم بسبب هدم كنيسة القيامة المباركة ، بل وأيضا الى الأعباء المترابدة التي يفاسونها من جراء مخلف الخدمات المفروضة عليهم ، فقد وجدوا أنفسهم مطالبين بدفع اتاوات وضرائب باهظة ينوء بها كاهلهم ، ويرغضها العرف وتشجيعها الامتيازات التي منهم اياها حكامهم السابقون ، هذا بالإضافة الى منعهم من أداء شعائرتهم الدينية التي

كانوا يمارسونها سرا وجهرا تحت حكم الولاة المحلطين ، وكانوا كلما ران عليهم ظلام الأيام ألزموا بالبقاء داخل بيوتهم فلا يجرؤون على الخروج بين الناس ، بل انهم لم يعودوا يرون بيوتهم ملجأ أما لهم ، فقد كان خصومهم يحصبونهم بالحجارة ، ويرمونهم بالصادورات ويسبون عليهم هجمات وحشية ويلاقون هم من الازعاج أشده ، لاسيما فى أعينهم الخاصة ، وكاتب الهمة العابره يرسمهم بها أى فرد كافية لجرهم بالعنف وتوقيع القصاص عليهم ونعذيبهم من غير محاكمة ، كما تصدر بضائهم وبجاراتهم ، وسهب أملاكهم ، ويحطف الناس أبنائهم وبناتهم أمام أعينهم ويرغمون بالجلد تارة والكلمات المعسولة والعود الكادبة نارة أخرى على جب دينهم ، فان لم يفعلوا ذلك صب خصومهم عليهم حام غضبهم ، وأذاقوهم العذاب ألوانا وبصموا لهم المشانق •

وكان بطركهم الموجود آنذاك هو الذى يتحمل فى بادئ الأمر هذه البلايا وتلك الإهانات ، ثم أخذ بعدئذ يحض أهل مله - سرا وجهرا - على النمىك بالصبر ، ويعدهم بأكاليل الشهادة - فى العالم الآخر - نعتقد على رهوسهم جزاء ما تحملوه من الشرور الدنيوية ، فكانت كلماته الهاما لهم وبلسما لجراحهم فافتدوا به ، وراح كل منهم يواسى الآخر ويشد من عزمه ، يفعلون ذلك فى حب متبادل ، فاستهانوا بالأهوال الدنيوية بلقوتها فى سبيل المسيح •

وان الأمر لبطول بنا جدا لو تكلمنا عن الحالات الفردية ، او تحدثنا عن ضروب التعذيب الجثمانى الذى تحمله خدام المسح هؤلاء بصبر يرجون منه أن تزلف لهم الجنة ، لكننى أسوق مثالا واحدا من أمثلة جملة لتدرك جلالتهكم لماذا كانت آفة الأسباب تؤدى بهم الى ورود حوض الردى ، ذلك أنه كان يعيش بين ظهرائى قومنا فى مدينة القدس واحد من الأشرار الفجرة الذين انطوت نفسه على كراهة سوداء لأهلنا كانت تحمله على الدوام لاضطهادهم ، فد

هذا الرجل مكيدة فيها هلاكهم ، اد انسل جلسه داب ليله حاملا
 حيفة كلب سم ألعها في ساحة الجامع الذي كان القوامون عليه
 - كذلك أهل الدينه كلهم - حريصين أشد الحرص على بطاوتهم
 النامه ، فلما أهل فجر اليوم النالى أقبل المصلون على المسجد لاقامه
 الصلاه ، فوجدوا حقه الحيوان النجس يصاعد منها الس ، فارب
 باثرينهم ، وبعلت صرخاتهم حتى صحت المدينه كلها على صياحهم ،
 وأسرع الناس الى المسجد ، فأجمعوا الرأى كلهم - دون أن يسد عنه
 أحد - على أن مسئولة الحادث تقع على كاهل المسيحيين وحدهم -
 وماذا كان بعدئذ .

لقد تمرر اعدام جميع الصارى باعتبار أن الموت ولا شئ سواه
 - هو وحده الذي يمكن أن يكفروا به عن هذا الدس ، فأنهب
 المؤمنون - وكلهم ثقة ببراءه ذيلهم - لتحمل الموت من أجل المسيح ،
 وببسا كان الجلادون ينقدمون مسهرين سيوفهم ويوشكون أن يعدوا
 الأوامر الصادرة اليهم اذا بساب يافع يفيض قلبه بالنحوه يقدم
 الجموع جاعلا نفسه الفداء لهم ويقول لهم :

« أيها الاخوة .. ستكون أكبر نكبة أن يهلك الكنسه كلها
 بهذه الطريقه ، وانه لأجلى أن يقدم واحد حيانه فداء للناس جميعا
 فلا يهلك السعبد المسيحي جميعه ، فعندوني أن نكرموا ذكرائى
 سوياء ، وأن توقروا أسرته الى الأبد ، وتخصوها بالنسريف ، ان
 خلصتكم بأمر الرب ، فان عاهدتموني أن نلوا بهذه الشروط خلصكم
 جميعا بأمر الرب من هذه المذبحة » .

وأنصت المسيحيون الى كلماته في فرح شديد ، وأبدوا
 اسعاداتهم للوفاء له عن طيب خاطر بما سألهم ، وقطعوا على أنفسهم
 العهد أن يخرج في يوم عيد الشعائين موكب مهيب ممن هم من ذريته ،
 يحملون الى المدينه أغصان الزيتون رمزا لسيدنا يسوع المسيح :

جيداً أنك أسلم السبب نفسه لوجوه أهل بيت المقدس ، معلناً لهم أنه هو الذي افترق ذلك الجرم ، فبرأ بذلك ساحة المسيحيين الآخرين ، إذ ما كاد الغضاة يسمعون قصته حتى صفحوا عن بقية قومه ، أما هو فقد ملوه بالسيف ، وهكذا قدم حياته من أجل اخوته ، وقابل الموت بعزم كريم ، وبألم أطيب نومه مباركة وهو واثق كل الثقة أنه قد حظى بعطف الرب .

- ٦ -

ولقد نأى أحيرا أن جلب السفينة الإلهية والعطف الرباني على هذا السبب المكتوب حين وإفاه العون الكريم بالرحمة بوضعه البائس ، إذ فارق الأمير الخبيث الدنيا ، وبعده من بعده ابنه « الظاهر » معاند السلطة ، فاجتث الاضطهاد من جذوره ، وجدد الانعافه التي نفخها أبوه ، وأحكم روابط الصداقة مع رومانوس امبراطور القسطنطينية الملقب بـ « بلهيو بوليس » ، الذي استجاب الظاهر لرجائه فأذن للنصارى بإعادة وتسييد الكنيسة ، لكن على الرغم من حصول مؤمنى القدس الاتعفاء على هذا الاذن الا أنهم أدركوا أن مواردهم المالية وحدها عاجزة عن اعاده بناء أمر عظيم كهذا الأمر ، ومن ثم أرسلوا سفارة الى « قنسطنطين مونوماخوس » الذى ولى العرش بعد « رومانوس » وصار اليه الصولجان والناج فتضرع اليه السفراء باكين بين يديه ، ووصفوا له ما تكبدته الناس من حزن ممض وسفاه بالغ بسبب تدمير كنسيتهم . وضرعوا اليه أن يعينهم شيخاؤ الامبراطورى لتمكينوا من اعادة تسييد الكنيسة ، وكان القوم قد عهدوا بهذه السفارة الى رجل من أهل القسطنطينية اسمه « جون كاريايسس » جمع بين شرف الاصل ونبل الخلق ، قد نبذ وراءه ظهريا جميع مباحج

الدسا من أجل حلقة المسيح وصرف همه لرعايه الله ، وكان جون هذا يعيش يومئذ في بيت المقدس ، عارفا عن الدنيا ، ناهجا بهج الفقراء من أجل المسيح ، فباط القوم به هذه المهمة فأداها صابرا غير مقصر، وأخلص في عرصها بين يدي الامبراطور المبجل حبيب الله. ونجح في مسعاه ، اذ وعده قسطنطين من ماله بالمال اللازم للسير في اجراء اب اعادة البناء ، وزاد فجعل هذه النفقة المالة من جيبه الخاص ، فلما أنجز جون مهمه على الوجه الاكمل آب الى بيت المقدس والفرحة نغمه لحصوله على الوعد الذي كان المؤمنون يلهفون عليه .

وعلم القاصي والداسى بنجاح رحلته ، وتوفيقه فيما حصل عليه ، فارتفعت معنويات رجال الدين والناس جميعا ، وبدوا وكأنهم قوم أبلوا من مرض خطير ، وكان رئيس تلك الكنيسة في ذلك الوقت هو البطررك « تقفور » .

لم يكد الناس يتأكدون من منحهم الاذن بالبناء وحصولهم على المال من الخزانة الامبراطورية حتى شيدوا كنيسة القيامة المجددة التي لا تزال حتى اليوم في القدس ، وكان ذلك سنة ١٠٤٨ من ميلاد المسيح ، أعنى قبل تحرير المدينة بواحد وخمسين عاما ، وبعد هدم الكنيسة سبع وثلاثين سنة ، فلما كمل البناء واستقام غالبا رأى الناس فيه عزاء لهم عما كابدوه من الأهوال والأخطار القاتلة التي نعرضوا لها من قبل .

بيد أن الشعب المؤس لم يخلص تماما من المتاعب والبلايا التي لم تتوقف عن أن تصيبه بين آن وآخر ، فكم تعرض للبصق والصفع، وطالما زح به في السجن وكبل بالقيود ، ولم يقتصر الأمر في الاضطهاد على من كانوا بالقدس وحدها من المسيحيين بل تعداهم الى من كانوا يسكنون في بيت لحم « وتكوا » أيضا ، ولم يحدث

أن جاء وال جديد أو أرسل الخليفة نائبا عنه الا تجددت الاهداب
تنصب على رأس شعب الرب المتدين الذى لم يقصر أبدا فى الوفاء
بكل ما هو مفروض عليه ، ثم يهدد بعد ذلك مباشرة بهدم الكنيسة ،
حتى صارت هذه المعاملة عادة تتجدد كل سنة تقريبا .

واصطنعت شتى الطرق لابتزاز هذا الشعب ، فاذا أراد
مضطهده اغتصاب أى شيء منه أو من البطررك وتلكا هؤلاء فى
الاستجابة هددوا فى الحال بهدم كنيستهم .

وكانوا يعانون كل سنة على وجه الغريب هذه المعاملة ، فيدعى
النواب الجدد أن أوامره ولاهم صريحة بتسوية الكنائس بالأرض
فى الحال ان تجرأ أصحابها على التأخير فى دفع الجزية والضرائب
المفروضة عليهم .

لكن على الرغم من ذلك فإن المسيحيين نعموا - على طول مدى
حكم المصريين والفرس - بأحوال معيشية أطيب من التى عاشوا فى
ظلمها بعد أن بسط الترك سلطانهم وعموا نفوذهم على ممتلكات
المصريين والفرس ، إذ أخذت أحوالهم تزداد سوءا مرة أخرى منذ
أن أصبحت المدينة المقدسة تحت إشراف الترك ، كما قاسى شعب
الله (على مدى ثمانية وعشرين عاما من الحكم التركى) شقاوا أعظم
هولا من المشاق التى عاينها تحت نير المصريين والفرس والتى بدت
فى نظره أقل فداحة .

وسوف نتحدث كثيرا عن الترك في هذا الكتاب وعن عدوانهم على شعبنا كما سننص أيضا أخبار البطولة المجيدة التي طالما صفا بها ضدهم ولما كانوا قد دأبوا منذ ظهورهم حتى الآن على الإبدفاع الطائس في مهاجمتنا فانه يبدو من الأوفق في الكتاب الحالي أن نعدم موجزا عن نشأة هذا الجنس وتاريخه القديم ، ونتكلم كذلك عن بيوته مقعد العظمى التي سهد الأخبار أنهم حافظوا عليها آمادا طويلة .

لقد جاء جنس الترك أو التركمان (وهما من نبعة واحدة) في الأصل من المناطق السهلة ، وهم قوم مفردون في العظاظة ولا يقيمون في مكان واحد ، بل كانوا يسجلون على الدوام ههنا وهناك سعيا وراء المرعى النضير لقطعايم . ولم تكن لهم مدن أو قرى أو أماكن معينة يستعرون فيها ، فان رأت إحدى القبائل أن غير مكانها شئت بأجمعها رجالها وخزحت سعي وقد نصبت عليها شخا يكون أكبر رجالها سنا ، وهو الذي رفع اليه القبيلة سبي مشاكلها فيقضى فيها بما يرى ، ويلتزم المحاصمون بطاعه فما قدر وقرر ، لأنه لم يكن مسموحا لأحد ما أن يسع هوى ذاته ويحالف ما يقضى به الشسخ ، وكانوا يأخذون معهم أناء تجوالهم حمص ما يحتاجونه من علف الجناد ، ويستصحبون معهم الماشية والعم وكذلك عبيدهم ونساءهم ، وذلك كله هو جميع ما يملكون .

وهم لا يهتمون بالزراعة ، ولا يعرفون البيع ولا السراء ، ولبس لهم من وسيلة في الحصول على ضرورات الحياة سوى المقايصة فان أعجبهم موضع معشوشب لطيف وأرادوا النزول به فترة من الوقت دون اضطراب أرسلوا من قبلهم طائفة من أعقل رجالهم الى صاحب الساحة يسألونه أن يأذن لهم بضرب خيامهم هناك ، فاذا انبهوا الى

اتفاق مرض على دفع قدر معين دفعوه لحاكم هذه الناحية ، ثم يقيمون
بعد ذلك فى العايات والمراعى وفق الشروط المبرمة .



وحدث ذات مره أن انفصلت طائفة من هؤلاء الناس عن سواها
ودخلت بلاد فارس ، فوجلت الافليم ملائما كل الملامه لاحتياجاها ،
فدفع للحاكم ما انصفوا سعه عليه فى البدايه ، واقاموا هناك ردحا
من السنين أطول مما جرب به عادتهم ، ورايد خلال هذه الصرة
عددهم رياده هائله ، والواقع أنه لم يكن هناك حد نفى عنده
كربهم ، حتى انتهى الأمر أخيرا بملك فارس والأهالى أن يحرقوا
من نزايد عددهم الكبير ونوجسوا حيفه مه ، فراحوا يفلبون الأمر
فيما بينهم حتى انتهى بهم الى وجوب استعمال القوة فى طرد هؤلاء
الدخلاء من مملكهم ، لكنهم ما لبسوا أن رأوا بغير هذه الحطة .
فأضافوا مطالب جديدة زادت من المصاعب المراكمه دون أن يخف
الصفط المصاد ، وكانوا يطمعون أن يؤدى هذا الأمر الى ارهاقهم
ارهاقا يحملهم على الزوح من تلقاء أنفسهم ومن غير ضغط عليهم ،
ومع ذلك فقد ظلوا أعواما طويلا بعد ذلك متحملين عبئا ثقيلا من
الماعب ، كما أرقهم الاناوات المقروضة عليهم ، وأخيرا نشاوروا
فيما بينهم فقر رأبهم على أنه لم تعد لهم طاقة على تحمل ما هم فيه .

فلما علم الملك بذلك أمر المبادى أن ينادى بوجوب رحيلهم
جميعا من أرجاء المملكة فى فترة معينة لا يتجاوزونها ، ومن ثم عبروا
نهر « كوبار » وهو حد المملكة فى تلك الناحية ، واغتنموا الفرصة
اذ ذاك لاقامة جموعهم الكثيفة ، فلما تهيات لهم الحياة فى فبسحة
من الأرض وفى رقعة أوسع مما كانت لهم من قبل تأملوا ما هم فيه
من الكثرة ، فراعهم أن يستبكين جيش كبير لا يحصيه العد كجيشهم
هذا لصلف أى أمر ، وعجبوا من أنفسهم أن يتحملوا شنان الخدمة

ودفع الجريه وكان من الجلى أنهم يسألون العرس وغيرهم من السعوب فى العدد والباس ، وبدا لهم أن العقبة الوحيدة التى تقوم أمام احلال الاراضى المجاورة بالموء انما ترجع لعدم وجود ملك يتولى أمرهم ، كما هو الحال فى بقية الأمم الأخرى .

لذلك قرروا أن يولوا عليهم ملكا فاستعرضوا قومهم جميعا فوجدوا من بينهم مائة أسرة لها الصدارة على غيرها ، فأمرؤا أن يخرج رجل من كل أسرة ومعه قوسه ، فتجمعت بين أيديهم حزمة فيها مائة قوس بعدد العائلات ، واذا ذاك استدعوا صبيا صغيرا وأمرؤه أن يسحب سهمها واحدا بعد أن غطوها ، وكان الاتفاق بينهم على أن يتم اختيار الملك من الأسرة التى منها السهم الذى يسحبه الصبى ، وشاءت الصدفة أن يكون السهم المسحوب هو سهم السلاحفة فكان الملك الذى يلى أمرهم فى المستقبل من هذه الأسرة حسبما جرى عليه اتفاقهم .

ثم أمرؤا باختيار مائة فرد من السلاحفة اشترطوا فيهم أن يكون كل واحد منهم أكبر رجال عشيرته سنا وأعظمهم خلقا ، وأحسنهم طبعا ، وأكثرهم اقدا ، ثم يتقدم كل واحد من هؤلاء برمح عليه اسمه وجعلوا من هذه الرماح مرة أخرى حزمة وأحسنوا غطاءها ، ونادوا ثانية على الغلام ذاته (أو آخر فى مثل براءته) وأمرؤه أن يسحب رمحا فكان الرمح الذى سحبه الصبى يحمل اسم سلجوق .

وكان سلجوق هذا رجلا جميل المنظر من أسرة مرموقة ، قد ذاع أمره وصيته فى عشيرته ، وعلى الرغم من كبر سنه الا أنه كان قوى البنية . قد طال ممرسه فى الحرب ، وكان كل شىء فيه يشير الى أنه أمير عظيم .

نُصَّبَ الرجل باجماعهم كبيرا عليهم ، ووصعوا في يده
السلطة الملوكية ، وودعوه التوفير الواجب نحو الملك وامسوا على
طاعته ووطعوا له يمين الولاء الصادق بتنفيذ كل ما يقضى به فيهم ،
فبادر هذا الملك في الحال الى استحداث السلطة الموكلة اليه بعمل
على ما فيه حير المملكة وبعث المنادى في الناس المجمعين أن يعبروا
النهر من جديد بكل كتائبهم وأن يحتلوا أرض فارس التي غادروها
منذ قليل ، كما أمرهم بالاسيلاء على المملكة المجاورة حتى
لا يضطروا في مستقبل أيامهم أن يهيموا على وجوههم في أرض
الغبر ، وحتى لا يكونوا عرضة لاستبداد غير محتمل من الشعوب
الغريبة عنهم .

وتمكنوا في مدى سنوات قلائل من اكتمال بلاد فارس وجميع
الممالك الشرقية والتغلب على بلاد العرب وغيرهم من أصحاب النفوذ
والسلطة من الأمم الأخرى ، وهكذا أتيج لهذا الشعب البسيط التناقه
أن يسسم فجأة معارج الذروة ويتبوا القمة حتى ملك الشرق كله .

وكان حدوث ذلك قبل ثلاثين أو أربعين عاما من قسام أمرائنا
الغربيين بحمله الحج التي هي موضوع هذا الكتاب .

ولكى نفرق على الأقل في الاسم بين هذه القبائل التي نصَّبت
عليها ملكا فنالنها الشهرة العظيمة وذويوع الصيت وبين أولئك الذين
لا زالوا محتفظين بأسلوب حياتهم الخشن القهطرى فانا نقول ان
الجماعة الأولى تعرف الآن بالترك ، وأما الثانية فتعرف باسمها الأصلي
وهو « التركمان » .

ولما ترك للترك عرو جميع ممالك الشرق بطلعوا لفتح مصر
القوية فزحفوا على بلاد الشام ، واستولوا على بيت المقدس واحتلوا
عدة مدن قريبة منها فزادوا من متاعب المؤمنين الساكنين هناك
زيادة أدهقتهم كل الارهاق لما فرضوه عليهم من أعمال يؤدونها لهم ،
كما أشرنا الى ذلك حالا .

لم يكن المؤمنون في السرق وحلهم هم الذين آتاه عليهم
الطعام بكلدنتهم بل لقد صعب الإيمان ووصى في العرب وفي داف
إحباء الأرض ، لا سيما بين من كانوا يسمون بالمؤمنين فملاست
حسية الله من قلوب الناس ، وضاع العدل من الأرض . واندمت
الطمأنينة إذ فسي العنف بين الأمم ، وساد العس وعمت الخيانة
والحدية والاحتيال كل صفع وناد ، وطوي كل فصله ، نام يعد
وجود لها وصارت عندما وارتفعت رايه السر مكانها . والذى لا مراة
فيه هو أن الدنيا قد بدت وكأنها محدرة في هوة الطلام ، وأنه
قرب الموعد الباسي لظهور ابن الانسان « فقد أمسك الكيرون عن
عمل الخير ، وأصبح الإيمان في العالم غريبا ، وعمت العوصى ، ولم
يعد أحد يراعى مكانه صاحب مكانه ، وخيل للباطر أن العالم يريد
أن يعود العهوى الى الورا الى وضعه الأول من العوضى التي كان
عليها ، كما لم يعد الأمراء الكبار الذين كانوا ملزمين بالسير برعسمهم
نحو السلام مكتربين بانعافيات السلام التي تعد بين بعضهم والبعض
الآخر ، وراح كل منهم يعامل حتى لأنفه الأسباب ، وعانوا في الأرض
فسدا يحرقون كل ما يلاقونه ، ويسسون على العشائم التي
وجدوها ، ومكثوا ألباعهم السفله الأوعاد من اعصاب ما يملكه
العفراء ، ولم يعد وسط الكوارث الجمه طمأنينه على أية ملكيه ، وكان
مجرد النك في حيازة الشخص لشيء ذي قيمة سببا كافيا لقبيده
والزج به في السجن حيث يلقي من العذاب الجنائي ما لا يحمل ،
ولم تعد أمعة الأديرة والكنائس بمنجاة من هذا الشر ، كما لم يعد
أحد يراعى ما لممتلكات هذه الأماكن الطاهرة من امتيازات منحها
الأمراء الانتقاء لها ، وانعدم التقدير الذي كانت تضفيه عليها مكانتها
الرفعة التي كانت لها من قبل ، فاقتحمت المعابد وانتهكت حرمانها ،
وبهت الأوعنة المعدة للخدمة الديسة ، ولم يرق بد الانتهاك بين

الطاهر والدس ، واعتمد المميز بينهما وشملت الأسلاب
 فيما سملت أكسيه المدايح والأردية الكهوية والاواني المخصصة
 لخدمة السيد ، وعبعوا اللائدين بأقصى الأماكن الدينية والمصمص
 بالاحرم المقدسه واللاجئين الى ساحاب الكنائس فطالهم ايديهم
 وساقوهم الى التعذيب ، وجرعوهم كأس الردى دهاقا ، هذا الى
 جانب اللصوص الطلحه الذين سلبوا بالسيوف في الطرق العامه
 وراحوا بصبون الكمائن لنصيد المسافرين ، فلم يسج من بطسهم
 حاج ولم يسلم من ترهم رجل دين ، ولم يكن القرى هي الأخرى
 بمحاة من الأخطار لأن السعاجين المحليين أحوالوا جميع السوارع
 والدروب الى أماكن نبب الخوف في نفوس الأبرياء ، وربما كان أسد
 الناس عرصة للوفوع في المهالك هم أبعدهم عن السهات .

ومورست شنى أنواع العجور جهرا ومن غير حياء كما لو كانت
 أمرا مشروعا . ولم تعد تراعى روابط القربى من الدم والروح ،
 وبخلى الناس عن العفة - وهي غاليه عند الله وملائكته - فنبذوها
 سد النواه ، وصارت الصدارة للدعارة والانكباب على السراب والهالك
 على ألعاب المسر والعمار التى تحتساح الى سهرات ليلبة طويله ،
 فمارسوا ذلك كله فى ساحات المعاهد ، واعتمد التدبير والنعف
 وساوى رجال الدين بقية الناس فى ممارسة الحياء غير السريعه
 وصاروا كمن نقرأ عنهم فى الأنساء حسب يقال :

« كما النسعب هكذا الكاهن ، وكما العبد هكذا سيده » (١)
 فقصر الكهنه فى أداء واجباتهم « وكلهم كلاب بكم لا تقدر أن
 نسج » (٢) ، فكانوا لابنورعون عن مقابلة أى أحد « ولا نأبى رؤوسهم

(١) موشع ٢٠٤ ، واشعنا ٢٤ ٢٤ .

(٢) اشعنا ٥٦ . ١٠ .

رب « (١) انجذ . وصاروا كالرعاة الذين أهملوا قطعان الماشية
الموكول اليهم حراسيها وبركوعها عرصة لهجمات الدئاب ، وبأسوا
كلمات المسيح حسب يقول (٢) « مجانا أحدم » محانا اعطوا » ،
ولم يورعوا عن حطته السموه . فسلطوا نعار حجري (٣) .

فهل ثم حاجة لمريد من القول ؟

والخلاصة أن أصبح الصدره للذائل « اد كان كل يسر قد
أفسد طريقه على الأرض » ، ولم يستطع بهديدات الرب التي تحلب
كندير سؤم من السماء ولا الطواهر الأرضة أن نزر من سلوكوا
طريق السر ، فانسرب المجاعات وعمب الأوبئة وأرعدت السماء
بالندر (٤) ، وصربت الرلازل كبرا من السلال المخلفة وطهر غير
ذلك من الدلائل التي عددها المسيح في الانجيل (٥) .

ومع ذلك فلم يرعو الناس عن غمهم بل ظلوا يركبون سبي
الموتعات (٦) ، سأنهم في ذلك سأن الأعمام ننسخ في رويها (٧) .

وأهانوا الرب الرؤوف الذي يعد طويلا فكان صلهم في ذلك
مبل الدس فال صهم السيئه (٨) .

(١) الترميز ١٤١ - ٥٠ .

(٢) مي ١٠ - ٨ .

(٣) انظر القصة والمحر كامل في الملوك (مان) ٥ - ٢٠ - ٢٧ .

(٤) الكويين - ١٢ .

(٥) اساره الى ٣٠ ورد في مي ٢٤ - ٧ في قوله « لانه يوم أمة على أمة .
ومملكة على مملكة وتكون مجاعات وأوبئة وزلازل في اماكن » .

(٦) راجع قول السيد المسيح في لوقا ٢١ - ١١ .

(٧) راجع رساله بطرس الماسة ٢ - ٢٢ حيث قال « كلهم كلف قد عاد الى
قيته ، وحزيره مفسلة في مراعاة الحماه » .

(٨) راجع أرميا ٥ - ٣ ، ٥١ - ٩ « صرهم فلم يورعوا » أميتهم وأبوا
قبول الناديب » .

« يا رب أليست عيناك على الحق • صر بهم فلم يوجهوا •
 أفيهم وأبوا قبول التأديب • صلبوا وجوههم أكر من الصخر •
 أبوا الرجوع » ، وكذلك قوله « داوينا بابل فلم نسف » •

- ٩ -

حين فاض مرحل العصب بالرب من هذه الأمور فصى على
 المؤمنين الصادقين الموجودين في أرض الميعاد أن يرسفوا في قيد
 العبودية المتشار إليها من قبل ، وأن يقاسوا من السدائد ما يعجر
 اللسان عن وصفه ، وبالإضافة إلى ذلك فإنه أثار عليهم حصومهم
 وصب عليهم سوط عذاب فابتلى الدين ظلوا حتى هذه اللحظة سادري
 في غيهم ومعقدين أن كل شيء سيظل سائرا وفق هواهم ذلك أنه
 بينما كان « رومانوس » الملقب بـ « ديوجينوس » يحكم الإغريق
 ويدير دفة أمور المملكة في القسطنطينية على أم صورة من النجاح
 إذا بواحد من حكام فارس وسورية الأفوياء واسمه ألب أرسلان
 ينهض من قلب الشرق بعساكر كيفة جمعهم من سبي الأمم الحادثة ،
 وكانوا من الكثرة بالصورة التي عطب - كما قيل - وجه السيطرة ،
 كما اصطحب معه العربات الحربية والفارس ، ومشت حلله قطعان
 الماشية والأغنام ، وكان مجهزا بكل شيء تجهيزا رائعا ، وتقدم حتى
 دخل الامبراطورية [البزنطية] وأخضعها كلها لسلطانه وسطر
 على كل شيء خارج المدن من الحقول والبلدان المسورة والقلع المنعة
 دون أن يجرح أحد لصده ولم يعرض زحفه أي معترض ، ذلك لأن
 كل واحد من الناس كان لا يعنيه غير سلامة نفسه ، ولا يكرت
 حتى بنسائه ولا أطفاله بل ولا بالحرية ذاتها ، وعلم الامبراطور في
 هذه الأثناء بأن حشدا قويا معاديا له كأنه السيف المسلول يهدد
 نقطم الرفاق قد، شرع في تخريب الامبراطورية المسححة ، فدفعه

شده انشغال باله الى استدعاء قواته من الفرسان وجميع المساه
الذين تستطيع الأمة تقديمهم ، استجابة لما يفرسه الموقف الحرج .

فماذا يقول أكبر من ذلك ؟

لقد رحف الامبراطور بكل ما يجمع لديه من الكنائس ،
وما حشده من الفرسان الكثيرين ، ولكن زحفه كان على غير رضا من
الله فلاقى الخصم لكن بعد أن كان قد استولى على قلب الامبراطورية
وأخذ ينوغل فى داخل البلاد .

ثم كاث المعركة التى سببت بعد ذلك فى ملازكرت معركة
ضارية ضراوة تناسب مع قوتين تعادل كل منهما الأخرى تقريبا
وتحرك كلا منهما كراهية يزيدها عنفا ايمان شديد الصلابة ،
وكراهية لمعتقدات تعتبر الواحد منهما أن خصمه يصدر فيها عن
دنس .

فماذا تقول أكبر من هذا ؟

لقد باد الحش البصرالى ، ودارب الدائرة على صفوف
المؤمنين ، وسفك العدو دماء فداها المسيح بدمه ، وكان أسوأ النكبات
الى حاقت بهم وقوع الامبراطور فى الأسر .

وعاد من هذا الجيش من قيضت لهم الحياة ليقصوا نبأ الكسه
الى ألب بهم ، فاسمع الناس فى ذهول لما يقولون ، وأدى بهم
الحرن الذى استولى على نفوسهم الى الناس من حياتهم وسلامتهم ،
فأسلموا أنفسهم للبكاء المعض .

فى هذه الأثناء انتسى العدو العظيم - وان يكن كافرا - بنصره
الساحق ، وأخذ يساهى بما أحرز من الظهور ، فأمر [ألب أرسلان]

باحضار الامبراطور من يديه ، وجلس هو على عرشه الملوكى ، ثم أمر بطرح رومانوس بحب قدميه ، وأراد اظهار احفاره لكل ما هو مسبحى فاجد من جسد الامبراطور موطناً لقدمه ، وراح يلوسه صعوداً ونزولاً ، حتى اذا رضيت نفسه بما ألحقه به من حقير وارذراء أمر طائفة من كبار رجال الامبراطور الذين أسروا معه أن يرفعوه من على الأرض ، وأذن لهم جميعاً بالرحيل •



حين صك نبأ هذه الاهانة سمع أمراء المملكة بادروا الى اخسار رجل آخر ولوه أمرهم ، شعورا منهم بأن رومانوس - الذى لقي هذه الاهانات الجسدية - لم يكن بعد أهلاً لحمل الصولجان ، ولا حديراً بهالات السرف التى تلبق بأغسطس ، بعد أن فضح أصبح فصيحة ، ثم سملوا عينه ، وان نكروا عليه بالحياة لمعيش ما بقى من أيامه كمواطن عادى •



لم يصادف ملك شاه أية عقبة فى نلقذ أهدافه ، فقد نجح فيما أقدم عليه ، اذ استولى على جميع البلاد الممتدة من لاذقية الشام الى مصبق السفور الذى بنساب الى حوار القسطنطينية ، وكانت الأرض التى استولى عليها تقدر برحلة ثلاثين يوماً طولا ، وعشرة أو خمسة عشر يوماً عرضاً واسترق جميع سكان المدن والقرى ، وهكذا (١) « غضب الرب على شعبه وكره ميراثه وأسلمهم ليد الأمم، وتسلط عليهم ميقضوهم •

(١) المزامير ١٠٦ : ٤١ •

ثم كانت مدينته أنطاكية الهامة آخر ما استولى عليه ، وكانت لها الصدارة بين كثير من الولايات في السهل والروعة . إذ كانت أول مركز لأمير الحواريين ، ثم أصبح يدفع الحرية لحصون مدنها ، وهكذا دخل تحت سيادة المارفين - وفي زمن قصير سببيا - بلاد « كوليسيريا » بما اشتملت عليه من ولايات فيلقية وإيسوريا و « بامفليا » و « لنكا » و « كبادوسنا » و « علاطه » وأبصا ولاينا « بوموس » و « بسينا » و قسم من آسيا الصغرى ، وسهر كلها بكثرة مواردها ، وكان أغلب سكانها من النصارى لكن جرى عليهم الأسر ، وعلب الكنائس على أمرها وامنت إليها يد التدمير ، وانطلق الأعداء بطاردون الملة المسحقة لا تأخدهم في هذه المطاردة هواده إذ أحصوا العرم على استئصالها ، ولو كان تحت يد ملكساه فوه بحرية لم له ما أراد من عر حدال فتح المدينة الملوكية (أعنى القسطنطينية)، ذلك لانه بب فى نفوس الاغريق من الرعب ما جعلهم يسبعدون سلامة أنفسهم حتى داخل أسوار عاصمتهم ، ولم يعودوا يعسرون نعلل البحر فى أرضهم كافا لصمان سلامهم تمام السلامة .

أدب هذه الأحداث - وأخرى متشابهة لها فى طبعها - الى سيطرة الفرس التامة على كافة سكان ست المقدس وما حاورها ، فغمر الناس الناس من قمة رأسهم الى أخمص أقدامهم ذلك ان عزاءهم - كما قبل - كان تأتهم فى وقت السدة من القصر الامراطورى يوم كانت الامراطورية نعم بالرخاء ، فكانت سلامها وسلامة أحوالها وانعاش حال المدن المجاورة - وفى مقدمها جميعا أنطاكية - تبع فى نفوسهم أملا كبيرا فى أن ينعموا بالعيش أحرارا فى منسقل أيامهم .

أما الآن فقد أصبحوا جرعين على أنفسهم وعلى غرهم فعبتهم الاشاعات المشنومة حتى أصبحوا يودون الموت أكثر مما يرحون

الحياه ، وانهارت عزائمهم اعقادا منهم أن قد قضى عليهم بالأسر
الأبدى .

- ١٠ -

حذب في أثناء هذه الأوقات العصية الخطره أن وصل الى
مدينة القدس حماه صحبه من اليونان واللاتس بحوا من سبي
صنوف الهلاك في أرض العدو ، وكان محنتهم لأداء مناسك العباد
في الأماكن الطاهره ولكن حراس أنوبيا لم يادبوا لهم بدخولها
حتى يدفعوا قطعه البعود الذهبه الى حرب العاده أن يدفعها كل
داخل ، عبر أنهم كانوا قد صرفوا في أثناء رحلتهم كل دابق كان
معهم ، ولم يسق في يدهم شيء من بعد يؤدونه لسداد هذا الرسم
المالى ، وإن كانوا قد وصلوا - بسى النفس - الى هدفهم الذى طال
سوفهم اليه ، فبلغوه سالمين .

ويجمع الحجاج ررافات أمام المديسه سيطرون الاذن لهم
بدخولها ، وطال انتظارهم حتى مات منهم أكثر من ألف حاج سبب
الجوع والعري ، وكان هؤلاء الناس (الحجاج) - الأحياء منهم
والأموات - عبثا ثقلا سوء به كاهل الأهالى العساء الذين حاولوا
المحافظة على حياة من لا يزال فيه نفس بتردد ، فراحوا يمدونهم
بما قدروا عليه من الطعام يسكون به رفقهم ، كما بذلوا من حاسم
جهدا في دفن الموتى ، رغم أن مشاغلهم الحصوصه كانت فوق
طاقهم .

أما الحجاج الذين دفعوا الرسم النفدى المقرر ، وأذن لهم
بدخول بيت المقدس فقد أضافوا الى المواطنين عبثا زاد من أعبائهم

وحملهم مسئولية أضحم . لما كان ينبغي هؤلاء الحجاج من الأخطار أثناء بجوالهم الذي كان يسبب البعد عن الحذر بلهفا منهم على رداء الأماكن المقدسة ، وكانت هذه الأخطار سمتل في البصق عليهم ، أو لكبهم على آدابهم ، أو ما عو أسسوا من ذلك ألا وهو حقهم سرا . ومن ثم فانه لما راح الحجاج يسرعون في المصى الى الاماكن المقدسة مصى المواطنون يسعونهم في حنان أخوى مؤملين أن ننمكوا بهذه الطرفه من دفع هذه الأخطار عنهم حرصا منهم على حنائهم وسلامهم وحرعا من أن تقع لهم حادب مؤلم .



وكان في المدسه دير بملكه « الأملعون » لا يرال يعرف حسى اليوم باسم دير القديسة ماري «حامة اللانين» وهو ملاصق لمارسان به كنيسة صغيرة أقمب تمجيذا لبطرك الاسكندرية المبارك « جون المنر » وكان يقوم بالعناية بالمارسان رئيس أساقفة « الدبر المذكور حالا » . كما كانت المعونة بذل به في أى وقت للحجاج الرؤساء الذين يحشرون في مثل هذه الظروف فننقى عليهم مما نأنى من الدير أو من الهباب الى بحود بها المؤمنون وكان فل أن ءحد بين الألف من الحجاج القادمى واحد يستطيع أن يكفل ذاته ونقم أود نفسه اد يكون أكرهم قد فقدوا نفقة سفرهم ، وأرهمهم الصعاب المهلكة ، وما استطاعوا بلوغ غاينهم سالمين الا بعد عسر ومنشقة .

هكذا لم يكن ثم راحة للمواطنين في بلدهم ولا فى خارجه ، وما كان من يوم يقضى عليهم الا ويحمل لهم نذر الموت ، الذى كان هناك ما هو أنكى منه ألا وهو حزعهم مما هو مائل أمامهم على الدوام من الاسترقاق الفظ الذى ليست لهم قدرة على احتماله .

وكان هناك شيء آخر أدى بهم الى أقصى آيات الحزن ، وذلك ان العدو كان يدخل قسرا الكنائس الى أعين لأصحابها والى بدلوا جهدا كبيرا فى الحفاظ عليها فمعنحهم عليهم وهم فى ذروه انصارهم فى أداء طقوسهم الدينية غير عابىء فقط بما لهذه الأماكن الطاهرة من حرمة واحترام ، فينحد من مذابحها مقاعد له ، ويبت الفرع فى قلوب المصلين بصغيره وصياحه الجنونى ، ثم يعلب كئوس القرايين ويطا بأقدامه الأدوات الخاصة بالمراسم الدينية ، ويحطم التماثيل الرخامية ويكيل اللكمات لرجال الدين ويصب عليهم وانلا من اللعنات ، ثم يجذب البطرك المولى الأمر من كرسبه ، ويجذبه من شعره ، ويأخذ بلحنته ويطرحه أرضا كأنه مجرم مخبر ، وكم من مرة ألقى به الأعداء فى الحس من غير حرية ، وعاملوه معاملة لا تجوز الا مع أحقر العبيد ٠٠٠٠٠ كل ذلك تعذيبا لأنساعه الدين شاركوه الألم باعتبارهم اناء أباهم الروحى .

لقد ظل هذا السعيب المؤمن بالرب - كما ولما - يعاسى ذلك القيد اللفظ ، ولكنه أبى الا أن يطل مستمسكا بديه رغم بلواه على مدى أربعمائى وسعين سنة . وطالما جاز هؤلاء بالسكوى الى الرب فى صلواتهم التى لا تنقطع واستغافوا به فى أنات ناكبة ، وزفرات حرى ، راجين أن يخلصهم من العذاب الذى لا قوه جزاء خطاياهم ، وكم سألوه ، أن تنفخهم رحمته العظيمة فتبعد عنهم سؤر عصبه عليهم لأنهم وقعوا فى هوة السر كما يقول القائل « غمر بئادى غمرا (١) ٠٠٠ كل نارائه ولجحه طمت عليه » .

وأخيرا يعطف الرب عليهم وتحن بنظرة منه وهو على كرسية المجبد ورغب فى وضع حد لهذا الشقاء ، فأبى حنائه الأبوى الا أن يمنحهم الراحة التى يلمسونها .

ان اهتماما في هذا الكتاب منصوب على بيان طريقة وسطهم
هذه الحطة الالهيه التي ارادها الله لابعاذ شعبه من بلواه تجسدا
للمخلص في المسيح .

- ١١ -

في هذا الوقت نالدا بالذي كات فيه المدبته المحبوه من
الرب نمر بلك الماعب السابق وضعها ، كان هناك بس الجموع
الكثيرة التي سافرت الى الأماكن المقدسة من أجل العباده والصلاه
فيسس اسمه « بطرس » من أسعفه « أمس » في مملكه الفرنجة
ويعرف « بالناسك » ، وهو لعب طابى لقطه واقع و كان هذا
الرجل قد شئدنه الى رب المقدس نفس الحماسة الروحة .

أما عن هئته فكان رجلا فميئا ليس فيه ما يحذب النظر اليه ،
لكن كات بسكن هذا الجسد الضئيل شجاعة عظمى ، هذا الى انه
كان امرا خفيف الروح دكيا ، حميل العينين ، ولا ينقصه البلاعة
اد كات طسعة ركب فيه وخلقة فطر عليها .

وبعد أن دفع المقرر حبايته من كل مسيحي راغب في دخول
المدينة استصافه أحد الأنبياء المؤمنين بالمسيح ، ولما كان بطرس
رجلا طلعة فقد راح يلقى على مصبفه السؤال نلو السؤال مسفسرا
منه عن أحوال النصارى فجمع لديه منه تفاصيل حمة لا تقف عند
حد الأخطار الحالية بل تجاوزتها الى ذكر الاضطهادات التي قاساها
أحدادهم من قبل على مدى سنوات طوال غامرة ، أما الأخبار التي
فاته سماعها منه فما لاذن فقد أدركها بالملاحظة الدقيقة التي أسعفنه

بها عيباه ، كما دلته استقصاءاته الخاصة دلالة حلية على صدق ما سمعه من الآخرين ، ومما نجتمع لديه بعد مروره على الكنائس خلال اقامته في المدينة . ثم ترامى الى سمعه ما كان عليه بطرك المدينة من كبرة الورع وعظم الخوف من الله فمضى لو نكلم معه عن الأحوال السائدة اذ ذاك في المقدس ، كما طمع أيضا في الحصول على صورة كاملة أكبر وصوفا عن أمور معينة أخرى فمضى الى رؤيته ، حتى اذا صار في حضرته كان حوار طيب استمع به كل من الرحلين وكان هناك مرحم أمس يرحم ما يقوله كل منهما .

ادرك الطرك « سيمون » من كلام بطرس أنه أمام رجل فطن ، ملم الماما واسعا بكثير من الأمور ، قادر على الاقتناع بالكلمة والفعل فأخذ يتشرح له في اسهاب وصدق الأحوال الجمة المصيبة في وحشة على شعب الرب الساكن بيت المقدس ، فاثرت متساعرا بطرس الأخوية عند سماعه هذه الرواية ناثرا لم يملك معه دموعه عن

الاهتمام ، ثم راح يسأل في لهفة عما اذا كان في الامكان ايجاد طريقة ما للحلاص من هذه المصاعب المكددة بهم ، فأجابته الرجل الصالح « اعلم يا بطرس أن السد الحنون الرحيم يأبى أن تكرب باناس وآهاتنا الباكسة بسبب الخطايا التي كلبنا بها أنفسنا ، ولسبب الأثام التي ارتكسناها ولم يظهر منها ، ومن ثم فلا محل في حاضرتنا لوقف القصاص منا ، ولكن رحمة الرب العظيمة لن تسمح بأن يمسنا صر ، ويقوة اخوانك المخلصين في عبادتهم للسد هذا الى أن مملكتهم - التي تفرزع أعداءنا - تمتد امتدادا فسيحا شرقا وغربا ، فان هم تعاطفوا معنا في حب أخوى وشاركونا في موقعا الحالى وقدسوا من العلاج ما يدفع المصائب التي تنال علينا أو ان هم على الأقل تشفعوا لنا عند المسح فقد يراودنا الأمل في الحصول على أى عون من امراطورية الاغريق على الرغم من أنهم كانوا أكبر

ارتباطا بنا برابطة الدم والجوار ، هذا الى ما عندهم من ثروات
صححه أعظم الصخامة ، ولكنهم أصبحوا اليوم لا يقدرّون على الدفاع
عن أنفسهم اذ بلاشت قوتهم بددا ، كما أنهم فقلوا - حسبما سمع
حنانكم الأخوى - أكثر من نصف امبراطوريتهم على مدى سنوات
فلائل » .

فرد عليه بطرس قائلا : اعلم أيها الأب المبارك أنه اذا نوفر
لكنيسة رومة وأمراء العرب مُبلّغ المعنى ثقة يخبرهم بالمصائب التي
نكابدونها ، فلا شك أنهم سوف يبادرون الى بذل الجهد لتقديم
العلاج بأسرع ما يمكنهم قولا وعملا لنخلصكم من هذه المساء .
وعليك أن سابر في الكتابة الى قداسة البابا والى الكنيسة في رومة
وأن تؤكد الخطاب بخاتم سيادتكم وأما أنا فلن أترافع من حمى
عن حمل هذه الرسالة رجاء خلاص روجي ، كما أنني مسعد
- مهتديا بالله - لزيارة الجمع والتوسل اليهم ، وسأكون الشاهد
عنهم على محبتهم التي نحاوز كل حد وأدعو الجمع أفرادا وجماعات
ألا يتوانوا عن اسماقكم بما فيه خلاصكم » .

نرث هذه الكلمات برول السلوى على نفس البطريرك وملايها
بالغبطة ، كما نقلتها قلوب الجميع قبولا حسنا ، وفرت عمون
المسيحيين فرحا لبطرس وشكروا رجل الرب شكرا حريلا على
عاطفته ، وناولوه المكتوب الذي سألهم اياه .

« حقا نارب نا مولانا .. كم آب عظيم ورحمك بلا حدود

« حقا يا عسى السعيق لن يخيب قط من ناط أمله سابق »

« اد من أين جاء مثل هذه اللفة لحاج بلا معين ومن غير سند
كيدا الحاج بطرس وهو ناء عن مسقط رأسه حتى يأخذ نفسه
وبحمل على عاتقه مهمة فوق طاقه ؟ ثم هل له أن يطمع بعد ذلك
فى يحصى ما يبطلع الله » .

« ان التفسير الوحيد هو أنه وجه أفكاره نحوك يا رب وأنت
حاديه ، وفاض قلبه بالحب المقدر فعاطف مع اخوانه ، وأحب من حوله
جبه لنفسه فسار للوفاء بما فرض عليه ، وعلى الرغم من ضعف قوة
كنايته الا أن المحبة كانت بسد أرره ، كما أنه رغم ما ألقاه اخوانه
على عاتقه عن مهمه سافه ان لم تكن مستحيلة الا أنها نسرت عليه
وذلكت له بفصل ما طمع فى قلبه من حب لله ولجيرانه ذلك لان الحب
قوى كالموت » وأنه لا نفع الا الايمان الكامل بالمحبة (١) » .

« ان خادمك لن يتردد اد أظهرت نفسك له وشجعته بمراك
ولن تتذبذب ، ولكنه ينهض فوبا لكمل عمل الحب » .



وحدث في أحد الأيام أن خادم الرب هذا الذي اكلم عنه كان مشغول البال على غير العادة بالتفكير في العودة الى وطنه والوفاء بالمهمة التي حملها ، ثم دخل كنيسة القيامة واجه بقلب خاشع كل الحشود الى مسبح الرحمة ، وأمضى الليل في الصلاة والبهجد ، حتى اذا فارت عاطفه سقط على الدرج واستغرق في النوم العميق استغرافا لم يحدث له من قبل ، وخيل اليه أنه يرى سيدها عيسى المسيح واقفا أمامه كالطيف وهو يقول له : « انهض يا بطرس وأسرع وانجر ما عهد به اليك من المهام غير حواف ولا وحل لأنني سأكون معك ٠٠٠ لقد جاء الوقت لطهر الأماكن المقدسة وللمساعدة خدمي » .

واسسقط بطرس مسريحا الى الرؤية التي رآها وصار أكراملا للطاعة ورأى - اسجاجة للانداز الرباني - أن لا يرب أكثر من هذا ، فذهب الى أوصاله ونأهب للرحوع ، ولما فرغ من الصلوات المألوفة مضى الى الأب المطرك (سمون) بسأده في العودة فنفضه ببركانه فابطلق شطر البحر حيث وحد سفينة تجارية على وشك الانحرار عن طريقه ، أنولوا فاسقلها فسلم « ناري » بعد رحلة موفقة . وسما كان على وشك المضى الى رومة اذا به يعلم بوجود البابا ايربان [الثاني] في تلك النواحي فرفع اليه رسالة المطرك ومسحى القدس ، ووصف له ما يعاونه من الأهوال والماعب على أمدى الطغاة الموحدين في الأماكن الطاهرة ونقل اليه في دقة وبراعة ما عهد اليه .

حدث قبل سنوات من هذا الوقت أن سب صراع عسف بين
هيري ملك الألمان وامبراطور الرومان وبين البابا حريجورى السابع
سلف اربان السادس ، وقد دار هذا الصراع حول الحاتم وعباءه
الأساقفة الراحلين ، وكان العرف قد جرى - لا سيما في
الامبراطورية - على ارسال حاتم أسقف الكسسه الراحل ومسوحه
الكنهوسه الى الامبراطور الذى يقوم بعد ذلك بعزل نارسال واحد
من بطاقه أو أحد فساوسيه وكل اله مهام الرعويه فى ذلك المكان
دون انتظار لعام رحال المدن بأسحاها ، لكن البابا - حريجورى
السابع] شعر بأن هذا العمل يخالف كل نوامس العدل لما فيه من
هدر لحقوق الكسسه ووطئها بالأقدام ، فقام من حابه نهى
الامبراطور عن عهده الكريه هذه ، تكرر منه مرارا هذا الهى
بالكف عما بفعل فلما رأى أن لا حدوى من هذه التجديرات الهادئه
أصدر ضده قرار الحرمان .

غضب الامبراطور من هذا الاجراء أشد العصب ، وسرع فى
اضطهاد الكسسه فى روما فعمد الى تنصيب جيبتر - رئيس أساقفه
رافا - مكان البابا المعظم حريجورى ، وكان حسرت هذا كبير البراء
واسع المعرفة مكبه ثرونه الطائله واعتماده على بطس الامبراطور
من خاف حريجورى الموقر ونولى هو فسرا الأبرشنة الرسولية ، وكم
كان غما غامه الغناء ننقصه صحه التفكير حين اعتمد اعقادا حازما
بأنه هو البابا حقا لبعه زورا وبهانا بهذا اللقب .



كان العالم السقى الغارق فى الرذيله يسير - كما فلما قبل
هذا - فى طريق حطر خاسر فلما سب هذا المراع ازداد بردى العالم

فى عوة أشد عمما لنخله عى كل اخرام واجب لله وللانسان ،
وراح يجرى وراء كل ما دنسنه الحطية ، ويباعد ما بينه وبين كل
ما ينطوى على الحر ، فمصح السجون أبوابها للأساقفة ، وكان
اذا بجرا أحد من رجال الكنيسة على معارضة الامبراطور فى تسببه
هذا زح به الامبراطور فى الحس وصادر كل ما يملك ، كأنه محرم
فقل نسا ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد من صب الأهوال الدنيوية
على رجال الدين بل صاروا عرضة على الدوام للخلع من أبرشياتهم
وبعض سواهم فى أماكنهم هذه .

فمر حريجورى من نقمة الامبراطور الى « ابوليا » حسب لى
أعظم الترحب ، وعومل أشرف معاملة من جانب دوقها روبر
حيسكارى الذى مد به المساعدة الى البابا ونجاه من الوقوع فى يد
الامبراطور حتى تمكن أخرا من الوصول الى سالرنو حيث وافاه
أجله بها ودفن فى ثراها ، فخلفه اذ ذاك على كرسى البابوية البابا
فكتور الذى لم يحاور نابونه شهرس فقط . فنلاه البابا ايربان
الثانى الذى أشرنا اليه من قبل والذى لحا الى قلاع أناعه النمل.
المخلصين لندرا عن نفسه غضب الامبراطور هنرى المذكور من قبل ،
لكه لم يكن أبدا مسحاة منه اذ كان (الامبراطور الحديدي) مصرا
فى عناد شابه عناد سلفه فى سلوك هذا الطريق الخبيث .

وعلى الرغم مما كان فيه البابا من بلاء عظم الا أنه أحسن لقاء
الموقر بطرس الذى شغل نفسه منذ رجوعه من القدس بسفند المهمة
التي ألقى على عاتقه ، فوعده ايربان وعدا من الرب الذى هو خادمه
انه مبادر لمساعدته فى مسعاه الذى جاء اليه من أجله متى لاحت له
الفرصة .

حينذاك اشعلت حذوة الحماسة الزكية فى نفس بطرس الذى
راح يندرع كافة أرحاء ايطاليا وعمر جبال الألب ولم يترك أمرا من

الامراء الا راره ، غير مدخر وسعا في حثهم جميعا وحديثهم ولومهم .
فنجحت تحذيراته - بفصل الرب - في حمل بعضهم على المبادرة
الى الحروح لمساعدته احوابهم الذين مسهم الملوى ونزل بهم الصر .
رعبة منهم في الا يدعوا الأماكن المقدسة - وهى البقاع التى يعطف
السند فسرقتها بحضوره وصانها عن أن تدنس بالخبائب .

ولم يكف بطرس بما أثمرته دعوته بين الأمراء وحدهم ، لكنه
طلع الى أن تؤدي تحذيراته القوية الى تحريك نفوس العامة واهل
الطبقة الدنيا ، واشعال جذوة حماسهم للقيام بنفس الواجب .

وبنما كان يتسق طريقه في بطاء بين الممالك والنسوب راح
- فى وفاء صادق لرسائله وفى نشوة روحية مقدسة - يبشر بنفس
الرسالة بين أفقر الناس وأدناهم ، ورعى المسيح مسعاه البار فكان
من عطفه عليه انه لا يكاد يدعو الناس حتى يؤتى دعوته أكلها طبة .
وأصبح ببشيره هذا ضروريا أشد الصرورة للبابا الذى أجمع أمره
على أن يتبعه دون ابطاء الى ما وراء الحمال ، ذلك . لان كلام بطرس
كان يفتح قلوب سامعه لطاعته فلا يجد البابا صعوبة فى دعونهم
الى نفس الأمر الذى يؤدى الى تحقيق هدفه تحقيقا يحمله قادرا على
التأثير فمهم .

- ١٤ -

كانت السنة سنة ١٠٩٥ من مولد السيد المسيح وهى الثالثة
والاربعون من تنويع هنرى الرابع ملكا على الامان ، وهنرى هذا
هو الثانى عشر من أباطرة الرومان ، كما كان بحكم فرنسا فلبس

الحروب الصليبية ١ - ٩٧

الأول بن هري الأول ملك العربيه العظيم ، ورأى الزمان ايربان
- وفسدك - ان خب نبي ادم قد حاور كل مدي ، وأن كل
سئ بندى الى اسفل كما لو كان ينجو الى السر ، ومن ثم عقد
مجما لكل ايطاليا في « بياشيزا » فكان هذا المجمع خطوه احسج
اليها كل الاحياح لرد غلو الناس ، فلما انتهى هذا المجمع عادر
البابا ايطاليا فرارا من غضب الامبراطور عليه ، وعبر جبال الألب
ودخل مملكة فرنسا حيث نسلم ناكيدا بينا عما سمعه حالا من
الأخبار بين منه أنه لم يعد أحدا ما في أية ناحية يكره بالدر
العلوبه ، الى حاب استحقاف الساس بتعاليم الأناجيل وبلاشى
الايمان ، وبانت كل نعمه وفضله مهدده بالخطر وفقرت مملكة السر
ودوله الطلام فاهل لبيلع الجميع .

ونظرا لمكانة البابا ايربان الثانى بعد كان شديد الميعة المردة
السبيل الذى يسلكه للقضاء على الرذائل والخطايا الفاحسه الذى
كانت للأسف تزداد شاعة حتى لتكاد أن تبتلع الدنيا ناعمها .
لذلك عزم على الدعوه لمجمع عام عقد أولا في « فيريلمه » ثم في
« بوى » ، حتى اذا حل سهر نوفمبر احنم باسم الرب في كرموب
- احدى مدن « أوفرن » - مجمع مقدس من الأساقفة ورؤساء الادبه
من شتى الواحى والولايات الوافعة وراء حمال الألب ، بكلهم
الرعاية الالهة .

وحضر هذا الاجتماع أيضا بعض أمراء تلك الولايات دابها .
كما قررت فيه التنظيمات التى يمكن أن تؤدى الى التخلص من
الظروف غير الملائمة التى تمر بها الكنيسة ، وكان هذا القرار ساء
على نصيحة رجال الدين وأهل التقوى ، كما أذيعت المراسم الى
كان برحى منها أن يساعد على تقويم الأخلاق وتصحيح الأخطاء
الجسيمة .

ولما كان بطرس الباسك يسعر بالمسئولية الكبيرة بحاه الرساله
التي حملها ، فقد رأى أن هذه الاجراءات ربما أدت الى عوده السلام
الذي يبدو وكأنه قد تلاشى من الدنيا .

وأحرا ألفى ابرام عطفه وهي كما بلى .

- ١٥ -

« اعلّموا أيها الاخوة الأعزاء ، وحق لكم أن تعلموا كيف أن
قادی الجنس البشري قد نزل في بجالده هبكل بسري لخلاصنا
حمصا ، وعاش يسا كائنسان ، وكان مجننه نجيدا لأرض المبعاد
الى وعد بهما من قبل ، والتي داعب شهرها بأعمال الباموس
وبالمعجزات المتكررة التي قام بها ، وهذا ما يشير اليه العهدان :
العديم والجديد في كل ما بصمناه بعربا ، وأن الواضح حقا أنه
أحب تلك الأرض حبا صادقا منذ أن نعطف على ذلك الجره من
الأرض - أو بلفظ أدق - على هذه البقعة الصغيرة قسمها بميراثه ،
رغم أن للرب « الأرض (١) وملؤها المسكوبة وكل الساكنين فيها »
ومن ثم فانه هو القائل أيضا بصوت أشعيا (٢) « مراني اسرائيل »
والقائل أيضا (٣) « ان كرم رب الحدود هو ست اسرائيل » .

(١) مراصر ٢٤ ، ١ ، ٤٩ ، ١٢ .

(٢) اشعيا : ١٦ ، ٢٥ .

(٣) اشعيا ٥ ، ٧ .

وعلى الرغم من أنه كرس الدنيا بأكملها منذ البدء لنفسه
 إلا أنه اسعى المدينة المقدسة على وجه الخصوص لتكون خاصة به ،
 وذلك بسهادة النبي القائل « الرب (١) أحب ابواب صهيون أكثر من
 جميع مساكن بعبود » ، وقد نُفِلَ في هذه المدينة أحوال كبيرة رائعة
 فهناك أكد محلصا بعاليمه وعداياه وقيامه من بين الموتى أن الخلاص
 إنما يكون في أرضها ، لذا فقد أُخِيرَ تلك المدينة منذ البدء لتكون
 شاهدا على هذه الأمور ، ولتكون هيكل الأسرار ، واختيرت حقا لتكون
 خاصة لمن اصطفاهم بقوله : « اهتفي يا بنت اورشليم » هو ذا ملكك
 يأتي إليك من أجل اورشليم المدينة التي اخترتها لنفسى لأضع
 اسمي (٢) فيها .

لكن على الرغم من أن خطايا أهلها حملت الرب العادل على أن
 يوقعها مرة بعد أخرى في أيدي الشريرين ، ويجعلها تكابد فظاظهم
 فترة من الوقت ، إلا أنه لا ينبغي أن يذهب الظن بأحد إلى أنه دخل
 عنها ونهبها منذ النشأة لانه مكتوب (٣) « ان الذي يحبه الرب
 يؤدبه ويجلده » .

ولكنه يغضب على من يقول له (٤) « لذلك ... أحل غضبي
 بك فتصرف عيرى عنك فأسكن ولا أغضب بعد » ومن ثم فإنه يحب
 هذه المدينة حبا لا تطغى حذوته وأنه القائل (٥) « ستكونين أكليل

(١) مزمور ، ٨٧ ، ٢ .

(٢) ملوثة أول ، ١١ ، ٣٦ .

(٣) عبراني ، ١٢ : ٦ .

(٤) حزقيال ، ١٦ : ٤٢ .

(٥) اشعيا ، ٦٢ ، ٣٠ ، ٤ .

جمال بيد الرب ، وناجا ملكيا بكف الهك ، ولا يعال بعد ذلك
بهجوره ولا يعال بعد لارصك موحنه بل يدعي حصديه وأرصك
يرعى بعوله لان الرب يسر بك (١) » .

وان مهد ايماننا ، ومهبط رأس مولانا ومبمع الخلاص فد
تملكها الآن عموة شعب غير مثاله ، هو ابن الجارية المصريه [هاجر]
لدى يفرص على أباء المرأة الحرة [ساره] ظروف بالعة السوء حتى
قالت : « اطرد هذه الجارية وابنها » .

★★★

لعد ظل جنس الشرفيين (٢) البغيض عبر سموات طوال مصب
يسيطر سلطانه على الأراضى الطاهرة التى مشى عليها السيد قدمه ،
ثم خضع المؤمنون للعهر ، وراحوا ينخبطون فى قيد الأسر ، ودخلت
الكلاب الأماكن الطاهرة وذنس الهيكل وضربت المذلة على عباد الرب ،
واليوم ها هو ذا الشعب المختار يحمل الأحوال التى لا يسحقها ،
وها هم رجال الدين مسرقون ، والكرامة ساقطة فى الوحل والطين ،
وأصبحت مدينة الرب - التى هى فوق كل مدينة - محكومة
لا حاكمة ، فمن ذا الذى لا تنفطر نفسه كمدا ، ولا يذوب قلبه
حسرة حيث تخطر بباله هذه الاهانات !!

« أيها الاخوة الأعزاء : من ذا الذى يستطيع سماع هذا كله
ولا تبكى مقلته ؟

» لقد غضب يسوع فطرد من هيكل الرب حميم من اتخذوه

(١) سفر التكوين ، ٢١ - ١٠ .

(٢) وقد يمكن ترجمتها بالمسلمين لأن لعد Saracens أصبح فى كتب
الغربيين فى العصور الوسطى وعند بعض المؤرخين المحدثين مرادفا لكلمة «المسلمين» .

مكانا للبيع والسراء ، حتى لا يصير بيت أبيه - وهو بيت الصلاة - معاره للصوم ومأوى للشياطين (١) .

« لقد كان هذا هو الذى أثار الحماسة الكريمة في نفس القديس مابوس - السلف العظيم للمكابيين الطاهرين كما يشهد بذلك هو نفسه اذ يقول : « لقد أصبح الهيكل شبه اسنان ملا شرف ، وتلاشت كل الآثار الرائعة » .

« ان مدينة ملك الملوك التى نقلت الى الآخرين بواسطة الامم السلم قد دانت رغم أنفها الى برهاب الخوارج ، كما أن كنيسة القمامة المجيدة التى هى آخر مكان رقد فيه السيد نقاسى حكمهم وباطح بأوساح أفوام لن يكون لهم حظ القمامة بل كتب عليهم أن يطلوا في الجحيم الى الأبد ، كأنهم همسم النار لا ينطفئ لهيبها أبدا ، كما أن الأماكن الموقرة المخصصة للأسرار الالهية ، والمواضع التى عرفت السيد زائرا لها بسخصه ، وشاهدت آياته ، وباليها حسابه ، وبحسم فيها كل البراهين الدالة على ذلك فى ايمان صادق قد عدت مداود للماشية وحظائر للبهيم ، كما أن أحسن الناس الذين باركهم رب الأبواب قد تعالى أنسهم من حراء عبء الخدمات المفروضة عليهم ولا يستطيعون الحلل منها ، ولا يُقدون عليها الا الأحمس .

وان أبناء هذه المواضع - وهم أغلى مهر للكنيسة الأم - قد ألقى القيص عليهم ، وسبقوا أذلة ، وأرغموا على خدمة الخوارج المدسسين ، حتى ينكروا اسم الله الحي القسوم ، ويطلق شفاههم الطاهره بالبجديف فيه ، فاذا امنعوا ذعرا من أوامر الكفار الآثمة

(١) متى ٢١ - ١٢ - ١٣ .

• دبحوهم بالسيف دبج الأصاحي فيدخلون في عداد الشهداء الأبرار .

« ان الدين استهكوا حرمة المقدسات الديسه لا يعمون حرمة
للمكان ولا للناس ، ولا يسورعون عن فعل الفس واللاويين ،
ويرعمون العذاري على ارتكاب الفحشاء والا كان الموت بالعذاب من
بصبيهن ولم يشفع عندهم للعجائز شبخوخهن » .

« الا فالويل لنا نحن الدين بعين في نعاسه الرمن الخطير الذي
نبأ به الملك الطاهر داود المختار من الله ، وشكى منه اد قال (١)
« يارب ، ان الامم قد دخلوا ميراثك وجسوا هبكل قدسك » ،
وقوله (٢) . « الخطاه يستحقون سمك يا رب ويدلونه ، حتى مي
الطعاه يا ربى يسمون ؟ منى يا رب بغضب كل الغصب وسفد
كالار غرنك ؟ » « هل الى الدهور يرفض الرب ولا يعود
للرضا » « حتى منى يا رب نخشى كل الاخساء » « اذكر يا رب
مادا صار لنا ، اشرف وانظر الى عارنا » الويل لى حين ولدن
لأرى هذا البؤس المحق بسعوى وبالبلد المقدس وأن يسام الى أيدي
الأعراب (٣) » .

• « أنت هو ملكي ، يا الله باسمك ندوس العائمن عاسا » (٤) .
• فحسب « لا بطنوا انى جئت لآلقى سلاما على الأرض بل سفا » (٥) .
• فساحوا أنفسكم أبها الأحباب بحماسة السيد فبه نطع مضائقنا ،

(١) مرامير ، ٧٩ ، ١

(٢) مرامير ، ٩٤ ، ٥

(٣) راجع المكايي ، ٢ ، ٧

(٤) مرامير ، ٤٤ ، ٤

(٥) مى ، ١٠ ، ٣٤

وإذا أحس أحدكم بالحمية لسريعه الرب فليتضم الننا ، وهيا بنا
نمضى لحطم العمود الى تكبلنا ونلقى بعيدا بحبالهم عنا ، فالروح
نفسه سهد أيضا لأرواحنا أننا أولاد الله ، فان كنا أولاده فأننا
ورثه أيضا ووارثون مع المسيح » (١) وأذهبوا وليكن الرب معكم ،
ووجهوا السلاح الذى سحذموه لقتل بعضكم البعض الى صدور أعداء
الملّة وخصوم المسيح .

« ان مملكة الرب لى يكون لى أحرموا فسرخوا ومن اتهموا
باشعال النار عن عمد ، ولا لمن نهبوا الناس وسفكوا الدماء
ولا لأصحاب الحرائم الأخرى المسابقة لهذه فى طبيعتها .

فأطيعوا الرب الطاعة التى يرضاها ، عسى أن تنزل عليكم
رحمه سريعا ويكون لكم سفاعة القديسين فيغفر لكم ما اقترفتم من
خطايا أنزتم بها حق الرب عليكم فاستشيط غضبا .

« وعلى ذلك فمحن محدروكم وموصوكم باسم الرب بالعمل
على النظهر من خطابكم وذلك بمشاطرة اخواننا سكان القدس
وما حولهم فى مصائبهم وآلامهم ، وكونوا شركاء لهم فى اوث ملكوت
السموات ، وعليكم أن تكبحوا بكل عضبة ديسة وقاحة الكفار الذين
يحاولون اخضاع الممالك والولايات والدول ، وأن يحاربوا ما وسعكم
الجهد هؤلاء الذين أجمعوا العزم على ازالة الاسم المسحى ، فان لم
نفعلوا ذلك فان كنيسة الرب التى لم نرتكب اثما سوف تفقد الايمان
سريعا وتكون السيادة لجهالة الوثنية ، ولقد رأى بعضكم يعنى
رأسه هذه الأمور التى نكلم عنها الآن ، وعرف مدى الأهوال التى
يحياها أولئك الأسقاء ، وان رسالتهم التى أحضرها بده ذلك الرجل
الموقر « بطرس » الموحود معا الآن لتحمل نفس الأمر .

« ومن ثم فتقة منا برحمة الرب ، وبقدرة الحوار بين الطوبانيس بطرس ويولس لنعبر خطايا المسيحيين الصادق الذين يحملون السلاح لقتال الكفار ، وينحملون مسقة رحله الحج هذه . وضع عنهم كل عقاب مفروض عليهم بسبب آثامهم ، ولسق الداهبون الى هناك بنه صادقه وبقة نامة بغفران خطاياهم ، وبحصولهم على النعمة الأبدية . »

« كما أننا في الوقت ذاته سوف نبسط حمايه الكنيسة ورعايه المباركين بطرس ويولس على من ينهضون مسلحين بايمانهم الصادق لحمل عبء محاربة الكبار ، وسندرحهم في عداد أبنائنا المطيعين المحلصين » ونرسم بأن يطمئنا ، وألا يخالجهم أدنى خوف على أملاكهم وذويهم ، فإن اجتراً أحد ما - أثناء هذا الحج - على أن يسبب لهم ضيقاً أصدر أسقف ناحبته قرار الحرمان ضده ، ويظل فراراً مصطلاً عليه عند الجميع حتى ترد المسروقات ، وحتى يقدم العويص الملائم عن الأشياء المفقودة ، كما أن الأساقفة والعساوسة الذين لا يقعون موقفاً صلباً ضد أمثال هذه الأحداث سيعاقبون بحرمانهم من ممارسة مهام وظائفهم حتى ينوبوا ؛ لنالوا رحمة الكنيسة الرسوليه « هكذا ختم [البابا ابربان الثاني] موعظه ، وأمر جمع الحاضرين اذ ذاك من رجال الكنائس بالعودة الى أبرشياتهم لكرسوا أنفسهم لما سمعوه ، ولتسعدوا سعيائنا لحث أبنائهم على النهوض الى الحج . »

ولما فرغ [ابربان] من هذه الرسالة أمسك عن الكلام وانفض المجمع الذي راح كل من حضره يودع أخاه و يرجع الى موطنه ؛ وانصرفوا متصاعين في صدق وإخلاص لسفينة قرارات المؤتمر (١) . وحب الناس جميعاً على النواصي بحفظ السلام الذي ائلف الناس على تسميته « بسلام الرب » . وصدر الأمر بعدم اعاقه من عزمو

(١) أي مؤتمر كلرمونت .

على لرسله ، وألا نهم في وجههم العرافل أساء انخدعهم الاجراءات
اللامر للسكر .

- ١٦ -

وزياده على ذلك فانه نظرا للخدمات الجليلة التي أداها بطرس
للدين ، فان الله انعم عليه - وهو الخادم المطيع المبشر . ذو الهمة
العالية الرائعة - بالبلاعة والعصاحة ، ووهبه القبول الحسن في عمون
الجمع حتى ان كلماته كانت تبدو وكأنها وحى من الله ، اد تلقاها
القوم - صغرىهم وكبرىهم - بالرضا والامسال ، غير عابئين بما يطوى
عليه نعتها من هنيئة .

ولم تكن الحماسة الدينية لهذا الحج فاصره على من اسمعوا
اليه شخصا . بل تجاوزتهم خطبته - حين داعب طولا وعرضا -
الى من لم يكونوا حاضريها ، فبثت فيهم رغبة عارمة للصيام بنفس
الرحلة ، كما صدع الأسوغة بما أمروا به ، مطهرين البدن الكريم
فدفعوا أرباعهم للسعر للحج ، ودأبوا على النسل في ربوع أسقفائهم
يبدرون بدور الحياة بين الناس ، وما كان لحيه منها أن يموت اذ كانت
لا نفع الا وبؤى أكلها طيبة مباركة ، ومن الحق أن نقول أنه تحقق
كلمة السيد (١) اذ يقول « ما حثت لألقى سلاما بل سبعا » ، فقد
انفصل الروح عن روحه والمرأة عن بعلها ، وفارق الآباء أرباعهم
والأبناء آباءهم ، ولم يستطع أى رباط محبة أن يحول دون هذه
الحماسة . كما عادر كبير من الرهبان أديرهم ، وفعل السناك

(١) مى . ١٠ . ٣٤ .

فعاينهم فتركوا صوامعهم الى احدى طواعة ملحقا يقيم فيه كل واحد منهم على انفراد « حبا في الله » .

لكن الرب لم يكن مع الجميع في عملهم هذا ، اذ لم يكن الحصافة - ومي أم الفصائل كلها - محركهم الحقيقي ، فقد شارك البعض البعض الآخر حتى لا يفرقوا عن بعضهم ، ونهض آخرون حتى لا يهيموا بالنراخي والكسل ، وساهم غير هؤلاء وهؤلاء بدوافع نافهه ، أو عساهم بخروجهم هذا يهربون من دائنهم الدين أنقلوهم بالديون العادية ، وهكذا كاتب هناك أسباب مختلفة أسرع بالجمع الى نفس الهدف ، ولم يكن هناك في بلاد العرب أى اعراف بالسن أو الجنس أو التوضع أو الظروف . كما لم يستطيع أحد منع أحد من الصام بالرحلة مهما زوى له الكلام ، بل اشد البعض البعض دون تمييز بين الواحد والآخر فكانوا جميعا يدا واحدة ، وأقسموا كلهم السمين بقلوبهم وأرواحهم ، وبدا الانجاز الحرفي لما جاء في الكتاب (١) من انه « سئسى أهم كرهة من بعد تمتدح اورشليم وسجد لها ، ويحملون الهدايا في أيديهم » .

لقد تلقى الكهرون ممن حصروا مؤتمر « كاهمونب » هذه الكلمة الراسخة بفرح عظيم ، وكان على رأسهم « أديمار » أسقف « بوى » ذلك الرجل الطاهر الذبل العاطر الذكر ، والذي صار بعدئذ النائب للبابا ، فسار بسحب الرب في حملته هذه سرره ملؤها الصدق والاخلاص .

كما كان من بسهم أبصا « ولسم أسقف أورنج » الصادق الاسان والذي صاف الله .

(١) طويا ، ١٣ - ١١ - ١٥ .

ودب (١) نفس الحماسة كذلك فى نفوس أمراء جميع الممالك الذين لم يحضروا الاجتماع ، اذ راح كل واحد منهم يسبح صاحبه ويستعيدون للسفر الذى حددوا يوما معنا له يكون بعد انمام جمع ما يلزم من الاسعدادات وبعد ان يجمع كل رفاقهم ، والحق أنه يبدو كأن العناية الالهيه هي التى رببت الحمله التى سلكم عنها . وكان الأوامر صدرت اليهم من الرب ، ذلك أنه لم يكن يشاع أن أميرا ما من الأمراء قد قطع العهد على نفسه بالحج حتى ينوافد الناس عليه زمرا اثر زمر ، يتوسلون إليه أن يسمح لهم بالانضمام الى جماعه ، ويعترفون بسيادته عليهم ، ويعطعون العهد على أنفسهم بالطاعة والاخلاص له ، ولما كان المل (٢) يقول عار على أن انخلف عن الناس اذا كان الطاعون قد أخذهم حتى آخر واحد فيهم ، فقد أسرعوا الى تجهيز أنفسهم بكل ما يلزمهم ويحتاجون اليه ، وكانوا يتزاحمون ويسابق كل منهم الآخر ، والحق أنه كان تكرسا الهيا لان نار التطهر هذه كانت لازمة لمحو خطايا الماضي وحب آثامه التى كانت - وا أسماها - كبره حدا ، كما كان الانصراف لتدبير السفر معبدا فى منع ارتكاب الخطأ بعد ذلك ، بعد أن كانوا قد حادوا عن طريق الرب وأساءوا السر مع غيرهم .

وقد اتفقت الآراء جميعا على قبول ما اشترطه البابا من قيام كل من أقسموا على السفر لهذا الحج برسم شارة الخلاص على ثيابهم ، ألا وهي الصليب الزاهى ، وبذلك يحملون على أكافهم

(١) جاء فى الترجمة الانجليزية الى اعتمادها ، وباء على ما ذكره Man i Sacrorum conciliarum nova et impmissima collectio, vol xx. col. 923.

أن كل ذكر بلغ الثانية عشرة أو أكثر كان عليه أن يقطع اليمين كل ثلاث سنوات على حفظ سلام الرب ومراعاته .

(٢) رد المرحبان الأمريكيان هذا المثل الى هوراس Horace · Ars Poet. 417

ذكرى الذى عزموا على رياره الساحيه الى سهدب آلامه ، وكابوا
فى عملهم هذا مقلدين للسيد الذى أسرع الى هناك من أجل خلاصا.
لأه : « يولد لنا ولد ، وتعطى ابنا وتكون الرياسه على كفه » (١) .

ويبدو كأن الآيه النالبة من سعر أسعما سير الى هذه الحركة
حيث يقول ان السيد (٢) سوف يرفع رايه للأمم ويجمع منفيي
اسرائيل .

وظهر أيضا نمام كلام السيد حرفا بحرف مصداقا لعوله (٣):
«ان أراد أحد أن يأتى ورائى فليترك نفسه ويحمل صليبه ويسمى» .

- ١٧ -

عمد الأمراء النالبة أسماؤهم من كلتا المملكتين الى نعو به
عزائهم بعلامة الصليب ارتباطا منهم بالحج القادم :

السادة المشاهير : هيج الكبير شقيق فلب الاول ملك
الفرنجة ، وروبر كونت فلاندرز ، وروبر كونت نرمندى ابن
وليم الاول ملك الانجليز ، وستيفن كونت شارنرز وبلواوالد كونت
تيوبولد الكبير ، وأديمار أسقف بوى ، ووليم أسقف أورنج ،
وريموند كونت تولوز وسبل حيل ، مع آخرين غيرهم من الرجال
العظماء .

كما ذهب أيضا المحارب الباسل لورد جودفروى العظيم دوق
اللورين ، ورحل معه كذلك أخواه اللوردان بلدوين وأستاس ،

(١) اشعيا ، ٩ : ٦ .

(٢) اشعيا ، ١١ : ١٢ .

(٣) متى ، ١٦ : ٢٤ .

وصحبهم كذلك بلدوين الملقب سورج وهو قريب الاحوه الثلاثة
واين لورد هيج كونت ريبيل ، وحاسه دى جراى ، وبلدوين كونت
هينولب ، وايزور كونت ديبى ، وروولد كونت اوريچ ، وولم كونت
فوريز ، وكونت سسغن دوماال ، وروبرو كونت برش ، وهيج كونت
سب بول .

وممن صحبتهم من علية العوم وان لم يكونوا من فئة
الكونتات : النبلاء اللامعون الذين تقدموا طواعية من تلقاء انفسهم
وهم :

هنرى دينس ، ورالف بوحنسى ، وايفرارد دى بويسيه .
وجاسون دى بارف ، ووليم امانجو ، وجاستون دى سزيه ،
ووليم دى مونلييه ، وجيرارد دى رؤسيلون ، وجيرارد دى شريزى ،
وروجر دى بارتفيل ، وجى دى بوسسا ، وحى دى جارلاند سكال
ملك الفرنجة ، وتوماس دى لافير ، وحالن دى كالفوموت .

• ركما : سار بطرس الناسك بطائفة كنفه من الناس جمعهم
يمشقة كبيرة من مملكة [فرنسا] وامبراطوريه [آلمانيا] .
• وحاه من الحانب الآخر من جبال الالب بوهيموند امير مارنو
ابن روبرت حيسكارد دونى ابولنا ، وابن اخيه تانكريد ، وكثرون
غيرهم لا نعي داكرنا اسماءهم ولا نحصى عددا .

وظل جميع هؤلاء - مع فواب ضخمة من اهل القسال فى
لنظام السعاة . الملائمة للانضمام للكنايب الحربية المسححة ، وهم
على اتم امانة لاسفل : ابرواجمهم لتحمل : اموال حج عظيم كهذا الحج
مرضاة للمسيح .

ومن ثم فما كاد الشتاء ينصرم ونبدأ بباشير الربيع فى المظهر
ونسكر شدة البرد ويعود الحو اللطيف يغمز الدتتا حتى هتوا

حسادهم ، وأعدوا سلاحهم ، وجمعوا ماعهم ، كما طل من أزمعوا
 الخروج معا على اتصال بعضهم ببعض ، وحددوا موعدا دفيعا
 فيما بينهم والساعة التي رأوها ملائمة لبدء مسيرهم ، وابعقوا أين
 يكون ملتفاهم ، واستعرضوا المسالك فاختاروا أيسرها عليهم
 وأسرعها في ابلاغهم عايهم . واد لم يكن في قدره أي اقليم أن يشفر
 وحده بوفر المئونة لهذه الآلاف المؤلفه من الناس فعد ربوا ترتيبا
 دقيقا أن يقوم كل واحد من الأمراء الكبار بالسير على انفراد بمن
 يبعه من القواب ، ويسلك طريقا لا يسير فيه سواه ، وابعقوا على
 ألا تلتفي هذه الحشوش الا في مدينة « نقة » .

لهذا - كما سشرح عيما بعد - سار الدوق [حودفردى]
 ككتائبه من طريق المجر ، واتخذ كونت بولوز واسقف بوى طريقهما
 عبر « دلاشبا » أما الزعماء الآخرون فاحترفوا « أبولبا » وبذلك
 وصلوا في النهاية الى المسطنطينة ، وان لم يكن بلوغهم حسعا في
 وقت واحد بل في أوقات مختلفة . وأعدوا في الوقت ذاته العباد
 الذى رأوه كافيا لرحلة طويلة كهذه الرحلة ، وراح كل منهم بغير
 المال الذى نطلبه هذه السفرة بما يتناسب وطول الطريق ، كل
 ذلك وهم ناسون أن الأمور كلها بد الله وليس بيد البشر لأن
 الانسان في ضعفه لا يعلم ما يائى به الغد .

لم تكن بم دار واحدة من دور جمسع ولايات الغرب ساكنة
 هادئة ، بل كان كل امرئ منهمكا حسب امكانياته في ترتيب ما يهمه
 من أموره الخاصة ، فهنا الأب يدبر شئون أسرته ، وهناك الابن
 وثم الأسرة كلها منصرفة لاعداد ترتيبات السفر .

وحاص رسائل كثيرة نعت بها أولئك الذين أزمعوا الرحل
 في وقت واحد ، سجع كل منهم الآخر وبخذه الناخر في الخروج .
 وبصحه بالبكر فيه . ولما أخذ الذين قلنا انهم قادة الجماعات

المحلقة فى دعوة البقية وعد انزعوا انفسهم من احضان اعزائهم
وسط العويل والرفرات ، وقد ودع كل منهم الآخر ونبادلوا القبلا
فما بينهم ، ثم رحلوا ، وكان خروجهم فى جو من الانحباب
والولولة ، فرى الامهات يصحبن الأبناء وبرى البنات يودعن الأبناء
والاخوات والأنساء ، أما الزوجات فانطلقن يودعن أزواجهن حاملات
اطفالهن الرضع على أذرعهن .

فلما فرغن من الوداع الأخير زحن يابعن بنظرات حادة من
لا يسطمس مصاحبهم أبعد من ذلك .

- ١٨ -

كان وولتر المجلس الشريف النبعة والمحارب الكمى أول من
بهض للحج خبب بدأ رحلته فى اليوم الثامن من سبتر مارس
عام ١٠٩٦ من هولد المسح ، واستنصحب معه طائفة كبيرة
من الجبل المساء ، أما الفرسان الذين كانوا معه فلم يزيديا
عن سردمة ضئيلة ، فلما عبر بهم مملكة النيوتون دخلوا بلاد
مملكة المجر الى كان الوصول اليها أمرا عسيرا لكثرة المسقعات
التي تغطي معظم بواحيها وأحداق الأنهار الكبيرة بها ، ومن ثم لم
يكن فى استطاعة المسافرين الوصول الى المملكة أو الخروج منها الا من
أماكن معينة شديدة الضيق .

كانت مملكة المجر حينذاك تحت حكم أشد الملوك نمسكا
بالمسيحية ، ألا وهو الملك « كولمان » الذى ما كاد يعسم باقتراب
« وولتر » وكان يعرف خبر رحلته ويسنصوب هدفه التكريم حتى
رحب بدخوله مملكته ، وسمح له أن يسير فيها بحملته ، كما أذن

له بعقد سوق عامه ، فسار « وولسر » في بلاده آمنا ، وبلغ نهر « ماروس » سالما ، وهو الحد الفاصل المعروف به بين المجر والسرغ ، ثم عبر النهر ووصل بفواحه الى أرض البلغار في مكان يعرف « ببلجراد » .

لم يكن يدور بخلد [وولسر] أن طائفة من جماعته قد تحلب وراءه على الجانب الآخر من النهر في موضع يعرف باسم « سمان » لسراء الطعام وما لا غنى عنه في الرحلة ، فأمسك المجرئون بهؤلاء الرجال وجردوهم مما عليهم من الساب وضربوهم ، ثم أرسلوهم بعد ذلك الى أصحابهم خاوى الوفاض ، فحزن القوم جميعهم حزبا عميقا للمحنة الطامة التي حاقت برفاقهم ، ومع ذلك فقد أقنوا نمام البعين أنه من الصعب عليهم - بل من المستحيل - أن يعودوا فنعبروا النهر أخذا بالسار لما في ذلك من تأجل مسيرتهم ، فأرأوا - في ظروفهم الراهنة هذه - أن النفاذ عن المضرة التي أصابتهم إحدى عليهم من المبادرة الى القسام بعمل طائس لا يستطيعون احرازه ففعلوا على ما فعلوا نادمن . واذ كان أملهم في الله الذي بهصوا من أجله عظيما فقد انصرفوا عما أرادوه ايمانا منهم بأنه ما من مصيبة باقاهها حشد المسيح الا والرب غر مهمما بل معاصب عليها بمسليا لأنه وعد أتباعه بذلك اد فال (١) : « تكونون مخرضين من الجميع من أجل اسمي ، ولكن شعرة من رؤوسكم لا نهلك ، وبصبركم اقتنوا أنفسكم » . ومن ثم ساروا لطبهم ، ومضوا في طريقهم حتى حاءوا - كما قلنا - الى « بلجراد » فوحدها « وولسر » فد سأل الدوى حاكم أهلها أن يأذن لهم بعقد سوق ينابيع فيه ، ولكنه رفض رحاءه ، فلم يجد اذ ذاك بدا من أن يضرب معسكره أمام المدينة ، واذ كان عاجزا عن كبج حماح حسنه الحائم فقد الكبر

من رجاله ، ذلك لأن عسكره لما وجدوا أنفسهم عاجزين عن الحصول على أى شئ من البلغار اطلقوا للحبس عن الطعام ولم يتحرجوا عن أية وسيلة لالتماسه دفعا للجوع الذين عضهم ببابه ، فقدر لهم أن يأتوا الى قطعان من الماشية والأغنام كانت للبلغار فأخذوها قسرا وسافوها الى المعسكر ، فلم يكده أصحاب القطعان يعلمون بما جرى لها من بيب حتى هسوا الى أسلحتهم وكروا على [اللابن] كرة ضاربه مجمعين العزم على اسرحاعها ، وهاجموا اللصوص الذين كانوا يسوقون الدواب أمامهم ، وفتكوا بهم غير جماعه دواهمائة وخمسون رجلا قدرت لهم النجاة انفصلوا عن بقية رفاقهم ولجأوا الى كنيسة صادفوها فى فرارهم فأضرم العدو فيها النار ، فمات حرقا من اعتصموا بها الا فلة لاذت بأذيال الفرار .

ولما أدرك « وولتر » أنه يقود جيشا عبيدا لا يعرف النظام ولا يكترب بما يفعل فقد انفصل عن ابعوا شهواتهم اتباعا أعجزه عن كبح حماهم ، وسلك ببقية عسكره مسلكا فيه الحكمة والحرص ، فأحاز بهم غابات بلغاريا الكنيفة ، حتى انتهى السير بهم أخيرا الى « سرالكا » (١) وهى مدينة حملة من مدن « داكيا الوسطى » ، فصرح لحاكمها بما لحقه من الخسارة وشكى اليه الكبة التى حاقت ظلما بسبب الله على يد البلغار وطلب منه أن يعوضه عن ذلك كله ، فعامله هذا الدوق معاملة كلها عطف عليه ، لانه كان رجلا مستقيما يحاف الله ، وصرح لهم بإقامة سوق يستطيع الجيش أن يشتري منه ما يحتاجه بثمان معقول ، وكبل لا تطفف فيه ، وزاد فوعدهم أنه غير حاجب عنهم ما يحتاجونه مما يفرضه نواامس الانسانية ، كما أمدهم بمرشدين يدلونهم على بقعة الطريق حتى يبلغوا المدينة

(١) رجعت الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب أن تكون هذه المدينة هى « صوفيا » فى الوقت الحالى .

الامبراطوريه ، ولما وصل « وولتر » الى القسطنطينية جىء به الى
حضرة الامبراطور ، ونجح فى الحصول من جلالته على اذن يسمح
له بانزال جيشه قرب البلد وبعبء سوق للتجارة ، على أن يكون
ذلك الى حين ، حتى يصل بطرس [الباسك] الذى كان قد اذن
للولر أن يسير تحت قيادته .

- ١٩ -

ما كادت سقضى فترة وجيزة بعد الاحداث التى ذكرناها حتى
زحف بطرس عبر « لوتاريجيا » و « فرانكونيا » و « هافاريا »
والاقلنس المسمى بالنمسا ، وكان تحت امره جنود ضخم يكاد يقرب
من اربعين ألفا جعل منهم جيشا على اختلاف أممهم وقبائلهم وألستهم
وشعوبهم ، فلما أشرف بهم على تخوم مملكة المجر بعث برسالة الى
ملكها ، فجاءه الاذن فى سر بالدخول ، على أن يسير فى المملكة فى
هدوء ، عبر محدث ارجاها ولا مسب شغباً فاستجاب بطرس لما
اشتراطه الملك ، وبادر بالانتفاع من هذا الاذن ، ودخل المملكة
بعسكره ، وأمدّه أهلها بكميات كبيرة من الطعام قدموها اليه بثمان
معقول ووفق شروط طيبة ، فتقدم العسكر فى هدوء الى المدينة
« سملين » التى أسرها اليها ، حيث حاصم بها ما حاق برعايهم الذين
يسعدهم بقيادة « وولتر » وما عوملوا به من معاملة دنئة على أيدي
أهل تلك الناحية ، فلما طالعوا ما كان معلقا على أسوار المدينة من
أسلاب وسلاح رفاقهم رمزا لانتصار المجريين عليهم أغضبهم ذلك
كل الغضب وحسبوا انتصروا أسلحتهم واقتحموا المدينة عنوة ، فلقى
غالب أهلها مصرعهم اما قتلا بالسيف أو غرقا فى النهر القريب
منها ، ويقال انه هلك فى هذه الحركة الهوجاء ما يناهز أربعة آلاف

مجرى ، وكان ذلك غفيا يكافئ جرمهم ، ونقول الأخبار أن « بطرس
فقد فى هذا اليوم مائة رجل فقط من رجاله ، فلما فرغ الحجاج من
الاستيلاء على المدينة بقوة السلاح أقاموا بها خمسة أيام سوبا
بسبب ما وحدوه بها من وافر الطعام .

★★★

كان دوى السعار المدعو « بيكيناس » هو المستول عن رفض
السماح لولتر وجيسه بعقد السوق ، فلما برامى الى سمعه خبر
انتقام عسكر بطرس من مدينة « سملين » بسبب المعاملة التى كان
قد صادفها حسى ولتر سرب الخوف الى نفسه من أن يزل به
هؤلاء نفس العقاب لانه لم يكن يريثا من هذا الموضوع ، ولما كان
« نكيناس » غير واثق تماما من وسائل الدفاع عن مدينة بلغراد
التي يحكمها فقد عادرها ، وغادروها فى اثره سكاكها جميعا
مستعجبين معهم مواشهم ودوابهم ، ولادوا الى الغابات فرارا الى
ما بها من المحابى والأماكن السرية .

وبينما كان بطرس لا يزال مقيما بالمدينة المغلوبة على أمرها
حاءه الأخبار بأن ملك المجر - وقد هزه نبأ المذبحة التى حرب على
شعبه - اسدعى اليه فوانه الحربة من شتى أرجاء تلك الناحية
واستعد استعدادا جبارا للثأر لهذه الدماء المهرقة ، فبادر بطرس
فى لحظته الى الاستيلاء على جميع السفن الراسبة على طول النهر ،
وأمر حسه تركوبها والعبور بها على وجه السرعة ، فاسجبنوا له
وأخذوا معهم ما وحدوه بالمدينة المنهوبة من ماشة ودواب ، وحازوا
ما بها من أغلى الأسلاب حتى توفر بن أيديهم من ذلك كبرة فوق
الوصف ، ولما تم نقل كل شئ الى الشاطئ الآخر ضربوا معسكرهم
أمام بلغراد التى وجدها مهجورة من أهلها ، وسار بطرس من هناك
من معه ثمانية أيام اجتاز خلالها غابة كثيفة بالغة الاتساع ، خرج

مها الى « بنس » ، وسار من خلعه كل الجيس بما معه من عربات
ومركبات وقطعان الماشية والدواب .

ومدينة « بنس » هذه شديدة الحصانة بفضل سورها وأبراجها
الى بحمها فوه كثره من السجعان والأبطال ، فعر جس [بطرس]
النهر الذى يجرى الى جوار المدينة من حسر صخرى ، وضرب معسكره
على مقربة منه .

كانت المثونة التى معهم فى الزحف قد أخذت فى النفاذ ،
وأصبح العسكر يواجه نقصا بسا فى الطعام ، ومن ثم بعوا برساله
الى حاكم المدينة يتوسلون اليه فى لهجة رفيقة أن يادن لهم بافامه
سوق بسروط كريمة وأسعار معسده ، ويكون السوق حافلة
بمطلبات الحاة اليومة الضرورية لهؤلاء القوم الحجاج الذبن
خرجوا امتثالا للأوامر الالهية ، فأحابهم الوالى بأنه عر مسطعم
الاذن لهم بذلك الا اذا بسوا اليه أولا برهائن من رجالهم ناكدا
لعدم قيامهم باحداث أى أذى ، وأنهم لن يقدموا على أى عمل من
أعمال العنف نصيبون به الاهالى العاملين بالسوق ، وارىصى الطرفان
هذا الشرط ، وأرسل [اللابن] اليه الرهائن ، واذا ذاك مضى
المواطنون من المدينة حاملين معهم بضائعهم .

- ٢٠ -

توفرت كميات هائلة من الزاد لكل الجيس . وجرى التعامل
بين الجانبين بيبعا وشراء على أحسن ما يكون التعامل ، واصرم اللابن
فى هدوء تام ، والناس من كلا الجانبين يتحدثون بعضا الى بعض فى
مودة ، حى اذا بلس تباشير الصباح عاد الرهائن الى قومهم وأخذ

الجيسى يئاهب للمسير ، وبينما كانوا على وشك الرحيل - أو بلفظ أدق - بينما كان الجانب الأكبر - ان لم يكن الجيسى كله قد أخذ فى الرحيل ، اذا بجماعة قليلة من طغام الناس ودعاة القوضى يمر يستحقون لعنة الله عليهم قد حدثهم نفوسهم بأحداث سُغِب نافه فى الليلة السابقة أثناء شائهم بعض ما بلزمهم من رجل بلغارى ، فاستحبوا ليلًا من الصغوف النى كانت قد رحلت وأضرمو النار فى سبع طواحين كانت موحدة قرب الحسر وفوق الهر المذكور ، فأنت النار عليها كلها حتى صارت رمادا .

كان أباء الماعون هؤلاء - وعددهم قرابة مائة شخص - من سبب السويون الدس لم يكف العمل السرير الذى ارتكبوه فى اطفاء غصصهم المجنون ، بل رادوا عليه فراحوا يقدفون بالنار بوب طائفة معنة من الناس تقع خارج الأسوار فأحرقوها هى الأخرى ، ونفوسهم ملأى بعس الضغنة ، فلما فرغوا من حريمهم هذه أسرعوا للانضمام الى بقعة الحس البرىء مما فعلوه ، وساروا كأنهم غير ساعرين بما ارتكبوه من الاثم .

كان حاكم المدينة قد بلغاهم فى الليلة السالفة لقاء بالغ اللطف ، فلما رأى نكرانهم لأفضاله عليهم اضطر لندبير حطة بعاقبتهم بها بدلا من منابعة الاحسان اليهم ، وترهى هذه الخطة للقضاء عليهم قضاء لم يعرف النصفة فيه ، اذ عدهم جميعا لصوصا مخربين ، وأخذ الحس كله بحرمة سردهم قلبين ، ومن ثم استدعى اليه الأهالى وأمرهم بحمل السلاح ، ولم يباخر هو ذاته عن قادتهم بنفسه فكانوا جمعا كبيرا ، وراح يسجهم بالقول والعمل على مطاردة الصليبين كما لو كانوا ماضين للنار من فجرة دنسين ، وأصبح أهل البلاد كلهم رحلا واحدا ، قد توجت مساعريهم ، وبقدموا مهاجرين القوات الى كانت قد سبقت غيرها ، ثم كروا على المؤخرة

كرة عنيفة وراحوا يعملون سيوفهم فيها . ثم جاءوا الى أولئك المعساء الذين لم يكونوا قد انضموا بعد الى الجيش الأصلي فهاجموهم بسدة ، وجرعوهم كثوس الموت دهافا ، كما أوقعوا نفس العقصاب ، ان قصدا أو عفوا — بكثير من الأبرياء ، فأخذوا البرىء بجربره المذنب ، واسنولوا على العربات والمركبات المحملة بسمى أنواع المئونه ، وعبدوا السيوخ والعجزه والساء والصسا والبنات الذين تم يستطيعوا اللحاق بقمة القوم ، وساروا بهم ، فسمى غليلهم ما سفك فى المذبحة من دماء العلى ، ثم عادوا الى المدينة محملين بالغنائم .

- ٢١ -

راح بطرس فى هذه الأساء بقدم بطلعة عسكره وكمار رجال الحملة وهم على جهل تام بالكارثة التى أصاب رفاقهم حتى طالهم فحاة رسول يخب به حواده على عجل ، حاملا لهم نأ الفاحمة ، وأسهب لهم فى شرح قصة القبض على رفاقهم اسهابا ما كاد يصافح أذننى بطرس حتى نادى فى العسكر أن يوافقوه ، واستجاب لنصحة أهل البحرية منهم ، فكروا راحمن عبر الطريق الذى تقدموا منه طوال اليوم كله ، فلما طالعبهم حنب اخوانهم الصرعى — وكانت برهانا على المذبحة — لم يستطيعوا امساك أنفسهم عن البكاء والعيول . ثم وقفوا أخيرا للمرة البانة أمام المدينة فى المقعة التى كانوا معسكرين فيها الليلة البارحة .

لم تكن عند بطرس ومن معه من زملائه الذين كانوا أحسن من غرهم فى سبطرنتهم على انفعالاتهم الا فكرة واحدة وقرض واحد بالسيسة لهذه المسألة . . . لقد عادوا لكتشفوا

سبب الفاحشه . ولحاولوا ازالة دواعى الرعاع حتى سلكوا من
مناحه رحله حثيم فى امان اكبر ، وذلك حين يسبب السلام
استسانا باما وبعد على اكمل وحه بين السعيين ، ونصرو
النفوس من كل سائبة . فأرسلوا الى حاكم المدينة والى سموها
من أجل هذه الرغبة رحالا أهل قطه وادراك للمسئولية ، وعهدوا
البهم أن يقصوا الحقائق والطروف التى أفضت الى ذلك السغب
الصحائى ، واهراق كبر من الدماء البريئة .

فلما وقف الرسل على سبب [هذا الشقاق] بين لهم أن
الأهالى لم يعمدوا الى حمل السلاح جزافا بلا مبرر يدعوهم للفصم ،
ولما لم يكن الوقت ملائما للمطالبة بالسار جزء ما ارتكبوا من
الأخطاء ، فقد بذل الرسل غاية جهدهم لمحاولة اعاده السلام الى
محراه ، نأن يعاد الى رفاقهم كل ما فقدوه من الغنائم والماع .

وبسما كانوا يسعون سعيا حسنا للوصول الى هذه الحامية
والى انقاص يرضى الطرفين ، اذا بهم يسمعون ضجة هوجاء فى
المعسكر سببها العواطف المناجحة النائرة ، وأدكاها تهور بعض
الأشخاص الذين لا يكثرئون بسىء ما ، ولكنهم أرادوا سلوك طريق
العنف للانتقام لما وقع عليهم من أضرار .

وطمع بطرس فى بهدئة ثائرتهم وإزالة ما قد يؤدى الى مذبحه
أخرى ، فاختار رهطا من المسئولين أصحاب النفوذ القوى وأرسلهم
الى الرعاع فى محاولة منه لمنعهم - وهم فى سورة غضبهم الحونى -
من مهاجمة الأهالى ، فما أحدث هذه المحاولة نفعا ، فقد رفضوا أن
يسمعوا الى تحذيره المجدى ، واذا ذاك أصدر أوامر صريحة الى
الجسس عن طريق المناادين أن يلتزم كل واحد يمين الطاعة التى فى
عمقه له ، فلا تحاول بأى صورة من الصور أن يساعد أو يعضد الذين

يريدون المحرق سلوكم الطائس على سجب السلام الذى عاد
برفرف الآن من حديد علمهم •

واسجباب الجيس لهذا التوجيه وعده أمرا لا معر من الحصوص
له ، واذا ذاك ركن الجميع الى الهدوء اننظاوا لانتهاء البوره الأولى
ومعرفة نتائج الأمر كله •

أما الرسل الدين كانوا ذهبوا الى الحاكم لعقد الاتفاى بد
رأوا العكس من ذلك ، وأن الأهالى لم يمكن بهدئة ثائريهم ، بل ان
غضبهم راح يزداد عنفا بين لحظة وأخرى ، فلما أدركوا الا أمل
فى نحاح مهمتهم السى جاءوا من أحلها ببذوا هذه المحاولة وراء
ظهورهم ، وعادوا الى المعسكر لمساعدته رجل الرب بطرس فى احداث
ناثرة الغنة ، لكن هذا كان ضربا من المسحبل ، فقد اندفع فرائة
ألف من الباس فى هذه المحاولة المجنونة ، وكانوا فى عدهم هذا
يمائلون عدد من هب من أهل البلد ، وبمخض الأمر عن مءركه
شرسة حرت أمام المدينة •

ورأى من بداخل المدينة أن السعاف قد بس من هم خارجها .
واد كانت الغنة قد وقعت على كره من بطرس وعلى الرغم من أمره
الصريح ، فقد راودهم الأمل فى وقوف نقرة الجبش بمعزل عنه
لا تمد له يد المساعدة ، واد ذاك فمحووا مزالج الأبواب ، واندفع
حموعهم هادرة ففتك بما يقرب من خمسمائة رجل من رجالنا الذين
على الحسر ، والذين كانت بقبتهم كلها لا تعرف مواضع المحاضبات ،
ولا تدرى شيئا ما عن الموقع بأجمعه ، فابتلعها النهر ، فلما رأى
العسكر هذا المطر هبوا سراعاً الى أسلحتهم لأنهم لم يعودوا قادرين
على تحمل الأحوال التى انصبت على رقاقهم ، والتقى الجمعان
المتعاديان وجها لوجه فى معركة وحشية أسفرت عن مذبحة مروعة .

فكان الحطب فى هذه المرة أشد من سابقه ، ولم يستطع العامه ولا الرعاى غير النظاميين أن يصمدوا أمام ضغط البلغار عليهم ، فتخلوا عن موضعهم ولأذوا بأذيال الفرار ، فتأثر بهذا الهرب الجنوى آخرون كانوا يحاربون ببسالة ، فاقفوا أثرهم وفعلوا فعلهم •

على هذه الصورة هرب الجيش كله •

فلما صدعت الصعوف وانفرد عقدها ، لم يعد يوجد أحد ما يحاول المقاومة ، وفى وسط هذا الاضطراب فقد بطرس كل ما كان الأمراء المخلصون قد أهدهوا إياه من الهدايا ، كما ضاع كل ما كان عنده من مئال كان قد اعزم بدله فى سد حاجات الفقراء وأهل الغاقة فى أثناء الطريق ، وذلك بسبب استلاء العدو على العربة التى كانت تحمل هذه الروة ، فضاع كل شىء بضياعها •

أما البلغار فقد حددوا فى أثرهم بقصونهم وانضب يملأ حواجمهم ، فقارب من قتلهم منهم عشرة آلاف مسيحي ، واسنولوا على العربات ، ونهبوا ما عندهم من الماع ، وسبوا كثيرا من النساء ، واسرقوا العديد من الأطفال •

فأما الذين سلموا من الوقوع فى أيديهم فقد التمسوا النجاة فى الفرار إلى أعماق الأدغال التى لا يمكن الوصول إليها ، وكان من أصعب الأمور استدعائهم للرجوع فى اليوم الثالث ، إذ أخذوا يدقون لهم الطبول ، وبنفخون الآباء ، حتى التفوا حول بطرس هم ومن تبعهم ، وارتدوا جمعا إلى بل صغير يرتفع بعض الشئ عن السهل •

ولما كان اليوم الرابع وفد تجمعت القوات المسردة ، وأقبل الهاربون من الأماكن الخفية التي ظلوا منوارين فيها ثلاثة أيام سويا ، وصار عدد الجيش الذي عاد بعضه الى بعض يعرب من ثلاثين ألفا نهشوا من جديد لمتابعة الزحف ، وعلى الرغم من سلوكهم الطائس الذي أدى الى ضياع ما يقرب من ألفى عربة نعل ومركبه حمولة من أيديهم ، الا أنهم استنصروا العسار ان لم ينجزوا حتهم فعادوا لمواصلة رحلتهم تحت ظروف بالغة المشقة ، اذ بسما كانوا يهيمون بالسر رغم حاجتهم الملحة الى المثونة اذا بوفد من الامبراطور يصل الى المعسكر مزودا بالأوامر الامبراطورية الصادرة الى بطرس وغيره من قادة العسكر ، فخطبهم الرسول علانية بقوله :

« أيها السادة السلاء العظام : لقد وصلت الى سمع الامبراطور شائعة بضمن رمكم بيهمة شسعة ذات طبيعة نكراء ، ونقول انكم سرتن سررة خرفاء في امبراطوربه ، وانكم اركنتن أمرا اذا في حق سكان البلاد وحق رعاياه ، وأنتم القلائل والاضطرابات ، فاذا طمعتم في أي وقت في نوال عطفه ، وأن نفعوا عند حالته موقع الرضا فاننا نهاكم - بأمره - ألا تفكروا في المقاء بأى مدينة من مدنه أمدا يحاوز ثلاثة أيام ، وعلكم أن تسدوا رجالكم سرعا الى القسطنطينة في انضباط ونظام نامن ، وسدل الجس على الطريق ، ونعتنكم بما تحاونه من الطعام بنمن مقبول » .

شدت هذه الكلمات من عزيمه القوم ودفعنهم حاجتهم للطعام الى التردد ، كما أن رافة الامبراطور أنعشت الآمال في نفوسهم ، فراحوا يشرحون للمبعوث الامبراطورى بعض الظروف التي أدب الى الاضطراب الآخر مدافعين عن أنفسهم ، ومرثين عنده ساحتهم ،

ويحدثوا عن تذرعهم بالصبر فى احتمال البلى التى أنزلها السيفار
 بهم طلما وعدونا ، فلما فرغوا من كل ذلك ساروا - كما وجههم -
 راسدين حتى بلعوا القسطنطينية بعد رحله سافه ، فاما باعوها
 وجدوا بها « وولس القلس » وقواه التى كانت معه فى انتظار
 قدومهم ، فانصم المعسكران بعضهما الى بعض ، وخموا فى الموضع
 الذى حصص لهم ، واستجاب بطرس للاستدعاء الامبراطورى .
 فدخل المدينة ووقف فى الحضرة الملوكية التى سألته عن مقاصده
 من وراء هذه الحركة الكسرة ودوافعه اليها ، فأسهب بطرس فى
 شرح الأمر اسهابا دل على ما هو عليه من فصاحة اللسان وقوه
 الحنان . وأخبره أن أكبر أمراء العرب فادمون فى أثره ، وهم رجال
 مخلصون فى خدمه الرب .

ولقد أظهر [بطرس] روحا عالية ، واملاكا لناميه البلاغة ،
 مما حمل كبار رجال القصر على الاعجاب بعظمته وشجاعته ، بل ان
 الامبراطور دانه مال اليه كل الميل وأثنى على هدفه ، ثم صرفه بعد
 هذا الاستقبال الكريم ، محملا بالهدايا الرائعة ، وأمره بالعودة الى
 حننه الدين معه .



كان الحس قد أقام فى هذا الموضع بضعة أيام أسج لرحاله
 خلالها أن يعموا بالراحة وما طاب لهم من المأكول ، ثم صدر الأمر
 الامبراطورى بتزويدهم بالسفن يعبرون بها البسفور الى « بسسا »
 وهى أول الولايات فى منطقة آسيا ، ويحدثها نفس البحر الذى باغوا
 مكانا يقع عليه اسمه « سيفتوت » فأقاموا به وضربوا معسكرهم فيه .

كانت البعثة الى عسكر فيها الحسن نعم على نحوم بلاد العدو ،
فظلوا مقيمين بها أمدا فارب السهرين امامه طيبة ناعمه ، بوفرت
لهم بها سنى صوف المثوبة . كما أنه في حلال هذه العمره كانت
هناك كميات ضخمة من البضائع تعرض عليهم كل يوم للبيع ، كما
أنبخت لهم فرصة من الاسنجم الذى كانوا في مسيس الحاجة
اليه ، غير أن هذه النعمة العظيمة من الطعام والفراغ الكبر حولت
هؤلاء التعساء والجفاء الى قوم اسبى بهم الطيش ودفعتهم البلهنة
الى يتقلدون فى مطارفها الى الصلف ، فكونوا من سبهم جماعات
لا تاتمر بأمر أحد ، وراحوا يتوغلون فى البلاد - على غير رضى من
رؤسائهم - لمسافة بلغت عشرة أمال أو أكثر ، فساقوا منها قطعان
الماشية والدواب .

وطالما جاءتهم كتب من الامبراطور يحذرهم مقبى ما يمترون ،
وينهاهم عن التجرد على الإبعاد أو استفزاز العدو ، ويأمرهم بالبقاء
فى الموضع الذى خصص لهم ، وأن يتهجوا النهج القويم الى حين
وصول فوادهم الذين قيل انهم فادمون وراهم .

وخاف بطرس على من وكلت اليه رعايتهم فذهب الى المدينة
الامبراطورية عساه يحصل على تخفيض ثمن ما ينسرونه ، وعلى
ظروف أحسن فى المتاحرة ، فاعتنم العسكر المشاكس الذى لم يالف
الظام فرصة تغيب بطرس ، وساروا سيرة رغاء حين قامت
طائفة منهم ، فوامها سبعة آلاف جندى من المشاة الذين يمانلون من
ذكرنا فى غمهم ، وانفصلوا عن الجيس الأصلى ، وضموهم
ثلاثمائة فارس وزحفوا جميعا على نقيية من غير اكترات باعراض
رفاقهم الآخرين على مسلكتهم هذا ، ورتبوا صفوفهم للحرب ،

واندفعوا فساقوا من صواحي المدينة عددا كبيرا من المطعمان
والأغنام ، وعادوا بها سالمين الى المعسكر .



ورأى جماعه من السيون وغيرهم من يكلمون لعنهم ما صادفه
اللانين من الجحاح فى غزوبهم هذه ، فنملكتهم هم أيضا الرعبة فى
مجاواتهم فى السلب والنهب ، وأجمعوا العزم على القيام بعمل
هذه المحاولة ، مؤملين أن يحوزوا من العفر لأنفسهم مثل الذى حازه
هؤلاء ، وأن يرفهوا عن دواتهم فجمعوا من هذه الأمة [السيونية]
ما يقرب من ثلاثة آلاف شخص ومائتى فارس ، ورحلوا بهم على
نيقية .

وكان فى ذلك الاقليم - وعلى بعد أربعة أميال من نعمة
نفسها - مدينة حصينة تقع على سطح أحد النلال ، فدنا منها هؤلاء
النيون وهاجموها أعنف هجوم ، وأحدقوا بها من شتى النواحي ،
واسولوا قسرا على ذلك المكان رغم استبسال أهله فى مقاومتهم .
لكنهم فكوا بهم وملكوا كل شئ فى البلد ، ثم أعجبهم جمال الناحية
وغناها فحصنوها بحصنات قويا ، وأجمعوا العزم على البقاء هناك
حتى يصل القواد .

- ٢٤ -

كان [قلح أرسلان بن] سليمان [بن فطامس] صاحب هذه
الأرض وحاكمها قد علم قبل ذلك بأمد طويل بقدوم الزعماء
الصلبيين ، ومن ثم حشد جيشا كثيفا من السجكان الذين

لا يحصيهم العد من نواحي السرى ، نادلا في سبيل ذلك كل وسائل
الاغراء والمال ، وعاد بهم الى هذه الجهات ليمد يد المساعدة المنسودة
الى أهالى الناحية ابتغاء صد هجمات العدو ، فلما بلغه الخبر أن
التيوتون الذين ذكرناهم حالا قد استولوا على احدى قلاعهم ، بادر الى
الزحف عليهم ، وحاصر القلعة حصارا شديدا ، وحكم السيف في
رفاب كل من وجده فيها •

ووصلت أنباء هذه النكبة الى المعسكر [الصليبي] ، وسرعان
ما تردد الصدى بأن طائفة الميونون الذين غادروا المعسكر منذ
قريب قد هلكوا عن بكرة أبيهم على يد فلح أرسلان . فاسبغ الدمع
بنفوس القوم من هذا البأ ، ولم يستطعوا أن يكتموا ما عمل به
صدورهم من الأسى ، فأسلموا أنفسهم للبكاء والأيس ، حتى اذا
أصبح الحميم في البهاية معروفه لا حياء فيها عم الاضطراب جميع
الناس في المعسكر ، وارتفعت صيحاتهم عالية تلح الحاحا شديدا
ألا يسكتوا عن هذه المكبة التي نزلت باخوانهم ، وتنادوا بأن يهب
الفرسان والمشاة لحمل السلاح للخروج ثارا لسم رفاقهم المقولين.
وكان أعظم رجال الجيش وأهل الخبرة في مثل هذه الأمور راعين
في اطاعة أوامر الامبراطور ، فلما أرادوا التغلب على هذا الموضوع
وكبح حماس العامة الطائشة ثار الناس ضدهم وتمردوا عليهم ،
ورأسوا عليهم واحدا منهم اسمه « حودفروي » ويلقب « ببوريل »
وكان صعلوكا ، وجعلوه قائد هذه العصابة ، وراحوا يصبون اللعنات
على رموس أصحاب المكانة العليا ، زاعمين أن عدم اتاحة الفرصة
للائتقام بالسيف ممن قتلوا اخوانهم انما يرجع الى الجبن ، أكر
من أن يكون صادرا عن تفكير سليم •

كانت العلبة أحياءاً لمسته العناصر الشريفة ، فحملوها وراءهم النساء والأطفال والنسوان والعزل من السلاح ، على حين سلك الكبار . فجمع معهم رهط كانوا خمسة وعشرين الفا من المشاة المدحج بالسيوف ، ومائتين من الفرسان المجهزين أحسن تجهيز بما عندهم من الرردباب ، وصعدوا صفوفهم للقتال ، ورحلوا في القباب المسار إليها ، وكانت وجهتهم ناحية التل في اقليم نيقية ، وما كانوا ينقدموه ثلاثة أميال في القابة حتى كان قد بلغها أيضا فلق أرسلان على رأس جيش من قومه كالدبي كره ، وراح بعد السير سطر معسكرنا الذي ذكرنا موضعه من قبل ، قاصدا مباعسه بالهجوم ، وترامب الى الاسماع صحاح وصحاح غير مألوفة صادرة من القباب أنشأته أن الصليبيين قد غادروا مخيمهم ، وأنهم في الطريق لهاجمة ، فبادر في لحطه الى مفادرة القابة والنزول الى السهل المسطح ، ففعل رجالنا متلما فعل [فلق أرسلان] ، غير شاعرين بانفراط العدو منهم ، فلما اكسفوا أنه أدنى ما يكون اليهم هوا للانقضاض على ، وراح كل واحد منهم بسجج الآخر وسدد من عريضة ، وأحاطوا به منسرين سيوفهم لننقموا بأيديهم لدم اخوانهم المرافين لكن يسما كان رجالنا مندفعين الى الأمام بعلوب ملوها الحمه والغيرة اذا بسنؤف العدو نلقاهم ، وذلك لأن الترك - وقد أيقنوا أنه طرائع حتى الموت - قاوموا مقاومة عنيفة ، يذكينا غضبهم العارم ولا يهتروهم بكنزة جندهم ، واستبسل الجانبان اسبسالاً قوتياً رائعا لكن دائرة أخرى على الصليبيين بسبب كره خصومهم ، ولما لم بسنطع رجالنا أن يتحملوا شدة المعركة أكثر مما تحملوا فقد اضطربت صفوفهم ولاذوا بأذيال القرار ، فانقض على الترك سيوفهم وتعقبوهم حتى معسكرهم ، وأعملوا فيهم مذبحه شنيعة .

رأى دبل حتى عده المعركة بصعده رجل من دوى المكاهه في
معسكر بطرس ، منهم « وولير » الفليس ، و « ريسه دى بروس »
و « فولنر دى أرنلاندز » وغيرهم .

أما الخمسة وعشرون ألفا من الجند المساة ، والخمسمائه
فارس الدين كانوا قد حرقوا من المعسكر ، فقد راح معظمهم ما بين
فيل وأسير .

- ٢٦ -

دبت الشنوة الكبرى في أعطاف فلج أرسلان ، وهزبه العرجه
الطاغية لهذا النصر الذى حازه ، ولما لم يعد بأفيا أحد قادرا على
مقاومته فقد حكم السيف فى رقاب الأحياء ، عر مسبق على من
الحياه أحدا مريضا كان أو عرجورا ، رجلا كان أو امرأة ، وهلك
الرهبان وجميع رجال الدين ، لم يسن من هؤلاء كلهم سوى من
لم يبلعوا سس الرشد من الصنان والبنات الصغيرات الدين كان
يقيم عنده بهاء طلعتهم وصغر سنهم ، ولم تكن استنأؤه اياهم
الا لضرب عليهم الرق .

★★★

وكان على الساحل قرب المعسكر حصن قديم نصف حرب ،
ليس له أبواب ولا مزالج ، وليس من أحد يقيم به ، فالتجأت
الضرورة طائفة من الحجاج تقدر بثلاثة آلاف حاج الى الهروب الى
هذا الحصن والاعصام به ، اعتقادا منهم أنهم واجدون فيه الملاد
الأمين ، وحاولوا الدفاع عن أنفسهم فى موقفهم العصب هذا لسد

الحروب الصليبية ١ - ١٢٩

مداحاه بدروعيم رد لاجار الصحه بدحرجونها الى هناك. كى يحولوا بين أى أحد من الافراب منه . ولكن الترك شددوا عليهم الحصار فلم ينع هذه السدة المحصورين من الاستسسال دفاعا عنه حتى ردوا مهاجميهم على أعقابهم ، كما أرسلوا فى الوقت ذاته رسولا على حياح السرعة الى بطرس يحبره بهلاك جماعه ، وأن الغله النافه منهم على سد الحاة يكابدون حصارا سديدا ضربه العدو عليهم فى قلعة نصف خربة ، وأنهم فى مسس الحاجة للطعام والسلاح . فبادر بطرس بالضى من ساعته الى الامراطور . واستطاع بوسلايه اليه وبصرعانه أن يحمله على أن يرسل فى لحظه هذه بعض الغراب الى هناك . وألقى ليدا العسكر أمره بانعاد الأحياء منهم من الخطر الذى يكسبهم . فأنجروا ما كلفهم به على أنم وجهه ، اذ ما كاد الترك يسمعون بأمر الامراطور حتى كفوا فى الحال عن مهاجمة ذلك المكان . واستحبوا ومن حلفهم أسراهم ، وعادوا الى نقطة ، كما حملوا بالاصافة الى ذلك أحسب الأسلاب والخم والفساطبط والحناد والمعال وجميع التجهيرات التى يهبوها من الصلبيين .

وهكذا فان الطمس الجوى الذى كان عليه هؤلاء القوم الجفاه عبر البطلمس ، انصرفوا عن الأحاد بمسوره من هم أحكم منهم قد أدى بهم الى الابداء الشاملة ، ولما لم يكونوا معتادين على النظام المحمود فقد سلكوا سبيلا لم يجنوا من ورائه خيرا ، واصبحوا بها لسوف العدو .

بعد فترة وجيزة من وصول بطرس الى « سسبا » قام سيسس
بوتونى اسمه « جوسوك » سار فى أثر خطى بطرس يحده السرى
لأداء رحله الحج هذه . ولما كان حوسوك قادرا بالطسعة على
اسماله الناس اليه بكلامه فقد استطاع اعراء كسر من السرىون
فى جميع رحاب تلك المملكة على الاسنراك فى هذه المهمة ، حتى دجيه
لدبه منهم قرابة خمسة عشر ألف حاج دخل بهم المحر ، لم دى
كندا . كما استجاب المجريون من حانهم الى أوامر ملكهم فعدوا
المضائع بأثمان معقولة الى رجال جس « جوسوك » الذين اطرهم
وفره الطعام بن أبدهم ، فاسلموا أنفسهم الى البطانة والكسبل ،
وانغمسوا فى الشراب لعبون منه عبا ، وأساءوا السره مع الأهالى
والحقوا بهم سرورا كسرة اذ راحوا ينهسونهم ، وامدت أدبهم
بالسرفة الى المضائع المعروضة للبيع فى الأسواق العامة ، واخرحوا
السثات فقتلوا الناس غير مراعين أصول الضافة .

فلما وصلت أخبار ما فعلوا الى الملك اسنبد به الفص ، فأمر
أن ينادى فى كافة أرجاء مملكه أن يحمل الناس وكبار ملاك الأرض
السلح للقضاء على هذه الأخطار الكبيرة ، لا سيما وقد اركب فى
كسر من الواحي تحاوزات مهلكة ، بلغت من العار حدا يعوق
الوصف ويعف اللسان عن ذكرها ، وكان من المسجل على الملك
أن يفض الطرف عن مثل هذه الجرائم والا اتهم بالجبن ، وحلب
على نفسه كراهة شعبة له ، ومن ثم تحمعت فواب المملكة ، وكروا
كرة رجل واحد غاضب على الصليبين ، باعناهم أعداء يستحقون
الاستئصال الدام ، وأجمعوا العزم على الفتك بهم انقاما مما احرحوا
من الأثام .

وأخيرا نسى لغوات الملك أن يعير على طائفة من هؤلاء المجابين
 الفوضويين في مكان يعرف « ببلجراد » يقع وسط تلك المملكة .
 وكان هؤلاء (السنون) قد سمعوا بزحف الملك ، وأبصروا بمام
 العين من حقه الشديد عليهم ، كما أزعجهم شعورهم بما اقتربوا
 من الحرم ، ورآهم المجريون - وقد حملوا سلاحهم - عازمين على رد
 القُرّة نازحه فأرادوا درأ الخطر عن أنفسهم ، لكنهم أدركوا إستحالة
 الاشتباك معهم دون أن يفقدوا الكثرين من رجالهم ، ذلك لأن هؤلاء
 المسححي [السنون] كانوا في الواقع رجالا ذوي بأس وشجاعة ،
 وهبته في استعمال السلاح ، فأبوا أن يسلموا أرواحهم من غير
 قتال ، ولذلك فإن المجريين - حريا على مألوف عادتهم - حاولوا أن
 يسألوا بالحناء ما يعجزون عن بيله بالعنف ، فأرسلوا وفادة الى
 « حوسوك » وزعماء حسه ، يطمئنون خواطرهم - خديعة -
 بالكلمات المعسولة .

- ٢٨ -

لقد قالوا لهم .

« أنه تراهي الى سمع الملك الشكوى المريرة من فعال جنسكم ،
 وقل له انكم أنزلتم برعاياه الخاضعين له كثيرا من الأضرار البالغة
 والأهوال التي يعجز اللسان عن ذكرها ، وأنكم ساربنهم حسن
 المعاملة التي عومل بها عسكركم بأسوأ ما يكون الجزاء ، ومع ذلك
 فإن الملك يدرك بحكمته تمام الادراك أنكم لستم جميعا نعملون وور
 هذه الجرائم ، وهو واثق أن فيكم رجالا حكما ممن يمتليء فلو بهم
 بحسنة الله لم يرضهم فعال الآخرين الشريرة ، وأن هذه الجرائم

التي أثارت عن حق الحق الملكي قد نمب على غير رضى هؤلاء وأنهم حدثت رعم اسسكارهم ، ولما كانت رغبة الملك ألا يؤدى خطاياهم الى تأئيم الكل ، وألا يؤخذ البرى بحريته المذهب فعد قرر أن يكبح جماح غرضه حتى لا يصيب اخوانه فى الملة المسححة بضرر ، ومن ثم فانما ننصر عليكم أن تسيسلموا وتسلموا كل ما معكم الآن ، بما فى ذلك سلاحكم ، دون قيد أو شرط ، واضعين ذلك كله فى يد الملك حتى يذهب عنه غضبه تماما ، فان لم تفعلوا ذلك لم سيطر أحد منكم النجاة من الموت - لأنكم - بوجودكم فى وسط ممالكهم - لنتم أكفاء لنا فى القوة الحرسية ، كما أنه لا قدرة لكم على الدخا من بطسه » .

☆☆☆

ظهر منذ البداية عدم رضاء « حوسوك » ورؤساء حرسه عن المسلك الجنونى الذى سلكه شعبهم العنيد ، لكن بساطة قلوبهم دفعتهم للقة فى اعتبار رحمة الملك أمرا لا يخالف السك فيه أحدا ، ومن ثم فقد حملوا عسكرهم بالقوة تقريبا على الإذعان لفكره تسللم أنفسهم وسلاحهم وكل ما تملكه أيديهم الى الملك ، وبذلك يكهرون عما ارتكبه من آثام حرحه ، وانتهى الأمر أخيرا برضائهم عن نكرة أنهم بما يقرر ، هذا على الرغم من احساحهم العنف ، ومهادم السديد للحرب دفاعا عن أنفسهم ، بد أنهم ما كادوا يفرغون من تسللم أسلحتهم وجميع مناعهم لقواد الملك ورسله حتى وحدوا الموب فى انظارهم ، بدلا من العطف الذى كانوا يتوقعونه ، اذ قام المجرىون بصاغته التوتون على غرة منهم ، وكروا عليهم فى الوقت الذى كان فيه هؤلاء عزلا من كل سلاح ، ابمانا منهم برحمة الملك ، وثقة منهم به ، وأعمل المجرىون قهيم مذبحة من أسس المذابح فى السعد عن الانسانة ، دون تفرقة بين الصالح والطالح منهم وأسفر

الأمر عن عرق المكّن كله فى بحر الدم المطلول ، واملائته بحسب العلى
 واسهى الأمر بهلاك هذا الجمع الكيف الذى لم يبق منه سوى بحر
 قليل نجوا من الهلاك السامل ، ممن سملهم رحمة الرب فلم
 تأخذهم سموف المجريين ، فعادوا الى وطنهم يفصون حبر المدبحة ،
 ويروون نبأ المصير المشئوم الذى لقيه اخوانهم على من اربطوا بالعهد
 ممن كانوا على وسك القيام بذلك الحج دانه وأسعدوا البصيح لهؤلاء
 الحاح الجدود بحوب اصطباع الحكمة فى سرهم ، واخذ أكبر قدر
 من الحذر من هذا الشعب الدنى ، لما ارتكبه من خيانة لن نمحي من
 الأذهان .

- ٢٩ -

فى هذه الأثناء - أو بعدها بقليل - نجيعت من بلاد العرب
 رمر كسعه لا يحصنها العد من المناسة ، كانت نحرهم نفس الرعة
 [فى الحج] ، واطلقوا لم يزعموا عليهم أحدا أو سجدوا لهم
 مرشدا ، وزحفوا من غير هدنى ولا نبصر أو حكمة ، على الرغم من أنه
 كان بينهم فى الواقع رجال من أصل شرف ، أمسال « نوماس
 دى لافر » و « كلاربولدوى فندبل » ، و « ولهم البجار » وكوب
 هارتمان وغيرهم ، غير أن القوم كانوا لا يعرفون الانضباط فلم يطيعوا
 هؤلاء السادة بأى صورة من الصور ، وضربوا عرض الحائط
 بما أُنشأ به عليهم أهل الحجى والبصرة ، فانطلقوا على وجوههم
 هبا وهناك ، مقرفين الفعال التى يرفضها القانون ، ويركبون
 ما يملبه عليهم شهوانهم ، ومن ثم فقد ركبوا من الجنون والسطط ،
 مع أن واجبهم كان بحسب عليهم أن يحملهم خوفهم من الله على السير
 فى هذه الرحلة الباهضين بها سيرا كله طاعة للأوامر الالهية ، وأن

يلزموا تمام الالتزام بال نظام فى حجهم الذى يقومون به من احل
المسح ولكنهم كانوا لا يملرون بمدينة أو قرية الا ونبوا على من فيها
من يهودها فذبجوههم من عبر أن نأحدهم رحمه . ولم يكن اليهود
قد أأدوا حذرهم منهم اد لم يكن هناك ما يحملهم على أن يوحسوا
منهم سرا فمخافونهم .

وقد وقعت هذه الاعداء على وجه الخصوص فى مدينى
« كولوبا » و « مسز » حب كان الكونت « امبكو » أحد سلاء
ومسهورى تلك الباحة الاقوياء قد انضم بالكبرى من نعوه الى
عصابات الخاج ، وكن [امبكو] بالنسبة الى مكانه ملرما
دما بعرصه عليه هذه المكانة من النميك بالأحلافات . الا أنه لم
يكن بالنسبة الى بسحب الناور فى السلوك ، مسار على
العكس من ذلك ، اد ساهم فما اركبه آساعه من أعمال الفساد
والسر ، وزاد على هذا فراح يسجعهم على افراف الحرائم .

اخبرف هذه الجموع كلها « فرانكوسا » و « بافارنا » حى
بلعب باحة يدعى « مسبورج » (فزلبورج) على نحو المجر ،
وكادوا يوقعون السماح لهم بالدخول من عبر صغوبة ، لكنهم
ما كادوا يرون المدخل مفاقا فى وحوهم حى وقعوا على هذا الداب
من الجسر .

وكان فى الباحة قلعة شديدة الحصانة بفصل حانة بهرى ،
« الدانوب » و « لبثا » لها ، وكذلك المستنقعات العميقة المحطة بها .

وتعول الأخبار ان عدد الحس الذى رحف الى هناك فارب
مائى ألف حدى من المساة ، وثلاثة آلاف من الفرسان .

يضاف الى ذلك أن ملك المجر أصدر أوامره بعدم السماح
لهؤلاء العسكر الراغبين فى عبور بلده بدخوله ، فقد نذكر الأحوال

التي كان قد أوقعها بعوان « جوسوك » فحاف ان هو ان لهذا
العسكر بالدحول أن يدفعوا الى القفال لأخذ البئر ، لا سيما وأن
خير المجزرة الدائمة التي جرت حديثا قد عم السهل والجبل ، ويردد
في جميع الآفاق ، فحملت شناعة هذه الفعال الملك على الخرب .

وعلى الرغم من ذلك فقد اتصل هؤلاء الحجاج بالموكول اليهم
حراسة المدبنة وبقواد العرف القائمة بحماية هذه الباحة ركان
اتصالهم بهم لسؤالهم الاذن لهم بازسال ورسل من قلمهم الى الملك
لمسكون منه الحصول على انقافة بخولهم عبور تلك الباحة .

وفي خلال هذه العبرة كان الحسد قد ضربوا معسكرهم في
مرعى ممسوسيت بهذه الباحة ، وأقاموا في اسطار ما سجدت عنه
سفارهم الى الملك .

- ٣٠ -

انقضت بضعة أيام عاد بعدها الرسل الذين كانوا قد ذهبوا
الى الملك ، وأعلموا فسل سفارهم فسلأ داما ، وحسنذاك أبقى زعماء
الحملة أن لا رحاء في خبر يأتيهم من ناحية الملك ، لذلك أجهوا
أمرهم على تخرب بلاده الواقعة على هذا الجانب من النهر ، واضرام
النيران في ضواحبها ، سالكين بذلك مسلك الأعداء في أملاكه ،
وبنما كانوا ذات يوم منهمكين غاية الانهماك في هذا العمل اذا
تكوكة من رجال الملك قوامها سبعمائة فارس قد عبرت الى
لحماية المنطقة من أن يعيث الأعداء فيها تخريبا ، فصادقوا على غير
انتظار جماعة الحجاج فلم يستطع الفرسان تجنبهم ، كما حال البهر

بسيهم وبين العوده الى الساحة التي جاءوا منها ، فأتى فرسان الكوكبه
أو حلهم مصرعهم ، ولم يسج منهم الا بر قاتل فتدوا حادهم ورأوا
الاحماء بحلفاء المسففات حفاظا على حياتهم رحمانه لأرواحهم •

تملك السحاعة الحجاج بما أحرروه من نصر على عدوهم ،
فصمموا على بناء بعض الجسور ومهاجمة القلعة حتى اذا سم لهم فتح
الطريق بحد السف عزموا على دخول المملكة ، لذلك اسندوا جميع
عسكرهم لتحصى هذه العابة ، وعبروا الحسور الى فرعرا حالا
من افانها ، وتمكنوا من الوصول الى الحصون والقلاع ، ثم دفعهم
الحراء للاستعداد لسف الاسوار وسق طريقهم الى الداخل ،
محتذى من دروعهم وقاء لهم ، وبحثت محاولاتهم الحاده فى فتح
ثعرا فى أماكن كثره من الأسوار ، حتى اذا باع ملهم بقطه صار
دخول الحجاج فيها الى المدينة أمرا مقورا ، واسند الناس بهوس
المبمن بها الذين لم يعد لهم أمل فى البقاء على حياتهم ، اذا
بالصلبيين المهاجمين يصسهم رعب مفاجئ أرسلته السماء هلع
له فلوهم فخلوا عن الهجوم وقروا بركن وراءهم معظم ماعهم ،
وعلى الرغم من أن ظاهر الأمور كان يسر الى أن النصر حلفهم وأنه
ليس هناك ما يبرر فرارهم ، الا أنهم ولوا على أعقابهم منهزمين ،
مدبرين غير مفلين ، ويقال أنه لم يكن ثم سب وحه الا أن يكون
آثامهم الجمة وخطابهم الكثرة قد حلت عليهم سخط الله لأنهم
كانوا قد غرقوا الى الأذقان فى لجة الكفر الذى يزلزل بالخوف فاب
أصحابه مصداقا لكلمات الحكيم : «هرب الجبان دون أن يكون أحد
يطارده » •

تبدل وضع المجريين الى ما هو أحسن حين رأوا القوات
الصلبية تلوذ بأذيال الفرار فانطلقوا انطلاق الغالبين يتعقبون هذه
القوات التى أنزلت الفزع الممض بهم منذ قليل وكانت هذه القوات

المعادية هي التي لم تكونوا بسطعون دفعها حتى وهم وراء الاسوار
فى حماية المستقعات ، أما الآن فقد راحوا يطاردونهم من خلف
أبصارهم ، ولم تكفوا سم الفرع فيهم ، بل رادوا فراحوا يفلونهم .



فر من هؤلاء كوت « ايمكو » ومعه الجانب الأكبر من قواه
الملحوره ، وعاد بهم الى وطنه .

أما الأمراء الآخرون الذين أسرب إليهم من قبل فقد فروا عبر
« كاريسا » حتى بلغوا ايطاليا التي عمروها ووصلوا الى حدود
« أبوليا » ومن هنا انحدروا نحو بلاد اليونان في أثر أولئك القرا
الذين قاموا هم أيضا بنفس هذه الرحلة ، والذين كانوا قد افرجوا
عليهم أن يركبوا البحر الى « دورازو » .

ولقد تأثر العرب كله عن حق بهذه الحركة وبغيرها مما على
شاكلتها ، وراح كل أمه على وجه القريب يرسل قواها على حده .
وقد انفصل الواحد منها عن الأخرى ، فمضى للحج حمايات تحت
أمره فاذة معبد ، وخرج آخرون من غير أن يرثسوا عليهم أحدا
لكن كان من الواضح أن الطريق الذي سلكه القوم عبر البحر كان
أقصر الطرق ، بيد أنه أصبح مستودا في وجوههم . بسبب
ما أنزلوه سكان هذه البلاد من المصرة والسرور الى حاويز كل
مدى وسبب ما ارتكبه الحجاج الذين سبقوهم من حرم ، فأصابوا
به الناس من غير أنهم أقرقوه .

من أجل هذا السبب واحة الذين جاءوا من بعدهم معده ،
بالغة فى الحصول على عطف ملك المجر .



هنا ينتهى الكتاب الأول

الكتاب الثاني

جيوش الحملة الصليبية الأولى تزحف الى القسطنطينية

فصول الكتاب الثاني :

- ١ - موعد رحيل حودفروى والنبلاء المصاحبين له ،
وكيف تقدموا حتى بلغوا المجر .
- ٢ - رساله الدوق الى كولمان ملك المجر على لسان
« حودفروى ديس » ، ورد الملك على الدوق .
- ٣ - الملك وقوادنا يعقدون مجلسا فيها بينهم
ويرسلون بلدوين أخا الدوق « رهينة » ثم عودته
بعد احتيازهم المجر ، والملك يتحف الدوق بكنيز
من الهدايا .

٤ - عسكرياً يهملهم في أراضي الامبراطورية ، ووصف الدخول وملاحظة عن أحوال بلاد الاغريق العسة .

٥ - الدوق يرسل مبعوثين الى الامبراطور يطلبون منه اطلاق هيج الحطيم وغيره من البلاء الموجودين في السحون . قواسا نتهب الاقليم ثم تصل في النهاية الى الفسطيننة .

٦ - الابرطور يدعز الدوق للحضور اليه ، لكن الدوق يرفض الدعوة فسبب العداء العسة بينهما فيعبد الابرطور الى حيلة ماكره بفعل بها الجبس الى مكان عسه له .

٧ - وصف موقع الفسطيننة . الدوق يرسل رسلا الى الامبراطور ، وحسنا يكابد المناعب من الكمائن التي لم يكن يتوقعها والتي تصبها الاغريق له .

٨ - الحس يعود الى المدييه وسبب معركة كبيرة تتمخض عن مذبة نطعة في الاغريق .

٩ - الناس يهرعون لحمل السلاح ويعملون بد التخريب في الناحية كلها ، ويسفر الامر عن توفر كميات ضخمة من المونة في المعسكر .

١٠ - وصول رسل من ناحية بوهيموند الى الدوق جودقروي يحملون اليه رجاءه بعدم الذهاب الى الامراطور ورد الدوق على بوهيموند .

١١ - الامبراطور يرسل ابنه حوى بوريفرووحس الى الدوق رهينه عنده ، وبدعو حودفروى اله فدهب حودفروى فنبياه الامبراطور ويسقر السلام بين الاثنين .

١٢ - الدوق سئادى فى المعادزه فبره من الوقت ويرحل محملا بالهدايا ، عهد سوى للحجاج وعبر عسكر الدوق الى البسفور وضرهم خامهم فى الافلم المحط بخلقندوسا .

١٣ - اسراع بوهيموند فى العلوم ووصف من كان فى معنيه من الكبار ويدبر الامبراطور الحطط السرية لصيدهم .

١٤ - رسالة الامبراطور الكسوس الى لورد بوهيموند ونام حس الامبراطور بهجوم سرى على معسكر بوهيموند والعرض على أسر فصيح نوايا الامبراطور السرر .

١٥ - الدوق [حودفروى] يخرج لاسسفبال الامر بوهيموند وبسسر به رغم انه الى الامبراطور الذى يستقبله باحترام كبير ، كما ان نانكربد يحرك فى الوقت ذاته كتابه فى دنسنا فننظم الى حس الدوق ، .

١٦ - وصول روبرت كوت فلاندرز بجسه ودهابه محروسا الى حصرة الامبراطور بناء على استدعاء الاخير له . واغداق الهدايا الجمة عليه ثم عبوره البحر وانضمامه الى الزعماء الآخرين .

١٧ - كونت نولوز وأسقف بوى بحرفان دلماسيا
بجيوشهما ، ويلاقان كثيرا من الصعوبات في
عبور هذه البلاد .

١٨ - سفاره امراطوريه تقابل الكونت في دورارو ،
والبلغاريون يلقون الفيص على أسقف بوى ولكن
سرعان ما يطلق العنايه الالهيه سراحه ، وحين
وصول ريموند الى « رودسو » يصله رسل من
الامراطور وهي فادنا مرة أخرى .

١٩ - الكونت يترك حيسه ويذهب الى الامراطور لكنه
لا يوافق على وجهة نظره ، فعهد الامراطور
- خيانة منه له - الى اصدار الأوامر بمهاجمة
حيس الكونت .

٢٠ - الاعريق يباغون حيس الكونت أثناء عماله
فيحسم الكونت غبطا من الامبراطور الكسيسوس
الذى يمدى ندمه على ما جرى ويدفعه خوفه على
نفسه الى أن يطلب من الأمراء التدخل ويظهر
ببراهته مما حدث .

٢١ - الكونت يضافي مع الامبراطور بسبب وساطة
القادة ويدعوه لمرافقة القادة الصليبين في
زحفهم ، أما القوات التي عبرت البحر فتسرع
الى تمقية ويسير الكونت في أثرهم في الحال .

٢٢ - وصول روبرت كونت نرمدى وأستاس - أخى
الدوق - بكتائبهما الى القسطنطينية واستقبال
الامراطور لهما بالترحاب ووصلهما بالهدايا

الحمه نم عبورهما السعور ومحنتهما الى الرءاء،
الآخرين .

٢٣ - اتصال أحد موظفي الامراطور - واسمه
تايكبوس - بزعمانا وبودده الهم وكان رحلا
شديد المكر مطبوعا على الحبب الدنيء .

★★★

هنا يبدأ الكتاب الثانى

جيوس الحملة الصليبية الأولى تزحف الى القسطنطينية

- ١ -

فى نفس هذه السنة ، أعنى سنة ١٠٩٦ من مولد السيد المسيح ، وفى اليوم الخامس عشر من شهر أغسطس ، قام « جودفروى » دوق « لونا ريكيا » العظيم المبجل بجمع أصدقائه فى رحلة الحج ، وأعد أمتعته بالطريقة المألوفة ، وكان خروجه بعد رحيل « بطرس الناسك » أثر الطامة الكبرى التى حافت به وأشربنا لها ، وفى أعقاب مذبحه جماعة « هوتسوك » البى ذكرناها أيضا ، وبعد النكبة الأخرى التى حرت على حدود المجر ووصفناها سابقا ، وقتلنا انها نزلت بالجيس الذى جاء من بعده ولقد انضم الى معسكر « جودفروى » رجال من ذوى المكاة السامية . الحديريين بخلود الذكر ممن ربطوا أنفسهم به ، وهم لورد « بلدوين دى مونس » كونت « هنتولت » ، ولورد هنج كونت « سسنب بول » ، وابنه « انجراند » وكان شابا غراتقا على الهمة ، وكونت « حارنسه » المعروف بجراى ، ولورد « رينار » كونت نول وأخوه بطرس ولورد بلدوين « دى بيرج » أحد أقارب الدوق [جودفروى] ، ولورد « هيرى دينس » وأخوه « جودفروى » ، و « دودو دى كونى » ، و « كونون دى موباج » وكثيرون غيرهم ممن لا نعى اسماءهم ولا نذكر عددهم .

(الحروب الصليبية ح ١) - ١٤٥

ولقد سار هؤلاء جميعا فى طريقهم فى هدوء مسيره طائفة واحدة مرابطة ، حتى اذا كان يوم ٢٠ سبتمبر بلغوا سالمين معاوين باحة فى ولايه النمسا يعرف باسم « سولنبورج » حيث يكون نهر « لبا » الحد الفاصل بين أقاليم الامبراطورية وبلاد مملكة المجر .

وحين بلغ هؤلاء هذه المدينه وقعت عليهم وقع الصاعقة أخبار النكبة التى قبل انها حاصب بجوسوك وعسكره ، فساور بعضهم مع بعض كفف ينسى لهم السر فلما فى أمان حتى يسم لهم احبار العمل الذى أزمعوا الصام به ، فانفق رأيهم فى النهاية على وحب ارسال سفارة الى ملك المجر تقضى منه السبب الذى أدى الى هلاك حس اخوانهم الذين سبقوهم فى تلك البلاد على هذه الصورة .

وزيادة على ذلك فقد كلف الرسل الموفدون بايجاد فرصه للنفاهم مع الملك حول اسباب السلام ، وأوصوا أن ينحلوا جانبا عن اثاره الشكاية من الخصومات السابقة ، حتى يتمكنوا من الحصول على اذن يعمرون به سالمين عبر المجر ، لأنهم لو راحوا يبحثون عن طريق آخر يسلكونه بعد أن بدأوا مسيرتهم فان خسارهم تكون فادحة ، ومسقتهم التى يلقونها عطمة ، لذلك اخباروا لهذه السفاره الشريف « حودفروى ديش » أخا هرى ، مع طائفة معينة من دوى المكانة العاليه والرسه النبيله ، وكان احبارهم [حودفروى ديش] راحا الى روابط الود والصداقة التى كانت تربطه منذ سنواب طويلة سالفة بملك المجر ، فلما صار [حودفروى] فى حضرة الملك جاء بما تلقى مكانه ، ثم ألقى على مسامعه بما كلف أن يقوله :



قال :

« لقد جئنا الى جلالكم مبعوثين من قبل السسل السرى
« جودفروى دوق لوثارينجيا » ومن فى صحبته من العادة الآخرى ،
عماد الرب المرافقين له ، والصادقن فى طاعهم للاراده الربانية .

« وابهى لبواوون أن يعرفهم السبب الذى من أحله عومل شعب
مسحى طالعتنا حنهم على طول الطريق هذه المعاملة الى سكرها
الانسانية على يدكم ، واسم أمة ذاعت شهرتها بين الأمم بأنها من
الشعوب المؤمنة المخلصة ، وكأنه كان من الأسلم لهؤلاء المسحوقين
لو أنهم وأوا وحوهم شطر بلاد العدو فسلوكها ، فان كانت حرائم
هؤلاء الناس بشعة بشاعة اسحقوا من أحلها العقاب الشديد فان
الذى أرسلوهم اليك مسعدون أن يحملوا - عن طيب خاطر -
اصلاح ما أفسدوه ، ذلك لأنه اذا كان الجرم يعادل العقوبة كان
ذلك عدلا ، ولن نثير غضبا كبيرا ، بل نمنى أن نقبله فى صبر .

« أما اذا لم يكن الأمر كذلك ، ولم يكن هناك مبرر لمهاجرتكم
الأبرياء ، فان زعماءنا لا يقبلون السكوت وغض الطرف عن النكبات
التي كانت من نصيب خدام الرب ، بل ابهم مستعدون للنار لدم
احوانهم ولذلك فانهم ينتظرون أن نوافيهم بالجواب عن كل هذه
الأمر ، وسوف نسخذون قرازم بما سنفق وخلصه بركم » .

وختم جودفروى دبش خطابه بهذه الكلمات .

فأجابه الملك وهو محاط بكبار رجاله .

« أيها العزيز جودفروى ، يا من حبوانه منذ زمن بعيد بمودتنا
التي هو أهل لها ، انه لسعدنا أن تكون قد آتيت لا لجدد صداقة

الأيام الحالية فحسب بل ولتسمعنا ونحن نؤكد براءتنا أمام حكم
عادل مثلك .

« اننا - كما قلت بحق - في عداد المؤمنين ، واننا سسطيع
بأعمالنا أن نعل من شأن هذا الاسم ، ولكن الذين سبقوكم من أساع
بطرس الناسك وذيول جوتسوك ومن بعدهم ممن حاولوا الاسيلاء
قسرا على احدى قلاعنا القائمة على أطراف المملكة ، واقتحام مملكتنا
بالعنف ، لم نكوبوا في الواقع من أساع المسح . ولا أهلا لحمل
عدا النعب ، فلقد احفلنا ببطرس وحسه في بداية الأمر احصالا
كريما ووهبناهم ما عندنا من السلع مجانا وبمن رخص ، ولكهم
رغم ذلك كانوا كالحبة تختبيء في الصدر أو كالفار في صوان
الملابس ، اد ردوا احسان المضيف أسوأ رد ، لأنهم بدلا مما كان
يحمه عليهم الواجب من مجازاتنا بالشكر على ما نفعلنا به عليهم ،
اذا بهم يقتحمون واحدة من مدننا الواقعة في أقصى نجوم المملكة ،
وبهكون بأهلها فيكا دريعا ثم يرحلون في خسة اللصوص . سائقين
أمامهم قطعان الماشية والأغنام ، وحاملين معهم ما سلبوه ، وعلى الرعم
من هذا الفعل الذمهم فقد أذا لجبوش حوتسوك بالدحول دون أن
تكلفة رهقا أو تسأ ، كأننا لم نلق أذى من الجبوس التي سبقه
في المجيء ، لكن رجاله لم يترددوا بدورهم في النهب ، ولم يكفوا عن
العنف ، ولم يتحروا عن اضرار البار ، بل انهم لم يتورعوا عن
سفك الدماء لأوهى الأسباب وأتفه العلل ، ومن ثم فقد أغضبوا الرب
منهم بسبب شناعة جرائمهم .

« ولما لم يعد في طوق صيرنا قدرة على تحمل ما أترلره من
البلايا برعايانا ، فقد صبح عزمنا على القيام ببعض ما فيه علاج
لهذه الظروف الخطرة ، فدلطنا تجاربنا الماضية على أن الحكمة
تقتضينا أن نوصد أبواب مملكتنا في وجه هذه الجماعات المؤلفة من
فجرة أوغاد ، حتى لا ننكب للمرة الثالثة على أيديهم ، فكانت

محاربتنا اياهم كأعداء خيرا مما يرلونه بنا من اهانات ، ويلحقونه بنا من الخسائر العادحة .

« فليكن ادن فيما فصلت عذرا لنا عندك ، وأب الرجل العطر اللبيب ، فوالله لقد بنا الحق الصراح كما جرى » .

ولما فرغ الملك من قوله هذا أمر باسنصافة الرسل أحسن ضيافة ، وأن يعاملوا بوافر الاحترام حتى يستطيع - بعد مساوره رحاله - اعداد رسل الى القادة [الصليبيين] يحملون اليهم الرد الملائم ، ثم بعث أحيرا الى الدوق والى القادة بعض أهل بيته صحبه السفراء ، وحملهم هذه الرسالة البالية .

« لقد سمعنا وحاءنا الأخبار الصادقة منذ أمد بعيد بأنك بعد عن حى أمرا عظيما حاملا ، كسر العدر فى قومه ، كما أن العلاء - وان بعدوا عنك أرضا - لبينون على صدق ايمانكم ، وتباب حناكم نبانا يسكرون عليه ، وقد شندنا اليكم حسن الأحدوثة عنكم ، ويطوله أعمالكم فرأيا أن نحسك حتى فى غبابك ، وأن نحجوك بعطف أكبر . ونحن نعتقد أن الرجال النلاء الذين أرسلهم ، والذين يمانلونكم أيضا فى حمسهم للعقيدة المسححة ، قد قاموا كذلك بعمل كله بقوى . ولما كما عازفين كل العزوف عن أن يعنور الفور والراخى ما بنتنا من ود بسبب عمل غير مرض ، فاننا على استعداد لأن نعمل كل ما يزيد هذه المودة نماء ، ونبدل العطف للجميع ، ونعاملهم معاملة تنطوى على الحب الأخرى » .

وها هى دى الفرصة قد وابتنا لئرجوكم أن تتفضلوا بالحضور الى فلعتسا « سيبيرون » لنعقد واياكم مجلسا طال اشتاقنا له وتطلعنا اليه ، وحى نكون قادرين على الوصول الى سلام ينالهم مع رغباتكم » .

بعد اسماع الدوق الى رسل الملك ومشاوراه اصدقاءه ،
ضرب يوما معينا مضى فيه الى المكان الذى قسم له ، مسسحبا معه
ثلاثمائة فارس من الصفوة المسفاة من رحاله ، فلما احار الحسر
وحد الملك الذى اسقله أروع استقبال ، وخصه بأسمى آيات
الرحب . وابتدى كل منهما لصاحبه الصداقة الحمسة . ثم انقعا
فى النهاية على تبادل الرهائن الذين يخارويهم من عليه القوم ،
كما انقعا على ألا سطوى صدور الحائنين على كراهة بعضهم لبعض ،
وأن يعود السلام بن الفريقين ، فلما تم قبول هذه الشروط أذن
الملك للدوق وعسكره بدخول المملكة .

ورغبة من الملك فى أن يزداد قلبه طمأنينة اذ يسمح بدخول
مثل هذا الجنس اللح الذى قد يحدث - بطريق الصدفة المحضه -
أن يوصل نأى ذريعة لاحداث ما يكون فيه مضايقة للملك اعنادا منه
على كثره عدده وشجاعه فقد سألهم أن يعطوه بلدوين - أخا الدوق -
وروحه وأهل بيه رهائن عنده ، فوافق الدوق على ذلك . وأسلم
أخاه رهنة كما اتفق على ذلك من قبل ، ثم دخل المملكة راضى النفس
قربر العين بعسكره ، وحسناك أصدر الملك - وفاء بوعدة - قرارا
يقضى بتقديم الطعام اللازم للحد فى كل ناحية يمرون بها من نواحي
البلد لقاء سعر معقول ، والا يطفف عليهم فى الكيل ، وزيادة على
ذلك فقد أمر بأن يصحب الحشش سوق يناعون منها ما يريدون .

أما الدوق فقد أمر من حانبه أن يساوى المتسادون فى أرجاء
المعسكر ألا ينهب أحد شيئا ما أو يلجأ للعنف أو السبه مع من
يأتون الى الحشش ، والا كان الموت حزاء ومصادره كل ما بيده ،
كما أمر أن تجرى معاملاب البيع والشراء فى جو من السلام والمحبة
الاخوية .

وهكذا قدر لهم - بفضل من الله - أن يعبروا كل بلاد المجر في سلام لم يعكر صفوه أحد من الطرفين ، ثم مسى الملك برهائه الى يسار الجيش على رأس قوة كبيرة من حرسه الخاص ، وهو على أم أشعة لأن يخمد في الحال أى سبب قد يوجب ، فلما وصلوا أحرا الى « سملين » التي تكررت الإشارة اليها بوقفوا على شاطئ نهر الساف . حتى تم اعداد ممر للعسكر [الصليبي] ، ولما لم يجدوا سوى بصع فوارب قليلة لا تكفى لعمل قوم كثيرين كهؤلاء القوم فعدهم أزمات لهذا الغرض ، وأقاموا ألف فارس في كامل سلاحهم لحراسة الشاطئ الآخر ضد ما قد يكون هناك من كمين يصده العدو لهم حتى يسر للجيش - بعد عبوره النهر - أن يجد مكانا هادئا بوفرت فيه أسباب الراحة .

وحينذاك أخذ الحجاج يسفلون الى الجانب الآخر في لهجه وشوق .

ما كاد [الالاس] وبعض رعايهم يحاذون النهر حتى أسرع الملك بالقدم مسسحبا معه حرسا كثيرين ، وأسلم بلدوين وزوجه وبقة الرهائن الى الدوق وفق ما اتفقوا عليه في البداية ، ثم وصل الدوق ومن معه من العادة بالغالى النمين من الهدايا التي وصلهم بها الملك بكرما لهم واحلالا لقدرهم ، ثم عاد الملك بعدئذ الى قصره .

حينذاك بادر الدوق مع القادة الآخرين وبقة الناس الى السر وراء الجند الذين كانوا قد عبروا النهر الى الشاطئ الآخر ، حتى اذا وصلوا الى بلجراد - إحدى مدن بلغاريا التي أشرت اليها من قبل - نصب الدوق خيامه ، فلما فرغوا من ترتيب مناعهم ، وبهأ الجند للرحيل ، شقوا طريقهم عبر غابات بلغاريا وأدغالها الشاسعة الكشفة ، فبلغوا أول ما بلغوا مدينة « نيش » ثم « سترالكا » .

من اليسير على المرء أن يدرك ما عليه الاغريق من النعاسة وأن يعرف مدى الصعف الذى بلغتة الامبراطورية حين يساهد أوصاع الأماكن التى كانت فى السالف ولايات غنية ، حافلة بكل ما تسببه النفس من السلع والمجهر ، لكن حدث بعد انهاء حكم أمراء القسطنطينة اللابن أن وقع الامبراطورية بسبب أخطائها وماعمها تحت سلطان اليونان بزعامة نففور الأول ، فاعتمد شعوب المطمعه اليمحبة فرصة ضعفها وبادرت فى الحال الى سن سلسلة من العاراب على الأراضى الخاضعة للامبراطورية ، وراحت تعامل السكان روى هواما .

كان من بين هؤلاء الغزاه حماعه « البلغار المبربرين » ، الذين لم يأخذوا بخطر من الحصاره ولكنهم أغاروا عليها من الشمال . وبسطوا سلطانهم على جميع الأقطار الممتدة من الدانوب حتى مدبه القسطنطينة الامبراطورية ، وكذلك الى بحر الأدرياتك ، وبحم عن ذلك أن اضطرب أسماء الولايات واختلطت الحدود بعضها ببعض . وأطلق اسم « بلغاريا » على كل الأصقاع التى طولها مسيرة شهر ، وعرضها عشرة أمام أو أكثر . ولم يدرك الاغريق الأشعفاء أن هذا الاسم بالذات كان دليلا على اللعنة التى انصبت عليهم ، ذلك لأنه كان مع فى القديم على بحر الأدرياتك ولايا « ابروس » وكانت عاصمة احدهما الكبرى هى « دورازو » التى كانت فى وقت من الأوقات فصبة برهوس « ملك الأبروت » وكان رحلا شجاعا وكان موضع الاعجاب من الناس .

كان الافليم الذى يوشك أن يحاززه الدوق [جودفروى] على رأس جسده نائف من ولايتى « داكيا » وأعنى بهما داكيا (رېنسس)

وهى التى تكون على يسارهم حين عورهم الدانوب . وداكنا المجربة
التى مروا بها فى طريقهم ، وفيها مديننا بس وسرالكما
الرائعان .

كذلك كانت توجد ولايات أخرى فى نفس المنطقة هى اركاديا
وساليا ومقدونيا وأقاليم برفا الثلاثة التى قدر لها أن تسمى نفس
الخط العابر [الذى لعبه الامبراطور به] لم تكن هذه الولايات كلها
هى وحدها الأملاك التى صاعب من بد الاعريق بسب شعوبهم ،
ذلك أنه لم يكن مسموحا لأحد ما أن يهتم فى الأراضى الواقعة فى
الولايات القاصية ، ولا يجوز له رراعها حتى بعد أن أخضع الامبراطور
« باريل » الاعريقى نفس السبع البلغارى . وكان واضحا على وجه
الخصوص فى حالة الأراضى الماخمة لحدود الممالك الأحبية والتى
كانت تمتد الى بلادهم وأعلى بها ولايسى « داكيا » ، ولا نزال نفس
الوصف مطبقا حتى اليوم . ولما كانت الباحة بأجمعها مغطاه
بالغابات الكثيفة والنباتات المتناسكة فلم تكن ثم أحد يقادر على
اخرافها حتى ولو رغب فى ذلك ، ورجع هذا الى أن اليونان وصعوا
ثقتهم الكبرى فى العوائق التى يعود الى صعوبة الطرق وكثرة أسجار
العوسج والسوك التى كانت تعسر وسائل دفاعة نفوق ما تستطيعه
قوات اليونان الدفاعة .

ونجح اليونان هذه السياسة دابها فركوا « بروس بريموس »
أرضا عذراء خالية من السكان ، حتى ان الغابات المحجورة والأحراج
الموحشة أصبحت لا تتح طعاما ، وصاربت عقبة كآداء فى وجه من
يبغى دخولها ، وكان هذا الافلم الذى لابد من أن يحنازه بقية
القادة الآخرين ببدأ عند « دورا زو » وامتد مسرة أربعة أيام فى
البحال المسماة بجمال البلقان .



سار الدوق بمن معه من العسكر عبر داکما البحريه المعروفه
أيضا باسم « موزيا » ، فلما احراز الأحرار المسماة عاده بمر سابت
بازيل صادف ناحبه أكبر اسباعا ورفاهة أمدته بكميات وفيرة من
الخبثه حتى جاء الى مدينه « فيلسو بوليس » الجمبابة . الآهله
بالسكان . وهنا علم بما فعله الامبراطور من رح هيج الكبير - آحي
ملك فرسا - في السجن مع ثله من رفاقه البلاء ، فأرسل على
جناح السرعه وفي لحظنه رجلا من قبله الى الامبراطور . ولاحقه
بالرسل ملحا عليه أن يطلق سراح هؤلاء الرجال . ويلومه على
ما أنزل بهم - وهم الذين وهبوا أنفسهم لرحلة الحج نفسها - لكنه
سجنهم من غير حرم أو تكويه .

وكان هذا الرجل الوحده [هيج] أول العاده حمسا في الخروج
الى الحملة ، وفد احراز جبال الألب ودخل ايطاليا ، ثم عادرها الى
« أبوليا » حيث أبحر في حراسة قليلة ، وبوقف في « دورادو »
في انطار العادمن وراءه ، ولم يكن يخطر بباله أبدا وقوع أى خطر
عليه ولا على من معه ، وهم في مملكة الاغريق المنظور اليهم بأهم
يعتقون المسححة . عبر أن والى هذه الناحية ألقى العيص عليه وزح
به في السجن ، لسلمه الى الامبراطور كي يقضى فيه بما ساءه
ارادته الملوكة ، فحسبه الامبراطور كما لو كان لصا أو سفاكا
للدماء ، وكان الامبراطور ينظر وصول القادة الذين قالوا انهم في
الطريق . فإذا قدر لهم النجاح في الحضور أطلق سراحه كند بمن
بها عليهم ، أما ان كان الأمر غير ذلك فاسوف يبقه أسرا طول
حياته .

كانت الامبراطورية اليونانية في هذه الآونة تحت حكم رجل
ماكر يدعى « ألكسيوس » وبلغ « نيكومسوس » ، كان يعيس من
قبل في العصر الامبراطوري ، ويشغل وظيفة كبير الحجاب التي
يطلب به واحباها ، وهي وظيفة سميها نحن [اللابس] بحاحب
الحجاب . أو مدير شئون القصر ، ويجعله في مكانة بلي مباشرة مكانة
الامبراطور ، مما أصبح عليه تقديرا كبيرا عند الامبراطور « نففور »
الملقب « ديوناسيس » صاحب الصولطان في هذا الوقت ، لكن ذلك
الرجل [الكسوسوس] خان ولي نعمه [نففور] وكان ذلك قبل
مجيء شعبنا خمس سنوات أو ست فخلع مولاة ونقلد الأمر بدلا
منه في الامبراطورية ، وأصبح مالكا لها الآن اعصانا .

وجاء رسل الدوق الى الامبراطور ، وراحوا ينعذون العسكيات
الملقاة بهم ويسألونه في الحاف أن يطلق سراح هنج ورفاقه ، فلما
رأوا اصرار الامبراطور على رفض رعايتهم عادوا الى الجسس الذي كان
اد داك قد حاور « أدرنه » ورجل للاستجمام في أحد النيهول .

ولما علم الدوق والقاده الآخرون عن طريق معبريهم أن
الامبراطور لم يمس بحرية على هؤلاء الرجال [هنج ورفاقه] انفق
رأيهم جمعا على الاذن لعسكرهم بنهب الافلسم ، واد طالب امامهم
هنا ثمانية أيام سويا فقد دمروا الناحية دمارا شاملا . لكن ما كاد
أنباء ما فعلوا تصل الى سمع الامبراطور حتى بعث رسلا من لديه
الى الدوق يرحوه - عن طريقهم - أن يكف أيدي جنده عن أعمال
البحريه هذه ، ويؤكد له أنه مستعجب لرجائه ، ومطلق سراح
الأشراف الذين في حبسه ، فقبل الدوق هذا الاحراء بنفسه خذلي
وأمر جنده بالوقوف عن مائة السلب والنهب ، ثم سار بعدئذ الى
مدينة القسطنطينة مسيحيا قواته في أحسن نظام ، فلما صار

أمامها أمر جسده ، القوى البأس ، الكثيف العدد ، بتصيب خياهم
هناك وإقامة معسكرهم .

أما السلاء الدس أسريا اليهم وهم : هيج الكبير و « دروجو
دى نيسل » - و « وليم » النجار . و « كلاريبولد دى فنديل » .
فقد قدموا من المدينة لمقابلته ، ثم ذهبوا الى المعسكر شاكرين له بده
عليهم فى تحريرهم من أسرهم ، فاستقبلهم الدوق استقبالا نفيس
بالود ، وجباهم بما هم أهل له من التعظيم ، واستبقاهم معه بعض
الوقت مسبغا عليهم عطفه ، ومواسمهم مواساة الأخ لآخوانه يساركيم
آلامهم الى بحلوها ظلما .

- ٦ -

لم يكد هؤلاء يمرعون من عاق بعضهم البعض ومن يبادل
الأحاديث الرفقة فمما بينهم ، حتى وصل رسل من جهة الامبراطور
[ألكسوس كومين] بحملوا الأوامر بوجوب اسراع الدوق للمول
بالقصر الامراتورى ولكن فى حرس قليل ، غير أن الدوق رأى - بعد
مساوره أصدقائه - أن يرجئ ذهابه اليه ، مما أغضب ألكسوس
غضباً حمله على رفض الاذن لهم بمقد سوق يبتاع منه العسكر الوافد
مع الدوق ويشترون ، بد أن ما صار فيه القوم جميعا من مسس
الحاجة الى المثوبة ولفة ما لديهم منها ، حمل القادة مرة ثانية على
الانفاى على احناج تلك النواحي بجماعات مسلحة كبيرة ، وعادوا
يسوفون أمامهم قطعان الماشية والأغنام التى غنموها ، ورجعوا الى
المعسكر وقد فاضب أيديهم بشتى أنواع المأكولات ، حتى ان الرعاع
منهم أصابوا منها وفرة ضخمة أصابتهم بالكظة .

★★★

ولما رأى الامبراطور أنه المنطة قد عرضت للحريق والنهب ،
خاف أن تتطور الأمور الى ما هو أفدح من هذا فأمر بجمع السوق ،
ولما كان يوم الأحزان لمولد سيدنا قد قرب مواعده ، وصار على
الأبواب فقد أصدر الزعماء - احتراماً للدين - قراراً ينهى الجند
عن النهب وارتكاب الموبقات خلال هذه الأيام الأربعة ، فانقضى العد
فى أتم هدوء وسلام .

ثم جاءت بعد ذلك رسالة من الامبراطور سسل كلماتها رده
وعذوبة ، وإن انطوت على الخديعة ، يسألهم فيها أن يخرج الجيش
عن طريق الجسر المجاور للقصر المسمى بقصر « بلاشرباي » وأن
يقيموا فى القصور المتعددة المتناثرة على شاطئ البسفور ، فأقبلوا
فى سر على تنفيذ هذا الأمر ، لأن طلائع النساء الذى كان على
الأبواب كانت تزعجهم أشد الأزعاج ، كما ضربتهم العواصف النلحه
بشدة لم يسبق لها مثيل ، حتى ان الخمام لم تمنع المطر من التسرب
اليهم ، فتولاهم الجزع من الخطر الذى يهدد الطعام وسائر معادياتهم
بالفساد والعفونة بسبب العرض الدائم للرطوبة ، ولم يكن هناك
من انسان ولا حيوان ولا ذى روح بقادر أن يحمل أكثر من هذا
البرد القاسى الذى كان يخرق كل شىء ، وعجزوا عن مجابهة البلوح
الكتيرة ، ناهيك بالبلل والمتاعب التى لحقت بهم وكانت فوق طاقتهم .

وعلى الرغم مما كانت تحمله كلمات الامراتور من العطف على
الحجاج ، الا أن هدفه الحقيقى كان يخلف عن ذلك تمام الاختلاف .
فقد كان السبب الجوهرى لهذا الانفصال هو أن يصحح العسكر أقل
حرية فى التحرك هنا وهناك ان هم صاروا فى بقعة محدودة ، كما
تزداد قدرة الامبراطور فى كبح حمايتهم والسطرة عليهم .

ولكى يكون هذا القول أكثر وضوحاً فلا بد من إبراز بعض
الحقائق عن موقع تلك المدينة المذكورة أعلاه .

ان بحر بطس [البحر الأسود] الذى يحذ اسمه من الافليم
المجاور له يقع على بعد ثلاثين ميلا من شمال القسطنطينية ، ويكون
جزء معين من هذا البحر على شكل نهر ينحدر جنوبا عبر مسالك
ضيعة . ثم يسقم مجراه لمسافة قدرها مائتان وثلاثون ميلا ،
يخترق فيها مدينى سيستون « وايدوس » الموغلنن فى القدم
ونفع احدهما فى أوربا ، والاخرى فى آسيا ، ثم يصب فى الهابة
فى بحريا الأبيض المتوسط ، وعند خروج هذا الماء من البحر الأسود
ينتشر لثلاثين ميلا فى مجرى يصد من الممر الأول الذى دخله ويكون
فى الناحية الغربية خليجا يعرب طوله من حمسه أمال الى سة ،
وعرضه ميل واحد ، ويسمى هذا المجرى الضيق الذى بسد المائين
وبلابين ميلا من البحر الأسود الى البحر الأبيض المتوسط بالسفور
أو « بروبوس » أو « هيليسبونت » ، ويشهد بذلك « سولوس »
فى الفصل السابع عشر من مذكراته حيث يقول « ان خليج أوربة
الرابع يبدأ عند الهيلسبونت وينتهى عند بحيرة « ماوتس » والعرض
الكلى لهذا المجرى المائى الذى يفصل أوربة عن آسيا يتحول الى
مضيق يتألف من سبعة رواقد ، وهذا هو البسفور الذى عبره
احرسييس على حسر من العوارب أمر باقامه ، ويجرى الماء من هنا
على شكل قناة الى مدينة « بريانوس » الآسبوية الى اسولى عليها
الاسكندر الأكبر أثناء مروره بجوارها حين كان يتطلع لغزو العالم ،
ويسمى هذا المجرى المائى مرة أخرى ويتحول الى سطح واسع جدا
من المياه فيسمى بروبوننيس [أى البسفور] - أما الآن فانه يضيق
الى مسافة عرضها خمسمائة خطوة ، ويصبح بسفور براقنا الذى
نقل « دارا » حننه عبره .

وببدو أن هذه الأسماء ترجع فى أصولها الى الشعراء القدامى

فسمى البسفور بهذا الاسم لما يهال من أن جوبير سكر في سكل
ثور حاملا عبر منه « أوربه » امة أجنور .

وجاء اسم هيلسبوننت من « هله » أخب « فركسيس » الذي
تزعّم الأسطورة أنه عبر هو الآخر البحر بأخيها على ظهر كس ،
وهو يعبر الحد الفاصل بين أوروبا وآسيا ، ويعرف عادة باسم ذراع
سنت جورج وقد ذكرنا طوله ، أما عرضه فليس متساويا في كل
الأماكن ، ونظرا لموقع الأراضي المحاورة له وطبيعة تكوينها فإن عرضه
الآن يصل الى ميل ، ثم ننسح حتى يبلغ ثلاثين ميلا أو أكثر .

وأما الخليج الذي يمتد الى الغرب فيكون - كما ذكرنا - واحدا
من أشهر موانئ الدببا وله مرفأ رحب ، وأما المدينة التي تكلم عنها
فقع في راوية بن هذا الخليج وبين السعور ، وكانت تسمى في
العديم بربطة التي كانت موضعا لا يعتد به ، والأغلب أنها كانت
آخر المدن في براصا ، أما الآن فهي أسعد المدن حظا اذ تحمل اسم
الامراطور الذي راد منها حتى أصبحت قصبة الولايات كلها كما
صار مقر الامبراطور ، وأصبح اسمها بفضل مكانها المسارة
مافسا لاسم سبتها رومة .

وتذهب الرواية الواردة في الكتاب البالب « لبول أورسياس »
الى أن تأسس هذه المدينة كان على يد « ناوساوسوس » ملك
الاسبرطس ، وهي على شكل مثلث عبر مساوي الأضلاع التي يمتد
أولها من تلك الزاوية الواقعة بين البحر وبين هيلسبوننت حسب
بوحد كيسة سنت جورج المعروفة باسم « مانحاجا » ، ويمتد هذا
الضلع بامتداد المناء الى القصر الحديد المسمى بقصر بلاشرباي .

أما الضلع الثاني فيمتد على طول السعور من عند ديز سنت
جورج الى البوابة الذهبية .

وأما القسم الثالث فيمد بطول الأقليم من نفس البوابة الى
قصر بلاشيرناى المذكور حالا ، وهو محصن بالأسوار والأبراج
ووسائل الدفاع الخارجية ، ويوجد عنده نهر يصب فى المبناء وهو
صحل جدا فى الصيف ، أما فى الشتاء فنغزر مياهه بسبب فئصال
مياه الأمطار مما تصح الحسر معه ضرورة لابد منها .

★★★

ولما احار جيشا عدا الجسر مضى الى الواحى التى حصنت
له فى بعض المنامى الكيرة القائمة على امتداد ساطىء البسفور .
وهى الدور الواقعة بين مياهه ومياه البحر الأسود ، وحدث فى أساء
انتظارهم قدوم الفادة الآخرين أن نسلم الدوق عدة رسائل من
الامبراطور . برجوه فيها السخوص اليه ، غير أن عدم اطمئنان
« حودفروى » الى صدق الملك وتخوفه من الاجتماع به حملاه على
الاحجام عن استجابة دعواته ، وان شعر أن من سوء الأدب ومخالفة
نواميس السرف ألا يبعث على الأقل أشخاصا ملائمين لمسله عنده ،
طلما هو عازف عن الذهاب بنفسه ، ومن ثم فقد أرسل البيل
كونون دى مونساچ وبلدون دى بورج وهيرى ديس يعسدرون
للإمبراطور عن عدم قدوم حودفروى ، فلما أدرك ألكسوس أن
لا رحعة للدوق فيما فرره وأنه لا سبيل أبدا لارغامه على الحضور
الى مجلسه عاد فأمر بعض السوى ونقضه ، ولكن هذا الإجراء لم
يسح فى ثنى هذا الرجل [حودفروى] عن عزمه ، واد ذلك اتخذ
ألكسوس اجراءات أشد صرامة ، فأرسل فى السر جماعة من رماه
الأقواس عبر النهر ، فى قوارب الى المكان الذى كانت تعسكر فيه
قوات الدوق ، فلما أهلت أولى تبشير الصباح قتل هؤلاء الرجال
بسهامهم طائفة كبيرة من رجالنا لم يكونوا فحسب من بين الذين
ذهبوا الى الساطىء ، بل وأبضا ممن كانوا بطلون من التوافذ .

حين جاء نبأ ما جرى الى الدوق اسدعى في الحال رعاء
الناس لمساورتهم ، ونزل على ما أجمعوا كلهم عليه ، فوجه أحاه
[بلدوس] تلى راس كسه من الصمكر للأسبلاء على وجه السرعة
على الجسر الذي عبره الجسس ، حتى لا يفدو محصورا في هذه
الأماكن الضيقة ، وحتى لا يفقد الكدرن من رجاله ، فخرج بلدوس
الشفاع على رأس خمسمائة فارس وأسرع بهم الى الجسر واسمزل
عليه عنوة ، ولم يعد الخطر فاصرا على من حاءوا بالمقارب بل ان
المدة بأجمعها أيضا حملت السلاح تريد الفك برحالها .

رأى الصليبيون أن استدعاءهم الاغريق مسطوي في امامه
الاستعدادات ضدهم ، كما حمل الأهلالي السلاح للقضاء عليهم ، لذلك
أضرموا النار في جميع القصور التي كانوا يزلونها ، والتي بعد
مسافة ستة أميال أو سبعة على طول البسفور ، فسب الحربى في
جميعها ، سواء ما كان منها ملكا للأهلالي ، أو كان للامراطور ،
والهمنها ليران حتى بهاوب الى الأرض ، وسمع رجالا دى الطبول
ونقر الأبواب بردد مدويا في الأحياء المحلفة الى كابوا فد
انكفؤوا اليها التماسا للراحة ، فأسرعوا لحمل سلاحهم ، وسعدوا
الدوق الذى أسرع الى الجسر بهود عسكره وقد صفهم للقنال ، عبر
أن اصحاب الخسة الحربة الكبيرة خافوا أن يضيق العدو الحياق
على الجسس وهو في مواضع الضيقة هذه ، فهلكون ان اسمولى
الخصم على الجسر ، ومن ثم لم يريثوا في انتظار فرق المشاة ، بل
بادروا الى جمع كل الخبالة في تلك الناحية ، الا أن بلدوين - أبا
الدوق - كان كما قلنا - فد أسرع الى الامام واحتل الجسر رغم
محاولات الأعداء فأرغمهم أن بولوا الأدبار هاربين ، فسيطر بذلك
على التساطىء الآخر للنهر ، واستخلصه لجيشنا .

ومن ثم فقد تمكن الدوق وجميع رجاله من العبور بكل ما معهم
من المناع والنجهبوات ، وأقاموا مره أخرى فى موضع بالعراء ، وواجه
المدينة ، ويصند فى كل اتجاه دون أى عائق .

ولما اضرب المساء من الدخول سبب معركة فى البعجة الواقعة
عندما يعرف الآن باسم قلعه بوهيموند الموجودة بين كنيسة الريدس
الطاهرين كوزمو وداهمين وبين قصر بلاشرباى الجديد ، القائم فى
راوية من المدينة قرب الميناء ، وهلك فى هذه الموقعة أعداد كبره
من الساس ، وعجز الاغريق عن حمل ضراوة القنال فكهروا عنه
واربدوا الى المدينة .

حينذاك نزل عسكرينا المنصور فى أروع بقعه من الساحة التى
اسولوا عليها بسجاعتهم ، ولولا سرعة دخول الليل ووضعته ديانة
للقاتل الدائر بين الجبشين لتمكن الأهالى من معاودة الحرب بسبب
ما صمرونه من الكراهة السوداء التى كانت تعسفى فى صدورهم
بحونا ، وزادها حدة غضبهم علينا ، وكان من الممكن - ذاك أن
بحرى معركة ثائرة أسد وحسنة من سابقنها فتتمخض عينا خساره
فى الأرواح أكبر من الخسارة السالفة .

هما - ولأول مره - تحلى بوضوح للعبان لدى الشر الذى انطوب
عليه خطة الامراطور فى اصدار الأمر بنقل المعسكر ، اذ كان ذلك
نابعاً عن رغبة مه فى أن يضع هذا السعبد الصليبي الذى تساوره
الشكوك فيه فى منطقة ضيقة محدودة ، فصيح بن المطرقة
والسندان -

ما كاد النهار يطلع على الكون حتى نودى غلاسة بين الناس بحمل السلاح ، وخرجت طائفه بقيادة رهط من الزعماء ليعسس المنطقة التى حولهم ، والعودة بالأطعمة التى منح الامبراطور سعيها .
وصدرت الأوامر لهذه الطائفة بالحصول على ما خرجوا من أحله ان عصبيا أو بالسرا ، وألا يحلفوا وراءهم ماسية ولا عما ولا عله ، ولا أى نوع من المثونة .

كما صدرت الأوامر لغدهم ولطائفه من العاده بالمقاء مع الدوى فى المعسكر لحراسته ، ذلك أنهم حين اكسفوا غدر الامبراطور وخيانة شعبه ، لم يدحروا وسعا فى الاسعانه بكل الوسائل الممكنة لحمايه أنفسهم من هذه المكائد الوضيعة ، فنهض اد داك كسه كسرة من العرسان والمشاة ، وخرجت فى حملة لجلب التامام وطالت غيبتهم سه أيام بلالها ، راحوا خلالها يهبون الحفرول فى دائرة محيطها سنون ميلا ، فلما كان السوم البامن عاذرا الى المعسكر بكميات وفرة من المواد الغذائية لا بنصورها العقل ، والحق أن قطعان الماشية والأغنام ودواب الحمل - بله العربات - كانت كسرة حدا ، حتى لقد صادفوا صعوبة بالغة فى احضار كل ١٥ نيره .

سما كانت هذه الأمور تحرى فى المعسكر وصل الى [حودقروى] رسول من الأمر بوهمونند بحمل اله خطابا بقول فله :

« اعرف يا أعظم الرجال انك تتعامل مع أحقر الحيوانات ،
 ومع رجل خسيس كل الخسة ، ليس له من عرض أبدا الا الحديعه ،
 ولا ينورع عن اصطناع أى وسيلة أو سلوك أى سبيل يكون فيه
 هناك كل شئ من أمه اللابس ، وسببرهن لك نفديرك الذاتي - أن
 آحلا أو عاجلا - على صدى احساسى نحو هذا الرجل ، وذلك
 لأنى أعرف أن اليونان يضمرون السر والصعينة لكل من هو لاتينى ،
 ونلك طبعة متأصلة فيهم ما لهم منها من فكاك ولا يستطعون عنها
 حولا ، ومن ثم فعلك أن تعادر المدسة - اذ سئت - ورجل الى
 الواحى المحيطه بأذربة و « فيلمبولس » ودع حساب الجند
 الدين عهد بهم الرب الك ليسجمعوا وينعموا بلذب الطعام في
 منطقة أخرى خصصة ، واننى لقادم اليك - ان بأذن الرب - في مطلع
 الرسع لأقدم اليك - باعتمارك مولاي - خدماتى الأخوبة المطوبة على
 الحب والنصحة صد أمر الاغريق اللثم » .

☆☆☆

درا الدوق الرسالة ، وبعد أن تنصر مليا في فحواها عقد
 مجلسا مع القادة ، ثم أرسل الرد كناية وشفاها بهذه الصورة
 الحكمة .

« اننى أعرف يا سفيلى الحب - كما حاءنى الأخيار منذ
 وقت طويل مؤكده صدى ما أحس - أن الجنس اليونانى المحتال
 بطوى قلبه على الكراهية العميقة لنا ، ولينتهف للاضرار بشعبنا ،
 وإذا كنت فى حاجة الى شئ من هذه المعرفة من قبل فقد أكدتها
 التجربة يوما بعد يوم ، وليس أسك فى أن ما انطبعت عليه أنت
 من صادق النفوى بحركك ضدهم ، كما لا أسك فى صحة احساسك
 الغربى بخسبهم ، ولكننى اذ أضع خوفى من الله أمام عنى .

ولا أنغمصها عن هدف حملى ، فان بدنى يقسعر من أن أوتيه صد
أى شعب مسحى سفى الذى تطعب العهد على أن أنابل به الكمار ،
ومهما يكن الأمر فان الجنس الذى معا - أيها المحب لارب - انايت
شوقا الى قدومك وقدوم الأمراء الآخرين المخاصين للسيد » .

- ١١ -

استبد بالامبراطور وبجميع من حوله الفزع الكبير حين راوا
البلد بأكمله عرضة للنهب ، كما أنه لم يعد فى قدره الامبراطور
احمال أنين سعبه وبكائه ، وزاد الطين بلة ما عرفه من خبر مجىء
رسل الأمير بوهيموند وقدومه حالا فى أبرهم ، كما أنه خاف ان
يتحد الأمراء الذين على وشك الوصول ويصبحوا يدا واحدة تعمل
لدماره قبل أن ينجح هو فى استرضاء الدوق ونهضة باثره ،
ومن ثم فقد عاود مرة ثانية ارسال مبعوضه اليه ، مانمسا منه زياره
وكان هذا هو السبب الذى حملة على أن يجهد نفسه كل الاجتهد فى
أن يتم الوفاق بينه وبين الدوق قبل وصول هؤلاء الأمراء ، وذن تم
ارسل وفادة ثانية الى الدوق يلح عليه أن يبادر بالحضور الى النصر
دون أى ابطاء أو تمهل حالا بصله ابنه « حنا برفرختس » الذى
أرسله الله ليكون رهينة عنده .

ولقد أبلح هذا الاتصال قلوب العادة [اللاتين] فأوفدوا
اثنين من ذوى المكانة الرفيعة هما « كونون دى مونتاج » و « بلدوين
ذى بورج » لبيكوا فى استقبال ابن الامبراطور الذى عهدوا به الى
الرعاية الكريمة من بلدوين أخى الدوق ، وما كاد ذلك الأمر يتم
خلف الدوق أخاه فى فسادة الجنس وشخص هو الى المدينة ، يصحبه

العاده الآخرون ، ودخل على الامبراطور الذى كان يلهف أسد اللبمه على فدومه فاستقبله الامبراطور استقبالا كريما وكان محاطا برحاله الباربن وكلهم بوايون لرؤبة الرجل الذى طالما سمعوا به وعرفوا الكمر عنه من قبل .

وأكرم الامبراطور أيضا وفاده من كانوا فى شرف صحة الدوى ، واحنى بكل منهم الاحتراف اللائق بقدره ومكانته ، ثم قبلهم حينما فلة السلام ، وأكثر من السؤال عن صحتهم ، مخاطبا كل واحد باسمه ، ورفق لهم ، وأبدى لهم العطف عساه يكسب ودعم . ثم المص الى الدوق قائلا له .

« آيها الدرى المحبوب لقد سمعنا أنك أعظم من معك من الإهراء سادا وقرة ، وما كما حاحلين حماسك الكريمة فسا عاهدت به نفسك الصام به من مسروع حاطتك التقوى الكريمة فنه برعايتها . أصب ال ذلك أن الأخبار السى ذاعت عنك شرقا وغربا فد أكدس لسا أنك رجل قوى الروح ، صادق الايمان ، ولهذا فقد اكسبت عن حتى حب الكبرن حتى من لم نتح لهم الفرصة للعائك .

« ولما كانت رغبتنا أن نحوطك بكل آيات الحب ، وأن نخصك بالزد الصادق ، فقد صممنا أن نتنالك اليوم ابنا لنا فى حضره كمار رجل فصرنا المقدس ، ونعهد اليك بامبراطورينا ، عسى أن يظل تماسكيا عن طريقك صححا غير منلوم فى نظر الجموع التى احسبدها ، وكذلك فى عمون أثناء العصور القادمة » .

بهذه الكلمات النى صحبها احتفال ملكى جرت العادة باتخاذها كلما كان هناك نبز من هذا النوع ، أمر الامبراطور أن يلبسوا الدوق الشاب الامبراطورية ، وتبناه حريا على عادة المملكة .

وبهذا عاد السلام وحسن النة بين الاثنين من جديد .

حين فرغ الامبراطور من هذا الحفل مسح خرائنه للدوق ورفاهه ،
ووصلهم بالهدايا الذهبية الرائعة ، وأغدق عليهم الحواهر والساب
الحريرة . والمرهريات الغالية النفسه الى يعجز الحال عن
بصورعا صصعه وقيمة ، وذلك لأن الامبراطور أراد - من وراء
اتحاويهم بالهدايا التي أكرمهم بها - أن سر دهولزم واعجابهم بما هو
عليه - من ثراء ليس له مثل ، كما هدف أن يحلب اليهم بعظمه
المأزك ، ولذلك لم يهضر كرمه الذي حص به الدوق على أن يكون
مره واحد فحسب . بل أحد مند يوم العطاس حتى عند الصعود
برسل اليه أسبوعيا من العصر الامبراطوري من القود الدهسه
ما نكل أكاف ارضه رجال أسداء عن حملة . هذا الى جانب عسره
أنقال من الدراهم النحاسية ، عبر ان الدوق لم يسبق من كل ذلك
شيئا لنفسه ، بل حاد بما جاءه على البلاء والجيش ، حسما سسلزم
حاجة كل فرد .

★★★

استأذن الدوق ومن معه ، بعدئذ الامبراطور في الرحيل .
ورجعوا الى المعسكر ، ثم ردوا اليه ولده يوحنا الذي كانوا قد
استبقوه في المعسكر رهينة الى حين أوبة الدوق ، وقد صحبه في
رجوعه كوكبة من حرس الشرف .

حينذاك أصدر الامبراطور بسانا عاما بقضى بتجهيز كل
ما يحتاجه حش الدوق بمن معقول ، وكل لا جور فيه ولا طلم ،
وبودي بقبل كل مخالف لهذا القرار ، كما أعلن الدوق من ناحيته
على لسان مناديه باعدام كل من يرتكب في معسكره عملا من أعمال
العنف . أو يخطيء في حق رجال الامبراطور ، وبهذا استمر الحانبان

في تعاون مبادل بينهما في أمور البيع والسراء وسادهما حو من
الزوايا العام .

ولما أذن شهر مارس بالانصراف عام الدوق بوصول الفاده
الآخرين ونزولهم بجيوشهم في تلك الناحية ، فأمر الامبراطور
بهيئته السفن وعبورهم البسفور ، بعد أن وافقه على هذا الأمر كبار
رجالانه أنتيا ، راذاً ذلك سررب [سردوروى] معسكره في خلعدونية
في بسيسا الى كانت أول ولاية في آسيا يصل اليها .



وكان قد انعقد [في سنة ٤٥١] في خلعدونية لى هي من
أعمال بيسينا ، وفي زمن كل من البابا لبو الكبير والامبراطور
ماريان المجمع الدينى الرابع العام ، وحضره سمائة وسة وثلاثون
من آباء الكنيسة ، فسحب المجمع هرطقات كل من الراهب
« ايريسيبوس » راهب اسكندرية و « ديسكورس » نظرهما .

كان هذا المكان [وأعى به خلعدونية] أقرب ما يكون الى
القسطنطينية ، ولا يفصله عنها سوى البسفور ، ويسنطع الناظر من
هنا أن يطالع المدينة « الملوكة » ، حتى وكأنها الى حوار .

يضاف الى ذلك أنه كان في اسطاعة من حجم عليهم أعمالهم
الذهاب اليها من المعسكر القمام بهذه الرحلة ذهابا وايابا ثلاث أو
أربع مرات يوميا .

عبر أن كلمات الامبراطور المعسولة - في الإلحاح على الدوق بأن
يعبر هو وجسسه البحر قبل الوقت الذى كان محددا لذلك - لم تكن
صادره عن اخلاص وصدق طوبة ، بل كانت على العكس من ذلك نابعة

• يا دليج عليه من الحبل والرعبة في خداع الدوق حتى لا نصمم
 رايه الى قواب اللابن الآخرين عند وصولنا ، كما أنه سلك سبيل
 الخبث دانه حين احنال فأرغم الآخرين الذين جاءوا بعدئذ على ركوب
 الخيل . زاحدا بين الآخر ، حتى لا نسيى مطلقا وجود حسنة مما
 في وقت واحد أمام المدسه •

- ١٣ -

هكذا كان الموقف بين الامراطور والدوق في العسططسية .
 رحدث في هذه الأساء - وقبل دخول فصل الأساء الفارس الرد -
 أن قام لورد بوهيموند بن روبرت حسيكارد أمير ناراسو بصور بحر
 الأذربايجان ، ووصل الى دورازو على رأس جميع أسكركه ، رذائع
 من ضالك - هو من معه - الرحف في بطة عمر عادات بلغاريا وكان
 قد انضم الى حمسه كبر من أصحاب المكانة السامية وأهل البره من
 ابطالها وغيرها من البلاد ، وقد أوردنا أسماء هؤلاء وعددهم لئلا
 ذكرهم خالصة أبدا ، منهم تانكريد بن وليم مارشيسوس ، وريسارد
 البرسماني بن وليم دي الذراع الحديدية أخو روبرت حسيكارد ،
 وأخوه ريسولف ، وروبرت ابنزي ، وهيرمان دي كاني ، وروبرت
 دي سورديفال ، وروبرت بن تستان ، وهمفري ابن رالف ، وريبنشادر
 ابن كونت ريسولف ، وكونت ريرونولو مع اخويه ، وكذلك
 بويلودي شارترز ، والبيريدي دي كانسانو ، وهمفري من هرب
 سكالوزو •

اخترط هؤلاء جميعا بحسب رايه بوهيموند ، حتى اذا ناخروا
 « كاسورنا » اجمعوا بعهد ملاد المسبح •

لم يكن المدينه بعدد في هذا المكان أسواقا لم ير بالساحه
من الناس ، ومن ثم اضطر [اللاتين] للاستلاء سرا على قطعان
الماسه والدواب ، وبني كل ما يحتاجونه للعس مما أدى الى
حساره الاهالى الذين بطروا اليهم بطريهم للأعداء .

ثم أخذ [اللاتين] بعد ذلك في مباحه رجعهم من عدد الساحه
حتى بلغوا منطقه سديده التحصن والماء ، ويعرف باسم
« بلا جوسا » فضربوا معسكرهم بها ، وهنا وافهم الأخيار أنه
يوجد على مقربه منهم مدينه حصنة يسكنها الهراطة ، فأوسعوا
خطاهم نحوها ما وسعتهم السرعة واستولوا عليها بالسلاح . وأصرموا
البار في حاسب . وراح ما بنا من بن هالك بالسيف أو صريع
البنيه البار ، ثم عادوا منها محملين بالغنائم الصحه والأسلاب
الوفيره .

ولما سمع الامبراطور أن كنانث بوهيموند سابع رجعها ، أوعر
سرا الى مقدمى حوسه الذين كان قد أرسلهم فى مساهى ذلك المكان
أن يطاوا سائرين مع جميع قواب تلك الناحيه الى حاسب القواب
المسححة حتى يصلوا الى نهر الورداد ، على أن يقسموا الفرصه ان
لاحب لهم لئلا أو نيارا للاغارة على طلعة الجسس ، سرا أو جهرا ،
وذلك لما نوى الى علمه من أعمال القتل النى جرب عند مجىء الفائت
بوهيموند ، وكان الامبراطور قد دأى منه ومن أبيه روبرت حسيكار
الأهوال الحمة فى سالف الأيام ، لكنه استطاع بفضل ما طبع عليه
من الدهاء والمكر - أن يوفى غاية الوقوف فى سنر أغراضه واخفاء
أهدافه . بارساله طائفة من كبار من حوله الى هذا الرجل العظيم
[بوهيموند] ألغى اليهم أن تكلموه بلين الكلام وأرقه ، وأن يصطنعوا
معه من الأسلوب المظمن ما يخفى غرضه ، وأن يستعملوا كلمات
تبث فى نفسه الطمأنينة ، لكنها نخفى وراءها الغدر الذى لا مناص

منه ، كما أمرهم أن يبدلوا فصارى حينهم لخديعه . وكانت لهجة
الرسالة المكتوبة اليه وكذلك الكلمات التي جاء بها الرسل كالآتي

- ١٤ -

« قد علم جلالنا - رعانا الله - بما لا يدع مجالاً للسك أنك
أمير جليل القدر ، قوى السكينة ، وفتح المكاة ، كما أنه يعلم أنك
ابن أمير مجل نوى لم يصرف الكلل اليه سبيلا ، وقد أنزلناك ما
مرك الحب ، وحبوناك من اقبالنا ما أنت أهل له . وان كما لم
نرك وجهها لوجه حتى الآن .

« وقد علمنا أن طاعتك للرب حملك على أن تهبط نفسك
لخدمته ، وأن تسارك بقية الأمراء المخلصين في العباد برحلة الحج .
وان هدفنا هو أن نزيدك منا حبا ، ونترك منزلة الود من نفسك
لذا (فانا نلتمس منك) أيها الصديق الحبيب أن نوزع الى أساعك
بكف أيديهم ومنع أذاهم عن رعائنا ، وألا يرتكبوا عملا من أعمال
العنف أو النهب أو اضرار الحرائق ، ونسألك أن تبادر ما وسعك
البدار للمجيء الى حضرتنا لا تخاف شيئا ما ، عساك أن تعم
بآلاف السرف ، وتحظى بالنعم التي نعزم اغداقها عليك ، ولقد
أصدرنا أمرا الى حامل هذه الهدايا على تهينة كل ما هو لازم لجيشك ،
بمن لا فصال فيه ، حتى تظل امداداتكم بأسباب المشى موصولة على
الدوام » .

وعلى الرغم مما يوحى به طاهر كلمات الامبراطور هذه من الود الكبير ، الا أنها كانت تخفى وراءها السم ، غير أن بوهموند - وحر الرجل العطن اللماح ، المدرك تمام الادراك ما سطوى عليه نفس الامبراطور من الشر - كم مساعره ، وأخذ حذره السديد ، وأرجى الى الملك آيات الشكر على ما أبداه من العطف والاهتمام بسلامته ، وبيع الدوى هؤلاء المرشدين ، حتى اذا بلغوا نهر الورداد وجدوا قسما من عسكرنا قد عبروا النهر حالا ووقفوا على ساطئه الآخر ، بينما كان هناك غيرهم يهابون لصبوره ، فظن أتباع الامبراطور الذين كانوا يقتفون أثر معظم جيشنا ان قد لاحب الفرصة لهم ، فكروا فى وحشية ضارية ، وروح عدوانية كريمة ، على هذا الرهط من الناس الذين كانوا على وشك العبور .

فلما اضمح المكر السيئ لباكربد - وكان مسعدا للدوام للعمل - هب كانه البرق الخاطف الى تلك الناحية ، مسطحبا معه ما بقرب من ألفى فارس وعبروا النهر المزبد سباحة الى ساطئه الآخر الذى لم يكادوا يصلونه حتى وثبوا على العدو بسوفهم ، فمقرص صفوفه وأرغموه على الفرار ، ثم مضوا ببعقبونه بعض الوقت وفكروا بالكربن من رحاله ، كما أسروا البعض منهم وجاءوا بهم الى بوهموند الذى أطرهم بأستلته ، مستفسرا منهم عما وراء مطاردينهم حبشا مسحيا مثلهم واقتفاء أثره ، فقالوا له انهم رجال الامبراطور ومرتزقته ، وأنه لا بد لهم من الانصاع لأمره ، وثقال من أوصاهم بقتالهم .

وحينذاك اضمح للجميع بما لا يدع مجالا للشك والريبة زيف كل ما قاله الامبراطور لهم وأنه قول لحمنه الخديعة ، وسداه الرءاء .

غير أن بوهموند لما كان يعلم أنه موشك على الرحيل ، وأنه فى حاجة لاستعمال كل ما يقدمه له الامبراطور من وسائل السفر ،

فعد بصدي للودود في وجه اراده بقية رجاله ، وراى ان يكس
أحاسيسه ، حتى لا يبر حتى ألكسيوس من غير فائدة بحنها •

- ١٥ -

بعد أن احتاز الحسن مقدونيا وولاية الليريا كلها ، راح يبحث
الخطي وهو بحث قتاده حودفروى الحكمة حتى دى من المدينة ،
فوفف قريبا ، وكان ذلك قبل عند المبلاد بخمسة أيام ، وهما جاء
سفاره ثانه من الامبراطور الذى أرسل برحو من بوهمود في
الحاج أن يحلف وراءه قوائه ، وبضى لزيارته في حرس قليل ،
فتردد بوهمود فترة قصيرة وأجل سقى هذه الأوامر بعض الوقت ،
لانه كان بسك في نوابا الامبراطور ويدرك ما بضمه من السر ،
وببما كان يبحث فيما يبعى عنه اسخاده ، اذا باندوى الأعظم
جودفروى يعبل في أبهة عظيمة ، بحوطه كوكبه سرف من النبلاء ،
وفد وفد على بوهمود - استجابة لموسلات الإمبراطور الماحة عليه -
في محاولة منه لحمله على زبانه حالته الامبراطورية دون خوف أو
وجل ، فعانق كل منهما الآخر ، وتبادلا قبال الحب ، ودارت
بهما الأحاديث اللطيفة وراح كل منهما يسأل الآخر عن أحواله ،
فلما فرغا من ذلك أشار الدوق حودفروى - بناء على ما لديه من
المعلومات - على بوهمود - بزيارة الامبراطور ، ولكن الآخر أظهر
في بداية الأمر اصراره الشديد على رفض هذا العرض ، غير عابى
بنصيحة الدق ، لعدم إيمانه بصدق ما يقوله الامبراطور كما
ذكرنا ، سد أنه رضخ في النهاية لرجاء حودفروى ، ومضى مطمئنا
في حراسه الثوف الى القصر ، فلما بلغه تلقاه الامبراطور بقبلة

السلام ، وأحاطه بكل ضروب العطف ، وبعد حوار أخوى طويل أصبح بوهيموند « رجل الامبراطور » كما يقول المل وأعلن ببعسه له ، وأقسم يمين الولاء له حريا على عادة الافصال لساداتهم اللوردات الاقطاعيين .

فلما فرغ من فسمه انبالت عليه الهدايا الغالبة التي لا تعدر بمن ، والتي حياء له بها من الحزاة الملوكية ، حب فدمرا اليه الذهب والساب والمرهاب والاحجار الكريمة . وبذلك انعقد السلام بين الاثنين .

☆☆☆

أما نانكريد - ابن آحب بوهيموند - وكان رجلا يسبر كل ما فيه الى عظمته - فقد كان حريصا كل الحرص على ألا يذعب الى الامبراطور حتى لا يتحدث اليه ، وبينما كان خاله [بوهيموند] لا يزال في البلاط الامبراطوري انتقل هو بكل عسكره الى بنينيا في اقليم خلفدونيي الواقعة على لجانب الآخر من البسفور ، وضرب خايمه قرب جيش الدوق [جودفروي] الذي كان قد عبر البحر منذ قليل وأصبح الآن في انتظار الجيوش الأخرى .

ولما علم الامبراطور [ألكسيوس] بتجنب نانكريد المجيء الى حضرته اشند غضبه منه ، الا أنه نمسك بالعقل وكظم غيظه ، وراح يفتدق - بين آونة وأخرى - الهدايا على الأمراء الذين يزورونه ، فإذا ما صدروا عنه الى معسكراتهم فيما وراء البسفور - وصلهم بآيات التسريف .

وأقام الجبنسا هما في وثام واستقرا في انسجام على مقربة

من المدينة في اسطار وصول الجيوش الأخرى ، ثم انضم الجميع بعضهم الى بعض في جيش واحد في السير الى الحج الذي اعزموه .

ولقد أمدت المدينة الملوكية والمطلة التي حولها أهل المعسكر بكميات كبيرة من الطعام ، حتى أصبح الجميع قادرين على التمتع بالوفرة منه حسبما يساءون .

- ١٦ -

في هذه الأثناء ، وعند اقتراب دخول فصل الشتاء ، سرع روبرت كونت فلاندرز العظم في الإبحار من « ناري » إحدى مدن أبوليا الساحلية ، وأرسى بعد إبحاره بجميع حسبه في « دورارو » ونحاسي زدهيرير الشتاء بنزوله وسط الثباب والمراعي وفي مطلة خصبة تزخر بشنى متطلبات الحياة ، فأقام بها ، حتى اذا دنى فصل الربيع تابع رحلته وهو أنسط ما يكون لتنضم الى القاده الآخرين الذين سبقوه فعبروا البحر .

وانفذ الامبراطور - كما فعل مع القاده الآخرين - رسلا من جهة الى كونت فلاندرز قبل وصوله القسطنطينية ، يسرون عليه بترك قواته خلفه ، ومناجاة رحلته مع ثلة من رفاقه ، للمول بالخدمة الامبراطورية ، وأوقفه هؤلاء الرسل على كل صغيرة وكبيرة مما فعل سابقوه في هذا الموضوع مع الامبراطور ، فلما بلغ الكونت القسطنطينية مضى الى القصر في شزمة ضئيلة من حاشيته ، فلقاه الامبراطور بكل مظاهر الاحلال ، وعامله أطب معاملة ، فلم يكن من [الكونت] الا أن نهج نهج الآخرين فقطع على نفسه يمين الولاء الذي

طلبه منه الامبراطور ، واذا ذاك انهال عليه من مظاحر المكرم
والهدايا أكثر مما انهال على السابقين ، وكان حظ رفاته مثل عدا
الحظ من الكرم ، وإن نال كل منه حسب مرتبه .

وصدر الادن لجيس كوت فلاندرز بالبقاء عده أيام قرب
المدينة منعما بأطبب الطعام ومسحما ، وقد أكثر الكوت في حذنه
الأيام من احتماعه مع الامبراطور ليجب المواضع التي دلت
ضرورية ، فلما فرغ منها استأذنه في الرحل بعسكره فأذن له ،
فأبحر للانضمام الى اخوانه الحجاج الذين استقبلوه بالحب العظم .
وانضم الحسان بعصهما الى بعض .

أقام العاده بضعة أيام يقص الواحد منهم على الآخر الاحداث
المخلفة التي جرب له في رحلته ، وقد سادهم روح البهجة . حتى
اذا فرغوا من استعراضهم للصعوبات التي مر بهم انهوا آخرا الى
منافسة المسائل الخطرة ، وكان من الضروري بعد أن عقد كل منهم
محادثات دفقة مع الآخر أن يقرروا متى وكف يكون احاز المسروع
الذي أقدموا على النهوض به ، وبينما كانوا مهتمين في لوم رفاقهم
الذين تأخروا في المحي وحبيلهم مسئولة انصرام الوقت بلا طائل
اذا برسول بصلهم من كونت بولوز وأسقف بوى ننوهم بانهما على
مقربة منهم ، وأنهما سرعان ما سيدخلان المدينة .

- ١٧ -

للازم هذان الرحلان العظمان منذ مسنهل السر ، وظلا حنبا
الى حناب بحوشهما ، فكانا رفيقي رحلة لم ينفصل أحدهما فيها عن
الآخر ، وكان في ركبهما رجال بارزون من علة القوم خلعا ومكابة ،

مهم : ولم أسقف أورنج ، ورينبولد كوت نفس المدينة [أورنج] وحاسون دى بيريه ، وجيرارد دى روسيلون ، ووليم كوت مونتيلييه ، ووليم كوت فورير ، وريسوند بيليه ، وجاسون دى بيارن ، ووليم أمانجو وكثيرون غيرهم ممن لم تنع الذاكرة أسمائهم ، الا انهم سيظلون من غير شك أحياء فى ذاكرة الزمان ، ذلك لانهم آثروا الفقر عن رضا وطيب خاطر ، فهجروا ، مهبط رؤوس آبائهم وفارقوا أحبائهم وأقاربهم ، وبخلوا عن أملاكهم الفسيحة التى ورثوها عن أسلافهم من أجل اقتفاء خطى المسيح .

وصدقت النية من هؤلاء الناس جميعا فأخلصوا فى خروجهم واتباعهم من ذكرنا من الرجال الموقرين ، وشهدوا رجالهم الى ايطاليا ، واجازوا المبارديا ، حتى اذا حلقوا وراهم الاقلم المسمى «فورم حيل» دخلوا استريا القريبة من «أكويلا» فأفضى بهم السير فى النهاية الى أرض «دلاشيا» الواقعة على امتداد الطريق الواصل بين البحر وبحر أدرياتيک ، والتى توجد بها أربع مدن كبرى هى «زارا» و«سالونا» (المسماة أيضا بسبالو) و«أنتيفارى» و«راحوزة» التى يسكنها قوم قد أوغلوا فى الهمجية ، وبلغوا من الوحشية أقصاها ، فهم يعيشون على السلب والنهب والقتل .

وأرضهم مكسوة كلها بالغابات ، وشققها الأنهار الكبيرة ، وتحفل بالمراعى الفسيحة ، ومن ثم تقل بها الحقول الا ما تنائر منها هنا وهناك .

ويعتمد الأهالى فى معاشهم اعتمادا تاما على الماشية والأغنام باستثناء جماعات قليلة جدا تقيم على ساحل البحر ، وتختلف اختلافا بيينا عن بقية القوم فى العادات واللغة ، فلسان هذه الجماعة هو اللاتينى ، على حين يتكلم بقية الأهالى اللغة السلافية ، وسلوكهم هو سلوك المتبربرين -

ولما دخل الكويت وأسعف بوى ورجالهما هذه الولاية صادفهم كثير من الصعاب على طول الطريق لا سيما بسبب طبيعة الاقليم الوعرة ، وامرأب فصل الشتاء ، كما ظلوا بضعة أيام يكابدون وطأه المجاعة لقلة ما عندهم من الطعام والمثونه .

ولما طالع الأهالى وجوه دوما فزعوا فزعاً شديداً ، حملهم على ترك مدنها والتخلى عن أماكنهم الحصينة ، وفروا فرارهم من وحوش كاسره ، واعصموا بالسالل والأدغال مسنصبين معهم نساءهم وأطفالهم وماعهم وان ظلوا يتابعون فى خلسه - وعلى بعد - آثار حبسنا الزاحف ، ويفكون بمن نرميه الأقدار فى أيديهم من المرضى والمسبن والعجائر من النساء ، ممن لم تسعفهم قواهم وخطاهم البطشة بملازمة بقية القوم ، فانفصلوا عنهم .

ولما كان الكونت يسعر بالمسئولة الملقاة على عاتقه عن هذا الجسد الكسيف ، فقد ولى قيادة الطلعة الزاحفة أمامه جماعة من الزعماء . وأما هو فقد وقف فى المؤخرة على رأس الجانب الأكبر من الفرسان ، كما أنه هو ذاته كان آخر العائدين الى معسكره .



كان الجو ملثا بالضباب الكنف ، والظلام شديداً كأنه قطع متصل بعضها ببعض حتى ليكاد المرء يحسها ، ومن ثم فقد كان من الصعب حدا على السائر فى الخلف أن يتبين الذين أمامه ، على حين أن طلعة الجيش كانت لا ترى قدامها أكثر من رمية حجر ، هذا الى جانب ما ذكرناه من أن الاقليم زاهر بالأنهار والقنوات المائية ، ونكثر فيها المستنقعات التى تعمل على زيادة الرطوبة والضباب الكنف لحظة بعد أخرى ، حتى كاد الهواء أن يخنق الأنفاس .

يضاف الى ذلك أن المواطنين الدلاشيين والسلاف كانوا على

دراية نامة بالاflليم ، فراحوا يبايعون الجيش وهم على العمم الساهقة
وفى الغابات الكثيفة ، وكبرا ما كانوا يبرزون فجاه من الغابات
لمهاجمة الحجاج العزل من السلاح .

غير أن الكونت ومن معه من العاده طالما فاموا أيضا من جانبهم
يردون على هجماتهم عليهم بملها ، فقصب حراهم وسوفهم على
الكثيرين منهم ، وكان فى امكانهم أن يفحنسوا العسل فهم أكر
مما فعلوا لولا فرار هؤلاء الدلاسين الى الأحراج القريبة منهم .
متخذين منها ملجأ أمينا لهم ، وحدث فى يوم من الأيام أن وقع بعض
هؤلاء الأشرار فى يد الجسس فأمر الكونت بقطع أيديهم وأرجلهم من
خلاف ، عسى أن يكون فى هذا العقاب زجر لغيرهم ، فكفون
- جزعا - عن متابعة الجيش وملاحقته .

ظل الحجاج ثلاثة أسابيع منناله يعبرون هذا الجزء من الافليم
وهم فى كرب وضيق ، حتى انتهوا أخيرا الى موضع يقال له
« سكوتارى » وجدوا به ملك السلاف ، ولما كان الكونت رجلا رحما
رضى الخلق فقد سخي فى تقديم الهدايا الى ملك السلاف راحا أن
يؤدى هذا الكرم من حانه الى نوثق روابط الصداقة بين الجانبين ،
وحتى يضمن لمن معه مودة الأليا عساهم يعقدون لهم سوقا يشترون
منها ما يحتاجونه من بضاعة .

لكن الكونت لم يستطع - حتى بهذا السلوك - أن يهددهم من
وحسبة هؤلاء القوم ، أو يخفف من فظاظتهم ، بل الواقع أنهم
ازدادوا شراسة عما كانوا عليه من قبل .

لكن سننى للجسس أن يصل فى النهاية الى دورازو بعد مسره
أربعين يوما داخل أرض دلاشيا كابد فيها كل الصعاب .

حاصرت المخاوف الكثيرة الامبراطور من مقدم الكونت ، لما كان عليه هذا الأمير من الفطنة والعقل ، الى جانب ما كان تحت قيادته من جيش بالغ الضخامة ، وكان الامبراطور قد أرسل منذ أمد طويل قبل وصول الصليبيين الى هذا المكان سفارة من كبار رجاله لمقابلته الكونت في دورازو ، وعهد اليهم أن ينقلوا اليه تحياته الرقيقة النابضة بالود ، فامتثلوا لأوامر مولاهم وذهبوا الى الكونت وخاطبوه بالفاظ سداها الرقة ولحمتها المداهنة ، وقدموا اليه رسالة الامبراطور التي تضمنت الآتي :

« أيها الكونت العزيز ، لقد طبق الحافقين منذ أمد بعيد كبير من أخبار فطنك ، وما اشتهرت به من حسن الأحدوثة شهرة ذاعت شرقا وغربا حتى بلغت بلاطنا ، مما حملنا على حبك ، ومن أجل هذا الحب ، ورغبة منا في اظهار مودتنا ، فاننا ندعوك اليها لتؤكد لك - بسبب فضائلك - وعلى رؤوس الأشهاد - تقديرنا الشخصي لما أنت عليه من الفضل ، ونحن نتطلع في لهفة الى قدومك علينا ، واننا نريد أن نناقش مع عظمتك - وأنت العزيز الغالي عند امبراطوريتنا - كثيرا من المسائل المتعلقة بالأمور العامة ، ونرحوك رجاء حارا أن يكون سيرك عبر بلادنا من غير شغب ولا ازعاج ، وأن تبادل بالمحبة اليها معتمدا على محبتنا ، ولتكن واثقا مما عزمنا عليه من اغدافنا عليك آيات الشرف ، كما أصدرنا تعليمات الى حاملي هذه الهدايا أن يهينوا موضعا تبتاعون فيه ما تحتاجونه ، وأن يظل التعامل التحاري بين قومنا وقومكم موصولا ، تحت شروط ملائمة كل الملامة » .

حين تسلم الكونت هذا الخطاب انشرح صدره وصدور عسكره انشراحا كبيرا ، ققرروا متابعة السير ، فساروا اياما كثيرة

فاسوا حلالها المنساق في اجتيازهم الأجراف والجبال ، حتى اذا
جاوزوا بلاد ايروس كلها نزلوا في الاقليم المسمى ببلاحوسا ، ناصبين
معسكرهم به لكثرة ما يزخر به مما تهواه النفس .

واما أسقف بوى الذى عاش حياته عفيفا طاهر الدليل فقد
انتقى من دون الجند مكانا قصيا اينارا منه لراحته ، ونصب هناك
معسكره ، لكن ما لبث البلغار أن هاجموا وأخذوه أسيرا ، غير أنه
لما كان شعب الرب لا يزال فى مسيس الحاجة الى قسيس عظيم
كهذا القسيس فقد أبت رحمة الرب الا أن سدا ركه ، فأبقت على
حياته ، وما كان ذلك الا بقاء الا عن طريق الصدفة الحنة وحدها ،
اد طلب منه أحد اللصوص أن يسلمه ما معه من الذهب ليبسط
علمه فضل حمايته ، فلا ياله أحد بضر ، فأعطاه ما طلبه ، فأغصب
هذا بقية اللصوص ، فنارب بينهم فتنة تعالى ضجيجها حتى سمعها
عسكرنا ، فهبوا جميعا الى سلاحهم ، وكروا على المفسدين وأنقذوا
الأسقف المسجل ومن معه من بين أيديهم .



تابع العسكر بعد ذلك مسيرهم ثانية فعبروا سالونكا وكل
بلاد مقدوسا ، وظلوا يابعون زحفهم المضى عدة أيام حتى بلغوا
مدينة « رودستو » البحرية المطلة على البسفور ، والتي تعد عن
القسطنطينية مسيرة أربعة أيام ، وهنا جاء الى الكونت وفد آخر من
جهة الامبراطور ، كما وفد عليه رسل من القادة [اللاتين] الذين
قدموا قبله يحضونه النصيح ، وبلحون عليه أن يأذن لجيشه بالسير
ولكن فى ببطء ، أما هو فعلمه أن يبادر بالخروج فى شردمة ضئيلة
من حرسه للذهاب الى الامبراطور ، حتى اذا فرغ من أمره معه يكون
حشده قد بلغ [القسطنطينية] ، واذا ذلك يستطيع ملاحقة الآخرين

بأسرع ما يمكن ، دون أى إعاقة للجيس الذى كان راعا فى سرعة الزحف .

وكان الكونت قد أرسل [الى القادة] من تلقاء نفسه جماعة من عنده . فلما عادوا اليه شجعوه على اتخاذ نفس الخطوة .

- ١٩ -

بلاشى أحيرا بردد الكونت أمام الإلحاح المستمر من جاب مندوبى كل من الرسل الامبراطورين والقاده [اللابى] الذين المسوا هم أيضا مه أن يسرع الى قصر الامبراطور ، فاستجاب لهم جميعا . وبرك جيسه تحت الحماية الدفيقة من جاب الأساقفه وعبرهم من الأشراف الذين كانوا فى المعسكر ، ومضى هو ملبسا الدعوات المكرره اليه ، ودخل القسطنطينيه فى رهط قليل من حاسسه ، وفى حراسه مندوبى الامبراطورية ، فلما مثل أمام الامبراطور بالغ الامبراطور ووجه رجاله فى الترحاب به واطهار التعدير العظيم له ، لكن ما كادت تسهى كرمات السناء التى فلتت لاسنمالتة وخديعه ، والنى تضمنت الإلحاح السديد عليه لقطع يمين الولاء للامبراطور بالطريقة التى انبعاها القادة الآخرون الذين سبقوه ، أقول ما كادت هذه الكلمات المعسولة تنتهى حتى رفض الكونت قطع اليمين رفضا باتا .

بنما كانت هذه الأحداث تجرى فى القسطنطية ادا بالامبراطور قد استبد به الحنق لرفض الكونت اعلان تبعته له كما فعل الآخرون ، وحينذاك أسر الى قادة جنده الموجودين فى تلك النواحي

بمباغة فواب الكونت وأخذها على عره ، وأمرهم ألا يدخروا وسعا
 فى ازعاجهم ، حتى ولو أدى بهم الأمر الى اغتيالهم ، وقد سَجَّعه على
 ركوب هذا المركب وسلوك هذا السبيل النزام القادة الآخرين ببسب
 الولاء السى قطعوها له ، كما أغراه على ذلك أيضا أن جوسهم كلها
 كانت قد عبرت البحر ولم يعد من السر رجوعها ، كذلك صدر الأمر
 الى جميع السفن المتجهة لنعل البحاره أو الناس بحرا بعدم مغادره
 الساطىء الآخر ، وبذلك نصبح كل فكره للرجوع ضرا من العس
 لاعداد وسائل النعل ، وكان الامبراطور قد نجح بكلمانه المعسولة
 الخادعة ، وما اصطنعه من اعراءات كبيرة فى حمل الجوس على
 العبور فردا بعد فرد حتى لا يجمعوا كلهم فى المدينة فى وقت
 واحد ، وكان الداعى له الى ذلك الأمر هو خوفه - كما سرحا - من
 أن يجرى هؤلاء العسكر فكون فى تجمعهم كلهم خطر ما بعده من
 خطر عليه . كما أن سخاء القادة لم يكن عن كرم أو حسن قصد ،
 بل كان سياسة خبيثة ننطوى على المكر وهى وليدة الأس ، ومع
 ذلك فقد أعدم زعمائنا على تلبية ما طلبه الامبراطور منهم لنقصهم فيه
 وتصديهم لما بقوله ، وكان من أصعب الأمور اقناعهم بسوء طوبة
 الاغريق ، ولؤم نة الامبراطور وخداعه وختله الذى لا ينقضى ،
 لا سيما منذ أن بالغ فى السخاء عليهم واكرامهم وتظاهره نحوهم
 بأقصى مظاهر حسن النية .

- ٢٠ -

راح الضباط الذين تلقوا أوامر الامبراطور - وهم من أمراء
 الخمسمائة وكذلك الموكل بهم قيادة القوات الحربية - ينفذون
 توجهاته ، فقاموا سرا - واللبل يلف الدنيا بظلامه - بمهاجمة

عسكر الكونت الذين لم يكونوا يتوقعون قط أى خطر يأتيهم من هذه الناحية ، فراحى حراسهم ، وعقلب عيوبهم ، فأخذهم الاغريق على غرة منهم ، وقتكوا بالكثيرين منهم فسكا دريما ، وذلك لأن المباغته أدت الى عدم اتاحة الفرصة لهم لانضاء سيوفهم ، فجرت فيهم مذبحة محزنة ، وفر من نجى فرارا مشييا لكنهم ما لبثوا أن رجعوا على أعقابهم حين تبصروا حالهم ، واستردوا شجاعهم وعادوهم بطولهم ، فأنزلوا كثيرا من الحسانر تلك العصابات الحربية من مرفقه الامبراطور ، ولقد أبدى الصليبيون مقاومة عبقرية آخذين بعين الاعتبار ظروف الزمان والمكان ، غير أن اليأس بدأ يسرب الى نفوسهم بسبب مشقة الطريق وما يلقونه كل يوم تقريبا من أخطار لا تسهى ، بأنهم على غير انتظار منهم ، فراحوا يستسلمون للباس ، وطالما لاموا أنفسهم على ذلك ، وأخذت حماسهم نفتر كل يوم عن الذى قبله بسبب الازهاق الذى نال منهم كل مال ، ومن جراء المصاعب الشاقة التى واحهم ، وندم الكيرون منهم على المغامرة التى أقدموا عليها ندما جاوز الكثيرين من العامة الى طائفة كبيرة من أبرز رجالهم الذين يشأونهم مكانة ، والواقع أن الرية ساورتهم فى قدرتهم على انحاز حجبهم ، فنسوا ما قطعوه على أنفسهم من عهود ، وما أقسموه من أيمان ، وراحوا يعدون العدة للعودة من حيث جاءوا ، ولولا أن أخذهم تحذيرات الأساقفة ورجال الدين من كل جانب ونصائحهم البهم وحثهم اياهم على الوفاء بما فى أعناقهم من يمين فهجروا الحسن وحاولوا الرجوع الى ديارهم ، غير ممالين بالخطب الذى يترتب على ذلك .

ولما سمع الكونت هذا النبأ عصر الحزن قلبه واستبد به الألم وبكى وأعلن أن قد غرر به ، ثم أرسل رهطا من أشrafه المخلصين الى الامبراطور يقولون له على لسانه انه خائن ، لأنه خرج على جميع مقتضيات اللياقة والذوق إذ أمر رجاله بمحاربة جيش الكونت

ريموند في الوقت الذي ذهب فيه ريموند الى الامبراطور اسجابه
للكتب المدينة التي جاءه من القادة ، ونزولا على النمساويين
الكثيرة منه .

كذلك لام الكونت القادة لداومهم اللاحاح عليه بالمضي الى
الامبراطور حتى ترك حبسه وشخص الى العسطنطينية ، وأعلمهم
ريموند بالمصائب التي آلت بكتائبه وبخيانة الامبراطور لها ، ثم
طالبهم - كاخوة له - أن يثأروا لهذه العمال الشائنة .



لو ان قوة الكونت كانت مكافئة لرعيته الصادقة في الاسام
لرجاله لما كان لتهديدات الآخرين ، ولا لمدخل سواهم من القادة
قدرة على ثنيه عما اعزمه ، فقد اشهر عنه انه كان رجلا صلب
الارادة ، قوى الشكينة ولا يثنبه ثان عما أحجم العزم عليه ، كما
أنه لا ينسى الاساءة أبدا .

وحين عرف الامبراطور المدى البعيد الذي ذهب اليه بدم على
ما بدر منه ، ورأى أن يبعث في استدعاء القادة الذين لا رالوا
بجيوشهم على السواطيء الأخرى طالبا اليهم المسول في حضره .
طمعا منه في أن يؤدي ندخل هؤلاء القادة - وهم الدوق وبوهيموند
وكونت فلاندرز - الى اسرضاء ريموند ، فاستجابوا كاهم لدعوه ،
وعلى الرغم من شدة حنفهم جميعا على ما قد جرى الا أنهم رأوا عدم
ملاءمة الزمان ولا المكان لطلب الثأر ، ومن ثم انفردوا بالكونت رجاء
أن يحملوه على ألا يصرح بالأخطاء التي يشعرون أنها قد حاقت به
وبهم أيضا ، مبينين له أن اندفاعه في طريق الانتقام قد يؤدي الى
ضساع جهد أيام طويلة ، والى عرقلة زحف أولئك الذين يرغبون في
السير في طريق السيد ، فاستجاب الكونت لحججهم هذه ، ورضخ

لتدخلهم الرحم ، وكبت مساعره المريزة واحساسه بالآلم ، وحصع
لنصيحة القادة ، ووافق على ما رنبوه ، وحينذاك ذهبوا جميعا الى
الامبراطور بنفوس راضية وان عبروا بالاجماع عما يسعرون به من
السخط على ما جرى ، فلما أدرك الامبراطور ما هم عليه من الاسساء ،
وقد رحدهم حمعا شعور جماعى مبن ربط بينهم حمعا لم يجد بدا
من التنازل والاعذار للكونت أمامه وفى حضور بطانه ومن لا سمى
اليهم بصلة . وزاد فاقسم بأنه لم يعلم بما قالوه من خبر الالهانة التى
لحقب الكونت ، وأن شىئا من ذلك لم يصدر عن أمره . وقال انه
على الرغم من ذلك فانه راغب فى استرضاء الكونت لمؤكد له
براءة .

هكذا كانت تكسيف للعبان - يوما بعد يوم - حدع الاعرق
وخيانة الامبراطور ، ولم بعد هناك أحد من الزعماء لم يصبح له
وضوح الشمس فى وسط النهار ان نفس الكسوس ينطوى على
كراهية سوداء لسعنا واحتقاره اياه ، ومع ذلك فلما كان يحقق
هدف الحجاج يدفعهم الى أمور أخرى . ولما كانوا هم أنفسهم نواقين
لأنحار مهمتهم على الوجه الذى يرضاه الرب ، فقد رأوا أن الحاوز
عما لحقهم من الأهوال أعظم من انصرافهم عن هذا المسروع المقدس
الذى حاءوا من أحله .

- ٢١ -

انصاع الكونت لنصيحة القادة فنصافى مع الامبراطور ،
واقسم له يمين الولاء على الصورة التى اقسمها الآخرون ، فأصبح
الامبراطور منذئذ بحوه يعطفه السامل ، ويسخو عليه بالهدايا

السنة الى لا يحصيهما العد ، والنسب تبلغ قبمتها قدر لا يدركه
التصور ، كما مضى يصل الزعماء الآخرين بالمزيد من العطايا ،
واذ ذاك اسنادنوه في الرحيل فأذن لهم ، والتمسوا من الكونت
- على وحه الخصوص - ألا يبطئ في اللحاق بهم ، بل عليه أن
يجيء اليهم على جناح السرعة ، واذا ذاك انطلقوا عابرين السعور ،
وانصدوا الى كائنهم الموجوده في بينينا .

أما عسكر الكونت [ريموند] فكانوا قد بلغوا القسطنطينية
حينذاك ، فأمرهم الكونت بركوب البحر في ساعنهم هذه فاسجأوا
لأمره . واضموا الى الجيوش التي سبقهم وان تحلف ريموند عنهم
للطر في ترنسب أموره الخاصة ، وبصرفها نصريفا لم يحل بيه
- وهو الرجل الفطن - وبين الاهتمام بالصالح العام ، اذ فعل ما فعله
العاده الآخرون من قبله حين راح برحو الامراطور رحاء الملح أن
يصحب القوم في زحفهم . على أن تكون له قيادة حس المسح ،
وبكون حينذاك صاحب الأمر فيه .

وعلى الرغم من أن جمع فادنا - لا سيما كونت بولوز -
طالما النمسا منه مرة بعد أخرى أن ينفضل بمرافقتهم كقائد لجس
المسح . وأن يأخذ القيادة العليا بيده ، الا أنه ظل ينصل مسحلا
المعاذير ، بحجة أنه محاط بأعداء همجين كالبلفار والكومان
والبشناق الذين لا يكفون عن الحركة على حدود الامراطورية
لاعنام الفرصة لسن هجماتهم الفجائية ، وتهديد سلم الدولة
وأمانها . وبين لهم أنه رغم رغبته الشديدة في المساهمة معهم في الصح
العظم . ومشاركهم في النصر المقبل الا أنه لا يستطيع أن يتنحى
عن المسئولية الملقاة على عاتقه بمملكته ، والا أتاح الفرصة للعدو
المحتق بها لبئزل الضر بها .

لكن كان جميع ما صرح به افكا وكل ما فاله بهتانا خسوه
الخديعة .

وكانت غيرته من رجالنا هي التي دغته الى هذا الادعاء ، لانه كان يلتمس أى ذريعة- نمكنه من كف مساعدته من شعبا واعافه تقدمهم بأى وسيلة سسطعها .

وكان القادة الذين عبروا البحر حالا - وأعنى بهم جودفروى وبوهيموند وروبرت كونت فلاندرز وأسقف بوى - قد أعدوا حوائجهم وصاروا على أهبة الاستعداد لمواصلة الحج مرة أخرى ، كما أزمعوا السير على مهل الى نيقة فى انتظار رفاقهم القادمين وراءهم ، ومن ثم ساروا يومهم كله قاصدين نقوميديا ، التي هي أكبر مدن ولاية بشسا ، واذ ذاك خف بطرس الناسك لمقابلة الكائب المقدمة وتحية الزعماء .

كان بطرس - تحنبا منه للجو القارس - فد أمضى الشتاء فى هذه الناحية مع الفئة القليلة الباقية ممن ظلوا على قيد الحياة . فانضم بهم الى زمر الحجاج الذين رحبوا به أجمل نرحب ، ولما سألوه عما لقيه حيشه من الأهوال أسهب لهم فى تفصيل كل ما حاق بهم ، ولم يفته أن يصف لهم روح الفوضى والنمرد التي كان عليها هؤلاء العصاة الرعاع الذين خرجوا فى صحبه ، ونسب الكبة الى ألت بهم الى سلوكهم الذاتى أكثر من نسبتها الى شىء سواه فشاركه القادة الحزن العميق فى مصسته ، ثم وصلوه هو ومن معه بالهدايا الثمينة الجمة .

ازداد حينذاك عدد الجيش زيادة كبيرة بعون الرب ، وذلك لان الطوائف المختلفة اتحلت حتى صارب جماعة واحدة تابعت السير تحت قيادة حكيمة لسبة ، فبلغوا نبقية فى الوقت المحدد ، ونصبوا معسكرهم على شكل دائرة أحاطت بالمدينة ، وخصصوا أماكن معينة

للزعماء الذين لم يعدوا بعد ، حتى اذا كان اليوم الخامس عشر من شهر مايو [سنة ١٩٠٧] ضربوا الحصار على المدينة .



حين فرغ كونت تولور من انجاز شئونه في القسطنطينية اسأذن الامبراطور في الرحيل ، فسأ عليه ثانية سحاء بالغا ، ووصله بالهدايا اكراما له ، فسار بمن كان قد ظل معه من رجال جيشه ، مقتفين أثر عسكر اخوانهم ومسرعين في زحفهم ، وسرعان ما بلغوا المدينة المذكورة آنفا .



في هذه الأثناء قام لورد روبرت - كونت برمدى العظيم - وغيره من كبار النبلاء البارزين ممن كانوا في معينه ، ومنهم لورد ستيفن كونت شارترز وبلوا ، ولورد اساس أخو الدوق حودفروي ، بايفاد الرسل من حانئهم الى الامبراطور وإلى اخوانهم ، يعلنون اليهم أنهم قادمون حالا .

وكان مع هؤلاء أيضا ستيفن كونت أوامال ، والآن فيرجانت ، وكونون ، أحد سعاة بربانى ، وكذلك روترو كونت بيرش ، وروجر بارنفيل .

وكان جميع هؤلاء النبلاء مع كثير من غيرهم من الأبطال البارزين وفيهم كونت فلاندرز وهيج العظيم قد وصلوا العام المنصرم الى أبولنا مع دخول فصل الشتاء .

وكان الأخيران قد عبرا البحر الى دورازو ، أما بعضهم فقد كان خوفهم من برودة الجو القاسية حاملا اياهم على فضاء الساء في ربوع أبوليا اللطمة ، وعلى حدود كلابريا [قلهورية] .

لكن ما كاد الربيع يطل حتى استدعوا أنبياعهم الحجاج ، وجهروا مناعهم للسفر ، ويمسوا وجوههم سطر الساحل ، سالكين الطريق الذى سلكه الآخرون ، فأبحروا الى دورازو ، وأرسوا بها ، ثم تابعوا سفرهم منها على جناح السرعة لتعويض الوقت الذى قضوه فى أبوليا ، وأعانهم الرب فأحازوا الولايات الوسطى لا سيما « الليريكوم » ومقدونيا ومنطقتى تراقيا ، وكانت رحلة هادئة أباهمهم العسطنطينية آمنين ، فاستدعاهم الامبراطور استدعاه الزعماء الآخرين من قبل ، فلما دخلوا القصر تلقاهم جلاله وجمع من حوله من الرجال البارزين لقاء حارا مشرقا .

ثم أجرى الامبراطور محادثات طويلة مع الزعماء السلافة . مجتمعين تارة ، ومع كل منهم على حدة تارة أخرى ، ملاحقا اناهم بكامانه الرفقة ، ووعوده الجملة ، فقطعوا له على أنفسهم العبد الذى قطعه الآخرون له من قبل .

وكان هؤلاء القادة الآخرون قد أخبروهم - قبل ذهابهم الى الامبراطور - بكل ما ينبغى عليهم فعله فقالوا لأنفسهم ، لسنا أكبر من كبارنا الذين سبقونا ، ومن ثم فانهم اقتداء منهم بهم نهجوا نهجهم وربطوا أنفسهم بالامبراطور وقطعوا له يمينا كاليمين الى قطعها له على أنفسهم من سبقوهم ، فكان الرد عليهم أن خطوا بعطف أكبر مما حظى به هؤلاء ، وأصبحوا جديرين بالحصول على منحة فاقت كل ما قدم من قبل ، فكثر المال بين أيديهم ، وجاءهم من الهدايا ما لم يروا له مثيلا من قبل ، من الذهب والملابس النمينة والأواني التى تشد الناظر اليها : مادة وصنعة ، وكذلك النسب

الحريرية ، فأذهلهم سخاء الامبراطور الذى حاور عطاياها فى طبيعتها وفدورها كل ما ننصوره نحن ، ثم اطلقوا محملين بهذه الهدايا الرائعة بعد استئذانهم الامبراطور فى الخروج حتى لا يكونوا سببا فى تأخير اخوانهم الحجاج . وعبروا البسفور ، وأسرعوا بجمعهم الى نيقية حيث كانت بقية الجيش الصليبي لا تزال بها ، فنلقاهم الأمراء بالأحضان ، ثم نزلوا جميعهم راضين فى المكان الذى قسم لهم .

- ٢٢ -

انصل بمعسكرنا اغربى اسمه « ناسكوس » كان «وصح ثغه الامبراطور . وكان لشم الطمع عذارا ، بدل أفعه الأفطس على ما اطلوب عليه نفسه من النهر ، وكان زعمائنا قد سألوا الامبراطور أن يمدهم بمرشد لتكون رحلتهم آكر أمانا ، فصدر الأمر الامبراطورى بعيين [تانكوس هذا] ليكون مرافقا ومرشدا لنا .

لم تكن معرفته البامه بذاك النواحي هي وحدها - كما قبل - التى دعب الى اختياره ، بل ان الامبراطور كان كبير الاعتماد عليه لما كان عليه من فساد النية والنفاق الذى لا حد له ، فانضم بانكوس بقواته الحاصصة الى زعمائنا ، عساه يكون كالأوزة التى تصبح غالبا بين الدجاج ، وكالحبة الرططاء بين ثعابين الاكل ، فكان أذن الامبراطور وعنه فى كل ما يجرى بالحيلة ، وبفسر له كل ملاحظة يندبها أى شخص تفسيرا يرضى بالحقد ، وينلقى من مولاه على يد الرسل الكبريين المرددتين بهما غدوا ورواحا موحزا للخطط التى يوجه اليها مشاريعه الشريرة .



ولقد نألف هنا - ولأول مرة - جيش منحد للسيد الحي ،
وكان في مجموعته مكونا من زمر شتى ألقت قباذنها الى رجال
تزعموها في أماكن مختلفة وفي أوقات متباينة ، ثم انحدرت هذه
الجماعات الكثيرة حتى اذا وصلت الى ها هنا صارت جيشا واحدا ،
ذلك لأنه لم يتأت لأحد من قادة جيش الرب وزعمائه منذ مغادرتهم
أوطانهم حتى بلوغهم هذه المدينة وضربهم معسكرانهم بها ، أقول لم
يات لهؤلاء رؤية بعضهم البعض ، ولم تسنح لهم الفرصة لمناقشة
المسائل المتعلقة بالصالح العام كما سنحت لهم الآن .

وأحصوا العسكر فوجدوهم ستمائة ألف شخص ، ذكرا وأنثى
مشاه لا طهر عندهم ، أما الفرسان من أصحاب الدروع فكانوا
مائة ألف .

وقد عسكر هذا الجنس بأجمعه أمام مدينة نقة ، مكرسا كل
نشاطه بنسي الطرق الممكنة للاستيلاء عليها ، وبذلك يهدون أول
ثمار عملهم للسيد في اخلاص .



هنا ينتهي الكتاب الثاني

الكتاب الثالث

الاستيلاء على نيقية والزحف عبر آسيا الصغرى

فصول الكتاب الثالث

- ١ - وصف مدينته سقية وذكر أسباب شهرتها ، وكيف جمع حاكمها فلح أرسلان قوة كبيرة من الترك من كل نواحي الشرق لمحاربتنا ، وكيف أعدوا الكمين لمهاجمتنا .
 - ٢ - قواننا بهاجم المدينة في ضراوة ولكن المواطنين يجدون سبيلا لهم للخروج عن طريق المحيرة ، فيرسل إليهم قلح أرسلان رسالة يشد بها أزرهم .
 - ٣ - القبض على حامل الرسالة وإفضاؤه إلى العاده بكل أسرار العدو ، ووصول كونت بولوز
- (الحروب الضلوسة ح ١) - ١٩٣

- وكان الضائب الوحيد - على جناح السرعة
استجابة للزعماء الآخرين .

٤ - قلع أرسلان ينزل من النلال ويهاجم معسكرنا
بعصف ، ولكن الهزيمة بحيق بحشه ويرسل
رجالنا بعض امارات انصارهم الى الامبراطور
فيكافئ الرعاء على ما فعلوا .

٥ - اقامه العادة في الأماكن التي خصصت لهم
ومهاجمة المدينة المحاصرة من كل المواحي وهلاك
طائفة من السلاء في المعركة .

٦ - أهل المدينة يحطمون آلة كانت على الأسوار
فيهلك نحبها كبر من الصليبيين ، كما أن
البحيرة دعوى نجاح محاولاسا .

٧ - الصليبيون يقلون الفوارب من البحر على
العربات ويسيطرون على البحيرة ، وينظر الأهالي
في يأس ودهشة الى براعة شعبنا .

٨ - معاودة الهجوم على بيعة من كل الجهات ،
ومحاولات كونت تولوز الغلب على برج أمامه
واستعماله من أجل ذلك الآلات وشنى الحيل
الممكنة ، ولكن مقاومة الأهالي أدت الى فشل
جهوده .

٩ - البراعة العظيمة التي أظهرها جود فروى ، وقيام
أحد الأهالي بقذف النار وصب الزيت على الآلات

وما حلب اذ ذاك من المصير المحزن الذى لقيه
أحده رجالنا البارزين .

١٠ - أحد الصناع يقدم خدماته للرمضاء الياثسين
فيبنى لهم آلة ويحدث تعباً بالسور الذى
سرعان ما ينهار .

١١ - زوجة قلع أرسلان نفع فى الأسر هى وولداها
أثناء محاولتها الفرار ويسولى اليأس على
الأهالى فيفاوضون تايكوس الاعريقى كى
يسنسلوا ، ويبحث القادة الرسل الى
الامبراطور بشأن هذا الموضوع .

١٢ - الامبراطور يوفد رسلا من قبله لسلم المدينة ،
كما يبعث أيضا بالهدايا والشكر للقادة ، ولكن
السلطان يسولى على الصليبيين ويشكون من
شجب الاتفاق بيه وبينهم ، وبصدر الامبراطور
أمره بسوق الأسرى الى القسطنطينة ويقدم لهم
الهدايا ويبعث بهم من هناك الى بلادهم .

١٣ - رفع الحصار عن نيقية ، والجيش يتابع زحفه
وينفرك القادة ، وبقوم فليج أرسلان بأعراض
الصليبيين مرة ثانية بجيش كئيف .

١٤ - نشوب المعركة وهلاك وليم أخى تانكريد فيها ،
وأما جيش بوهموند فبصبح بأكمله فى خطر
عظيم ، كما أن تانكريد نجا من الأسر بأعجوبة .

١٥ - القادة الآخرون يصلون لجده اخوانهم
المنهوكين ، فيفر قلع أرسلان ويحقق البوار

بجيشه ، ويعود الصليبيون وقد فاصب أيديهم
بالقنائم ، وينجمع العسكر كلهم مره أخرى .

١٦ - الجيوش تسفل « بيزيديا » ولكنها تكابد هنا
الشدة بسبب قلة الماء ويصبح العسكر فى حال
بالغة الحزن شديدة الخطورة .

١٧ - انفصال بعض القادة عن بقية اخوانهم وبحريتهم
الاقليم المجاور ، وبجاة الدوق من الموت باعجوبة
من هجوم دب عليه .

١٨ - اصابة كونت تولور بمرض أشقى به على الموت ،
وأما الجيش فيعبر « ليكونيا » ويصل الى
« مرعش » حب تمون روجة بلدوين أحي
الدوق .

١٩ - دهاب نانكريد الى فيليقية ومحاصره طرسوس ،
وزيارة بلدوين - أخى الدوق - لتلك النواحي
واستقباله بالتعظيم الذى هو أهل له .

٢٠ - بلدوين يطلب ائمال راية نانكريد من فبوى
القلعة ليرفع رايه مكانها ، فيرند نانكريد عاضا
ويسنولى « جلف » على أدنة .

٢١ - اسبيلاه نانكريد عنوة على المصيصة وهى إحدى
المدن الواقعة فى نفس الاقليم .

٢٢ - استيلاء بلدوين على طرسوس وهلاك ثلاثمائة
صليبي أمام باب المدينة فى نكبة فادحة .

- ٢٣ - بعض المحاربين يحملون السلاح لمقاومة بلدوين ،
ولكنهم يهدأون أخيرا وبصل الى طرسوس
أسطول من القرب محمل بالرجال .
- ٢٤ - بلدوين يزحف على المصنعه بعد اسسلاته على
طرسوس ، وانشب معركة بسه وبين تانكريد
ثم يتصافى الاثنان ويتصالحان .
- ٢٥ - بلدوين يعود للجيش الاصلى أما تانكريد فيغير
على كافة أرجاء قيلقية ويسنولى عليها ، مسرع
الحكام المجاورون لمهادنه كسبا لوده ويقدمون
الهدايا اليه .

هنا يبدأ

الكتاب الثالث

الاستيلاء على نيقية والزحف عبر آسيا الصغرى

- ١ -

كانت نيقية - وهي إحدى مدن بيسيا وعاصمة الإقليم - خاصة في القديم لسقوميديا ، ثم تحررت من سلطانها عليها على يد الإمبراطور قنسططين . بعد ذلك قرر أول مجمع ديسي مقدس انعقد فيها ، فقد حذب في عهد كل من البابا سلفسرس واسكندر الموقر بطرك القسطنطينية والإمبراطور قسطنطين الذي اشربا إليه حالا أن اجتمع في ببقية مجمع مقدس حصره بلائياته وتمايون من آباء الكنيسة لسجدوا قرارا ضد هرطفة آريوس وأسماعه ، فمعض المتع عن سجب ما عليه هؤلاء من عقيدة فاسدة ضاله ، واسسبدا لها بالحق المبس على شهادة الكتاب المقدس ، وذلك قدم المجمع الى كنيسة الرب إيماناً نقي الجوانب ، كما عقد في نفس المدينه مجمع عام آخر ، يعرف بالسابع ، في زمن الإمبراطور المؤمن قسطنطين [السابع] ابن إيرين ، احتجاجاً على اللا أيفوسين أعى المهاجين للصورة المقدسة ، وكان يحلس على كرسي رومه اذ ذاك البابا أدريان . وكان بطرك القسطنطينية حنسنذاك ثاراتيوس الموقر ، وبلقى الهراطقة المشار اليهم في هذا المجمع من الكنيسة الارثوذكسية الحكم العادل الذي يسنحقونه بشجب بهتانهم .

★★★

ونفع مدينة « بيعة » في الافليم السهلى ، وتنصع بموقع رائع كل الروعة ، وتشرف عليها الجبال التى تحيط بها من شتى النواحي ، كما انها حافلة بأحسن الحقول فى المنطقة فأرضها خصبة ، هذا الى جانب المزايا العديدة التى سحت بها عليها الغابات والاحراج ، ويوجد بالقرب من المدبى بحيرة عظيمة الاتساع ، وهى بمد شطر الغرب امتدادا كبيرا ، وكانت الأمواج اذا هاجت بها علت المياه وعسلت جدرانها •

وزباده على ذلك فان بيقة مكطه بالسكان الذين هم مساعير حرب ، وهم بحراسها حراسة تامة أسوار عريضة الاتساع . وإبراج ساهقه الارتفاع ، قدت من الصخر الجلود ، حى ان الدمشة استولت على رجالنا حين أخذوا يقربون منها فأرأوا وسائل دفاع ضخمة .

كانت المدينة وبصه الافليم والولايات المناحه لها فى هذا الوقت تحب حكم وال تركى شديد المراس قوى الشكيمة ، بدعى « قلع أرسلان » ويكنى « بالشاه » الذى يعنى الملك فى اللسان الفارسى ، وكان قلع أرسلان هذا على جانب كبير من العزق ، وما كان يسمع بعزم فواتنا على المجيء حى أخذ للأمر أهبه ومضى الى الشرق يلتمس العون والنجدة من حكام تلك النواحي ليحول بين الصليسين وبين المجيء ، واستطاع بقوة اقتناعه ، وبالمزيد من التوسلات ، وبالمال الذى بدله أن يجمع اليه من فارس وما تأخها أعدادا ضخمة من الأتراك الذين طمع أن يعينوه على انقاذ « نيقه » وتجنيب الناحية بأجمعها وبلات الخطر الذى يهددها ، وحدث قبل هذا بقليل - وكان على القسطنطينية الامبراطور رومانوس ديوجيس وهو الثالث قبل الامبراطور الحالى الكسيوس [كومنن] - أن تمكن أقوى ملوك فارس يومذاك واسمه ملك شاه - وهو عم قلع أرسلان من الاستيلاء

عبوه على جميع الأقاليم الممتدة من خليج السفور حتى بلاد الشام ومسيرها رحلة ثلاثين يوما ، كما تمتد نفس المسافة من البحر الأبيض المتوسط الى الشمال ، وقد آلت معظم تلك الأراضي في ذلك الوقت الى فلج أرسلان الذى استغل ملكيه اياها ، فمطلع الى الاستيلاء على كل الاقليم الممتد من طوروس في فلسطين الى السفور ، ومن ثم كان له - وهو على مدى رمة فوس من القسطنطينية ذاتها - بوابة الذين يجنون له الضرائب من المارين بها ، كما كان هؤلاء النواب يجمعون لمولاهم الجزية والاباوات من كل النواحي المحيطة بالاقليم .

كان هذا الحاكم يقم في المناطق الجبلية المحاذرة ، التى لا تبعد عن قواننا أكثر من عشرة أميال ، وكان يربط الفرصة المواتية لمهاجمها دون أن يعرض نفسه للخطر بفصل ما توفر له من جيش بذل الجهد في جمعه ، وبهذا كان يأمل أن يذهب عن المدينة الجزع الذى يؤرقها من هذا العسكر .

- ٢ -

لم نكد قواسا تقف أمام المدينة حتى سبت هجوما عينا عليها رغم عدم حسن تريب العسكر ، لأنه لم يكن قد تم تنظيمه بعد ، ومع ذلك فان عسكرنا الذين جاءوا أولا قد تخيروا لانفسهم مواضع محددة يقيمون فيها ، وخصصوا أخرى ملائمة للقادمين بعدهم ، وبذلوا غاية جهدهم لمنع الأتالي من دخول المدينة أو الخروج منها غير أن البحرية الملاصقة لأسوار المدينة - كما قلنا - كانت تقف حائلا دون تنفيذ هذه الخطة بسبب ما كانت توفره السور الموجودة

فيها من السلامة لم يريدون الخروج من البلد أو دخوله ، وعلمهم
 حث شأؤوا ، ولما لم يكن لدى جيشنا قوة بحرية فقد كان عاجزا
 عن تقييد حرية النمل هذه ، ولكنه استنطاع بشى الحيل أن يمنع
 الوصول الى المدينة عن طريق البر بفضل عنايته الشديدة بمراقبة
 جميع مسالكها ومافذها ، ولما عرف فلج أرسلان أن مدينته تعاني
 أهوال الحصار فقد أرسل اثني من أتباعه لبدحل الطمأنيه في
 قلوب أهلها ، وبشجعهم على الاستمرار في الصمود ، وقد أرسلنا
 في قارب يعبر بهما البحيرة ، ويعب معهما عبارات التشجيع التي
 جاء فيها حسب العادة •

« ان فدوم هؤلاء الماكند المبربرين الذين يطنون انفسهم
 قادرين على فرض الحصار على مدينا لا ينبغي أن يسبب لكم خوفا
 كبيرا ، لأننى مرابط الى حواركم بقوة ضخمة من الرجال الأشداء
 العظماء ، كما أفنى في ارتفاع أعداد أكبر فادمة بعدهم ، وحين يلتئم
 شمل هذه القوات كلها في جمع واحد فسوف نقاض معسكرهم
 بالهجوم ، فاذا هاجمناهم نحن من الخارج فهبوا أنتم من ناحيتكم
 لمساعدتنا ، وكونوا مسعدين لفتح الأبواب وانهضوا محدثين
 لا يسعاكم ساعل سوى مهاجمهم ، ولا ترهبكم كره عددهم اد
 ليس عندهم من العدد والعدة ما بكافىء ما عند قوائنا النشيطة ،
 لأنهم جاؤوا من أقصى بلاد العرب ، فأعياهم طول السفر ، وأرهفهم
 بعد المسافة ، وقت في عضدهم ما صادفوه من الماعب ، وهم
 لا يملكون سوى حناد لا يصمد للقتال الشديد ، ومن ثم فهم ليسوا
 نظراء لقوائنا التي وصلت حالا ، ولا يبلغ نشاطهم نشاطها ، وعليكم
 ان تذكروا كيف انصرنا في يسر على جيشهم القوي ، وأوردنا
 ما ينيف على خمسين ألف من رجالهم ورد الردى في يوم واحد ،
 ففروا نفسا واهدأوا بالا ، ولا يأخذنكم الجزع لانكم تلقون نهار
 الغد نعمة كبيرة ، وسوف تتخلصون من العدو » •

ظل الرسولان مبحرين على طول الساحل سعيا لأحسن مكان
يرسوان فيه ، وبينما كانا يلمسان متعدا أمينا يندخلان منه اذا
برجالا يباعوبهما على حين غرة منهما ، فوق أحدهما فى الأسر .
وأما الآخر فقد مل حلال الهجوم ، فأخذوا الأسير الى القادة لم
يسموه بسوء ، فاعترف لهم تحت التهديد والخوف بما يعرفه وكشف
التفاب عن كل شيء وأحبرهم عن أرسله وعما حمله على ارساله .
فانصح من روايه أن فليح أرسلان بعث بالرجلين ليخبر الأهالى أنه
قريب منهم ، وأنه قادم اليهم بالجند القوى الذى جمعه . وقد
أجمع العزم على مباغنة معسكرنا عدا .

فلما عرف زعماء كنائنا أن فليح أرسلان على وشك العدوم
أمرؤا بابقاء الأسر تحت الحراسة ، وبادزوا فى لحظتهم فأرسلوا من
فيلهم الى كونب بولور والى أسقف بوى - اللذين لم يكونا قد انضموا
الى بقية المعسكر حتى هذه اللحظة - رحالا يلمسون منهما المحيى
على جناح السرعة ، فلما سلم هذان المائدان تلك الرسالة من
احوانهما جزعا عليهم حرعا عن فليل ، ونلما على ناخرهما عن اللحاى
بهما . وخرجا وظلا سائرين طول الليل حتى بلعا المعسكر مع أولى
ناشر الصباح وقتل شروق الشمس ، ونفدما وحولهما الناس
ما بين مهلل وهائف ، والرايات ، تحق أمامهما ، ويلمح الأسلحة
فى الجو ، وما كادا يضعان أنفاهما جانباً لسحنا مكانا مع بقدة
الحيش فى المكان المقسوم لهما حتى انحدر قلح أرسلان من ناحية
الجبال - وكانت الساعة المألثة طبقا لما قاله الأسير ، واجناز السهل
فى طريقه الى المدينة ، على رأس حشد كئيف من الفرسان ، ان تعدهم
بخدمه قرابة خمسين ألف رجل ، وما كاد رجالا برون العدو حتى
هوا الى أسلحتهم فحملوها ، والى طبول الحرب فدقوها ، والى
الأبواى فنقخوا فيها ، وأيقطوا المعسكر كلهم فرتبوا صفوفهم
اسعدادا للقتال ، وأخذوا لكل شيء قد يعرض لهم أهبتة ، وتهيئوا

لمواجهة العدو القريب منهم في صورة الرموا فيها غاية الانزام
بقواعد التنظيم الحربي الذي دربوا عليه ومارسوه طويلا .

- ٤ -

أرسل فلج أرسلان كتيبة قوامها عشرة آلاف رجل على خيولهم
لكوبوا طليعه ، نحو البوابة الجنوبية التي وكلت حراسها الى
كونت بولوز ، لكن لما كان فلج أرسلان غير عالم بوصول ريموند
فقد توقع أن يجد البوابة كمهده بها في السومين السالفين من غير
حراسة ، بيد أن أملة تبدد هباء اذ صادف عندها من الجسود المرابطين
أكثر مما في أية بعة أخرى ، لكنه لم يكن عالما بهذه التغيرات .

ومن ثم أسرع فسن غارة شعواء على رجال الكونت الذين رعم
أنهم لم يتخففوا من أحمالهم الا منذ قريب الا أنهم صمدوا للهجوم ،
وبددوا شمل الصف الأول من عسكر العدو الذي أدير هاربا ،
بيد أن ظهور فلج أرسلان على رأس امدادات قوية أحيى عزيمة
عسكره ، فعادوا الى ساحة القتال بعد أن كان قد انعط نظامهم .

في هذه اللحظات لاحظ البدوي وبوهيموند وكونت فلاندرز
أن العدو قد عاد بقوات أكبر عددا وأنها تعف صفوفها مرصاة ، كما
لاحظوا أن الارهاق بلغ من رحال كونت بولوز مبلغا جاوز الحد ،
بسبب جيش كاسح بأسل الشجاعة قد اندفع اندفاع رجل واحد
لمساعدة رفاقه ، فقام [الثلاثة] قومة صادقة بمهاجمة معسكر
العدو والقريبة ، وتناوشوه بالرماح والسيوف ، وعلى الرغم مما كان
يبلى على العدو حين طلوعه في البداية من دلائل الشجاعة والباس .

إلا أنه لم يمض غير ساعة واحدة من الصراع حتى معدوا أربعة آلاف
نفس ما بين قتيل وأسير ، مما حمل بقيتهم على الفرار .

وهكذا أحرزت قواتنا هذا النصر الأول بعون الرب ، فاستمروا
يحاصرون الخصم حصارا أحاطوا فيه بالأسوار ، فلم يجرؤ قلع
أرسلان أو أى أمير آخر من أمراء العدو - منذ ذلك اليوم وأيام
الحصار التالية له - على القيام بهجوم كهذا الهجوم ، وإذا كان
رعمائنا المذكورون أنفا قد برهنوا على كفاءتهم ، فإن تاتكريد وولتر
دى جار لاند صنجائ الفرنجة ، وجى دى بوسسا ، وروجر دى بار
نعمل أبدوا من البسالة ما أذاع صيهم واكسبهم حسن الأعدوة .

ورغبة فى زياده بب العز في قلوب الأعداء فقد صدر الأمر
لرجالنا بقذف أعداد كبيرة من رؤوس البرك المقولين الى داخل
المدينة ، قذفت بها الآلات اليهم ، وكما بصوا الى الاميراطور ألفا
من هذه الرؤوس وطائفة من الأسرى هدية ، فكان لذلك وقع طيب
فى نفسه ، وريادة على ذلك فقد قام الكسيوس بمكافأة زعماء
الجيوش بمبالغ طائلة من المال ، وخلع عليهم شتى أنواع البياض
الحريرية المختلفة الأنواع ، ثم زاد فى كرمه فأرسل المواد الضرورية
لهم من غير ابطاء عليهم ، وأمر بجهيز سوق حافلة بالضائع من
أحلبهم .

أراد قواتنا تنفيذ غرضهم ، فراوا من الملائم فرض الحصار على
المدينة من كل جوانبها كما قلنا وذلك بوضح القواد فى أماكن
استراتيجية راحوا يصبون منها وابلا من الأضرار على الأهالى ،
عساهم يحملونهم على الاستسلام دون مشقة نلقاها ، لذلك سموا
منطقة السور الى أقسام متساوية ، عهدوا بكل قسم منها الى فريق
معين من الزعماء .

فرايط الدوق وأخواه بقواتهم فى الجانب السرفى .

أما القسم الشمالى من المدينة فقد وقف فيه بوهموند بجيشه
ومعه تانكريد والقادة الذين تبعوه . والذين ذكرنا أسماءهم من قبل .

وكان على هؤلاء فى الترتيب كونت فلاندرز ، وأمير نورماندى
مع جندهما .

كما خصص الشطر الجنوبى لريموند كونت تولوز ولأسقف
بوى بمن مهمما .

وقام سيقن كونت شارفرز وبلوا بنصب معسكره وراءهم .
وكان معه هيج الكبير وبعض النبلاء الآخرين والرجال العظام .

ولما تم الاحداق تماما بالمدينة على هذه الصورة أجمع القادة
على وجوب الإسراع فى نصب الآلات اللارمة لفويض الأسوار ، وهى
الآلات المسماة بالآلات المحركة .

كذلك صدرت الأوامر بالتعجيل ببسء آلات رمى المنجنيق
وقذف الأحجار التى توفر الحصول على المواد الملائمة لصنعها من
الغابات القريبة .

- ٥ -

وسار العمل سيرا حثيثا فجىء بالفعلة الذين راحوا يتنافسون
فما بينهم فى انجاز ما بيدهم من عمل ، ليفرغوا لمهاجمة المدينة ،
وظلوا على هذه الصورة سبعة أسابيع ، وان دأبوا خلالها على مراوحة

المدينة بهجمانهم بين آن وآخر ، حتى جاء يوم من أيام كرمهم طالعهم فيه نكد الطالع ، يوم فقدوا اثنين من محاربيهم الأشاوس جمعا بين بيل المحمد ورفعة المكانة ، هما : بلدوين الملقب بكالدرون ، وبلدوين الغننى ، فقد هلكا وهما يقاقلان أروع فبال أثناء قصف المدينة ، اذ أصيب أحدهما بحجر أرداه صريعا ، وجاء الآخر سهم عرب أودى بحياته ، ومن ثم فرر العادة شس هجوم ثان ، ولكن هلك فيه وليم كونب فوريز ، وجالو دى ليل ، وهما يحاربان ببسالة ، فقد رميا بسهمين أصابا منهما مقتلا .

وأصاب المرض هنا أيضا دى بوسسا أحد بلاء مملكة الفرنجة ، وكان مرضا عضالا أودى به ، قلب الذعر فى نفوس شعب الرب لهلاك هؤلاء المحاربين الذين شيعوا الى مواهم الأخير محاطين بالشرف والحرن العميق ، وكان موكب حنازهم موكبا حافلا لم يحز العادة بميله الا لمن تسنموا ذروة الشرف الرمع .

- ٦ -

وحدث فى مرة أخرى أن كان جميع العادة منصرفين الى الحصار ، وقد بذلوا أنفسهم أصدى البذل فى ذلك ، فلم ينالوا قسطا من الراحة أو هلبلا من التمهل ، وراحوا يحاولون بكل ما فى وسعهم نصب آلاتهم على الأسوار ، عساهم يمكنون من شق طريق لأنفسهم يفحمون منه المدينة .

وانصرف كونت هارتمان وهنرى ديش - وهما نبيلان من مملكة التيوتون - وانصرف أتباعهما وحواشهما ومعاونوهم الى

بصب آلة صنعت - على أحسن ما تكون الصنعة - من جدوع البلوط التي سدوا بعضها الى بعض شدا منينا ، وأحاطوا الآله بأعمده غلاظ ، وربب عسى أن تسع في جوفها عشرين من الفرسان الشجعان عهد اليهم بقويص السور ، فادا صار الفرسان في جوف الآله آمنوا على أنفسهم حتى من أعتى الصخور الضخمة التي ترميهم بها الآلات . لكن حين أسمدت هذه الآله الى الجدار اشد الاهالي في رميها من فوق رميا أسعر عن تحطمها تمام الحطيم ، بسبب ما ايهال عليها من القذائف الحجرية ، فناترت أجزاءها بددا ، وهلك جميع من كانوا بداخلها فقد سحقوا سحقا فاشد حزن الناس على هؤلاء النلاء ، وعظم الكرب لصاع جهد أيام كثيره صرفوها في بناء تهدم عن آخره ، ولم تعد به أدنى فائدة ، وحزن الناس على مصير أولئك الشجعان الذين فطرت القلوب للنهاية التي اسهوا اليها ، ومع ذلك فما زال الأمل يرود النفوس ويهدد الجوانح ، لمسيهم الجارم بن هؤلاء الذين خاطروا بحياتهم في سبيل المسح في هذا العمل ؛ لما فازوا بحياة أسمى من هذه الحياة الدنيا ، ولادراكهم الحقيقي أن هؤلاء الرجال الذين ماووا في ذلك الفسار ماووا سهداء ، لذلك فقد ازدروا هم أيضا الموت واسهانوا بالحياة الدنيا ، واسنمروا يواجهون سسى المخاطر بقلوب ثابتة الحنان ، ومن ثم فقد افقوا الفاده على الاسمرار في مضاعفة رمى جميع أسوار المدينه . وراح كل فائد يبذل قصارى جهده في تشديد الحصار - في قطاعه الديو وكل اليه - شدة حملت بعية الناس على النحدث بما كان مه . وسار العمل قدما ، وان كلفهم غاليا ، كما أن المعارك الموصولة والكمائن شنه الدائم ، لم تدع لأهل البلد وقا لالتقاط أنفاسهم .

ومع ذلك فان البحيرة المجاورة للمدينة كانت تقف أمام ما يعمله الصليبيون كأكبر عقبة أفسدت عليهم جنى الثمرة المرجوة التي بذلوا من أحلها جهودهم المضنية ، هذا الى جانب ان هذه البحيرة كانت

مصدر راحة وطمأنينة للمحصورين الذين يسر لهم بركوبهم ماءها
أن يجلبوا ما يشاؤون من الطعام والمثوبة ثم انها كانت تمكثهم بين
آوبة وأخرى من ادخال رؤوس كثيرة من الماشية الى المدينة حتى
بصر قوائمها التي كانت تقف مكشوفة الأيدي عاجزة عن معيهم
من ذلك .

- ٧ -

حينذاك اجتمع العادة أحباب الله للنظر في هذه المشكلة على
وجه الخصوص ، وتدير أحسن الوسائل لمعالجتها ، واستقر الرأي
منهم أخيراً على ارسال رهط من بينهم الى البحر ، بحرسهم كوكبه من
الفرسان ، ووكلوا الى هذه الطائفة من الناس أن ينقلوا القوارب من
البابسة الى البحيرة مفككة أو كاملة ، مستنضلين في ذلك ما يسر
لهم من عربات الحمل والعجلات وغيرها من وسائل النقل . وراوا
أن عدم تنفيذ هذا الاجراء لابد أن يؤدي الى فشل جميع مجهودات
الصليبيين وضياع كل ما بذلوه من مال ولا تعود نمة جدوى لأي
شيء ما .

وخرج الرهط الموكل اليهم تنفيذ هذه الخطة فيسر السيد
طريقهم ، وكلاً محاولتهم برعايته ، اذ وجدوا السفن الراسية هناك
من الحجم المتوسط فحصلوا عليها في سهولة من الامبراطور ،
وجروها على اليابسة الى البحر بعد أن شدوا كل ثلاث عربات أو
أربع الى بعض حسب طول السفن التي يحاجونها ، وأمكن بهذا
النقل على مدى ليلة واحدة سحب هذه القوارب من البر الى

البحيرة ، مسافة سبعة أميال أو نريد ، بعد أن سُدوا الجبال الى
أكتاف الرجال ورواب الجياد ، وكان من بينها سفن كبيرة الحجم
تسبح الواحدة منها ما بين خمسين ومائة معاتل .

ولما تم سحب هذا الأسطول على اليابسة ، وفرعوا من انزاله
الى البحيرة ، بلغ فرقة الجيش الصليبي غايتها ، وأسرع الى
الشاطئ ، وحى بالجدافين المهرة والرجال المفتولى السواعد المشهود
لهم بالمهارة فى هذا الص ، وسرعان ما امسأ قلوب الجميع بالفة
فى استنلائهم على المدينة .

ولاحظ أهل البلد وجود عدد من السفن أكبر مما اعتادوا
رؤيه ، فملكهم الدهشة ولم يدروا أهى بعض من الأسطول الذى
حاء لمساعدتهم أم انها من سفن العدو .

ثم أدركوا بعد حين أنها لنا ، قد نقلها رجالنا من البحر بعد
بدلهم مجهودات مضنية فى سحبها على اليابسة ، ثم أنزلوها الى
البحيرة فتملكتهم من الدهشة أكبرها من بأس الصليبيين ومهارتهم
اد يحوا فى تعمد عمل يعبر من المتوس منه وشبه مسجبل .

- ٨ -

أدى ادخال السفن الصايبية الى سد مخرج المدينه عن طريق
البحيرة ، ومن ثم نادى المنادى أن تحمل كل كتيبة سلاحها ،
وتعف بعبادة فائدها فى المكان المخصص لها ، كما فودى بتشديد
الضغط على أهل البلد ، وشن الهجوم العنيف على المدينة ، ومضى

كل فائدة يشد من عزم رجاله ، ويخرج على رأسهم الى المعركة وهم في أكمل سلاح ، فلما لم ذلك كله حرب معركة لم تكن في الحسبان ، أبدع فيها رجالنا أما ابداع في استعمال الآلات ، ودلوا على شجاعتهم ، وبينما كان بعضهم منصرفا الى ملعمه الأسوار ، مضى غيرهم يقذفون الأحجار الصخرة على الحصون لضعف صمودها .

أما القسم الجنوبي الذي عهد به الى كوت بولوز لستخذه مركزا لهجماته فكان به برج يبرز كل برج سواء في ارتفاعه الشاهق وبناؤه المحكم ، وفيل ان زوجه فلج ارسلان كانت تبني على مفردة منه .



وظل الكوت بضعة أيام يبذل كل جهده لهدم هذا البرج فما أفلح ، بل باتت مساعيه كلها بالفشل اد على الرغم من موالاه رغبة بالصخور التي كانت تنصب عليه من ألين الا أن البناء الصلب أثبت أنه من المستحيل راحة حجر واحد منه ، فلم ينن ذلك الكوت عن مضاعفة الضغط عليه كما زاد من عدد الآلات التي أعدها لقصفه ، غير أن موالاة قذفه بكل الصخر والأحجار البقيلة أصابه بالسروخ فوهب مقاومته ، وانتهى الأمر أخيرا الى اصعافه ، فلما رأى العسكر هذا المنظر البهيج وثبوا فرحين وثبة فوية عبروا بها الخندق المملوء بالماء حتى حاذوا الأسوار في محاولة منهم لتفويصه ، وكان كل منهم يشجع رفيقه على الهدم ، فان أعجزهم الهدم فلا أقل من فتح نفرة فيه .



كان الأهل يدركون أن الخطر يهددهم ان انهيار البرج ،
فانطلقوا يملؤون داخله بالأحجار والاسمنت حتى اذا زعزعت الآلات
أسواره أو قوضتها حل الجديد محل القديم ، وأصبح عائقا في
طريق الذين يحاولون فتح النفرة .

غير أن رجالنا نجحوا في هذه الأثناء في سميت سار منى الى
السور من هجمات العدو ، ثم فيض النجاح لهم أخيرا بعد أن بدلوا
من الجهد عاينه ، وبفضل عددهم الحربية ، ويمكنوا من فتح ثغرة
كافية لادخال رجلين في غير مشقه كما أخذ الأهل في الوقت دانه
يزبدون من معامسهم العيفة ضد عدوهم . وراحوا يقابلون الحيلة
بالحيلة ، ويواجهون القوة بقوة ملها ، وأظهروا روحا لا تقل عما
عند الصليبين وحاربوا بكل ما يملكون ، وجاهدوا كأنهم رجل
واحد ، فرموا بالنشاب والمنجنيق وكل سلاح تسر بين أيديهم تسنى
لهم العثور عليه ، وتكاتفوا في رد العدو ونفادى الأحوال المصنة
عليهم .

- ٩ -

كان من بين المدافعين عن السور والفائمين بصد القوات
المهاجمة رجل تميز من بين الرجال بضخامة جسمانه وشدة بطشه ،
وكان نسيج وحده بما تنطوى عليه نفسه من كراهة لنا لم يحاول
سترها ، وقد أذاق هذا الرجل رجالنا كثيرا من العطب بما كان
يرميهم به عن قوسه ، وقد غره ما كان يصادفه على الدوام من كبد
لنا ، ولم يعف عن فيل رجالنا بفاحش القول يرميهم به ، فلم يطلق
جود فروى العظيم احتمال هذا العار ، فتنكب قوسا ضخما ، وتخبر
مكانا مناسباً ، وسدد رميته في دقة ، فأصاب السهم - وقد انطلق -

أحشاء هذا الحاسر فجندله صريحا على الارض قد فارقه روحه فلم ي
 الحراء الحق الذي معا الاهانات الجمّة التي كان يصيها على
 الصليبيين ، وكان رفاق هذا الزنيم قد نسجوا على مواله فوصعوا
 حطة محكمه كل الاحكام في هذا الجزء من السور ، غير أن فرغهم
 من الدو اسبب بأكبرهم فقللوا من رميهم رجالها بالسلاح ، وكفوا
 عن ملاحقتهم بالاهانات ، على أن رحالا عزم لم يعلموا بآ هذه
 النكة فابروا على نشاطهم في الدفاع عن المدينه من أماكن أخرى
 على طول السور من أخذهم الحذر الشديد . ولم يكفوا عن اصابه
 رجالها بمرصمهم وهم على الأسوار والأبراج فتركونهم ما بين جريح
 وقتيل ، ولم يكفوا بأن بصعوا عليهم العار والريب والدهن وعمر
 ذلك من المواد التي نؤج النار ضراما ، بل رادوا على ذلك بأن راحوا
 برمون النار المشعلّة على آلاسا فلنلف أكرها ، الا ما كان منها في
 أماكن سدّت عليها الحراسة الدفقة .



أما رجالنا الذين كانوا في الناحية الجنوبية فكانوا يشعرون
 هجومهم العنيف على البرج ، واستمروا على ذلك الحال من السباط
 حتى النهاية ، لكنهم لما رأوا أنهم كلما نهبوا جزءا من السور نهرا
 رمه العدو لئلا قانهم سرعان ما نراخوا في جهودهم ببعض الشيء ،
 حتى اذا أيقنوا فشلهم التام كادوا أن يقلعوا عما هم فيه ، لولا أن
 رحلا منهم شجاعا على المكانة - وهو فارس من جيش كونت نرمدى
 قام بمحاولة بارعة ، مؤملا من ورائها أن يقتفى الآخرون منواله ،
 فليس درعه ، ووضع خوذته على رأسه ، وعبر الخندق مستهنا بكل
 خطر ، ودنا من السور منخذا من ترصه مجنا يقيه العطش ، عادفا
 من وراء ذلك أن يقوض البناء الحجري الجديد الذي شيده الأهالي
 في الميل ، وأن يعيد فتح الثغرة التي كانت موجودة في اليوم

السابق ، فاصر أهل البلد أن يكون الهجوم الذى يشوبه من أعلى هجوما عنيفا ، فمات محاولة [الفارس النورماندى] بالقشل اذا لم يجرؤ أحد من الصليبيين على العدوم لنجدته ، فمردى قنصلا فد سحفيه العذائف الحجرية الضخمة ، فهلك حب السور على مشهد من رفاة الذين وان كانوا راغبين أسد الرعه فى انفاذه ، الا أنهم كانوا أعجز ما تكونون على مده بأى عون من جانبهم ، فاجذب المارقون الجبة الهامدة بالخطاطيف الحديدية ، وقذفوا بها قيما وراء السور ، حب ظلت موضع سخرتهم المفعده ، ثم جردوه فى النهايه من درعه وسلبوه حوذنه ، وألقوا به الى قوائنا فى الخارج ، فبكاه الناس وهم يسون عليه وعلى شجاعته ، ثم دسوه بما يلبق به من الاحرام وسحبوا خنمانه فى قبره ، ولم يشكروا أبدا فى أن متته هذه كانت عظمه فى عين الرب ، وأن روحه - وقد لقب هذه الخاتمة النبيلة - سوف تكون مع أرواح الصفوة المختارين ، لال الجميع - كما قيل اجمعوا على أن من يسقطون فى ساحة القنال سبوفى لهم ما وعدوا به من حاة أبدية محبده بين القديسين .

- ١٠ -

قام فى هذه الأثناء رعاء جوشنا الذين وهبوا أنفسهم لخدمة الرب بعقد مؤتمر على مألوف عادتهم بعد ان اتضح لهم عدم احراز أى تقدم فى مشروعاتهم ، بل نبينوا أن واقعهم حرى على العكس مما رتبوا ، وأدركوا أنهم أضاعوا جهودهم وبعثوا بشايطهم سدى ، ومن ثم راحوا ينشاورون فيما بينهم بروح ملؤها الجحد فيما ينبغى عليهم عمله فى ظروفهم الراهنة هذه ، وبينما هم يقلبون الأمر على شتى

وجوهه بقلوب جازعة . اذا برجل لمباردى يأبيهم ويبثهم انه لاحظ
ألا جدوى من وراء جمع مشاريع مهندسيهم ، وان جهدهم داهب
ادراج الرياح ، وذكر لهم ما هو عليه من مهاره فائقة فى هذه
الصنعة . وبين لهم أنهم لو وعروا له المواد اللارعة والمال الكافى
لاسام العمل بأخذه مما عندهم فى حراسهم العامة فانه بمشئته
الرب منحره فى ايام فلائيل معدودات وأنه مدمر البرج . وفالج فيه
نفرة واسعه ، ان بشأ الجميع ان يفحموه منها لم يعسر ذلك
عليهم . وأكد لهم أنه منم ذلك العمل دون أن يفقد رجلا واحدا ،
فأمدوه بما يكفى نفقاه مما أخدوه من الأموال العامة . هذا بالاضافه
الى تحصيصهم مبلغا متناسبا مكافأة له على جهده .

وجيء له بالمواد التى أرادها ، فعمل آلة رائعه الصنع صمم
على هيئة بسطيط من بداخلها — رغم مقاومة العدو — أن يعلقوها الى
الرح من غير خطر يهددهم . فان دخلوها أحصم وتمكنوا من مصادره
عملهم فى تقويض المباني وهم آمنون ، لا خوف عليهم .

وانجز الرجل صنع هذه الآلة كما أرادها ، فلما ضمت أجزاؤها
بعضها الى بعض وتم تحصينها من كل النواحي حسبما أشار
[صانعها اللومباردى] دخلها هو مع رهط من الرجال الشجعان ،
وبدأوا عملهم فى تقويض المباني وهم آمنون ، لا خوف عليهم .
ثم دفع القوم الآلة بمن فى داخلها من الصواع ، حتى اجتازت الخندق
ثم سنوها الى الأسوار فى براعة ومهارة فائقين .

على أن الأهالى لم يفارقهم اندفاعهم الذى طبعوا عليه ، فراحوا
يرمون الآلة من عل ، ويقذفونها باليران المسنعة فما أجدتهم هذه
القذائف ولا أضرت بالآلة ، ولا كان منها شر عليها لأن الانحدار
الشديد لكل من السفف وجوانب الآلة حال بن هذه القذائف وبين

آن تسفر حيب رميب . فسلم كل من كان فى الداخل من الرجال ،
وسرعان ما أخذت ثفة الأعداء تنزعز فى أساليبهم البليديه ، وكان
اعجابهم بعبقرية المخرع وقوة الآلة ، اعجابا بالغيا لما اتضح من فسل
كل جيله حالها .

كان الدين بداخل هذا المحبأ آمين تماما من مكائد العدو ،
ومن ثم ظلوا يابعون عملهم فى تقويض البرج وفى نقب السور بكل
ما أوبوا من قوة ، ولم يكد الصدع يام بجبر الأساس فيحلعه حتى
وضعوا مكانه العروى والأعمدة الخشبية خوفا من أن ينهار ما فوق
السور على الآلة فيسحقها سحقا اذا ما نزع الأساس اذ لا تعود الآلة
فادرة على تحمل كتلة ضخمة كهذه الكتل ان هى انهارت عليها .

ولما اصبح أن البرج قد نصب بما يكفى لسقوطه ، اسعلوا
اليران فى الدعائم التى يقوم عليها الحائط الآيل للسقوط . وجيء
أيضا بمواد ملهبة تعمل على بعاء النار مشتعلة على الدوام ، واذا ذاك
ترك العمال الآلة وعادروها مسرعين الى رفاقهم ، حتى اذا انتصف
الليل أو كاد أنت النار على الأعمدة الخشبية فصرىها هسبيا ،
وانهار السرج وصحب انهياره دوى كأنه الرعد ، أثار فى الناس
حمسا - حتى من كانوا على مسافة قاصة - فرعا وحف له قلوبهم ،
ونبه صوب انهياره الجند فهوا الى أسلحتهم مجذعين العزم على
افحام المدببة عنوة .

- ١١ -

طلب روجة فلج أرسلان - حتى هذه اللحظة - صابرة صبرا
شديدا على تحمل أهوال الحصار ، أما الآن وقد بلغ العزع منها
غايتها بسبب انهيار البرج فقد أمرت - كعادة النساء - بأعداد السفن

وصحبت جواربها وكل أهل بيها ، واعتلت سرا من المدبنة عازمه
على النحاس مكان يكون أكبر أما وسلامة ، لكن الصليبيين كانوا
قد أقاموا حراسا في القوارب الراسية بالبحيرة لمنع المحصورين من
الدخول أو الخروج ، واد كان هؤلاء الحراس رجالا عفاة قد أعدوا
لكل شيء عدته ، ريقطين أشد البعظة في مراقبة أنه حركة فقد تكسف
لهم أمر هذه البسطة وهي على وسك اليروب . فأمسكوها ومعها
ولداها الصغيران وساروا بهم الى العاده الذين أمروا بوصعها وولديها
بحت الحراسة الكسفة .



أما الأهالي فقد مسهم العرع الشديد بسبب الغره التي تكس
عدوهم من فحها ، وبسبب القبض على سبده لها هذه الخطوره .
وتصلكهم الناس القائل من قدرهم ، فأرسلوا في لحطهم وفاده الى
الرعما يلتمسون منهم منحهم هدنة ليريب خطه الاسلام .

ولما كان نابيكيوس الذي تكلم عنه من قبل رجلا سيدي المكر
كبير الدهاء ، فقد أدرك أن الأهالي لابد أن يحلوا عن دفاعهم عن
المدينة . ومن تم دعا كبار رجال المدينة الى لقاء معه بصحبه منه أن
يسنسلوا للامبراطور احلالا له ، كما أشار الى ان حش الحجاج
الواقف الآن قبالة المدنه مشعول هذه اللحظة باحجار أمور أخرى .
وذكر لهم أن هؤلاء الرجال الذين كان اشتراكهم في الحصا عن
طريق الصدفة البجة قد بعدوا تماما عن حطهم الرئيسية . كما
أكد لهم أن الامبراطور سوف يقف على الدوام الى جانبهم (وليس
الى جانب الصليبيين) ، وأن في قدرتهم الاعتماد النام على رحمة
الجدرة بشكرهم ، وحتذاك يحق لهم أن يأملوا أن تكون الأمور
أكثر يسرا عليهم وألقى اليهم أن الخير لهم أن يسسلوا - اذا

استسلموا - الى الامبراطور وأن يؤثروه على قوم مجهولين ،
وأفهمهم ان الاستسلام الذى لا مفر منه يجب أن يكون للامبراطور
الذى سوف يمكن اذ ذاك - بمعونتهم من اسرداد المدبنة التى
انتزعت منه ظلما مد فريث سبب بطش الأبرك .

آتت هذه الحجج العويہ وأمالها اكلها فى حمل الأهالى
المجمعي على موافقه [ناسكيوس على ما طلبه] مسرطين عليه صما
سلامتهم ، فلما استجاب الى ما طلبوه منه وما اسرطوه عليه فقد
آثروا أن يسلموا المدبنة وأنفسهم وكل ما ملك أيديهم الى
الامبراطور .



لم يكن هذا العرض مرفوضا أيضا من جانب القادة الصليبيين
نظرا لأهم كانوا فى الواقع ينطلقون الى حاسة تختلف كل الاختلاف
عن هذه الحانة ، ولم يكن من عرصهم أن يعيموا فى نيفية أطول
مما أقاموا ، ومع ذلك فقد طمعوا أن يطبق الاتفاق [المبرم بينهم
وبين الكسوس] فتدفع عنائم المدبنة وأسلابها الى الجسس تعويضا
له عن المشاق التى كابدها والحسائر التى مى بها ونحملها .

على أن [الفاده اللابى] اسرطوا - قبل أن يبحروا كل
ما يتعلق بالاستسلام . وقبل أن يوافقوا على ما فيه تحقيق رغبات
الأهالى فى هذا الصدد - أقول أنهم اسرطوا ان يعود الى الجسس
جميع اخوانهم من عسكر بطرس الباسك ، الذين أسرهم قلعج أرسلان
فى قلعة سمنوت وكذلك من أسرهم الأهالى أثناء الحصار .

لذلك تم موافقه القادة وأهل المعسكر على انفاذ رسل من
قلتهم الى الامبراطور ، يحملون اليه الرسالة النالبة يقولون له فيها :

« لقد أخلص الجيش الصليبي وفواده السه في حصار بعلب
 محبة منهم في المسح ، واستطاعوا بجهودهم الصادقة الدؤوبه ،
 ويعون الرب أن برعوا تلك المدببه على الحصوع ، واننا لنلمس
 من كريم حلالكم أن لا تأخروا عن ارسال بعض وحوه رجالكم الى
 تلك الناحيه ، على رأس فوه كامة لبسلم هذه المدينة الى اسسسلم
 بعدبرا منها لاسمكم »

« وعلى الاهالى ان يلزموا هم أصلا بارجاع من في أيديهم
 من الأسرى وهم كيرون ، ذلك لأننا رابعون في الرحل في أعقاب
 سلم حلالكم المدينة ، ومعززون مبانعة السر في طريق الح
 الذي اعزمتاه بفضل الله »

- ١٢ -

ملان هذه الرسالة قلب الامبراطور عبطه ، فأنفذ في ساعه
 الى نفسه رهطا اختارهم من حاشبيه ونهانه وأهل الحره من
 استطاع الاعتماد عليهم في سلم المدينة والقيام بتحصينها ، وكلفهم
 بأن يحملوا اليه - كملك خاص له دون سواه - كل ما غنم من
 الأسرى من ذهب وفضة وشتى أنواع المناع . كما أرسل الى القادة
 هدايا ضخمة طمعا منه في كسب ودهم ، وزاد فازجى اليهم شكره
 الخاص - كتابة وقولا - على خدماتهم الجليلة والعطاء العظم الذي
 حصلت عليه الامبراطورية بفصل جهودهم .



على أن الحنق بلغ غايه مداه بعامه الجند ومن دونهم ، لما
 بذلوه هم أيضا من أقصى الجهد في حصار المدينة : الأمر الذي كانوا

يتوقعون معه أن يكون لهم وحدهم ودون سواهم هذه الغنائم التي استولوا عليها من الأسرى ، وما عثروا عليه من البضائع ، وما رُخِبَ به المخازن الموجودة في المدينة دأبها ، فيعوضهم ذلك كله عن خسارتهم لأموالهم ، لكن بين لهم الآن أنهم لم يجزوا الجزء الأوفى على ما تكبدوه من المشاق فقد أصبح لهم ما عزم عليه الإمبراطور من احتجاز كل شيء لنفسه ولخزائنه الخاصة ، أعشى الغنائم التي نص الاتفاق المبرم بينهم وبين الإمبراطور على أن تكون عتية مساعه . فقدموا على ما بذلوا من جهد ، ونجلى لهم الآن أن كل المال الذي أنفقوه قد ضاع بندا .

كذلك دأب العادة على إتهام الإمبراطور [الكسبوس كومين] بـ ٤٠ نكبت عهده ، وخالف بصوص الاتفاقية التي نصت شروطها المبرمة بينهم وبسه على أنهم إذا استولوا أنباء رحمتهم كلهم معا على بلاد الشام بارساد الرب على أي مدينته من المدن التي كانت تابعة لإمبراطوريته وحب عليهم ردها إليه هي وما يلحقها من السواحي ، أما الغنائم والأسلاب وما شاكلها فتؤول من غير جدال إلى العسكر مكافأه لهم على جهودهم ، ويعوضا عن النقص التي تكبدوها .

★★★

بادر الصليبيون إلى اخراج مرزقة الإمبراطور من مدينته وردوهم إلى مولاهم صفر الأيدي ، وما كان لأحد أن يلومهم على هذا العمل الذي قاموا به ، بل اللوم يكون في التزامهم الوفاء بالعهود مع رجل نقض عهده معهم ، غير أنه لما كان الخوف من الرب بملأ جوانحهم ، ولما كانت الرغبة في الإسراع بانحجار عمل أجل خطرا من هذا وأبلغ أهمية بملأ نفوسهم ، ولما كان أمام حجتهم هو مفصودهم فقد كموا مشاعرهم الحقيقية في صدورهم حفاظا منهم على الصالح العام .

ثم حاولوا بكلماتهم الرقيقة بهدئة مشاعر العامة الذين كان
سخطهم شديدا على هذه المعاملة التي عاملهم بها الامبراطور .

★★★

ولما دخل المدينة الرسل الاعريق الذين اوفدهم الامبراطور
لاسلامها وأخذوا سلاح أهلها وسلموا البلد منهم مضوا الى المعسكر
ورفعوا أمام العاده بأعبارهم - أى الرسل - مسئولين عن حياة
الأهالى وسلامتهم مصرحين بأن الأهالى هم الذين أعادوا المدينة الى
الامبراطور ، وانهم استأمنوه على أنفسهم ، وأسلموه رقابهم .

بعد ان استسلمه مدينه بيعيه على هذه الصورة ، أقيمت فيها
فوه كافية لحمايتها ، وسيرت بعدئذ امرأة قليج أرسلان وولداها ،
وطائفة كبيرة من الأسرى الى القسطنطينية ، فلم يكف الامبراطور
بعاملتهم بالرحمة ، بل زاد فبالغ في الاحسان اليهم واکرامهم ؛ إذ
لم تكده تفضى أيام قلائل على ذلك الأمر . حتى رد عليهم حريمهم
التي كانوا يتمتعون بها من قبل ، ويقال ان الدافع له على ذلك
هو ما كان يرأوده من الأمل في اكتساب موده الترك ، وما كان
يطمح فيه من تحويلهم ضدنا من غير جهد ببذل ، وما كان يقدره
من أن قوانسا لو حاصرت أى مدينة أخرى فلن يخامر أهل تلك
المدينة خوف منه ، أن هم استسلموا له على هذه الصورة التي
استسلمت له بها مدينة نيقية .

وكان الاستيلاء على مدينة نيقية فى العشرين من يونيو من
مولد السيد .

لم يكد الحصار يرفع عن بيعية حتى أصدر القساده أمرهم بمسابعه السير ، فربب العسكر ماعهم ، وحرحت كنائهم يوم التاسع والعشرين من يونيو ، في وحده مماسكه ، وظلوا سائرین لمدة يومين ، فلما كانت الليلة الثانية اتفقوا على النزول عند جسر معين لوفرة الماء عنده ، فافاموا هناك . حتى اذا اهلب طلّاتح العجر الولد وان كان الطلام لا يرال بمد روافه على الكون ناهبوا للرحيل مره أخرى فعبروا الجسر . وهما حذب اما صدقه أو بانقاي من الفاده - أن مهى كل منهم بكتيبه معارفا غيره ، وادا ببوهيموند كونت نورماندى ، وسيفن كوت بلوا ، وانكرید وهيج كونت سنن بول ييمون وجوههم ناحية السار ، وساروا ذلك اليوم وحدهم لس معهم غرهم ، حتى انتهى بهم السر الى واد يسمى «بجورجون» فعبسكروا به حوالى الساعة التاسعه ، ونزلوا عند ضفاف نبع جار . كير الكلا ، وافر المرعى ، وأقاموا الحرس حول العسكر ، ونعموا بلبلة هادئة رغم انشغال بالهم .

★★★

أما القادة الآخرون فقد ابجهوا يمينا ضاربين معسكرهم - بعد مسرة يوم - فى ناحية لا يكاد يفصلهم فيها عن غيرهم سوى ميلين ، وقد توفر لهم هنا أيضا المرعى الطيب والماء الفزير .

فى هذه الأثناء كان قلح أرسلان - وفد أهيه الخطب الذى نزل به - دائم التفكير فيما دهمه على أيدي الصليبين من ضماح تلك المديه الراقمة من قبضته ، وما كان من فقدته لزوحته والصبيين ، فاشتعلت نيران النار فى قلبه وأجمع العزم - ان أمكن - على نصب كمين لعدوه ، حينذاك حشد عددا كبيرا من العسكر ، منعبا بهم

الجيش الذى اعطى الى اليسار نفس خطاه ، وكاتب عبوه نأديه على الدوام بأخبار حركات العسكر الذى يسبغه وبلفه لاغسام الفرصة الملائمة لماعتهم ، وسرعان ما أعلمه كشافه بانقسام الجيش سطرين ، وأن أقرينما اله أصعقهما وأفلهما عددا ، فأدرك فى الحال أن الفرصة اله ينشدها مند وف طويل فذ واقته فنزل من الحبل بجيشه الذى لا يحصيه العد .



وما كاد الصياء يسرع فى بديده عبس الظلام التبع حتى بين للمرافقين ذلك لأن الجيش الصليبي كان قد وصح رحالا يرصدون من بعد مكائد العدو ، ويعطون الاساره فى الوقف المناسب ، فأعطوها ، فدفع الطول فى الحال محدره من افرابه ، فهب العسكر جمعهم الى سلاحهم وقد ببهم دى الطول وبداء المنادين ، وأسرجوا حولهم واسعدوا للالهام فما درب من النواحي ، وكان ذلك فى الصباح الباكر من أول بولو ، واصطف الصفوف لنقال ، سواء منهم أمراء المثين أو أمراء الحمسين ، ونقدم كل واحد منهم على رأس جماعه ، أما الزعماء فكانت أماكنهم فى أحنحة المشاة .

ولما كانوا يريدون أن يكون تقدم القوات للعمال من غير عائق يعوقها ، فقد أنزلوا فى غابات البوص المتكاثف القريبة منهم جميع العجزة والمسننين من الرجال والنساء ، والآلاف المؤلفة ممن لا جدوى ترنجى منهم فى المعركة وجعلوا معهم كل ماعهم ، وكان هذا المكان الذى اختاروه ، والذى تحصيه العربات الخفيفة وغيرها من مراكب النعل ملاذا آمينا ، وبصوا بالرسل الى كنانث الجيش الأخرى اله دفعا الطمش للانفصال عنهم حاملين اليهم نبأ ما هم فيه من حرج وضيق ويحونهم على المجيء اليهم على جناح السرعة لتجديتهم .

ومن ثم سمح احاده بتنظيم كل شئ في معسكر بوهيموند وفق ما نصي به أصول الحرب ، ولما فاربت الساعة الثانية بهارا ظهر قلع أرسلان ، يفود جماعة لا يحصىها العدد من الترك . فاستولت الدهشة على جيشنا ، اد لم ير في هذا الحشد انكساف الذى قيل انه حاور مائتى الف معادل سوى الجماله . على حين كانت قواتنا - كما قبل - نألف من حليط من العرسان والمنشاة .

- ١٤ -

حين أخذ جيش الترك فى الاصراب بعالت فى المعسكر ضججه هائله لم يعد أحد يدرك معها أو يستنير منها كلمة مما يقال ، فلم يكن سماع الا صليل السلاح ، وصهيل الحبل ، وقرع الطبول ونفخ الأبوا ، وهياوات المعسكر الحماسيه التى بعالت حتى حل انها تبلغ عنان السماء . مما أوقع الفزع فى قلوب من لم يألفوا شهود مثل هذا الموقف .

وأحدث صفوف الترك برمي بعصها على قوادنا ، ممطرة اياها بوابل هبان من السهام ، كأنها المطر الدفاى فسدت الأفق ، حتى انه ما من أحد من المحاربين الصليبيين الا وقد أصابه جرح لنوالى السهام بعضها فى أثر بعض ، وكانت كل رهبة اكف من سابقنها ، فان فات سهم واحدا أصابه التالى بحرح واذا كان هذا الأسلوب من القتال عرييا على رحالنا وليس مألوفاً عندهم ، فقد صعبت عليهم مواجهته . وأخذت خيولهم بهاروى نحبهم وأمام أعينهم ، وهم عاجزون عن نجبها اذ كانوا هم أنفسهم مرمى صرباب تأتتهم من حيث لا يحتسبون ، ومن فواح سدت عليهم فيها مسالك الفرار ، ومع ذلك فقله استمروا يقاتلون خصومهم بالسيف والحراب ، وبجواهرتهم دفعا الى الوراء ، حتى اذا عجز الترك عن الصمود بسبب

شدته الفاره عليهم ، فتحوا صفوفهم عمدا لجذب الالهام ، فجارت الحيلة على الصليبيين اد لم يجدوا واحدا يصدى لهم ، ورجعوا الى مواقعهم فى الخلف دون احرار الجراح ، وحنداك عاد الترك ثانياه فصفوا صفوفهم ، وكروا على رجالنا صابين عليهم سيلا جازفا من السهام والنشاب ، حتى قل أن اسطاع صليبي واحد فى هذه اللحظه النجاه من غير حراح خطيره نافذه . وقد قاوموا ما وسعهم المعاومه ، يحميهم ما عليهم من الدروع والرديات والخود ، ولكن سافطت الجياد على الأرض ، ووقع من لا سلاح معه واخنط الحابل بالنابل .

ولقد سقط فى هذه المعركة فراهه ألين من وجوه الفرسان والمنشاء على السواء ، كان من بينهم « ولیم » اس المكير الطب وأحو مانكريد . وكان شابا ببسر يومه بما سيكون عليه فى غده ، ذلك أنه بسما كان مستبسلا فى الدفاع عن جماعه ، اذا سمهم عرب أصابه فصرعه .

كذلك لقي روبرت أوف باريس نهايه بعس الطريقة ، وكان محاربا بارعا مشهودا له بالكفاءه .

بل ان مانكريد دانه — الذى لم نكن بكنرت بالحياه ولا يعا بمكانته الساميه — كاد أن يكون هو نفسه من الهالكين ، وكان الموت منه فاب قوسين أو أدنى ، اد طوح بنفسه فى معمعان القتال ، صابا على العدو أهوال الدمار ، ولكنه نجا بفضل ما بذله بوهسود من جهد فانزعه من پرائن الموت رغم أنفه . واسمرت كفه العدو بزاد رجحانا ، على حين شالت كفه الصليبيين وأخذت شوكتهم فى الصعف ، واذا ذلك شرع الترك فى مهاجمنا بالسيوف ، وضيق الخناق علنا ، وهم أقرب ما يكونون لنا ، حتى لم تعد أية حدودى

نرتجى من الفسى المدلاه من بجادها ، فاضطرب الصعوف ، واريد
الحاربون الى حب بوجد أمتعتهم وأحمالهم فى الغابات الكيفه
المشابهه ، وراحوا يتزاحمون حول العرباب ، أملا فى أن يجدوا
شيئا من الحماية .

- ١٥ -

فى هذه الاثناء الذى كان حشش الايمان فيها يحارب بحب عدة
الطروف ، والى أخذت فيها قوة بوهيموند فى الضعف والبلاشى ،
خف ليجديهم رهط من احوالهم الاساوس العظام ، بطالع فيهم
دوى حودروى ، وكوب ريموند ، وهيج العظم . وبلدوين أسساس
أحا الدوى وسواهم من العادة الذين أخلصوا البه لله وكانوا قد
خلعوا وراءهم فى المعسكر من لا ظهر عندهم يركبونه ، ونركوهم مع
سنى أنواع الأمعة ، أما هم فقد هبوا نحدة على رأس أربعين ألف
مقابل من العرسا ومعهم أحسن السلاح . فبت فدومهم الحماسة
السديدة فى رجال بوهيموند الذين كانوا على وشك التسليم ، فلما
عاودهم ناسهم ، عادوا الى ساحة المعركة أشوق ما يكونون لأخذ
النار ، النار ، انعاما لما نزل بهم من المصائب ومسح عار هزيمتهم
السابقة ، وكروا على العدو كرة ضاربة ، وأجادوا الضرب بسوفهم
بأيد لا يعرف الكلل البها طريقه وما لبنوا قلبا الا وقد هزموا الأعداء
الذين لم يعودوا قادرين على الصمود ، والذين كانوا يخافونهم أشد
الخوف ، ويحسبونهم أشد منهم بأسا .

★★★

وفد راح أسقف بوى - مع رهط من مساعديه فى نفس أسقفية -
بقوى عزائم الناس ويعظهم ويشجع القادة ألا يتراخوا فى قتالهم

أخذوا بدم من هلك من اخوانهم ، مؤكدا لهم أن النصر لا يد مسعهم .
من السماء ، ودعاهم الا يمكنوا خصوم الله وأعداء اسم المسيح من
التباهى بأنهم أهلكتوا المؤمنين . وظل رجال الرب يحنون الناس على
القبال بهذه الكلمات وأمنالها من عمارات الشجيع ، وبسوا فيهم
الشجاعة .

ومن ثم شن الصليبيون في همة لم نعهد فيهم من قبل ،
هجومًا عسفا سلوا فيه سيوفهم على الأعداء ، مفردين صفوفهم حتى
حملوهم على العراء ، وأعملوا فيهم مذبحة شرسة ، كما راحوا يعقبون
الفارين في اصرار وعزم مسافة ثلاثة أو أربعة أمال الى ما وراء
معسكرهم الذي كان يقوم في واد شديد الخصوبة ، وكان الفتل
فيهم قطيعا .

وهكذا ببند البرك أمام عدوهم مكبدين خسائر فادحة في
الأرواح ، ثم عاد الصليبيون الى معسكر خصومهم فجاءوا منه ببعض
من قوتهم [اللاتين] ممن كان العدو قد أسرهم ، وعروا في هذا
المعسكر على كميات كبيرة من الذهب والفضة ، كما اسولوا على
كثير من الحبر ويقال الحمل ووافل الجمال (وهي دواب لم يسه
لعوما رؤيتها من قبل) كما اسولوا على بعض الخيل ووجدوا فيما
وجدوا شتى أنواع الخيم والفساطيط المختلطة الألوان ، فأخذوا هذه
المخام الغالية كلها وقفلوا راجعين بها الى معسكرهم برفرف عليهم
راياب النصر ومحملين بأعلى الأسلاب ، وسائقين أمامهم الدواب
والصيد .

ويقال ان العدو فقد في هذا اليوم ما يعرب من ثلاثة آلاف رجل
من رجاله الأفوياء البارزين من أصحاب المكانة الرفعة في قومهم ،
كما سقط في تلك المعركة أربعة آلاف من عامنا ، ومن الطبقات
الدنيا من الرجال والنساء على السواء .

ويقول أهل السن - اعتمادا منهم على ما تعيه ذاكرتهم - أنه لم يهلك من وجوه قومنا سوى اثنين فقط ، ولعد حرب الموقعة يوم أول يوليو ، وكان الحظ فيها بين صعود وهبوط كما أنها حرت بين عوات لا بكافئ أحد الجانبين فيها الآخر في العدد ولا في العدد ، واستمر من الساعة الساعة حتى الساعة من ذلك اليوم وقبل أن عدد العرسان وخدمهم الدين أحصوا في جيش قلج أرسلان كان يربو على مائة ألف وخمسين ألفا ، أما فرسان الصليبيين الذين شاركوا في هذه المعركة فقد قاربوا الخمسين ألفا .

ولما فرغ الجيش من هذا النصر العتيب الذي هبته له العبادة الإلهية اصم رجاله بعضهم إلى بعض مره نابه ، وأنجب لهم فرجة راحة قصيرة صرفوها في مداواة جرحاهم ، وأفادوا ناله أيام سونا وسط المراعي الخضراء مستجمين معنيتين بجادهم ، وزاد في رفاهيتهم جميعا ما خلعه العدو وراءه رغم إرادته من متونه وأحمال صخرة من المأكولات الكبيرة .



وطهر قوادبا العظام ظهورا بيا في هذه الأكمة الخطيرة ، كما وانت الفرصة من هم دونهم لكسب المجد المؤمل ، لاسيما بلدوين بورج وبوماس لافير ، ورينو دي بوفيه ، وجالو دي شومونت ، وحاستون دي بيرن وجيرارد دي شريزي .

وعبر منذ هذا اليوم بالاجماع أن ننضم الكنائس بعضها إلى جانب البعض وتنوحد ، وأن نسير مترافقة كالجسد الواحد حتى ينقاسوا حمم القبال الحظ اذ يقبل ، وادباره اذ يدبر .

أقام المحاربين مسجحين في هذه الساحة ثلاثة أيام كما فلما
وكانوا هم وحادهم أحوج ما يكونون لهذه الراحة ، ثم لما ناداهم
النكير استعدوا مرة أخرى لمابعه رحلة حجهم التي بدأوها ، وكان
طريقهم الذي سلكوه يمر عبر كل بلاد بسينيا الى بسنديا ، وقد
دفعهم رغبتهم في اخصار زحمتهم الى الترول عن عر قصد في افلم
جاف ، يكاد يكون بأكمله حلوا من الماء ، ولما صاروا فرسه للخطرين
الجسيمين : الظما وسدة فيظ يوليوا كما هي العادة ، فقد أخذ أعداد
كبيرة منهم في الهرب ، وتقول الروايات أنه هلك يوم ذاك أكثر من
خمسمائة من الحسنين من شدة العطس والحر ، وبمضى الرواية
فيقول ان الحوامل من النساء طرحن ما في بطونهن من سدة الظما
والحر المهلك ، وكان ذلك حدثا لم يسجل الباربع له مثلا .

أما النساء اللاتي كن يعانين غصص الكرب الشديد ، فقد حلعن
أطفالهن في المعسكر ، منهم الأحماء ومنهم الموي ، وفيهم من يعاون
سكرات الموب ، ودفع الرحمة الانسانية غيرهن الى احتضان أطفالهن
في صدورهن ، عر آبهات أن يراهن الرجال وهن سطلقن
في الطرقات شبه عاريات ، لا يشغل بالهن شيء سوى خطر الموب
المعزع ، عر حافلات بأنوثتهن .



ولم يحدد الرجال فينلا قوبهم الجنمانية الهائلة ، فأعمى عليهم
من وطأة الحر ، ومما بذلوه من جهد ، فراخوا يلهون نافواه مفتوحة .
وأنوف تنلطف على سمة ريج ، ويسعون لالتماس الرطوبة ، عساه
تخفف بعض ما هم فيه من ظما ، لكنهم لم يحدوا شيئا مما ننسدونه .

لم ينصر مكابده هذه الأحوال على الآدميين وحدهم ، بل تعدىهم
أيضا إلى دوابهم التي تحمل ماعهم فعصمهم كل بهيمة ذات طلف
كأن تستجيب لكل ما يؤمر به ، أما الطيور الصغيرة والصقور
المحلقة في السماء فقد لعلب أناسها ، كما أن البزاة التي كان
البلد يسمعون بها أنباء خروجهم للصيد والعصم فقد ماتت هي
الأخرى في أيدي أصحابها ، على الرغم من الرعاية القصوى التي
يجتهدونها بها .

وأما الكلاب ذات حاسة النسيم النافذة والمدرّبة على الصيد ،
والحيوانات الأليفة فقد هجرت أصحابها الذين سيعهم ، وراح
يسافط على طول الطريق وهي تلهب من الظما ، وكان أسد الأشياء
ايلاها للسادة وأوجعها لفوسهم ، هي أن جادهم الصافات - وهي
رفقتهم في حروبهم وكان عليها كل اعتمادهم في طلبهم السلامة
لأنفسهم والتي جعلت الفخر لنفسها بقوائمها الوثابة وأسانها
الرافعة - هوب هي الأخرى نافعة كما نفقت دواب الحمل العادية تحت
وطاء الحرارة والظما .

وأخيرا بفضل سع كل الرحمة ورب السلوى ، فأنقذ هؤلاء الحجاج
المعذبين الظماء إذ قادهم إلى نهر كانوا أحوج ما يكونون إليه وقد
طال بحسهم عنه ، فتدافعوا إلى مائه في لهفة مجنونة ، وراح كل منهم
يراحم الآخر في الوصول إليه . لكنهم بصورهم على هذا الماء الذي
طال سوفهم إليه سقطوا في خطر أكبر مما هم فيه ، حيث أقبِلوا
يصون منه عبا ، ولا يستطيعون مسك أنفسهم عن السرب ، فكان
ذلك خطأ منهم في هذه الحال ، إذ كانت كثرة الماء نحمل لهم الهلاك ،
الذي كانوا قد نجوا منه من قبل ، ولم يقف الأمر عند هلاك الآدميين
بل نفى كثير من دوابهم بنفس الأسلوب .

ثم شاءت عناية الرب أخيرا أن تنقذهم من هذه الإخطار فجاءوا

الى ناحية شديدة الخصب والماء قرب أنطاكيه الصغرى ، عاصمه
بسنديا ، وكانت من أجمل الواحي لما فيها من العناب والمراعى ،
فضربوا مخيماتهم فى حقولها الحصره .

- ١٧ -

وحدث لأول مرة فى هذا الموضع أن عمد بعض الرعماء الى
الانفصال بهوانهم عن الجيش الرئيسى . وكان أول من فعل ذلك
منهم بلدوين أخو الدوق ، وانضم اليه بطرس كونت سننأى وأخوه
رينارد كونت تول ، وبلدوين دى بورج ، وحلبر دى موب كلير ،
واسم سحبا معهم سبعمائه فارس وجماعة من الجند المشاه .

أما ناني القاده الديس انفصلوا عن الجيش فكان ناكريد وفى
صحبه ريسارد من برسباس ، وروبرت أوف انرى على رأس
فوه كبرى فوامها خمسمائه فارس وبعض الحد المساه .

كان يحرك هؤلاء الفرسان جميعا غرض واحد لا يخلفون فيه ،
ألا وهو استطلاع الطرق واستكشاف الاقلام المجاور . والحب
عما يجدونه ، وكان عليهم بعد ذلك أن يبعثوا الى الزعماء الذين
أرسلوهم جميعا بنقارير عن كل ما حدث بالنسبة للزمام والكان ،
وإن الجيش يمكنه متابعة الزحف فى سلام وطماننة ، وكانوا فى
بدابة متادرنهم المعسكر ملازمين للطريق الرئيسى فمروا ببعض المدن
المجاورة ومنها فوننة وهرقله ، ثم عرجوا بعدئذ يسا ، وأخذوا
يحسون الخطى ناحية الساحل .

فى هذه الأثناء استهوى الدوق والقاده الآخرين من ظلوا فى
المعسكر حسن منظر الواحى المحطة بهم وبهاؤها ، وجذب انشاعهم
قرب المكان من الغابات ، فانطلقوا الى واحدة منها فى طلب الصيد
وذلك لانهم أحسوا وهم فى عمرة انشغالهم بالعمل المضى بحاجهم
الى الرويح عن أنفسهم بعض السىء ، وودوا لو خلوا وراءهم - ولو
لفرة قصره - ما يشغل بالهم من أمور كانت تقلقهم على الدوام ،
فلما دخلوا الغابة استلقت انتباههم كبير من مباهاجها ، ففرقت بهم
المسالك ، ولاقوا مخاطر حمة .

فأما الدوق الذى خرج للغابة التماسا للرياضة وللهو ، فعد
واجه على غير انتظار دبا بنسج المطر يهاهب ليسف على رجل من
العراء الججاج يعمل خطابا فاصدا افراسه ، وعسا كانت
مجاهدة الرجل فى العثور على ملجأ يهرب اليه فرارا من الدب . فلم
يسعه الا الصراح بصوب عال يسأل المعوة فى محنة الخطيرة السى
هو فيها ، وشاء العدر أن يظهر فى هذه اللحظة الدوق الذى أسفى
على رفيقه المكوب ، فاندفع لتجده ، فما كاد الدب يرى الدوق الذى
كان موشكا أن يرفع سيفه لضربه حتى انصرف عن فريسه الأولى
وألقى بنفسه على الخصم الشجاع ، مكسرا عن أنابه ، ومسددا
نحوه مخالبه ، فأصاب حصانه بجرح خطير وجد الدوق نفسه اذاه
مضطرا للدول عن ظهره ، مصلتا سيفه لمهاجمة الوحش الذى رمجر
زمنجرة تربعد لها الفرائص ، وأقبل على الدوق فاغرا فاه ، مكسرا
عن أنابه . غير مكترت بسبف الدوق ، بل هم بالامساك بصاحبه
الذى رد هجمته بحسامه محاولا جهده أن يطعنه طعنة نجلاء ترديه ،
فتحاشى الحيوان السلاح ، وطوق الدوق بذراعه وطرحه أرضا ،
فلم يعد الدوق يملك دفاعا عن نفسه اذ علاه الوحش ، وأصبح من
السر عليه أن يمزقه اربا بمخالبه وأسنانه ، ولكن المحارب الماسل
استل حسامه ، واذا كان شديد الناس فقد احتضن الدب المهاجم

يسراه ، بينما أعمد بناء سبعة حتى مقصه في حبه فصرعه ،
وهكذا كسب الدوق الجولة بالدم وإن حرح منها حرح حطر في
ساقه ارمى منه على الأرض وقد وهى بدنه وسرى الصعف فى كانه
اذ اسباب من دمه ما لم يعد معه قادرا على النهوض .

وعلى صراح الرجل القهر الذى قدرب له السحاه ففصل
مساعده الدوق له . فبه صاحاه العسكر لما جرى ، فانطلقوا كلهم
صوب الناحية التى كان البطل السجاع - حامى الجيوس - مسحى
فيها ، وقد أنخسه حراجه فوضعه على محفة ، وحمله القادة الآخرون
الى المعسكر وسط نكاء الجميع . واستدعوا له المطينين الذين بدلوا
المحاولات السافه لانعاده ، ووضعوا له من الأدوية المناسبة ما جعل
الامل يداعب النفوس فى أن يسرد عاقبه .

- ١٨ -

حدث فى هذا الوقت بالداب أن اعزى المرض السيد ريبود
كوب بولور ، ذلك الميجل الذائع الصب ، وحمل هو الآخر فى
محفه وقد أنهكه علته وأثقله مرضه . حتى انهم لما وضعوه على
الأرض فى انتظار موته كانت أنعاسه شبه مقطوعة ، فقام ولم أسقف
أورانج الطاهر السلوك بأداء كل الشعائر التى تؤدى للمؤمنين ،
مثملا يفعل ازاء رجل قد انهى ولقط أنفاسه .

واذا رأى العسكر أنهم قد حرموا - أو كادوا أن يحرموا -
من توجهات هذين الرحلين العظمين فقد ران عليهم من الأس

ما كاد ان يصرفهم عن مبايعه رجله الحجج الذي كانوا قد قطعوا العهد على أنفسهم للطعام به . واستحرقوا جميعا في البكاء لانسعال بالهم بحاله فائديهما ، وفام كل الحجاج أناء بأديهم السعائر الديسة برفع أكف الضراعة للرب عساه يرد على هدين الزعميين عافسهما ، فأصغى إليهم الرب الرحيم واستجاب لنوسلاهم ودعائهم ، ورد على الرجائين صحتهما ، وأصعبت الرحمة لصلوب شعبه .



ولما انتهى العسكر الحجاج من اجبار ببسيدا دخلوا اقليم ليكوبيا ، وجاءوا الى عاصمته قوبه ، وكانت هذه الباجة فاحله جرداء . فابسلوا فيها بقص كثير في الطعام أدخل النأس الى قلوبهم ، وكان الترك قد علموا من قبل رحبها عليهم . فانطلقوا بعسوق فسادا الى الاقليم بأجمعه ، وبموا جميع مدنه اعسادا منهم على عجز رجال أى مدينة عن المقاومة . وزادوا على ذلك بأن سبوا النساء ، واسرقوا الأطفال وبهوا كل ما صادفوه من الماسه والأعنام ، ثم نررا الى الجبال المسعة منصمبين بها . وكان أماتهم الوحيد هو أن يبادر الصليبيون الى مفادرة الاقليم حين بلغ الجهد منهم غاية بسدر حاجتهم للطعام ، ولم تكن الترك واهمين في هذا الأمل ، اد فر الحجاج من هذه الناحية الفاحلة الى لا يستطيع اسعافهم بما بقم أودهم وغادروها على حياح السرعة .

فلما خلفوا هرقله وراءهم ، حاءوا الى مدينة مرعس ، فقصوا معسكرهم بها . وأقاموا بها ثلاثة أيام .

وفي أثناء وجودهم في مدينة مرعس هذه فاضب روح [حودهيلد] روجه بلدوين - أخى حودفروى - الذى كان قد تركها في رعاية أخويه حين سفره ، فرفد في الرب في هدوء ، ولفظت

انفاساً بعد مرض عصال أمصها ، وكاتب «جودهيلد» (١) هذه امرأه
شريفة المولد ، عاشت حياة حميدة طاهرة ، وتخلق بالخلق الكريم ،
ودفنت حسب مايت ، بعد أن أقاموا لها شعائر الشرف الحديرة بها .

- ١٩ -

في هذه الأثناء قام بانكريد الفاضل ، وهو من هو في الفصل
بهرص الحصار على طوروس وهي أهم مدن تلك الولاية ، ونجح
إذ سلك أقصر الطرق فكان أول من بلغ صليبيها إحدى ولايات الشرق ،
وساء على ما بقوله القدماء فإن ولاية « أنتوكينا » كانت تسمى بصطفه
السرقة .

رياحم صليبي من السرق ولاية كوابسريا ، « مسوريه
الشمالية » كما ناهجها من الغرب ايسوريا ، ويحدها من الشمال
حصان طوروس ومن الحسوب بحر ايجة ، ويوجد بها مدينان
رئيسيان هما طرسوس موطن معلم الميندين ومهبط رأسه أما
الأخرى فتدعى « عين رربة » ولكل منجما فراها النابعة لها . ومن أجل
هذا يقال أنه يوجد قنطرة الأولى وقنطيره الناسة .

والقول السائغ أن مؤسس طرسوس كان يدعى « طارسيس »
وهو ناني أولاد « حاقام » ابن يافت الذي نذهب الروايات القديمة
إلى أنه الابن الثالث لئوح ، ويدللون على صحة هذا القول بأن المدينة
تحمل اسم مؤسسها .

(١) أشارت الترجمة الانجليزية في تعليقها على حبر هذه السلسلة أنها عرنت
تأثير من اسم ، ومع أن ولیم أثر من هذه الأسماء كلمة « جوتيريا GUTERIA »
إلا أنها تعصل « جودهيلد » ساء على المراجع الواردة في هذه الحاشية الانجليزية .

ومع ذلك فإن لسولسوس رأيا مخالفا لهذا الرأي شأن عدد
المؤسسين ، فبقول في الفصل الثالث والأربعين من كتابه «المدكرات»
« وسبع مدينتي مدينة طرسوس التي هي أم المدن ، والتي أسسها
بريسوس داناي الشريف ، ويسمونها نهر « كيندس » الذي يهول
بعض النفاة انه ينبع من جبال طوروس ويحدها انحدارا عسفا
مجبعا ، على حين يذهب آخرون للقول انه أحد روافد نهر
« هند اسباس » .

وربما كان هناك شيء من الصحة في كلا القولين من أن مؤسسها
هو طارسيس ، ثم جاء من بعده بريسوس فحصبها وزاد فيها .

أقام بانكريد ورجاله على حصار مدبنة طوروس بصعده ايام
حتى أرغم أهلها - بالوعده بانه والكلام المعسول بانه أخرى - أن
يعملوا ما رسمه من ادخال رايه ورفعها على أحد أبراجهم رمزا
لاعترافهم بالحصوع له . فاستجابوا لطلبه هذا ، مشرطين عليه أن
يطلبهم بجمائته حتى يحضر بوهيموند والجنس الرئيسى ، وألا يهملهم
- خلال الفترة الواقعة فيما بين دخوله وقدم بوهيموند - على معادرة
دورهم أو ترك مزارعهم ، فإن رضى بهذه الشروط قبلوا أن تسلموا
المدينة في هدوء الى بوهيموند حين يصل ، ويبدو أن هذا العرض كان
مرصا لبانكريد . فقد قبله هو أيضا .

كان أهالي هذه المدينة مسيحيين مثل جميع بقية سكان
الاعليم ، وهم ينألقون من الأرمن والاغريق ، غير نلة فليسة من الترك
الذين كانت لهم الغلبة الحربية لمهارتهم فى استعمال السلاح . والذين
كانت حراسة الحصون موكولة اليهم ، ونقع على عائقهم مهمة قمع
الأهالى بالسدة ، أما المؤمنون فلم يكن مسموحا لهم بحمل السلاح
ومن ثم صرفوا همتهم لممارسة البحارة والاشتغال بالزراعة .

فى هذه الأثناء كان بلدوين - أخو الدوق - ورفاقه الذين.

سلوكوا مسالك لم تكن مألوفة - في ميسيس الحاجة للطعام ، لكن
سسى له أخيرا ، بعد جولات دائرية ، أن يصل بالصدفة الى قسه
جبل من الجبال اسشرف منها منظرا يمد حتى البحر الى قيليقيا
ومدنها المسارده بحب قدميه .



ولما بين لبلدوين أن هناك معسكرا حول طرسوس . سرب
المحاور أن يكون قد ضل الطريق ، وأن يكون هذه الحيام حيام
عدوه ، بيد أن رعبه الملحه فى الوقوف على هويه هذا الافلم وعمن
يكون أصحاب هذا المعسكر الذى يراه على بعد دفعه للحروح على
رأس جماعه بما عرف عنه من الاقدام ، ونزل بهم الى السهل .

وكان ناكريد قد أقام لنفسه هو الآخر عبونا فى نقاط مرتفعة،
كما أخذ حدره توفعا لأى عدوان قد يقوم به العدو ، فاسدعى فى
الحال إليه رفاقه فى الحرب وحملوا أسلحتهم لعينه بأن الدين
رآهم انما هم عسكر الحصم ، جاءوا نجدة للمدية ، فصاح فى رحاله
مسححا اياهم . وخرج بهم رافعين راياتهم لصد القوات الراحفة ،
ولم نظر روحه شعاعا لايمانه بالله ، فلما اقترب المصافان بعضهما
من بعض ورأى كل واحد منهما الآخر رؤيا العين ، عرف أن لمسب
هذه أسلحة العدو ، فدبا اذ ذاك كل واحد من الآخر فى اطمئنان
ونعائقوا .

وبعد الفراغ من الأحاديث الرقيقة المألوفة انضم بعضهم الى
بعض وابعوا زحفهم الى المدينة لاكمال الحصار ، فنلقاهم ناكريد
بالنرحاب والاكرام ، وأولم لهم ليلتهم هذه وليمة قدم لهم فيها لحوم
الأغنام والماشة التى يهوها من النواحي الماخمة .

ولما أشرق الصباح وبجلى النهار ، رأى بلدوين ورفاقه راية نانكريد نحى على أعلى برج بالمدينة ، فبهسهم العيره فى الحال بأنابها ، وسوا أوامر الحب والأخوة التى عهدوها فيما بينهم أنباء رحتهم فى سلام ، وهى الأوامر التى صمموا - أفرادا وجماعات - على أن نطل عراها نائنة لا انصمام لها ، لكن الذى جرى كان عكس ذلك ، اذ غضب رجال بلدوين من جرأة نانكريد على رفع راية فوق المدينة ، فى الوقت الذى يوجد فيه كثيرون غيره من الأمراء الحاصرين ، وهم أكثر منه حمدا ، وأكثر عسكرا .

كان نانكريد رجلا مواضعا فأراد صب غضبهم ، فأكر أن يكون قد استهدف إهانتهم من وراء رفع رائته ، وقال انه انفق على رفعها مع أهل المدينة بسبب بسالته ، وذلك قبل وصول الزعماء . وقبل أن يخامر الأمل أحدا فى قدومهم .

أما بلدوين الذى راح أصحابه يسيرونه بكل قواهم ، ويحويه على سلوك هذا السبيل ، فلم يعبأ بما فعله نانكريد ، بل نهج عكس هذا النهج ، وكان مدفوعا فى ذلك بانفعالاته ، فجاوز حدود انعطته . فطاول على نانكريد بكلماته السفهية ، وأدت عطرسه الى مازى أوشك فيه كل منهما أن يفانل صاحبه ، ويقنك به ، وأخيرا استدعى بلدوين إليه أهل البلد ، وهددهم علانية بتخريب المدينة وما حاورها من النواحي غير عابئة بما وعدهم به نانكريد من بسط حمايته عليهم ، ان لم يبادروا الى انزال راية نانكريد وتصب رايته هو مكانها .

ولما رأى الأهالى أن بلدوين أشد من نانكريد بأسا وأكثر منه حمدا فقد أذعنوا له على نفس الشروط التى سلف لهم اشتراطها على

تأنكريد الذى أنزلوا رأيته ورفعوا مكانها علم بلدوين ، فلما رأى
 تأنكريد هذا الحيف الذى حاق به أحرقه العطش عن حق ، لكنه كظم
 عطشه بفصل ما طبع عليه من رحاحه العفل . ومن بعده الصبر على
 تحمل الآلام شفقة منه من حدود شقاق خطر بين قوات المؤمنين ،
 لذلك نقص معسكره ، وأرشد إلى مدينة محاوره بدعوتها « أدنه » ،
 فلما بلغها لم يأذن له أهلها بدخولها لأن شخصا معبه اسمه « حلف »
 من الأمة الرجندية كان قد أسبغ عليها ، وكان « حلف » هذا
 انفصل عن الحس الأصلى مع ثلة من الآخرين ، وجمع إليه حسدا
 كسفا من الناس انخرطوا بحب رأيته ، وشاع الصدفة أن يؤدى به
 إلى أذنة حيث طرد منها الترك ، وأسبغ عليها فسرا .

ولما علم تأنكريد أن مسننه الرب قد أسقط هذه المدينة فى
 أيدي شعبا . نعت الرسل إلى حلف بلمس منه فتح أبوابها
 لتدخلها حياجه وأعلمه أنه يعي الدورل بها وسراء ما يحتاجه
 عسكره من ضرورات العيش . فاستجاب حلف للرسل ، وأمد
 تأنكريد وخيله بكل ما هو لازم لهم فى كمناب وفرة جعل بدعيها
 إليه هبة . والبعض الآخر نائمان معفولة ، وذلك لأن حلف كان
 قد وحد المكان ملثا بالذهب والفضة وقطعان الماشية والأغنام
 والحب والنسج والزيت ، وقصارى القول بكل شيء نافع .

- ٢١ -

حين طلع النهار رحل تأنكريد من المدينة بكل من معه وأغد
 السير فى الطريق الرئيسى المؤدى إلى المصينة ، إلى كانب واحدة
 من أروع مدن هذا الاقليم ، والنسب نال حظا من السهرة بفضل

اسوارها وأبراجها وكثره سكانها ، كما زاد في قدرها موقعها
الجهنمى ، وحولها الحصبة ، وأرضها العسة ، وما كاد نانكريد يعسكر
على معربة منها حتى أعار عليها وراوحها بسلسلة غير مقطوعة من
العاراب حتى نمكن من الاسسلاء عليها فى مدى أيام فلائل بمعونة
الرب ، وحكم السف فى رقاب أهلها المارفين .

ووجد بها نانكريد ثروات ضخمة وكميات كبيرة من الميرة من
كل صنف فوزع على أتباعه كل ما وجده ، فى أنصبة يلائم كل منها
ما أداه كل حاج من الخدمة ، ففاضب أيديهم بما ملكوا ، وعوضهم
الطعام الوفير عن أناس المسغنه التى فاسوها من قبل ، كما
اسسلموا فى الوقت ذاته للراحة ، وأقبلوا على أكل ما يشتهون .
وأطاقوا ما عندهم من دواب النقل حرة برعى كيف شامت .

- ٢٢ -

راح بلدوين - بعد رحيل نانكريد - يكر من نائب أهل
طرسوس ويهددهم بهديدا شديدا ويحذرهم مره بعد أخرى ، وأمرهم
أن يفتحوا الأبواب أمام عسكريه لدخلوها ، اذ حيل اليه أن العار
لاحقه ان هو أصاع الوفت بلا عمل حتى بجيء الجيش ، فخاف
الأهالى منه أن يهاجم المدينة من قرب ان هم رفضوا اطاعة أمره ، لما
رأوا من عجز نانكريد عن مقاومته ، هذا الى جانب رغبة ثقتهم فى
قدرتهم الذاتية ففتحوا من الضرورة فضلة ، وفتحوا الأبواب وأدخلوا
بلدوين وجميع عسكريه ، وخصصوا برجين جعلوهما فى وقتها
الراهن سكنا خاصا له .

أما بقية جده فقد نفروا فى بيوت المؤمنين من أهل المدينة .

وأما الإبراح الأخرى فكانت في أبدي المرك الدين كانوا لا يزالون يحتلون المدينة ، وكانوا أكثر منهم عددا . هذا بالإضافة الى أنهم كانوا يملكون بلا جدال معظم استحكامات البلد ، ومع ذلك كانت الريبة بخامر نفوسهم من ناحية طائفة الصاري الدين أدوا [لعدوه] بدخول البلد ، واذا لم يكن لديهم ثم أمل في بجهه بأنهم . فقد كانوا يلتمسون الفرصة للسسل في الحفاء الى حارجها مع زوحابهم وأبائهم وما ملك أيديهم .

وحلب في عده الليلة بالداب ان وصل الى طرسوس بلانائه رجل من حملة بوهيموند كانوا في طريقهم للانضمام الى نانكريد . فأصدر بلدوين أمره بعدم السماح لهم بدخول المدينة ، ولما كان طول السفر قد أرهقهم ، وفلص في أيديهم ضرورات العبس . فقد ألحقوا في السؤال التماسا للسكن وعقد سوا لهم . فعطف عليهم في محضهم هذه رفاقهم من الحجاج الذين هم دونهم مكانة والذين كانوا في المدينة ، وألحوا في طلب الاذن لهم بالدخول لكنهم ردوا فاشلين ، لانهم كانوا . كما قيل طائفة من رجال حملة بوهيموند الذين كانوا مغذين السير لمساندة نانكريد .

وعلى الرغم من عدم قدرة المسيحيين الموجودين في المدينة من الخروج الا أنه لم تكن تنقصهم العواطف الأخوية فراحوا يدلون الحبال بالسلال من الأسوار ملأى بالخبز ، والروايا منوعة بالنبيذ . وهكذا أمكنهم امداد الدين بالخارج بالطعام الكافي لهم في هذه الليلة ، ولما وجد هؤلاء الرجال ألا مناص لهم من البقاء خلف الأسوار فقد وطئوا أنفسهم على الإقامة أمام أبواب المدينة ، وتدبر حبابهم جهد استطاعتهم .

‘ فلما كان الليل استسلم للوم العميق والراحة التامة من داخل المدينة وخارجها على السواء‘ من المسحجين ، وضرب السكون أطنابه

ولكنه كان سكونا مريبا ، فقد قام الترك وغيرهم من كفار طوروس بفتح الباب في هدوء تام ، وخرجوا منلصصين مسسحبين معهم نساءهم وأطفالهم وعبيدهم وكل ما ملكت أيديهم ، وذلك لأنهم لم يكونوا يشعرون بالهدوء في بلدتهم الى جوار هؤلاء الصيوف الذين نزلوا بينهم على كره منهم ولكنهم خافوا مساكنتهم ، وأصبح هؤلاء الترك قادرين كل القدرة على مغادرة المدينة متى شاءوا ، اذ كان في أيديهم بوابة أو اثنتان من بواباتها ، وأبوا الا أن يخلقوا وراءهم انتصارا دمويا على عدوهم ، ذلك أنهم بعد أن فرغوا من ارسال أحمالهم وما ثقل من متاعهم أمامهم عادوا ففتكوا بكل الذين كانوا يخطون في سباتهم العميق .

- ٢٣ -

فلما كان اليوم السالى وقد ملأ النور الكون ، اسيعط مسبحجو المدينة فوجدوها مهجورة ، فعجبوا كيف هرب العدو من غير صجة ، وانطلقوا الى الأسوار ومداخل المدينة عساهم يعرفون كيف تمكن هؤلاء من التسلل الى خارجها ، وبينما كانوا يتقصون الأمر في دقة وينقصون كل ركن وزاوية اذا بهم يطالعون آثار المذبحة التى أنزلها الترك الفارون بخدام المسيح فحزنوا أشد الحزن ، وتقطعت نفوسهم حشرات وأسلموا أنفسهم للبكاء .

ثم وقف رجال الطبقة الناسة على بعد من الآخرين وحملوا السلاح ضد بلدوين وغيره من الزعماء الذين يسأونه مكانة ، وذلك لأنهم اعتبروهم السبب فى هلاك رفاقهم الحجاج ، حين أبوا أن يستضيفوهم ، وكانت هذه الاستضافة واجبا لا يصح التنصل

منه ، كما كانت حقاً لكل دى حاجة ، ومن ثم فقد استبد بهم الحقن ،
فاندفعوا اندفاعاً عدوانياً يصفسون النيل من زعمائهم الذين لولا
انسحابهم الى الأبراج العالية لقتل منهم مثل الذين قتلوا وراء
الأسوار .

ولما رأى بلدوين أخيراً أن الهرج الذى استولى على الناس يحق
أخذ فى الزيادة ، راح يدبر فى لهفه كيف يبرر مسلكه ، وكيف
يعتذر عن بعسه عند فومه ، عسى أن يهدأ ثأرتهم ، ويركنوا الى
السكنينة ، فترث لحظة استرد فيها أنفاسه ، وسألهم الاصابات
فهدأت غاغة الرجال قليلاً وان كانوا لا يزالون مشهرين أسلحتهم ،
وراح هو يبرىء ساحتهم عندهم ، مقسماً لهم بأن السبب الوحيد الذى
جمله على اغلاق أبواب المدينة فى وجه الحجاج هو أنه كان قد وعد
وعدا لا حش فيه ألا يسمح لأحد بدخولها حتى يصل الدوق ، كما
أن كلماته المرائية ، والأفاظ الاستعطاف التى كان لابد منها فى مثل
هذا الموقف والسى قالها وقالها بعض أشرافهم فعلت فعلها ، وأفلح
فهدأت من ثائرة الناس بعض الهدوء وتراضوا فيما بينهم .

وهكذا انتهى النزاع ، ولبث العوم هناك فى سكون بضعة
أيام ، حتى رأوا أسطولا يبحر البحر على مسافة تقرب من ثلاثة أميال
من طرسوس ، فما كاد الفرسان والمشاة يطالعون هذه السفن حتى
هبوا سراعاً ناحيتها ، وحدثوا مع القادمين من البحر فعلوا منهم
أنهم نصارى ، ولما سألوهم من أى البلاد هم قالوا انهم من فلاندرز
وهولندة وفريزيا ، حيث ظلوا يمارسون القرصنة ثمانى سنوات ،
ثم صحت ضمايرهم فندموا على ما كان منهم ، وتابوا عن انهم
فركبوا هذا البحر فى طريقهم الى القدس للصلاة .

قلما عرف رحالنا أنهم مسيحيون مثلهم دعوهم لدخول الميناء ،

وصافح بعضهم بعضا ، وبادلوا فيما بينهم قبلات السلام ، وبعد
أن أرسست السفن آمنة بالشجر قادوا رجالها الى طرسوس .

كان رعيم هؤلاء القوم يدعى « حينمار » من اقليم بولونيا ،
ومن مقاطعة كونت استاس ، والد جودفروى ، وما كاد حينمار يعلم
أن بلدوين هو ابن سيده حتى ترك الأسطول وتبعاً لمرافقته الى
القدس ، وكان حينمار فاحش الثراء وزاد من ثرائه هذه الحرفة
الدنسة التى ماوسها ودحا طويلا من الزمن ، وكان فى خدمته رهط
كبير من الناس أبى معظمهم الا مصاحبته حين علموا بعزمه على اتباع
بلدوين ، واذ ذاك انتقى انتقاء دقيقا خمسمائة من أنباع القائدين
لحماية المدينة ، أما كل من سواهم فقد راحوا يتهنئون للخروج
للبحث عن حلوطنهم .

- ٢٤ -

عاد الجيس طرسوس ممما وجهه شطر المصيصة حتى بلغها ،
وكان تانكريد كما قلنا من قبل - قد احتلها عنوة منذ أمد قريب ،
واحكم قبضته عليها فأنزل بلدوين جنده خارجها وفى البسانين
المحطة بها ، ليقينه التام بأن تانكريد لن يسمح لهم قط بدخول
المدينة .

ولما ترامى الى سمع تانكريد خبر وصول بلدوين ، وانه نصب
معسكره على مقربة منه ، غلى مرجل غضبه ، وثارت ثائرته وتأججت
نيران سخطه اذ عاودته ذكرى المصائب التى صبها هذا الرجل ظلما

وعدوانا عليه ، ودعا رجاله وهو في سورة حنقه الى حمل السلاح
 جميعا العزم على رد الصاع صاعين ، وأن ينزل ببليدين من الأدنى
 مثل الذي أنزله هو به من قبل ، ومن ثم أنهض فرقة من رماة النساب
 لرمي جبياد بلديين التي سرحها في المراعى ، ولأخذها أو دفعها .
 كما خرج تانكريد ذاته في خمسمائه فارس في دروعهم مهاجما بهم
 معسكر بلديين وأخذوا الحراس على غره منهم قبل أن يتمكنوا من
 امتساق سيوفهم ، حتى كاد أن يفهم عن بكرة أنفسهم ، ولكنهم مع
 ذلك هبوا الى أسلحتهم واستعدوا للمقاومة . وحررت في اثر ذلك
 معركة عنيفة ، استبسل فيها كل من الجانبين استبسالاً ضارياً كما
 لو كان كل واحد منهم يحارب خصماً لدوداً ، فسقط من الجانبين
 قتلى كثيرون ، وأسر كل فريق رجالاً من رجال الفريق الآخر . غير
 أن عسكر تانكريد كان دون عسكر بلديين بأساً ، وأقل منه عدداً ،
 ثم ان القتال أجهد تانكريد اجهداً لم يعد قادراً معه على تحمل
 شدة ، فاضطر الى ترك ساحة المعركة ، والارتداد الى المدينة .



كان الجسر الشديد الضيق الذي يعلو النهر الفاصل بين
 معسكر بلديين وبين المدينة يقف عقبة كاداء في وجه قوات تانكريد
 وهي تسرع في الفرار الى المدينة ، حتى لقد هلك رهط غير قليل
 من فرسانه ومشاته ، وان أسعف الفرار ثلثه منهم هربوا الى داخل
 البلد ، ولولا أن الليل أرخى سدوله مما أدى الى وقف القتال لكان
 من الممكن أن تكون الخسائر أقدم مما هي عليه ، نظراً لما كان يمكنه
 كل فريق من كراهية تضطرم كالنار في قلبه للفريق الآخر .

كان من بين أتباع تانكريد الذين وقعوا في الأسر رجال نبلاء
 باوزون منهم واحد من ذوى قرباه اسمه ريتشارد دى برنسبانى .

وآخر اسمه روبرت دانزى ، وكانت مشوره هدى الرجلين
وبحريضا بهما هي السبب الرئيسى فى قيام نانكريد بحركة الاسقام
التي ذكرناها .

كما وقع فى أسر نانكريد واحد من اتباع بلدوين ومن علة
القوم واسماهم مكانه ، هو جيلبرت دى هونت كلر ، ونجم عن
غناى هؤلاء القادة أن شاع الاضطراب فى صفوف كلا الحاسبين .
اعتقادا منهم بهلاكهم فى معركة اليوم .

وحين ذر قرن الفجر فى اليوم المالى أخذت أحاسيس الكراهية
فى النلاشى ، وخفت سورة الغضب ، وكان الفضل فى ذلك للرحمة
الالهية اذ تذكروا ما جاءوا من أجله ، فصفا تفكيرهم وعاد الى
هدوئه . ومن ثم مضت الرسل بين الجانبين تنشده اقرار السلام ،
ورجع كل أسير الى جماعته ، كما راحوا بتبادلون قبالات السلام
ارضاء لكلا الجيشين ، وعاد الوثام يرفرف من حديد بن الحمع
وأطلقهم السلم بجناحه .

- ٢٥ -

نزل بلدوين على طلب رفاقه ، وعاد من المصبصة مضما بكل
عسكره الى الجيش الاصلى الذى كان قد وصل - كما قلنا - الى
مرعش ، وكان بلدوين قد علم بالحادث الخطير الذى ألم بالدوق فى
بيسيدا أمام انطاكية فاشتد حزنه على سلامة جودفروى . وأراد
أن يتأكد تماما عن واقع حاله .

كان نانكريد فى هذه الأثناء قد زاد من بأسى فؤاده بمن صممهم إليها من الرجال الذين جاؤوا فى صحبة الأسطول ، فكثير جيسه بهم كثرة بالغى ، مكنه من اجبياح كل ملقبا ، والاسيلاء فسرا على معازل العدو انى وجدها فأضرم النار فيها حتى تهاوب الى الأرض ، واذا ذاكَ عرض من فيها على السيف فصلهم جميعا ، وكان آخر مكان عصف به جنده هو « الاسكندرية الصغرى » الى اسنولى عندها أيضا رغم مقاومتها اليائسة ، فمكنه هذا النصر الأخير من أن يصبح مسطرا على الاقليم كله .

سرعان ما نواردت الأخبار تشير الى تمام استيلاء نانكريد على كل المنطقة ، بفضل ما تجمع لديه من مختلف القوات ، فرفضت قلوب الترك والأرمن الجليلين خوفا من أن يعوج نانكريد عليهم ، ويفتح مدنهم ، ويسنرق أهلهم ، فراح كل ينافس الآخر فى سرعة المبادرة بارسال الرسل اليه ، محملين بالهدايا السمية من الذهب والفضة والجياذ والحيول والأفمسة الحريرية ، مؤملين أن يهدى هذا الكرم حدة غضب ذلك الزعيم العظيم ، عساهم يكسبون وده ، ويعقدون وياه أواصر الصداقة .

هكذا كان النجاح حليف نانكريد فى كل خطاه ، لأن الرب كان معه ، ولأن السند كان يوحه جميع أعماله لأنه خادم أمين .



هنا ينتهى الكتاب الثالث

الكتاب الرابع

اجتياح الصليبيين شمال الشام وشروعهم فى حصار انطاكية

فصول الكتاب الرابع :

- ١ - بولدوين أخو الدوق - يعود الى الجسس الأصلى
وينزل على اقتراح باكراد فيقود حملة برحف الى
الشمال ويحتل كل الاقلمس حى الفرات .
- ٢ - شهرة بلدوين تنشر فى كل ناحية ، فيستدعيه
أهل الرها فيسجيب لهم ويسرع اليهم عابرا
الفرات ولكنه يقع فى كمين نصب له فى بعض
الطريق فتمخرج المسيحيون لمقابلته ويجعلون من
أنفسهم حرسا له ويدخلونه المدينة فرحس به .
- ٣ - الغيرة من نجاح بلدوين تدب فى نفس حاكم

المدينة الذي يندم على قراره الذي احده ويرعب
في سجب الاتفاق ، لكنه من أجل اسرضاء الأهالي
يتبنى بلدوين ويتحذه ولدان وان أضمر الغدر به .

٤ - بلدوين يحاصر سمبساط استجابة لرجاء أهل
المدينة الذين يأمرؤن ضده حاكمها الضعيف
انتقاما منه للأضرار الجسيمة التي أنزلها بهم .

٥ - الأهالي يفتكون بحاكم الرها وينصبون بلدوين
واليا عليهم فيشتري سمبساط من حاكمها
« بلدك » بمبلغ كبير من المال .

٦ - بلدوين يحاصر بلدة « سروج » ويسولى عليها
بالقوة فيسكره أهلها سكرًا يعجز اللسان عن
وصفه .

٧ - ارسال طائفة معينة من رجال الجيش الأصلي
يحلون بالقوة مدينة « أرنج » واذ ترامى أنباء
ذلك الى أهل أنطاكية يبادرون الى هناك بقوة
ضخمة وينصبون كمينًا لشعبنا ، ويهاجمون
مدينة « أرنج » لكنهم يفشلون في محاولتهم
هذه فيعودون الى ديارهم بعد تحصين الجسر .

٨ - الجيش الرئيسي يصل « أرنج » ويرسل الكشافة
من هذا المكان لكشف الطريق ثم يقترب من
الجسر ويعبر النهر رغم ما بذله العدو من
محاولات كان يهدف من ورائها الى صدّه .

٩ - وصف مدينة أنطاكية ، ومكانتها .

١٠ - القول في الأقليم الذي به المدينة ووصف
موقعها .

١١ - من كان حاكم هذه المدينة التي هي أنطاكية ،
وكيف يادر هذا الحاكم - حين سماعه نبأ
اقترابنا - إلى حصينها ، ثم جلب إلى داخلها
العسكر الذين استقدمهم من المدن المجاورة .

١٢ - زعمائنا يتساوون فيما بينهم ويتقدم الجيش إلى
المدينة .

١٣ - القادة يأخذون مواضعهم حول أنطاكية في أماكن
استراتيجية ويسدون منافذ المدينة فيسيطر
الخوف على نفوس الأهالي .

١٤ - المسيحيون يقيمون جسرا خشبيا على النهر حتى
يساعدتهم على توفير مزيد من حرية الحركة
للبحث عن العلف ، كما يقوم الأهالي بنسج
هجمات مفاجئة على معسكر كونت بولوز من
أقرب البوابات إليهم .

١٥ - الكونت يقوم بكثير من المحاولات ضد العدو
وينتهي الأمر أخيرا بسد البوابة بأكوام من
الأحجار يهيلونها أمامها .

١٦ - العدو يهاجم الجماعات التي خرجت في التماس
العلف وينسج عن ذلك قتال ضار بهلك فيه

الكثيرون من الجانبين اد يهلك بعضهم بالسيف
ويبتلع النهر غيرهم فيموتون غرقى .

١٧ - الضعف يستولى على جميع الافاليم وتتفاقم
المجاعة وتزداد سوءا ويصبح الناس فى صراع
صد الجوع ، كما تؤدى الأمطار الغزيرة الى
الرطوبة التى تعمل على انتشار العفن فى الخيام
وهو عى يهدد الجيش بالقناء .

١٨ - بوهيموند وكوت فلاندرز يخرجان فى حملة
كبيرة سعيا وراء الكلا ، كما يقوم المواطنون فى
الوقت ذاته بشن هجوم فجائى على المسكر ،
ويُسمى الصليبيون بحسارة كبرى ويكثر فيهم
الجرحي .

١٩ - الفرقة الباحثة عن الطعام تكشف العدو وتهزمه ،
ثم تعود بالغنمة والأسلاب الوفيرة .

٢٠ - مقتل « زفين » أحد أبناء ملك الدانمركين على
أيدى الاتراك قرب « فيلو ميليام » بينما كان
يفذ السير للانضمام الى الجيش .

٢١ - ناتيكيوس الوغد يترك الجيش وليس فى ننه
العودة اليه ويدعى ان ذهابه انما هو من أجل
عقد سوق يستبضعون فيها ، كما يزعم أنه ماض
الى الامبراطور ليسأله الحضور لمساعدتهم .

٢٢ - المجاعة تزداد تفشيا والطاعون المهلك يصيب
الناس فيأمرهم الأساقفة بصيام ثلاثة أيام ،

ويسرد الدوى جود فروى صحبه ساما ويعرج
الجيش بفاهته .

٢٣ - نورد بوهيموند يقترح خطة حكيه للصاء على
ما سبيه الكسافة الذين أرسلهم العدو من
الازعاج .

٢٤ - خليفة مصر يوفد رسلا من قبله الى الزعماء ويطلب
عهد معاهدة بينه وبينهم ويحاول كسب
عودهم .

هنا يبدأ

الكتاب الرابع

اجتياح الصليبيين لشمال الشام وسروعهم في حصار انطاكية

- ١ -

ببما كان نانكريد يتابع احصاء كل ارجاء فيليبيا عبر هياپ ولا وجل ، كان الجيش الرئيسي قد وصل الى مرعشي [يوم ١٣ أكتوبر ١٠٩٧] ، واذ ذاك اعتزم بلدوين رياره أخيه جود فروى ، فلما وجده قد تماثل للشفاء ثارت في نفسه نيران الغيرة من نانكريد مرة أخرى ، وأحفظه منه أن يجمع الكل على امتداح بساله الى طبق خبرها الآفاق ، ومن ثم دعا اليه أصدقاءه ، وأوصى ليهم بعزمه على معاودة القيام بمخاطرات جديدة وسألهم ان يكونوا عوناً له في تحقيق هذا الهدف . لكنهم كرهوا ان يصاحبوه في حروجه . لما سمعوه عن وقاحته المتناهية حيال نانكريد أثناء وجودهما أمام أسوار طرسوس في قيليقيا ، اعتماداً منه على كسرة أتباعه . والحق انه لم يشد أحد منهم عن الاجماع على ان مسلكه كان اذ ذاك مسلكاً منسياً ، وهو اجماع استحقه عن حق جزاء جريمته الشنعاء ، وما كان لبوهيموند ورجاله ان يتركوا ما لحق بتانكريد دون عقاب .

ونم يجد بلدوين من يقبل مرافقته في حملته هذه غير شردمة قليلين ، كما عنفه أخوه خادم الرب - تعنيفاً قاسياً على عمله هذا ، ولما أدرك بلدوين شناعة ما اقترف ، من جرم فقد أعلن بكل ملة انه

مسموع لأن يقدم لنا كريد النبيل الاعدار الواجب عما اقترفه من
اساءه في حقه .

ولما كان بلدوين قد أحط ببناء على ما أشار به غيره عليه أكر
من ان يكون خطؤه نابعا من نفعه ذاته ، ولما كان هذا المسلك
بحريص من سواء ولبس من طبعه ، فقد سامحه الجميع واسرد
ثقتهم به . والحق انه كان رجلا موصع الاطراء من كل الوجوه كما
انه لم يؤخذ عليه قط بعدئذ سماعه نزرى به كهذه الشناعة .

وكان لبلدوين صديق من اشراف الارض يدعى « باكراد » عرف
عليه في بيفيه بعد فراقه من حبس الامبراطور ، وظل عندا الرجل
يتلازم ببلدوين على الدوام في جميع رحله . ومع انه كان محاربا شديدا
الا انه كان شديد المكر . فغمر الوفاء ، وقد دأب على الالحاق على
بلدوين واعرائه بشي السبل على جمع العسكر ، ووعد بأن ينضم
هو اليه في حملة يسسها على النواحي المتاخمة التي قال انه من اليسر
اجتلالها بقوة صغيرة ، ونزل بلدوين أخيرا على الحاج « باكراد » ، وخرج
مسنندا به على رأس مائتي فارس ، وحشد غير قليل من المشاة
وزحف بهم ممما وجهه ناحية الشمال . وسرعان ما دخل اقليما
شديد الخصب والراء . أغلب أهله مسيحيون صادقون في دينهم .
أما البقية من السكان ، وهم قلة كافرة ، فكانوا أصحاب القلاع ،
وكانوا يعاملون المؤمنين الصادقين كما يحلو لهم ، كما كانوا
يخرمونهم من الاسراط في الخدمة الحربية .

وكان فلاحو الاقليم من المسيحيين الكارهين لأن يتسود عليهم
قوم من غير ملتهم ، لذلك لم يكذب بلدوين يدخل تلك الناحية حتى
أصلحوه الأماكُن الحصينة ، وما عبرت أيام قلائل على ذلك الأمر حتى
كان بلدوين قد ملك من الناحية أغلبها ، بالغا في ذلك نهر الفرات

العظيم ، وصار اسمه وحده كافيا لبب الرعب في ذلك الافلح
وما حوله ، وبلغ الخوف في نفوس الاعداء مه حدا غادروا معه قلاعهم
من تلقاء أنفسهم ، وهاموا على وجوههم ، على الرغم من انه لم يرسل
رجلا واحدا من رجاله لقتالهم .

وكان مجرد حضور بلدوين قد بب الشجاعة والقة في
لوب المخلصين الدين رحبوا به ، وتمت كلمات النبي (١) : « كبف
يطرد واحد ألعا ، ويهزم اثنان ربوة » .

لم يكن العامة وحدهم هم الدين يعلقوا ببلدوين ، بل حاله
ايضامراء تلك النواحي المسيحيون وأخلصوا الية في مصادفته ،
وآزروه فما يعمله ، وامدوه بالجنء ، وبدلوا له الطاعة الصادقة .

- ٢ -

على أنه لم تمض بضعه أيام حتى كان اسم هذا الرجل العظيم
يجرى على كل لسان ، وحتى كانت أعماله الجليلة مسهورة في كل
مكان ، واستساع خبرها في كل الولايات المجاورة ، وراح الجميع
يسون على بطولته ، ويمتدحون احلاصه ، ويشيدون بسجاعته ، وملأ
صته الافاق ، فلم يبق أحد من أهل الرها الا وقد سمع به ، وسرعان
ما راحت المدينة ننحدث بأن قائءا باسلا من الجيش الصليبي ، قادر
على تحريرهم تماما من رق العبودية وردهم الى الحرية ، ونرتب على
ذلك أن جاءه وفادة ممن كان بيدهم أمر حراسة المدينة وكانوا من
أصحاب النفوذ فيها ، يدعونه دعوة صادقة - بالكلمه المنظوفة
والمكموبة - أن يأتي اليهم .

(١) تسمية ، ٣٢ ، ٣٠ .

وأوديسا هي إحدى مدن العراق الشهيرة أيضا باسم الرها وهي المدينة التي أرسل إليها نوبيب الكبير ولده نوبيب الساب .
ليطلب من مربيه « جايلوس » عشرة مكابيل من العصا كان الأب قد
اعاره إياها وهو طفل .

وكان أهالي الرها قد اعتنقوا المذهب المعلق بالحلل المسمى
على يد الرسول « تاديوس » ، وذلك في أعقاب أسبوع الآلام ، والحق
أنهم كانوا من كل النواحي أهلا لما ينهق مع ما بسر به ذلك الرسول
العظيم وبرساله محلصا إلى كنيها إلى ملكهم « أبجار » ، وعدا
ما نطالع في الفصل الأول من التاريخ الكنسي الذي كتبه يوسيبوس
القيصري ، وقد ظل القوم محلصين في مسكنهم بهذه العقيدة منذ
إيمانهم بها لأول مرة في زمن الرسل ، ثم قدر لهم أن يعرفوا بحث بر
حصوم ملهم الذين أرغموهم على دفع الضرائب والاناوات سنويا ،
كما اغضبوا منهم عبوة كل ما في أيديهم من بساطين الكروم
والمزارع ، فلم يعد أحد يجروء على العيش داخل المدينة سوى من ملأ
الإيمان قلبه ، فكانت مدينة الرها - دون غيرها من جميع مدن
الناحية - هي التي احتفظت بحريتها الأصيلة ولم تلونها الجاهلية .
ومع أن العدو كان قد استولى منذ أمد بعيد على جميع النواحي التي
حولها إلا أنها ظلت بمنأى عن الحصور له ، ولم تأذن لأي صاحب
عقيدة أخرى أن يعيش في رحابها .

ولقد كابد أهل الرها الأمرين من أولئك الذين يعبسون في
المدن والقلاع المجاورة لهم ، الذين لم يكونوا يأذنون لمواطني الرها .
بمغادرتها أو القيام بعمل خارجها .

كانت أمور المدينة بيد حاكم من بلاد الإغريق ، أرسله ليدبر
شئوننا ويتولى الأمر فيها ، ومنذ أن أصبحت البلاد كلها تابعة
لامبراطور القسطنطينية ، وكان هذا الوالي شخشا طاعنا في السن .

واهن العوى ، ليس له من صلبه ولد ولا بنت ، ولما كان الترك قد وصلوا الى هناك قبل انتهاء فترة حكمه فقد اضطرنهم الضرورة لابقائه حيث هو ، فظلت له الحكومة فى البلد ، وربما كان ذلك راجعا اما لعجزه عن الرجوع الى بلده ، أو لأن الناس لم يرغبوه على التخلي عن السلطة ، ومن ثم كان بلا نفع ولا جدوى ، عاجزا عن حمايه رعيه من الضرر ينزل بهم ، أو دفع الشر عنهم أو يخفيف ما يلقيه من الصيق .

ولقد وفد على بلدوين - كما قلنا - مبعوثون من قبل المواطنين وبرضاء هذا الحاكم يلتمسون منه القدوم عليهم وتخفيف مصائبهم .

فلما اسمح بلدوين الى الناس العامة والخاصة ، اجمع عمره على استجابة رجائهم بعد أن شاور أصدفائه فى هذا الأمر ، فاعد العدة اذ داك للسير اليهم ، وخرج غير مستصحب معه سوى ثمانين فارسا ، عبر بهم نهر الفرات ، ومخلعا بعية أباعه وراه للقيام بحراسة القلاع والمدن الواقعة على ذلك الجانب من النهر ، وللمحافظة على الاملاك التى منحها الرب له ، فلما علم الاتراك الذين يعيسون على الجانب البعيد من النهر بخبر سيره اليهم نصبوا له الكمائن فى طريقه الذى كانت به احدى المدن الحصينة وعليها وال أرمى . فانحاز اليها بلدوين تجنبيا للكمائن التى رصدوها له فى الطريق فلما بلغها استقبله حاكمها استقبالا كريما وأحسن استضافته ، فاقام بها يومين لم يجرؤ خلالها على السير فلما ، مما سرب الملل الى نفوس الترك الذين كانوا قد اعدوا له كميناً ، وضاقوا ذراعاً من طول انتظارهم اياه ، فرفعوا بارقهم وظهروا فجأة فى حشد كبير قوى أمام الناحية التى هو فيها وراحوا يسوقون أمامهم قطعان الماشية من المراعى المجاورة ، ولما لم يكن المسيحيون مكافئين لخصومهم فى البأس ولا فى العدد فانهم لم يخطأوا بالخروج اليهم بل أقاموا فى القلعة حيث هم ، حتى اذا كان اليوم الثالث رحل الأتراك .

حينذاك تابع سيره المتقطع الى مدينة الرها حيب اسقنله
حاكمها بالعظيم عند وصوله اليها ، وساركة الرحيب به جميع من
فيها ، كما خف لاسقباله رجال الدين والناس عامة وقد ساروا امامه
مسدين الاهازيج والراسل الدية على وقع الدفوف ودق الطبول .

- ٣ -

على أن الحاكم الذى كان السبب فى استدعاء بلدوين ، سرعان
ما سمر بعصه الغيرة بنهس قلبه منه ، فراح يستعرض فيما بينه
وبين نفسه ، ما أظهره الناس من الحفاوة والرحيب بهذا القائد
عند وصوله ، وتمنى لو نقض ما أبرمه معه من اتفاق كان يتضمن
- حين وجه الدعوة اليه - أن يناصفه طول حياته كل ما تملكه المدينة
من البضائع والضرائب وجميع دخلها من الاتاوات ، ثم يؤول كل
شيء . بعد ذلك الى بلدوين .

أما الآن فقد رعب الحاكم فى تقديم عرض مخالف لهذا العرس
يلخص فى ان يئذل بلدوين المساعدة للمدينة ولأهلها ضد استبداد
الترك ، وأن يدفع عنها شرهم ، على أن يعوضه الحاكم ذاته مقابل
ذلك بعويضا ماليا سنويا مجزيا مسرفا ، حسبما يراهى له كرحل
عادل ، لكن بلدوين رفض هذا العرض وازدراه لأنه عَرَضَ ينزله منزله
الجندى المرتزق ، الذى يتناول أحرا لقاء خدماته ، لذلك أخذ يعد
العدة للعودة من حسب جاء ، فلما عرف الأهالى بعزمه على الرحيل ،
بادورا بالذهاب الى الحاكم وأصروا على الا يأذن بأى حال من الأحوال
برحيل زعم جليل القدر كهذا الزعيم عنهم ، فهو رجل لاغناء لهم
عنه لتحقيق حريتهم ، وطالبوه أن يضم بلدوين اليه وفقا لسروط

الانفاق ، حتى يعم هو والمدينة كلها بالسلام الذى هو عايه
ما يتسدون .

واراء هذه المطالب المجمع عليها- من عامه الناس وخاصيم .
وازاء المحبة العميقة الى- بها بلدوين فى هوسهم شعر الحاكم بمدى
الخطر الذى يهدده ان لم يستجب لرجائهم هذا ، ومن ثم رصخ لهم
على مضض وأجابهم الى كل ما طلبوه منه ، وكان ذلك على كره منه ،
وزاد على ذلك فعمد الى تحسين مسلكه السابق بأن بنى بلدوين فى
حصرة أهل البلد ، واعلن فى احتفال مهيب يلاءم مع جلال الحدث
بأنه يأذن له أن ياصعه كل شئ فى حياته فان ما كان هو الحاكم
من بعده ، فعربلت الفرحة فى قلوب الناس أجمعين لانهم كانوا يرون
أن بلدوين هو مفقود آمالهم فى النجاة ، وأخذوا منذ هذه اللحظة فى
الاقدام على كل عمل يطلب الجراءة ، واطمئنانا منهم الى حمايه سيدهم
الجديد لهم ، ولما راحوا يسترجعون ما نالهم من وصب على يد حاكمهم
فقد شرعوا يخططون للانتقام منه ، متى يسمح الزمان والمكان بذلك ،
وهذا مما اضح من مجرى الاحداث .

- ٤ -

وكانت تقع على مقربة من الرها مدينة سميساط الموغلة فى
القدم والشهيرة باستحكاماتها الحصينة ، يحكمها تركى كافر اسمه
بلدوك ، وهو محارب مقدم ، ولكنه محادع لثيم ، وقد ابرل
كثيرا من المصائب بأهل الرها ، فضاغف عليهم الخراج والصرائب
التي فرضها على مزارعهم ، وأثقل كاهلهم بما كلفهم به من الأعمال .
وجرت عادته على أخذ أطفالهم رهائن لديه ، ضمانا للوفاء بهذه

الامور ، وكان هؤلاء الرهائن يرفعون بحسب ظروف بالعه العسوة على العمل في خدمته كرفيق يحملون الطين والآجر ، ومن ثم بعد ركع كافة السكان عند قدمي بلودين بعيون باكية يستعطونه أن يعمل على حمايتهم من ظلم الطاغية ، وأن يعيد اليهم أبائهم الذين في جيسه فأصعق بلودين باهتمام الى أول رجاء لسعبه ، أملا منه في اكساب ودهم ، فدعاهم جميعا اليه ، ورودهم بالسلاح ، وخرج بطائفة منهم راحا على سيمساط .

وظل بلودين بضعه أيام يراوح المدينة ويعاديها بالهجمات المسالية ، لكنه صادف معاومه شرسية من جانب من فيها من الرك ، به منهم في استحكاماتها العوية ، وسرعان ما أدرك بلودين أنه غير مدرك منها أربه ولا بالغ منها غاية ، فانقلب راجعا الى الرها ، باركا وراءه على مقربة من سيمساط وفي مكان حصين ملائم — جماعه من الغرسان ، أمرهم بمداومة الاغارة عليها ، وألا يذيعوا أهلها طعم الراحة .

سرعان ما تبين لمواطني الرها ما عليه بلودين من النشاط . وما يلقاه من النجاح في كل ما ينهض به . وأدركوا ظلم الاجراء الذي حاف بمحرر المدينة وبمرسى دعائم السلام بها ، حين ساووه برجل لا انتفاع منه أبدا للمدينة ، وأيعنوا أن بلودين هذا أمين بأن يملك كل شيء ، وان ينخلص مما لا يفتق وهواه ، ومن ثم استدعوا واحدا من أشرافيهم يدعى مسطنطين ، وكان واسع النفوذ وصاحب عدة فلاح شديدة المنعة ، واقعة على جبل قريب منهم واقترحوا باجماع منهم أن يفتكوا بحاكمهم ، ويحلوا بلودين مكانه ، ليكون وحده صاحب الأمر والنهي ، وقد دعاهم الى ذلك ما كانوا يضمرونه لحاكمهم من كراهية هو أهل لها ، فقد قيل انه سلبهم ما عندهم من الذهب والفضة وعبر ذلك من كل غال وثمين ، وظلمهم ظلما فاحسا ، وكان

أدأ ما حاول أحد مقاومه آثار عداوه الترك صدهم بما يصلهم به
من الرشاوى ، حتى يصبح الرجل العيس منهم لا يحاف فحسب
قطع كرومه واضساد حقوله ومزروعاه وسلب قطعاه واعنامه ، بل
أن حياته دأنها يصبح فى خطر .

- ٥ -

أدرك مواطنو الرها الدين كاتب فعال حاكمهم السريره مائله
على الدوام فى ادعائهم أن قد واسهم العرصه ليل حريهم المنسوده
مدد رمس طويل على يد هذا الصيف ، ومن ثم فأنهم - وفقا للخطط
التي تم اتفاقهم عليها - اسرعوا لحمل السلاح وهاجموا البرج الذى
استحده حاكمهم مسعرا له هجوما عنيفا محاولين هدمه بعزم لا يسى ،
فاستد خوف الوالى على حياته بسبب عصب الأهالى وسخطهم الذى
هو أصل له والذى له ما يبرره ، فاستدعى اليه بلدوين ، وسر امامه
كل الاموال ، ونوسل اليه أن يكون واسطه له عند الناس .

وعلى الرغم من أن بلدوين سعى سعيا صادقا الى حمايه الحاكم ،
وصرف كل أدى يتزل به على أيدي المواطنين ، ورغم أنه بدل فصارى
حيده لنبهم عما اعزموه الا أنه سرعان ما نبين له فسل محاولاته
ودهابها أدراج الرياح ، لأن غضبهم على واليهم كان يرداد عفا وحده
سيئا بعد سىء ، وحينئذ انكفأ بلدوين الى الحاكم . ومضاه الصبحه
أن يتخذ من الاجراءات ما شاء لتأمين حياته وسلامها ، فلما أعيب
الحاكم كل السبل فى التماس علاج للأمر تعلق بعجل دلاه من احدى
التوافذ ببده أنه هلك قبل أن يبلغ الأرض ، اذ ساوئله ألف سهم
من سهام القوم الذين سحبهوه الى القصر جثمانا هامدا وقطعوا رأسه .
لكن ذلك كله لم يسف لهم غليلا .

فلما كان اليوم السالى نصبوا بلدوين حاكما عليهم رغم
اعتراضاته ، وقطعوا له يمين الولاء تم طلعوا به فى موكب بهى مهيب
الى قلعة المدينة ، وأعطوه كل ما اكسره واليهم السابق طوال سببي
عدة من الأموال والرواث الكبيره ، ومن ثم عاد الهدوء يرفرف على
المدينة .

ولما رأى « بلدوك » الذى كان كما فلما حاكم سميساط -
نجاح بلدوين نجاحا لا جدال فيه ، وأنه محصع كل الأقاليم ، فقد
عرض عليه أن يبيعه مدينته بعشره آلاف قطعة ذهبية ، واد كان
بلدوين يدرك أن أخذ سميساط بالقوة ليس بالأمر اليسير فحصل
بمحسنتها ، فقد دفع بعد مداولات طويلة - المبلغ الصخم الذى طلبه
صاحبها ، وتسلم البلدة ، واسترد رهائن الرها ، مما زاد في عيده
فى العيون زيادة كبيرة .

ولما قدر له انجاز هذه المأثره مند اللحظة الأولى من حكمه .
فقد اكسب حب أهالى الرها العظيم ، الذين اعنبروه مند هذه اللحظة
واليا عليهم وآبا لهم أيضا ، وكانوا على أم أهبة لبذل أرواحهم دفاعا
عن كل ما فيه صالحه ومجده .

- ٦ -

كان يوجد فى نفس الولاية قرب الرها مدينة يقال لها «سروح»
كانت هى الأخرى عاضة بمن ليسوا على الملة ، وعليها نائب تركي
اسمه « بلاس » قد دأب على مضايقة الرها ، ومستنها منه البلايا
الضارة ، مما جعل بلدوين يستجيب لتوسلات الأهالى اليه ، فجمع
جيشا لغزو سروح ، حتى اذا وافى السوم الموعود زحف عليها
وحاصرها نزولا على رعية سمعه ، وضرب أولا معسكره حولها ووضع

آلاه على اكمل صوره واحس هنئه . سرخ فى مهاجمتها فى عصف
ب الحوف فى بعوس أهلها حين رأوا عزمه المطبق على تحقيق هدفه ،
فى الوقت الذى كانوا يسكنون فيه فى مبلغ قوتهم الدايه فأبطلوا أن
يسلموه المدييه ان صمم لهم حياتهم وسلامهم ، فلما وافق على هذه
السروط أسلموه المكان فأقام من رجاله جماعة رابطط بالمدييه لحمايتها .
وجعل العناده فيهم لواحد من الدين ساركوا فى المفاوضات ، وفرص
على أهل سروج جريه سنويه ، ثم رجع الى الرها موحا بالفخر .
ولقد أدى احتلال الصليبيين لسروج الى حريه الاتصال بين أنطاكيه
والرها ، اذ كان وقوعها فى منتصف الطريق بين الرها والعراق
يعسر عقبه كأداء أمام الذين يودون الغدو والرواح بينهما .

والآن وقد قدمنا هذه البيانات عن عمل بلدوين فيها بنا نعود
الى قصه الجيش [الصليبيى] الاصلى .

- ٧ -

بيما كان بلدوين مسعلا اسعلا كبيرا فى اقليم الرها فبما
وراء الفرات ، كان الجيش الرئيسى قد وصل الى مرعس ، بعد أن
اجتاز - كما قلنا - جبالا شديده الانحدار ، وأودية متعرجه ، وكان
سكان هذه المدييه - الا القليل منهم - نصارى ، وكاتب فلعها فى
يد الترك الذين يحكمون كمقا شاءوا فى الأهالى ، ولم يكذ الترك
يعلمون أن جيشا أخذ فى الاقتراب منهم حتى فروا خفة وفى دعر
شديد ، تاركين البلد كله فى قبضة المؤمنين .

ولما بلغ الجيش الخارج فى سبيل الرب هذا المكان ، عسكر
أمام أسوار المدييه فى المراعى الخضراء ، وصدرت الأوامر الى المعسكر

ان يجنبوا العنف مع اهل البلد ، كما اتعد في عدا المكان سوى حافله . ثم جاء الى الصليبى رهن من باب اهل البلد ، يجبروهم أن فى يد الترك مدينه أخرى فى ذلك الاقليم يسمى «أرياح» . ونع فى انهم اكر حصبا ويعنص بالعم الوفيره ، فاعى الرأى على ان يحرح فى الحال روبرت كوت فلاندرز اليها على رأس ألف فارس عليهم ررد الحديد ، وصحبهم جماعة من الاشراف ، منهم روبرت دى رويرير ، وجوسيلون س كويون كوب مونساح ، وما كادوا يبلعون تلك الساجه حتى سرع روبرت فى اعداد رسيات الحصار ، فعادر الترك المدينه وارندوا الى القلعه لتقنهم فى منعها .

وما كاد الارمن وغيرهم من المؤمنين الصادقين السارلي ارياح يعلمون أن هؤلاء المحاربين - بأسلحتهم البرافه - قد جاءوا من الجبس الذى طال انتظارهم اياه وسوفوا اليه ، حتى انعس الامل بالحركه فى صدورهم فهبوا الى أسلحتهم وانقلبوا على الترك الذين احلوهما رما طويلا فرصوا عليهم خلاله حكمهم العاسى ، وأعملوا فيهم العمل دون راح ، فادعين برؤوسهم فيما وراء الأسوار ، كما مسحوا الابواب على مصاريعها ، ودعوا فى احلاص دبنى القوم الواقفين خارجها الى الدحول ، وسألوهما أن يصربرا مخماتهم بها ، أصف الى ذلك أنهم أوفوا بسروط الصافه ، وفوروا لهؤلاء المحاربين وجادهم على السواء ما يحاحونه .



وتعرف ارياح أيضا باسم « ساليسيس » وهى مثل مرعش السى أشرنا اليها من قبل فى انها تمثل احدى المدن الاسقفه التابعة لكرسى بطركه أنطاكية التى تبعد عنها خمسة عسر ميلا .

ولقد انتشر نبأ هذا الحادث فى كل مكان فحرك ساكن اهل أنطاكية الذين تدافعوا متحمسين لتسليح أنفسهم ، واستعدوا للفتح

بالعراة الذين جعلوا من أنفسهم سادة لارواح بديعهم مواطنيها ،
واد ذاك تم اساءه عسره آلاف من تجمعوا في انطاكية للدفاع عنها ،
وجيهورهم سراعاً الى مدينة أرواح ، فلما صاروا على معرفة منها أرسلوا
أمامهم ربيثة منهم قوامها ثلاثون فارساً من حملة الأسلحة الخفيفة
وراكبي جياد الحرب الخفيفة ، أما بقية الفوة فقد كسب في ناحيه
من الغابه .

وأما الطليعة التي كانت تقوم بحراسة من في الكمين ، فقد طلب
على ظهور جيادها ، روح وفتدو أمام المدينه حتى ليحسبها الراعي
أنها خرجت في طلب بعض الأسلاب والعنائم ، فيشر اد ذاك
المسجون ، ويدفعهم الطيس الى مهاجمتها دون بصر .

ولعد أدت سلاطة هذه الطليعه في عدوها ورواحها الى أن قدم
المؤمنون الذين كانوا داخل الأسوار صبرهم ، فهبوا سراعاً الى
سلاحهم ، وانطلقوا في أثر العدو دون أن يأخذوا حذرهم ، وأوعلوا
فطلعت عليهم الكمائن التي وضعها الأعداء لهم ، وخرجوا من مخابئهم
في الحال ، ووثبوا عليهم وفاموا بمحاولات يائسه لقطع طريق العودة
على الصليبيين الذين لو قدر لهم النجاح في الوصول الى المدينه
لوجدوا فيها ملجأ يفيهم من القوات الكثيرة التي كانت قادمة في
اعتابهم ، الا أن رجالها استطاعوا بعصل من الله أن يفسدوا عليهم
حلبهم ، مما مكهم من الارنداد بمن معهم سالمين .

حينذاك ادرك العدو أن الاسنيلاء على المدينه ليس بالامر الهين ،
ومن ثم شرع في حصارها ، وظل يواليها بالرمي على مدى يوم كامل
دون أن ينال منها شيئاً ، بينما قام المسيحيون الذين بداخلها في
الدفاع المجيد عنها ، ولما جاء الأخبار بامراب حسناً الرئيس
أدرك العدو ما وراء اسسمراره في البقاء من خطر عليه وأصاخ للنصيحة
الملى ، وعاد الى انطاكية تاركاً طائفة من الجند لحراسة الجسر

الموصل بن المدينى ، وهكذا صناع الكون وأصحاخه بناسيم
المدينه التى وهبها الرب لهم ، وحافظوا عليها الى حين وصول الحرس
الرئيسى .

وفى خلال هذا الوقت مرض « جوسلون » الشاب الموهوب بن
كونون كونب موباج الذى تكلمت عنه آنفا مرضا عضالا . اودى
بحياته ، قدفن فى ذلك المكان بكل ما يلى به من مظاهر الاحرام .

- ٨ -

ما كاد الركب القادمون من أنطاكيه يعادرون أرواح عند اسلح
النهار ، حتى جاء الخبر بأن الجيش الصليبي قد أصبح على مسارف
المدينه ، وأنه قد نصب مخيمه على مفربة منها ، واصراع رعاء
الجيش للصبح فارسلوا خمسة عشر ألف فارس مدججين بالسلاح
لمساعدة من فى « أرواح » من اخوانهم الذين جاءت الأنباء بما يعاونه
من أهوال الحصار المفروضة عليهم ، وكانت الأوامر سلخص فى أنه
إذا وقع الحصار وأصبح الوصول الى المدينه أمرا ميسورا ، عاد
كونت فلاندرز وبعية الكبار الذين بصحبته الى الجيش ، بعد أن يكلوا
حراسة المكان الى حامية كافية ، كما صدرت مثل هذه التعليمات
الى نانكريد الذى كان قد رجع لتوه من قسليسيا ، بعد ان صار الاعليم
كله ملك يمه فعادوا ، وعاد جميع القادة الآخرين الذين كانوا قد
خرجوا الى نواح مختلفة حسبما أملت عليهم مصالحهم ، ولم يكن
ينقصهم سوى بلدوين الذى كان سلطانه فيما حول الرها يزداد
بمشيئة الرب قوة يوما بعد يوم ، وهكذا تجتمعت فرق الجيش المحلفة
وماسكت قواته مرة أخرى ، واذ ذاك نودى فى الجميع الا ينعصل
أحد ما عن الجنس الرئيسى الا بأمر يصدر اليه .

حينذاك نقصوا حيامهم ، وأخذوا فى الزحف على أطباكيه من أقصر الطرق الموصلة إليها ، وأعرضهم فى منتصف طريقهم بهـر أقيم عليه جسر عرف بأنه منيع الحصين ، فرغب القوم فى إزالة كل عقبة فى هذه الساحة يمكن أن تعرقل الجيش ، فقدموا أمامهم روبرت كونت نورماندى على رأس رجاله ، وكلفوه بكشف الطريق ، فان توقع أنه صعوبة أفضى بها الى الكتيبة الى حلعه ، وسرح لقادها الأمر تفصيلا ، وكان على رأس هذه الكتيبة الوجيهان الفرادى بويسيه وروجر دى بارنفيل البارعان فى استعمال السلاح ، وقد سرا أعلامهما •

ولما انفصل الكونت وأتباعه من الجيش الأصلى تقدموه حتى بلغوا الجسر المشار اليه وكان بناء حجريا شديدا الضخامة ، يقوم على كل من طرفيه برج من الحصانة من نفس الحجر الصلد ، وكان فى كل برج مائة من المحاربين الأقوياء الشجعان البارعين فى الرمي بالنشاب وحسن استعمال الأقواس ، قد وكل اليهم حماية البرجين ومنع أى أحد من الاقتراب منهما عن طريق مخاضات النهر ، كما وصل من أطاكنة سعمائة فارس رباطوا على الشاطئ البعيد ، وسيطروا على المخاضات ليحولوا - تحت أى ظرف من الظروف - بين رجالنا وبين عبور هذا النهر المسمى بهـر العاصى ، ويطلق عليه الناس اسم النهر « الفاصى » وهو ينطلق من هذا الجسر ويرل الى البحر مورا بأنطاكنة ، ويظن البعض أنه هو نهر دمشق المعروف باسم « فرقر » ، ولكن تأكد لدينا بما لا يخفى النقض خطأ أصحاب هذا القول ، ذلك أن نهرى فرقر والبانة ينبعان من حال لبنان ، وبعد أن يشقا الاقليم الذى به مدينة دمشق ويجاوزانها - ينطلقان بسرعة ناحية الشرق ، حتى لئيل للمرء أنهما ضاعا فى الصحراء •

أما نهر العاصى فعلى العكس من هذين النهرين ينبع من افلم

هليوبوليس ، المسمى أيضا ببعلبك ، ويجناز سيزر وأنطاكية حيث
يصب في البحر الأبيض المتوسط .

ولما بلغ كونت برمدى يعواته هذا الجسر بكاف على الحيلولة
بينه وبين عبوره حراس برجى الجسر ، والمدافعون الذين وقفوا على
الساطى الآخر من النهر ، وترتب على ذلك قتال شديد الصراخ في
هذه الناحية بين الفريقين ، يريد من عنده أن رجالا كانوا مسمينين
فى شق طريق لهم بالقوة وسط وابل هتان من السهام أمطرهم بها
العدو الذى راح ييسدل أقصى طاقته لمنعهم من الوصول ، ودفعهم
بعيدا عن المحاضات .

فى هذه الأثناء التى كان كل من الجانبين فيها يجهد نفسه
عاية الاجهاد من أجل عاينه كان الجيش الرئيسى يدو شيئا فشيئا ،
ذلك لأنه لما شاع أن الكونت وحرس المقدمة قد ردوا على اعمابهم
من جزاء القتال عند الجسر ، يادر العسكر [الصليبيى] الى الاسراع
لمساعدة اخوانهم المحاربين ، فلما رأوا ارداد العدو راودهم الأمل
فى فتح الطريق ، عسى أن يتمكن الجيش من العبور من غير تأخير .

ولما تكامل وصول جميع الكائب دعب الطبول ، وودى
بحمل السلاح ، فاستجاب الجند للنداء بكل ما بهم من ناس ،
وسيطروا على الجسر بالقوة ، وأرغموا العدو على الفرار ، أما
الصليبيون الذين لم سعهفهم الطروف بوجود موضع لهم على الجسر
يحاربون منه ، فقد أنعوا أن يظلوا فى أماكنهم بلا قتال ولكنهم
مصوا فاكسفوا المخاضة ، وعبروا الى الجانب الآخر ، ونجحوا فى
رحضة الأعداء من أماكنهم مما جعلهم لا يصادفون بعد ذلك أية
معاومة فى احتلال الضفة الاخرى من النهر ، واد بم عبور كل الجيش

بعربانه الحربية ومركبانه وما معهم من سنى صوف الماع . نصبوا معسكرهم فى مراغ فسيحه حصراء على بعد حمسه أو سته أميال من المدينه ، حتى اذا كان اليوم التالى تابعوا رحلهم فى الطريق الرئيسى الكبير الواقع بين النهر والجبال . فلما صاروا على بعد ميل واحد من اسوار المدينه نصبوا خيامهم .

- ٩ -

وأطاكه مدينه عظيمه مجيده ، نبوا المربه التاله ان لم تكن الثانيه بعد رومه دابها (سم احلاف كبير بجاه هذه المسأله) ، وهى نقف على رأس الجميع ، ولها الصداره على كل مطقة المرفق وكانت تدعى فى الأرمه العديده « دريلانا » وهما كان قد جىء بصدويا ملك يهوذا مع أبنايه فى حضرة نابخذا نصر ملك بابل الذى أمر بقتل الإباء أمام أبيهم ، ثم سملت عينا الأب دانه بعدئذ ، ولما مات الاسكندر المقدوني حلقه فى حكم جزء من هذا الافليم « انيوكس » فأحاط المدينه بأبراج على سور شديد الارتفاع ، حتى صارت المدينه بفضل « انيوكس » فى حال أحسن مما كانت عليه من قبل ، وأمر أن يسمى بأطاكه اشتقاقا من اسمه ، وانخذها عاصمه لمملكه ، وقرر أن تكون المقر الملكى له ولحفائه على مدى العصور ، وكان فى هذه المدينه أبرسيه كهويه لكبير الحوارين الذى كان أول من تبوأ وظيفة الأسقف هناك ، لأن الموقر بوفلوس أحد مواطنى أطاكه وذوى النفوذ القوى - كان قد أقام كتبسه فى بيته ، وهو الذى كتب له لوما ابجيله وأعمال الرسل ، وكان هو الآخر من أهل أطاكه كما أنه خلف بطرس الطوباني فى نفس الكتبسه . وكان تربيته السابغ فى ثيب من نولوا أسقعتها .

وقد عقد في هذه المدينة أول مجمع للمؤمنين الذين اصطُلح على سمينهم بالمسيحيين ، استضافا من كلمة المسيح . ولقد رجب هذه المدينة عن طواعية وسوى بعالم هذا الحوارى واهتدب كلها. مره واحده الى العبيدة المسيحية ، وكانت هى أول مدينة راحت يسمي بالاسم الذى كان كالعطر الطيب فاح سندها فطر جميع الأرحاء . ما قرب منها وما بعد ، ومن ثم اختير لها اسم جديد فسميت « نوبوليس » وهكذا فان المدينة التى كان يطلق عليها من قبل اسم رجل سرير كافر عادت فسميها السيد منحة طيبه هى أهل لها ، وأصبح يعرف بأنها مدينة وموطن الذى دعاها للإيمان ، لانه كان لهذه المدينة فى أيام خطتها السالفة السيطرة على كثر من الأقاليم الخاصة لها ، حتى اذا نعلم الرمن غائب جاء طاهره بره ، منعه طريق المسح ، واسبقت نفس الأساقفة .

ويقال انه كان تحت امره بطرك هذه المدينة - الجيبه الى الله - عسرون ولاية ، كان لاربع عشره منها أساقفتها وكهننتها ، أما السب الباقيات فلها أساقفتها المعروفون بالجباليق ، وكان احدهم يحصى بأى ، والآخر بهيريوبوليس أو بغداد ولكل منهم فساوسه . وبدرج كل هذه الولايات تحت اسم واحد هو المشرق الذى ورد فى تقرير مجمع القسطنطينية حب نقرأ فيه « فليكن لأساقفة المشرق اداره المشرق وحده ، ولكن شرف النقدمة لكنيسة أنطاكية حسيما هو وارد فى قوانين مجمع بيقية المقدس » .

منار مدينة انطاكية بموقعها الرائع في ولاية كوليسيريا التي هي جزء من سورية الكبرى ، وهي تمتد عبر واد فريد في بساتنه وحصب تربيته ومرارعه التي تسعى كلها في النواع بالروافد والعموات المائية ، ويقع هذا الوادي وسط جبال تنحدر ناحية المغرب كما يمد مرابه أربعين ميلا طولا ، وأما عرصه فيسراوح بين أربعة وسه اجمال حسب الساحة التي هو بها ، وتوجد في القسم العلوي منه بحيرة تكونت من تدفق المياه من الينابيع المجاورة التي تتجمع كلها هنا . كما يوجد على مسيره مثل منها النهر الذي يجري عبر الوادي ثم يحاور المدينة الى البحر .

وينبثق كذلك من البحيرة جدول صغير يصب في نفس النهر في انحداره قرب المدينة ، وعلى الرغم من شدة ارتفاع الجبال التي تكشف المدينة من جانبيها ، الا أنه يخرج منها مجرى ماء عذب يسير معرجا ، كما أن جوانبها المنحدرة حتى القمة صالحة تماما للزراعة ، ويعرف الجبل الواقع في الحبوب باسم العاصي (اورسس) كاسم النهر الذي يسقى المدينة . ويقول جيروم ان انطاكية تقع بين العاصي وبين الجبل الذي يحمل نفس الاسم وينحدر من هذا الجبل الذي يسير على طول البحر ثم يرتفع ارتفاعا شاهقا ويفرد بسمية خاصة به ذات دلالة معينة ، اذ يعرف عادة بجبل «بارليبه» ، ويظن بعض العقاب أنه هو جبل «برناسس» المكرس لباخوس وأبولو، ويبدو ان هذه الفكرة قائمة على وجود البع المعروف ببع «داسي» القريب منه ، ويرى البعض أنه هو البع القسالي المذكور في الأساطير القديمة ، والذي كان مكرسا لآلهة العون والسعر والغناء ، الكثرة الورود في كتابات الفلاسفة ، ويقال انه يتبع من الناحية التي يعرف بمدرجات بوهيموند قرب المدينة الموجودة في سفح جبل العاصي .

غير أن هذه الفكرة بعيدة جدا عن الواقع ، اذ المؤكد ان جبل برناسس يقع في اقليم بوييسيا الذي هو جزء من « ساليا » وقد وصفه «أوفيد» في القسم الأول من كتابه « ميامورفبوس » فقال بأن أرض فوكيس تفصل الحقول البوييسية عن حقول أليكا . وهي اقليم خصب عندما تجف الأرض ، ولكن حدثت أن تدفقت المياه فجاء بغزارة في ذلك الوقت البعيد ، كما يوجد هناك جبل يرتفع الى غنان السماء العالية المعروفة باسم بارناسس والتي تبدو شامخة كأنها تخترق السحاب .

ويسمى سولسوس في الفصل الحادى والأربعين من كتابه « بولى هسبور » التاريخ العام هذا الجبل بجبل كاسيوس حيث يقول « وعلى معربه من أنطاكية وفي ملاصقة سلوقيا ، يوجد جبل كاسيوس الذي يمكن أن يرى المرء من قمته قرص الشمس حتى الساعة الرابعة من الليل ، فاذا استندار المرء قليلا - حين يبدد الضوء الظلام - أمكه أن يرى على هذا الجبل الليل ويرى من الجانب الآخر النهار » .



وحى لا يقع القارىء في حيرة من كلمة سلوقيا الغامضة فيجب احباره انه توجد مدينتان بهذا الاسم أولاها هي عاصمه ايسوريا ، وبعد عن أنطاكية مسيره تزيد على خمسة أميال .

أما الأخرى مجاورة لها ، ولا تبعد احدهما عن الأخرى أكثر من عشرة أميال ، وهي تقع قرب منبع نهر العاصى ، وتسمى هذه المدينه الآن بميماء القديس سمعان ، أما النبع المذكور آنفا فيعرف بسع « دافن » أو النبع القسالى ، ويقال انه كان فى هذا المكان قديما معبد لابولو كان أقوام فى عقيدتهم الخرافية يقصدونه لسؤاله فما استغلق عليهم ادراكه ، وحدث أن استقر بها قرب

أنطاكية - فترة من الوقت - المارون جوليان بعد انفصاله من المسيح وردده عن تعاليم الدين الحق ، وكان في أثناء اعداده الحملة على الفرس يكرر من الترداد على معبد أبولو ، يسميه فيما هو قادم عليه ، ويسير ببودوريس الى هذه الحقيقة في الفصل الحادى والثلاثين من كتابه « التاريخ اللاتى » بقوله :

« لما راح جوليان يلتبس جوابا من الهيكل البييسى في دافس حول مدى النجاح المحمل لحربه ضد الفرس اذا بالكاهن يهره لأن جيمان الشهيد بايلاس كان مدفونا على مقربة من هناك واد ذاك أمر جوليان بفعله » .

وبرد الإشارة الى نفس الحداث - ولكن في تفصيل أكثر - في الكتاب العاشر من التاريخ الدينى حيث جاء فيه ان جوليان قدم دلتلا آخر على حماقته ورعونه ، حين راح يسرى أبولو في غابه دافس القريبه من البع القستالى بضاحية من ضواحي أنطاكية ، فلم يستطع الحصول على رد على سؤاله فتساءل ما الذى يعنيه هذا الصمت ، فأجابه كهنة الشيطان ان قبر الشهيد بايلاس قريب من هناك . ومن ثم فانه لا يمكن الاجابه على سؤاله .



وعلى الرغم من أن هذا التبع معروف بالتبع القستالى . الا انه يجب الا يحتلط في الأذهان بالتبع القستالى الآخر الذى يسمى أيضا بتبع بيجاسوس ، أو رافد هيبوكرين وأجانيب ، اذ ان هذا الآخر موجود في ببتونا بناء على ما يقوله سولنوس الذى يكتب قفول . « ويوجد قرب طيبة جبل هلكون وغابه كمرون ونهر اسمساس ، كنا يوجد هنا أيضا يابح اريوسا وهيبوديا وسالماس وديرسى ، وان كان أهمها جميعا ينبوع أجانيب وهيبوكرين » .

ولما كان ديموس مسدع الحروف هو أول من عر على هذه
البنابيع أناء بجواله فى المظفه بحا عن موضع يسفر فيه فان
حال السعراء القوى أدى الى ظهور إسطوريين يقول احدهما ان البيع
يدفن من حفر حصانه ، وأن السرب منه كن ملهمه للفتون » .

ويوجد فى الشمال من أنطاكيه هصبه تعرف عاده باسم « الجبل
الأسود » تكرر بها الينابيع وسقى من الروائد ، وكاتب مابره على
سكان المظفه جمة ، ممثله فى العباب والمراعى ، ويقال ان هذه
الماحيه كانت نزر فى قديم الزمان يكبر من الاديره ، بل سمر بها
فى وفنا الحاصر أماكن طاهره كثيره ، مليئه بالمحبه وهى مساكن
أولئك الدين وهبوا أنفسهم لخدمه الرب .

ويجزى وسط هذا الوادى النهر الذى يصب فى البحر . والذى
ذكرناه آنفا ، وقد سيدت المدينه على أقرب وأعمق متحدر للجبل
ناحه الجنوب بينه وبين النهر ، كما يبدأ السور من قمة المربع
ويسير على طول السفع محددا الى النهر ، وتكنف محطها أرض
ساحله الاتساع تمتد من جانب الجبل والسهل .

ويوجد وراء السور أيضا قمان ناطحات السحاب . ومسح
قلعة أنطاكيه على ذروة أعلى هاتين القمتين ، وهى بناء شديد الحصانه
يعدونه موضعا لا يمكن افتتاحه ، ويفصل هاتين القمتين بعضهما عن
بعض هو ضيقه يحذر عبرها تيار جارف منصب من الجبل ، كما
يجزى وسط المدينه هذا النهر الذى له أياد جمة على السكان ، كذلك
توجد عدة ينابيع أخرى بالمدينه أهمها بالباب السرى المعروف بباب

القدس يولس ، أما بيع دافى الذى يبعد حوالى ثلاثة أو اربعة أميال ،
فقد تم حفره عن طريق افامه مجرى فوق القاطر ونسوا فاحالوا
حتى جعلوا الماء يندفق الى أماكن مختلفة كبره فى آواب معه .

ويحيط بالمدينه من أعاليها ومنحدراتها وسهلها أسوار من الحجر
الأصم ، السديد الضحامة ، العظيم الارهاع ، ويطل على كل عدا
كبر من الأبراج التى أعدت للدفاع أحسن اعداد . وهى على ابعاد
مساويه بعضها من بعض . ويجرى النهر الى الغرب فى الناحية
السفلى التى هى أحدث جزء من المدينه ، ويقرب مجراه كل الاضراب
من الأسوار ومن الجبل الذى يصبر كسلة لسور المدينه وبوابها
ويقول بعض البقات ان المدينه بنند مسافة مبليل طولاً ، ويقول آرهـ
بل ثلاثة ، وهى بعد عن البحر مسافة اتنى عشر ميلاً .

- ١١ -

كان حاكم هذه المدينه الذائع الصيب رجلاً تركى الأصل
يدعى ياغى سيات ، وهو من انباغ عاهل عظيم سديد الباس اسمه
ملكساه هو ساطان فارس الذى أسرا اليه من قبل ، وقد استطاع
الأمير [ملكساه] بقوة السلاح أن يضم الى ساطانه جميع هذه
الولايات وأن يدخلها بحب حكمه ، ثم رأى أخيراً أن يعود الى وطنه
بعد ان دانت له كل السعوب والقبائل . فعاد ووزع فوجاه بين أولاد
أخيه وآساعه . اعداداً منه أنهم كلما ذكروا مآثره الحمه عليهم
اسند ارتباطهم به واخلاصهم له ، فكانت نقيصة وما جاورها من
الولايات . من نصيب قلع ارسلان فى هذا التقسيم ، كما أسرا
آنفسا .

أما دمسقي وما يبيعها من المدس التي تدفع لها الجزية وكذلك
الافليم الذي هو حولها ، فكانت من نصيب ابن أخ آخر له اسمه
دقاق .

وحلج ملكساه على هذين العاهلين مربية السلطنة ولقبها ، ولما
كانت مملكه فلح ارسلان وافعة على حدود اليونان فقد كانت في
نزاع دائم مع امبراطوريه القسطنطينية .

أما دقاق - فكان بسبب ماملك - في حروب لا يحمد أوارها
مع المصريين ، والذي راح [ملك شاه] ينظر اليهم بعين الريبة الكبره
لزيادة المطرده في قوتهم وبطشهم .

أما البايح الآخر من اتباع السلطان واسمه آي سنغر - وهو
والد [عماد الدين] زنكي ، وجد نور الدين [محمود] فكانت حلب
السهيبة من نصيبه .

وأعدق ملكساه فيض كرمه أيضا على باغي سيان الذي سلكم
الآن عنه ، فوصله بمثل ما وصل به هدين الرجلين ، اذ اقطعه أنطاكيه
مع افليم صغير ، وقد حملة على هذا ما كان من احتلال خليفه مصر
كل البلاد حتى اللادقية بالسام .

ولما علم ياغي سيان أن جيشا كبيرا بقيادة قادة صليبيين في
طريقه اليه أنفذ كيرا من الرسائل - شفاها وكتابة - الى جميع
أمراء الشرق كله ، يطلب منهم مساعدته ، لاسبما خليفه بغداد
وسلطان فارس العظيم ، وهو أقوى الحكام جميعا الذين استجابوا
لطلبه في يسر ، ولبوا نداءه على عجل ، وكان الحامل لهم على ذلك
ما ترامى الى أسماعهم منذ وقت بعيد من خبر تقدمنا ، وما يحمله

هذا الزحف من خطر حسبهم عليهم . ولما كان الب ارسلان يعام بحربه وكشاهد عيان بما عليه هذه الجيوش الصليبية من كره العدد والبطولة التي لا تفهر ، فقد بعث الى هذين العاهلين بتفصيل دقبي عن هذه الجيوش .

وقد أرتب في هذين السلطانين التماسانه الحاره ودموعه المسكوبة ، فاستجابا له بارسال الجنده اليه ، وكان الساع لأحدهما على هذه الجدة رعبه في الكفر عن نصيره . وأما الآخر فكانت استجابته ناجمه عن رعبه في ضمان سلامه بلده من عزواب الصليبيين ، وحماية نفسه في الوقت ذاته من بطشهم .

وبعهد الملكان بارسال العواب المطلوبه اليه ومنه بالمساعدة المنشودة ، وقد برهنت النتيجة فيما بعد على انها صدقا فيما عاهدا ، وأوفيا بما وعدا .

كان القلق الشديد من مجيء الصليبيين مسببا بباغي سيات . ومن ثم دأب على حشد العسكر من الولايات والمدن المجاورة ، واد كان يوقع الحصار بين لحظه وأخرى فانه لم يدحر وسعا في جمع الكبر من الميرة والسلاح ، وفي تشجيع أهل المدن وحهم على جلب كل ما يحاجه صنع الآلات من الحديد والصلب وغير ذلك من المواد الأخرى التي لا غنى عنها في العادة في مثل هذه الظروف ، كما ان الأهالي أنفسهم كانوا منحمسين غاية الحماسة في الحفاظ على سلامة المدينة وأمنها ، وبذلوا كل ما في طاقهم لجلب كل ما يعينهم ان هم حوصروا ، فلم يدعوا ناحية من تواحى الاقليم الا جابوها ونهبوا كل ما حاورهم ، وعادوا محملين بالحيوب والنيبذ والزيب وشتى مستلزمات الحياة ، وساقوا أمامهم قطعان الماسية والأعنام ، حتى اميلات المدينة بكل ما هو ضروري من الميرة ، ومن ثم استطاعوا

- بعد بطرهم ويجهدهم الكثرة - أن يدعموا مركزهم أمام صراوة
الجنس الصليبي القادم عليهم .

أما البلاد التي مر بها الجنس الصليبي فقد هرب منها إلى
أنطاكية كيرون من ذوى المكانه والبأس ، فرارا من وجه فؤادنا
دون أن يدعوهم أحد لذلك ، وأما فعلوا هذا خوفا على سلامتهم
ورأوا في تحصينات مدينة أنطاكية وقونها ما يستحيل معه
اصحابها . ومن ثم زاد عدد سكانها ريادة عطى بهؤلاء الواديين ،
ويقال انه كان من بين الأهالي وجمعات المرتزقة حوالى سبعة أو
سبعة آلاف فارس . وأكثر من خمسة عشر ألف أو عشرين ألفا
من المساه المدحجين بالسلاح ناهيا للحرب .

- ١٢ -

حين رأى رجالنا أنهم قد صاروا فاب فوسس أو أدبى من
أنطاكية ، اجمعوا للساور فيما بينهم ، واقتراح بعض الرعماء
- نظرا لغرب دحول الشتاء - أن يؤحوا حصار المدينة حتى يتطاع
الربيع وبرروا هذا البأحيل بأنه سيكون من أصعب الأمور بجمع
العسكر قبل ذلك الوقت ، نظرا لتسبب الجند فى الوقت لحالى
فى المدن والقلاع المختلطة ، وزادوا على ذلك أنه يجب عليهم انتظار
ما اعززه امبراطور العسطنطينية من ارسال فرقة كبيرة من فؤاده ،
كما انه كان فى الطريق اليهم كتائب جديدة قادمة من البلاد الواقعة
فيما وراء الألب ، وأن الحكمة نعضبهم انتظار وصول هذه الجيوش
الى سوف يؤدى الى ريادة العسكر ريادة هائلة يمكنهم - كما
قالوا - من تحقيق هدفهم المنشود فى يسر أكثر .

أما في العبرة التي لا تبارس فيها هذه القواف الحرب فانه
 يمكن تسميتها أقساما نذهب كل واحد منها بمهردء دون الآخر
 لفناء النساء فيما حاوره من المناطق التي هي أدنى تعرضا لايحوم ،
 حتى اذا ما وافى الربيع عاد الجيش وانضم بعضه الى بعض مرة
 أخرى ، ويكون رجاله قد اسردوا ساطهم ، وناعبوا للقيام بالأعمال
 التي لابد لهم من القيام بها ، كما أن الحول سيكون أوفر فوه بسبب
 العلف وما نعمت به من الراحة أثناء فصل الشتاء .

على أن عبرهم رأوا أن هناك ما هو أحدث من ذلك . إلا رهو
 الإحداق بالمدينة في الحال في حركته معاشته وعلى غير دوفع منها .
 وقالوا انه اذا أنيج للأهالي فترة من التقاط الأنفاس فسوف يؤمر
 لهم ووب أطول بصرفون فيه لدعم وسائل دفاعهم . وجمع الكنائس
 الكبيرة التي استدعوها لمعونتهم .

ولقد تغلب في هذا الاجتماع اليام رأى الفريق الثائل بوحرب
 انباده الى حصار المدينة وأن الخطر في ارجاء الفال . وأن القواف
 التي يرسل للاستكشاف لا ينبغي أن يفضمل بعضها عن بعض ،
 وذلكما انتب الأراء جميعا على الرجوع على المدينة في حالات
 الحصار في أنو واللحظة .

ومن ثم فقد فوصوا حياتهم بوم ١٨ أكتوبر ورحلوا سطر
 مدينة أبطاكية حتى صاروا أمامها ، وعلى الرغم مما قبل من أن
 القوات الصليبية التي كانت بحسن استعمال السب كانت بباغ
 ثلاثة آلاف شخص ليس بينهم امرأة ولا طفل . إلا أنه كان من
 المستحيل على الجيش أن يحيط بالمدينة احاطه كامله . ذلك لأنه
 بالإضافة الى قمم الجبال التي قلنا انها تقع في منطقة الأسوار والتي
 لم يذل أية محاولة لطويقها ، فان هذا الجزء من المدينة ممد من

صفيح الجبل الى النهر - وهو جزء أكر انبساطا - لم يكن فى
الامكان الاحداث به بحصار مستمر .

ولقد صحب وصول الجيش الصليبي والعمل فى افامه
المعسكر كبير من الجلبة ، وكان يخيل للسامع أن نفخ الأبواق ،
وصهيل الخيل ، ومقعة السلاح ، وهى مخططة بصحاحات الرجال ،
قد بلغت عنان السماء ، ومع ذلك فقد ساد المدينة صمت مطبق
خلال ذلك اليوم بطوله والأبام النالبة لوصول جيشها ، ولم يردد
فيها صوت أو سماع نامة من أى نوع ، حتى لقد كان يخيل للمرء
أن المدينة خلت تماما من كل مدافع عنها ، رغم أنه كان يقوم على
حراستها أعداد كبيرة من الحرس ، ولديها الكثير من الميرة والمثونة .

- ١٣ -

كان فى هذا القسم من أبطاكيه - الواقع فى السهل - خمس
بوابات ، واحدة منها فى الموضع الأعلى من الناحية الشرقية - وتعرف
الآن ببوابة العديس بولس ، نسبة الى أمه يوجد فى المنحدر
الذى فى أعلاها دير مكرس للحوارى المسمى بهذا الاسم ، كما يوجد
أمامها مباشرة بوابة أخرى تعرف بالبوابة الغربية ويفصلها عنها
منطقة تمتد بطول المدينة ، وهى المعروفة الآن ببوابة العديس جورج
والتي هى على مقربة من موضع كنيسة هذا الشهيد .

أما من الجانب الشمالى فكانت هناك ثلاثة أبواب تطل جميعها
على النهر ، وتعرف العليا منها بباب الكلب ، ويوجد أمامها مباشرة
جسر يجتاز المشى ويكمل السور ، وأما الثانى فيعرف الآن بباب

الدوق ويبعدان قدر ميل عن النهر . ويطلق على الباب اسم باب الجسر اذ يوجد هنا الجسر الذي يعلو النهر ، وذلك لأن مياه النهر تلطم الأسوار ولا ترد عن المدينة فيما بين بوابة الدوق المسار إليها حالا الواقعة في المصنف ، وبين آخر بوابة في هذا الجباب .

ولما كان من المستحيل على الجيش الوصول الى هذه البوابة أو بوابة العديس جورج الا عبر النهر فلم يصرب الحصار على هذين البابين وان أحيط بالأبواب الأخر العلوية ، فقام بوهيموند ومن انضموا الى معسكره منذ البداية بمحاصرة أعلى هذه البوابات .

وكان حوله - وان كان اسفل منه - معسكر روبرت دوق نورماندى . وروبرت كوت فلاندرز ، وسببى كوت بلوا ، وهيج العظيم ، وقد استمر هؤلاء القادة بمن معهم من جماعاتهم النورماندية والفرنجية والبريطانية في حصار الناحية الممتدة من معسكر بوهيموند الى باب الكلب الذى أحرق به ريموند كوت تولى وأسقف بوى وغيرهما من النبلاء الذين ساروا تحت قيادتهم مع حشد كبير من الجاسكوس والبروفنساليين والبرجنديين ، وكانت جموعهم تشغل كافة المنطقة حتى البوابة التاسعة .

وقد أقام الدوق حودفروى معسكره في تلك الناحية الأخيرة ، وكان معه أخوه أسباس ، وبلدوين دى هيمولت وريارد دى نول . وكونون دى موناج ، وكلهم من الكونتات والمحاربين ذوى الشهرة المدوية ، بالإضافة الى غيرهم من النبلاء الذين انخرطوا تحت رايه الدوق منذ البداية ، فنفغلو بمن معهم من عساكرهم اللوباريجيين والفرزيين والسوابيين والسكون والفرنجة والبافارين كل ما بقى من الناحية تقريبا حتى باب الجسر ، وقد وضعت هذه القوات على هيئة مثل ، تمتد رؤوسه بين المدينة وبين النهر الذى يفصل

أسوارها ، وبين معسكر العواد الآخرين ، وكاتب يوجد فى هذه
الناخبة الأخراج التى أحسبها خبشا عن آخرها وأخذ مما حصل
عالمه منها ماربس بحمه ويحمى حمله .



كان أهل البلد يطنعون من خلال الفحات الموحدة فى الأبراج
والاسوار الى المعسكر ، فأدهشهم بربق أسلحتهم الذى يخطف الأنظار
وأدهلهم نشاطهم فى عملهم بساطا لا يعرف الكلل ، وطريقة اسكانهم
من معهم ، وبربيتهم خيام المعسكر ، كما املأت نفوسهم خوفا مما
ساهدوه من كثرة الجنود وقوتهم ، ولما راحوا بفقاربون حاضرم
بماصتهم ، والاختار الذى يهددهم حاليا بما كانوا يعمون به من
استنباب الأمن نملكهم الفزع على نسائهم وأولادهم ويونهم التى
درحوا فيها ، وعلى حريتهم وهى أعلى ما يملكه الانسان ، ورأوا أن
من اخنطفهم الموت أسعد حظا منهم لأنهم لم يكابدوا الخطر لأشديد
الذى يكابدونه هم من وجودهم فى عمره هذه المصائب ، وهكذا باتوا
يرقبون بين يوم وآخر سقوط المدينة وهلاك أهلها ، وذلك لاعتمادهم
الحارم أن حصارا كهذا الحصار الشديد ، يصحبه مثل هذه الشدة
والرحم ، لا يمكن أن يسمر بهايه الا عن دمار المدينة وضباي
حربها .

- ١٤ -

كانت الحاجة الى حصول من فى المعسكر على العلف لخيولهم
والجزة اللازمة لأنفسهم حاملة اياهم على القيام بطلعات متعددة وراء
النهر ، وقد ذهب بهم السير فى بعضها الى مسافات قاصبة ، وكانوا

يرجعون بعد كل خروج سائمين عامين . بسبب استمرار بناء الاعالى داخل المدينة دون أن يجسروا على الجوال فيما حوفا ، حتى ألف العسكر العبور عدة مرات فى اليوم الواحد رغم أنه لم يكن من المستنطاع القيام بهذا العبور الا سباحه . وسرعان ما تجلب هذه الحقيقة للمحصورين ، فشرعوا من جانبهم فى عبور النهر من فوق الجسر ، ناره جهرا وناره خلسة ، مما أدى الى قتلهم فى أحيان كثيرة الى قتل عدد قليل من رجالنا . أو اصحابهم بالجراح ، لأنهم اعتادوا التجول هنا وهناك دون أن يأخذوا حذرهم ، وكانوا يحرقون فى أفراد فلال بحرا عما يحتاجونه ، وقد اسعد العدو نائمه قصوى من أن النهر كان يعف حجر عمره كبرى فى طريق عودة الصليبيين ، كما أن هذه الصعوبة دائما هى التى كانت تمنع أهل المعسكر من معاونة أصحابهم وهم يرونهم يبعون فى يد العدو ، وأراد القادة التغلب على هذا الموقف فراءوا الخير فى بناء برج من أى مادة سوف عندهم . لأنه ان بين مثل هذا البرج تكن مساعدتهم أكثر فعالية فى القضاء على أحابيل العدو . كما انه يساعد العسكر على النجاح فى العودة الى مجتمعاتهم ، دون أن يكبدوا الا خسائر طفيفة ، يضاف الى ذلك أنه يفتح طريقا آمنا ملائما للمشاة اذا ما دعاهم داع الى الخروج لأمر عاجل ، لاسيما ما يتطلب منهم النزول الى الساحل .



كان هناك عدد من المراكب راسيا فى النهر وعلى سطح البحيرة التى فوقهم ، فربطوا هذه القوارب بعضها الى بعض ربطا محكما ، ثم بسطوا عليها ألواحا سميكه ، ومواد خشبيه أخرى يصلح لهذا الغرض ، وأحكموا شدها بعضها الى بعض احكاما كبيرا بحبال مجذولة من الصفصاف ، وبذلك وجد جسر قوى كاف تماما لأن يسع

فى المره الواحده عدة أسحاص يعبروه جببا الى جبب ، فكان هذا البناء الخشبى ملائما كل الملاءمة لرحالنا ، وكان منصوبا قرب معسكر الدوق فى مواجهة البوابة التى خصص له للمراقبة ، وعلى مسافه عرب من ميل من الجسر الحجرى المتصل بالمدينه ، ولا نزال هذه البوابة التى ذكرناها حالا تسمى ببوابة الدوق لارتباطه بها . اذ كان معسكره يشغل كل الناحية الواقعة بينها وبين الجسر الحديث البناء ، ولم يكن يشاركه فى هذا الموضع مشارك .

لم يكن الخطر يهدد الصليبيين من هذا الجسر وحده أو من باحه البوابة المنصلة به فحسب ، بل كانت البوابة العليا التى كانت النالة فيما وراء ذلك ، والمعروفة اليوم بباب الكلب . بعد مصدر خطر حسم يهدد فواننا ، لأنه كان فى هذا الموضع - كما قلنا - جسر صخرى يمتد فوق مسننec ويخرج من المدينه ، وقد تكون هذا المستنقع من المياه المتدفقة بلا انقطاع من المنبع الموجود عند البوابة السرفسة ، أو بوابة القديس بولس ، وكذلك من المياه الواصلة على الدوام من الروافد الأخرى . وكثيرا ما جاء عن طريق هذا الجسر غارات جمّة فى منتصف الليل ، وأخرى فحائية بالهار . وكلها تستهدف معسكر كونت تولوز الموكل اليه حراسه ذلك البوابة ، وكان من عادة العدو أن تقحم البوابة ويصب وإبلا من السهام نتهاوى كالطر الدفاق ، مما يؤدى الى مصرع الكثيرين من رجال الكونت واصابتهم بالجراح ، وكان حل اعماذ الخصم على هذا النوع من الهجوم لأنه يمكنه خير تمكين من النجاة سالما عم الجسر الى المدينه بعد اتمام غارته ، وقتله من قتل ، بينما لا يستطيع الصليبيون مطاردته الا من هذا الطريق ، ومن ثم فقد كانت الجياد والبغال التى فقدتها كونت تولوز وأسقف بوى وغرهما من السلاء المرابطين فى تلك الناحية تجاوز كثيرا ما فقدته عسكر القادة الآخرين .

أدب الحسائر التي وقعت في صفوف المحاربين الناجية عن هذا الوضع إلى استيلاء الهم المقيم على الكونت والأسقف العظيم ، ومن ثم فقد استدعيا رجالهما ، ووجهاهم للحصول على مجنات وآلات حديدية ، وتوحيد جهدهم لمحطيم الجسر ، فلما كان اليوم المحدد لذلك الأمر قدم الفرسان وعليهم دردياهم ودروعهم ، وقد عطوا رؤوسهم بالمعافر ، وتجمعوا عند الجسر ، وحاولوا هدمه بكل ما في طوقهم من قدره لكن هذا البناء الأصم كان أقوى من كل حديد ، فقاومهم واسعصى عليهم . كما راح الأهالي يعرفلون جهد العسكر إذ يرمونهم بالحجارة ويمطرونهم بوابل من السهام والشباب . فلما رأى الصليبيون فشل أنفسهم في محاولتهم هذه حلوا عنها إلى أخرى مخلفة لها ، ففرروا إقامة آلة حربية في مواجهة الجسر مع وضع حراسة مسمرة من رجال مسلحين ، لسر لهم من عمل سوى صد الهجمات التي يسنها المحاصرون . وجمعوا إذ ذاك كل ما تحتاجه هذه الحطة . كما جاءوا بالعمال ، ولم تكن تمضى غير أيام فلائل حتى كان العمل قد أنهز تماما على أحسن ما يكون الانجبار ، فقد بدل العمال جهدا شاقا ، وواجهوا الأخطار في حرهم الآلة إلى موضعها حتى قامت أمام الجسر كالصرح المرد ، وعمد بها إلى حماية الكونت وملاحظته .

فلما رأى البلديون الآلة منصوبة إلى الأسوار ، لم يحجموا عن المخاطرة فصوبوا آلات رمهم إليها ، وحاولوا إضعاف آلمها التي راحوا يصبون عليها وابلا غبر مقطوع من فذائهم الحجرية الضخمة ، كما شرع الذين فوق الأسوار والأبراج بعوفون بيالهم وسواها من أنواع السهام ، ويرمون بها رميا شديدا ييغون بها من هم حول الآلة لردوهم عن الجسر .

وهكذا استمر المدافعون الواعون على الأسوار في سن عاراهم من كل ناحية . وفي صب وابل من السهام والصخور يأخذ بعضهم بحجر البص الآخر أملا منهم في رد الصائنين الى الوراء ولو فللا ، على حين اندفع غيرهم لفتح البوابة في كفة تخفيفه اسولوا فيها على الحسر عموه ، وسعوا طريقهم الى الآلة يقاتلون من بعرضهم . وسبقوهم مسرعه في أيديهم ، وهزحزين من وكلب اليهم حمايتها . ثم أسعلوا النار فيها حتى أحالوها رمادا ، حينذاك أدرك رجالا أنهم لم يقدروا على التمدد ان هم اتبعوا هذه الخطه في مواجته المعايير التي نصادتهم عند الرج ، ولذلك وما كاد اليوم التالي يطلع حتى كانوا قد اقاموا بلب آلات ، وراحوا يصبون منها وابلا موصولا من العدائف . مؤملين من وراء ذلك أن يضعفوا على الأقل الأسوار والبوابة ليمنعوا الأهالي من سن عاراهم العدوايه . وحسب لا يجرؤ أحد منهم على الخروج من تلك البوابة طالما أن الآلات مستمره في عملها ، ولكن لم تكن هذه العمليات لتهدأ قليلا حتى يعاود المحصورون هجماتهم ، ويسببون كثيرا من الأذى لمن اقرب منهم من أهل المعسكر .

غير أن هذه الخطه برهنت هي الأخرى على عدم جدواها ، فعلم الصليبيون الى اتباع طريقة اقترحها عليهم واحد منهم ، ألا وهي أحد الأحجار الكبيرة وجدوع الأسجار الصخمة التي يعجز المائله من الرجال عن زحزحتها الا بسقى النفس وراحوا يدحرجونها ناحيه البناية . وقام بهذا العمل ألف فارس مدرعين تحت الجيش بأجمعه . حيث حملوا هذه الأشياء فوق الجسر ، وجعلوها كومة كبيرة أمام البناية ، فبات إذ ذاك جميع محاولات الأهالي في دفعها بالفنسل النديع وقضت هذه الخطط على كل هجوم فجائي يسنه العدو من هذه البوابة .

وحدث في أحد تلك الأيام أن خرج طائفة من المشاة والفرسان من حينها ، سلع اللاماته عدا ، وجاورت الجسر الى ما وراءه النمسا للعلف ، ونفروا حربا على عادتهم في ربوع تلك الناحية بحما عن الأشياء الضرورية ، وكانت حاجتهم الملحة في البعش عن الطعام يضطرهم الى سلوك هذا الطريق الذي اعادوه ، وعادوا سالمين من عدوانهم التي حرقوا فيها يبحثون عن الميرة حتى وهم محملون بأحمال ثقلا مما يحاحونه ، ومن ثم اعتقدوا ان الحظ سوف يمشى في ركبهم على الدوام ، ولم يحظر على بالهم أبدا امكان وقوع حادث لهم ، كذلك الأحداث التي بصاحب الخروج في طلب العلف زمن الحرب ، فحاسبوا الحذر والاسباه الواجبين .

قلما رأى المواطنون هذه الجماعة أرسلوا منهم حشدا كبيرا لمباغيتها ، حتى اذا ما عبرت الجسر الصحري اطلقوا بكل ما أوتوا من قوة سطر الصليبيين الذين كانوا يحولون هناك دون أن يأخذوا حذرهم ، فأغاروا عليهم ، وقتلوا أكثرهم ، وأما من قدرت لهم النجاة فعد لاذوا بأذيال الفرار .

هرب الصليبيون الى الجسر المصنوع من القوارب رحاء الوصول الى المعسكر ، ولكن الجسر كان مزدحما بمن سبغهم اليه ، واد ذاك حاول أكثرهم عبوره عن طريق المخاضة ، فابلهم الموح وكان نصيبهم الموت بعد أن كان يراودهم الأمل في النجاة ، وأما من سواهم فقد ندافعت حشودهم الكسفة وبراحوا فسقطوا من أعلى الجسر في النهر ، فصرعتهم الأمواج ، وقذفت بهم الى الأعماق التي فترت لهم فاما وأبت أن تردهم .

حين سمع الجيش خبر هذه الكبة هب آلاف من الفرسان الى
أسلحهم وعبروا النهر . فاعرضهم العدو وهو عائد بعد فله
الصلبيين فرحا بما وقع في يده من العتائم ، فهاجمه رجالا في
الحال ، وراحوا يقصون آثاره في عزم لا يلين ، حتى بلغوا بوابة
المدينة ، وكان الحطب حسما . وحين رأى أهل البلد اخوانهم
الموطن في هذا الخطر الباعث على الأسى وهم يروحون ما بين جبل
وجريح بحركت قلوبهم عطفوا عليهم ففتحوا الباب ، وجمعوا عبر
الجسر الحجري ، في جموع كئيفة ليد المعونة الى أصدقائهم ، وشنوا
هجومًا سديدا - لم يؤلف منهم من قبل - على فوانس الى قاومت
في بداية الأمر معاومه شديدة ، لكن ما لبس ان تعلبت عليها الجموع
الكبيرة ، فولوا على أديارهم هاربين ، وجد الحصون في اثرهم حتى
بلغوا الجسر المصنوع من العوارب ، ومات في هذا القتال كثير من
مشائبا بحد السيف ، وابتلعت لجة النهر العديد غيرهم ، كما
اضطربت صفوف الفرسان وهم يهربون من العدو وراح بعضهم
يزاحم بعضا ، فسقطوا هم أيضا في النهر ، وقد أنقطنهم الدروع
والزرديات والخوذات التي عليهم ، فابلعهم اليم هم وخبولهم ، ولم
يعودوا قط للظهور .

وهكذا كابده رجالنا من الحصار أهوالا لا نقل عما كان يكابده
من كانوا وراء الأسوار ، ولم يعودوا قادرين على التخفي في خروجهم
الى النواحي التي حولهم بل أصبح أمرهم مكشوفًا لأهل البلد الذين
بذلوا من جانبهم كل محاولة لصدهم ، وحدث في نفس الوقت ان
أخذت قوات معاديه أخرى تنربص بهم في الغابات وتترصد لهم في
الحقول ، وتنصب لنصيدهم الكمائن التي كثيرا ما صادفت النجاح .
ونرتب على ذلك أن فقد رجالنا الجرأة على الخروج من معسكرهم ،
أو الذهاب بعيدا في طلب الطعام كما لم يعد المعسكر ذاته مكانا

آمنا لأن الجميع صاروا في فرع من ان ساعينهم على عره القوه
الضحكه - الى قبل أن العدو قد أحد في جمعها من نواح معدده .

ها قد يساءل الرجل العاقل : أى الحالين كانت أحسن من
غيرها ، وأيها كانت مبعث فرع « حالة الجنس المحاصر أم أولئك
الذين كان المروضون فيهم أن يكونوا محاصرين ؟ » .

- ١٧ -

لو حاولت ان أذكر بالعصيل الاحوال التى كانت تقع عالما
كل يوم فى الأماكن المختلفه بسبب هذا الحصار العنيف الطويل
الأمدة لكان أمرا يطول شرحه وليس موضعه فى هذا الموحى البارحى
الذى أحاول أن أبجزه بكل الدقه ، فلنجاوز الأحداث الخاصة وسأبج
مجرى الحوادث العامة .

حينما دخل الحصار شهره الثالث مع ثلث الحطوط فى هذه
الحرب المستمرة أخذ الطعام فى النقص فى المعسكر وعانى الجيش
الأميرين من قلة المئونة .

فى البدء كانت هناك وفرة بالغه الضخامة فى كل شئ تمس
الحاجة اليه من طعام الانسان وعلف الجياد ، ونوهم الناس - حريا
على عادة الجهال - أنهم سوف يظلون ناعمين بهذا الوضع السوى .
غير منوقعين أى عناء قد يلم بهم ، ومن ثم لم يحسنوا التصرف فيما
بين أيديهم من خيرات ، مما نرب عليه ان أنوا فى وقت وحير على
ما لديهم من طعام كان المفروض منه أن تكفيهم أناما طويلا لو أنهم
النزموا الاعتدال فى استهلاكه ، لكن لم يكن هناك حد لاسراف

الجند ، ولم يلزموا القصد الذى هو سمه العلاء ، بل كان ثم يدح سبعة فى كل ناحية ، بعدى ضرورات عيش الانسان الى علف الجياد ودواب النقل ، ولم يعرفوا الوسط فى أى شئ مما نجم عنه أن أصبح الجيش بأجمعه موشكا على العناء ، وذلك بسبب ما تربى على اشعار المجاعة من بضاؤل عدد المحاربين ، وحيداك نودى فى الناس بعد مجلس عام يصممهم جمعا ، وفرروا بنفسهم كل الغنائم التى نفع فى أيديهم فسمه عادلة ، وأكدوا فرارهم هذا باليمين قطعوها على أنفسهم ، وكونت لذلك عده كئائب فوام كل منها ثلاثمائة أو أربعمائة رحل ، خرجوا معا وراحوا يدرعون الناحية بأكملها فى محاولة منهم للحصول على الطعام بأى وسيلة يفكرون عليها .

واعاد هؤلاء الباحيون عن الطعام ان يعودوا وفد فاضت أيديهم بالأسلاب الكبيرة ، والغنائم الوفيرة ، والمثونة الضخمة ، وكان ذلك قبل أن يأخذ أهل البلد أنفسهم بمهاجمة هذه الجماعات ووضع الكمائن لها ، وأيضا ابان الوقت الذى كان فيه الاقليم الذى حولهم لا يزال غاصا بقطعان الماشية والأغنام وأحمال الجبوب والشراب وغير ذلك من العلات ، وكان هذا هو السبب فيما أنشربا اله من قبل من وفرة المثونة فى المعسكر ، أما الآن فقد غاضت موارد الأراضى المجاورة ، ونقصت غلاتها ، أضف الى ذلك أن الترك الذين كانت شوكتهم قد ضعفت من جراء ما استولى عليهم من خوف أذل نفوسهم عادوا فاستردوا بأسهم وشجاعتهم فى الدفاع عما يملكون ، وأصبح العلافون يعودون [للمعسكر] صفر الأيدي ، وكثيرا ما كان يحدث أن يقتل الخارجون عن بكرة أبيهم فلا يبقى منهم أحد يحدث عما كان مصيرهم .

أخذت الذخائر تقل يوما بعد يوم ، وعمت المجاعة حتى لم يعد من البسير الحصول بشلنين على الخبز الذى يكفى لوجبة الشخص

فى يوم واحد ، وأصبح ثمن المعره أو العجله ماركين بعد أن كانت
بباع من قبل بحمسة شللات ، ولا تكاد الساسة شللات تكفى لشراء
علف وجبة واحدة للحصان فى ليله واحده ، وكان الجيش قد حلب
معه أكثر من سبعين ألف حصان لم يسق منها فى المعسكر سوى
ألفين أو أقل ، أما البعیه فقد هلك بربدا ، ونعمت جوعا ، أما مالازال
منها حيا فقد أخذ عدده فى النناقص شئنا فثشنا . وأصابها الهزال
بسبب الجوع والبرد المهلك .

يضاف الى ذلك سرب الرطوبة والمعن الى الفساطيط واللحم
حتى لقد هلك الكيرون ممن كانت لا ترال عندهم الأطمعه ، لأنهم
لم يعودوا قادرين على تحمل البرد الشديد ، وليس عندهم من غطاء
يدفع عنهم زهريره ، وهطلت الأمطار الغزيره فأفسدت الطعام ،
ونعمت الملابس ، ولم يعد ثمة مكان يستطيع الحجاج ان يسندوا
رؤوسهم اليه أو يكوموا حاجاتهم فيه .

وفد نرب على هذه الظروف ان نعشى الرماء فى كائنات
العسكر ، وكان وباء قابلا لم يحدوا معه مكانا يوارون فيه حاف
مواهم ، ولم يستطيعوا إقامة الشعائر الحنائرية لهم .

أما الدين كانت دلائل الصحة لا ترال باديه عليهم فقد فروا
خفة حتى لا يفعلوا فريسة لهذا الطاعون المهلك ، فهرب بعضهم الى
لورد بلدوين فى الرها ، وبعضهم الآخر الى صليقيا عند حكام مدينها ،
ومضى آخرون غير هؤلاء وهؤلاء الى الواحى البى كانت قد آلت الى
حكم الصليبيين ، ونجم عن رحيل هؤلاء ، وهلاك من قبله الجوع
وأفناهم المرض ، ومن قتلوا بالسيف ان نضال الحيس الى الحد
الدى فل معه عدد الأحياء منهم عن نصف ما كانوا عليه .

تدبر فادة الرب المخلصون ماران على الناس من الحزن ، وفكروا فيما شاهده من الأهوال التي آلت بهم ، ففاضت نفوسهم حسره ، وتشفعت أكبادهم أسى على هذا الجيش المكوب . فاجتمعوا كدأبهم للشياور في إيجاد علاج يدفع هذه المصائب المهلكة واسعروضوا مختلف الاقتراحات ، حتى استقر الرأي بهم أخيرا على خروج أعظم قادهم بطائعه من الجند لشن حملته على أرض العدو ، بسولون منها على الماسية ، ويهبون ما يهدرون عليه من الطعام اللارم ، على أن يعيم النقيه البافيه من الرجال في المعسكر أبناء عياب هؤلاء الرجال ، وأن تبدل هذه البففة البافيه عايه الجهد في حمايه الجيش ، واسمعوا على أن يكلوا مهمه حلب المثونه الى بوهيموند وكونت فلاسدر ، وأن يبقى كونت بولوز وأسعف بوى لحراسة المعسكر ، وكان كونت نورماندى غائبا اذ ذاك ، كما كان جود فروى دوق اللورين ملارما للفراس لاصابه بمرض شديد ، فاستصحب الفائندان معهما طائفة كافيه من الفرسان والجنود المشاه بقدر ما استطاع الجيش المنهوك امدادهما به ، ودخلوا أرض العدو .

ما كاد المحصورون يعلمون برحيل بوهيموند وكونت فلاندرز ، وبغيباب كونت نورماندى ، وبمرض الدوق حتى دبّت فيهم الشجاعة على غير عادتهم ، واغتنموا الفرصة لمهاجمة معسكرنا ، فمينا ميم حمبا بأن تغيب هؤلاء القادة انما هو فرصة لا يجوز أن نغلب من أيديهم ، فاستندعوا من المدينة حشدا كبيرا من شتى صنوف الناس واجتمعوا كلهم عنده الجسر وكان مدخله مقبوحا . فراح كل واحد منهم يزاحم الآخر ويدافعون في اجتياز النهر : البعض منهم عن طريق الجسر ، والبعض الآخر عن طريق المخاضة السفلى في محاولة

منهم لمهاجمة معسكرنا ، ولكن الكونت تصدى لهم بكيبية من
الفرسان ، فاصطبرهم الى الاربداد الى المدينة وقد قعدوا رجلين من
رجالهم .

وحدث في أثناء هذا الخروج أن حاول بعض فرساننا الاسملاء
على جواد كبا براكبه فسقط عنه ، فلما رأى الحشد النعيس - الذي
لم يعد يحسن التفكير - هذا المطر خيل الوهم لهم أن الفرسان قد
فروا خوفا ، ومن ثم قعد لادوا هم أبصا بأذيال الفرار ، وزاحم
بعضهم بعضا عن كسب ، فكان في ذلك هلاكهم بأيديهم ، وسرعان
ما أدرك المواطنون أن الحجاج يولون الادبار دون أن يدفهم أحد ،
فاندفعوا مره أخرى نحو الحسر ، وهاجموا الياردين بسيوفهم ،
وبلاحموا واياهم ، ففروا منهم فتنقبوهم من الحسر الصحري حتى
بلعوا حسر المراكب ، وهنا كان الخطب جسيما ، فقد اندفع رجالنا
وزاحم بعضهم بعضا حتى سدوا الطريق على أنفسهم ، فهلك منهم
خمسة عشر فارسا وعشرون من الجند المشاة ، قد هبرت بعضهم
السجوف مما نوا بحددها ، وغرق البعض الآخر في النهر ، فملأ
الفرجة الكرى قلوب الأعداء بهذا النصر فانكفأوا الى المدينة قد
أسكرهم النصر .

- ١٩ -

في هذه الاثناء خرج بوهيموند وكونت فلاندرز بموافقة الجميع
على رأس طائفة من الجند ، في حملة لجلب الطعام ، مؤملين أن
يعودوا بوفرة ضخمة من المثونة حتى يبددوا ما نزل بالمعسكر من
الضيق ، وقد أدت غدواهم الحسنة الطالع في أرض العدو لقليل
نكباتنا ، لأنهم اسلولوا على منزل للعدو راخر تماما بكل ما هو نافع .

وأرسل بوهيموند جماعة من الكشافه الى مختلف النواحي ،
للمعى أخبار الساحيه ، ثم الرجوع اليه بالعزيمة ان نهياً لها العنور
على عسبة ، فلما رحعوا اليه أبنأه بعضهم أن عددا كبيرا من الأراك
قد نصبوا خيامهم فى تلك الضاحة ، فما كاد يسمع ذلك حتى بادر
فأرسل ضدهم كونت فلاندرز مع حرس قوى ، ثم ما لبث أن مضى
هو ذاته فى أثرهم على رأس الجيش الأصل لمساعدتهم ان كانت
ثمة حاجة الى مثل هذه المساعدة ، ولكن لما كان الكونت رجلا شجاعا
ومحاربا عظيما ، فقد استبسل فى مهاجمة الأعداء ، ولم يعد الى
بوهيموند حتى كان قد أفنى من الكفار مائة ، فلدت بفيهم بأذيال
الفرار ، وبينما كان راجعا الى الجيش الكبير مجللا بالنصر ، جاءه
الكشافه الآخرون وأخبروه أن هوه من العدو نزيد عن سابقنها فى
للمعى أخبار الناحية ، ثم الرجوع اليه بالعزيمة ان نهياً لها العنور على
العدد والبأس تقدم من ناحية أخرى ، فبعث لصددهم طائفة مع
الكوت ، ثم مضى هو ببقية عسكره وراءه ليكون على أهبة لبعده
ان اسئلزم الأمر النجده ، وشاء رحمة الرب الى كات هدى
لفواننا - أن يتردى العدو فى بعض السحاب الصسقة فانكعأ راجعا
هاربا ، اد أدرك ان لى بجدى الأفواس ولا السهام نعا فى هذا
العنال ، ولكن سيكون السيف هو الفصل فى هذا الصراع وجها
لوجه ، وهو نوع من القتال لس بالمألوف عند العدو الذى ولى حنذاك
على ادباره فارا فجد الصليبيون فى نعبه مسافة ميلين ، وأوردوا
الكثيرين من رجاله حنهم ، ثم عاد رجالنا الى معسكرهم سالمين
عانين ، وجاءوا معهم - كرمز لانتصارهم - بالكثير من الجبال والبغال
وغيرها من الأسلاب ، ومجل العول أنهم عادوا بكل ضروب الفنائم
الى استولوا عليها من شتى نواحي الاقليم المحيط بهم .

ولقد بث نجاحهم الفرحة العظمى فى نفوس اخوانهم الحجاج ،
وأباح لهم الفرصة للاستجمام وان كانت قصبره يسنريجون فيها من

بعضهم ، على أن الغنم - مع هذا كله لم تكن صخمة جدا - بد
أنها كانت على أنه حال كافية لموسم جمعهم ولو لبصعها أيام
فلائل ، ومن ثم فانه لم يهنا للجش أن يحصل تماما من ماعبه .

- ٢٠ -

وجاء في هذا الوقت من أرض رومانيا (١) حبر محزون ملؤه السحو
والزع ، فسب الذعر في أفئدة الجمع وزاد من قسوة وضعهم
الباعث على البأس .

لقد كان الحبر الذي ثبتت صحته كما يلي : -

كان هناك رجل شديد السطوة ربيع المكانة في قومه يدعى
روبن (وهو ابن ملك الدنمركين) ، قد جمع الى كرم الحسب حسن
الحلق ، وبهاء الطلعة ، لكنه ، كان يتحرق شوقا للقيام بنفس هذا
الحج ، فأسرع ليساعد في حصار أبطاكية على رأس ألف وحمسمائه
شاب من نفس الأمله خرجوا وعليهم من السلاح أحسنه ، واذا كانت
مغادرته مملكة أبيه بعد فترة من خروج الآخرين بعد راح يسرع
الخطى ما وسعه الاسراع ، عساه يمكن هو ومن معه من الانضمام
الى الكتائب التي سبقه ، غير أنه انشغل بأمور خاصة به عاقت
خطاه وعجز عن مغالبتها ، وكان أمله ان يغلب عليها فأخر ، فسار
وحده على رأس قواته الخاصة من غير حراسة من أى احد من القاده
الآخرين ، واقتفى أثر من سبقوه ، فبلغ القسطنطينة التي رحب

(١) لعل يقصد به حمرا من آسيا الصغرى .

به امبراطورها أعظم ترحيب ، ثم تابع سيره حتى بلغ بيفيه سالما ، ثم أخذ المسير نحو الجيش فدخل أرض آسيا الصغرى فى جميع خاصته ، وعسكر دون أن يأخذ حذره - بين مدينتي «فيليو ميلام» و «ديرما» ، فحرجب عليه قوة كبيرة من الأتراك ليلا وباعسه فجاءه ، وأحده على عره فعلمه فى مسطاطه ، واسيقظ جماعته للأسف متأخرين على جلبه العدو المغرب ، فهبوا لحمل سلاحهم ولكن كاه الوقت قد فاب اذ هاجمهم العدو قبل ان يأخذوا أهبتهم تماما لصدده وفك بهم جمبعا وان كانوا رغم ذلك قاوموه مقاومه بطولية طويلة ، وأحرز العدو النصر ، ولكنه نصر ملطخ بالدماء ، وبذلك لم يضح رجال [رعين] بأرواحهم هباء .

- ٢١ -

كان الامبراطور كما قلنا من قبل عين نانكيوس نائبا عنه ، ومرسدا للحجاج أساء رحفهم ، فظل حتى هذه اللحظة مصاحبا للعسكر الحجاج ، أما الآن وقد رأى المصاعب المحدقة بهم فقد ساوره الخوف - لجبن طبع عليه - ألا يستمر القادة فى حجهم .

وتوقع يوما يهلك فيه الجيش كله بسيوف الأعداء ، ومن ثم جاء الى مجلس اجتمع فيه القادة ، واجتهد غاية الاجتهاد لبحمامة على النخلى عن الحصار ، ونوجيه الجيش كله الى المدن والقلاع القريبة منهم لأنهم واجدون فيها المئونة بوفرة رائدة كما انهم يستطيعون هبا ان يسمرؤا فى مضايقة أهل أنطاكية لأن الامبراطور كان قد جمع لمساعدتهم حشودا من أمم شتى بلغت آلاف لا يحصبها العد وأعداها كى تصلهم مع مطلع الربيع ، وأضاف تاتيكويس الى ذلك

انه لما كان قد عزم منذ البدايه على أن يشاطرهم معابهم ، وأن يكون معهم فى السراء والضراء ، وفى العسر والسر فان يريد أن يقوم بمهمة أكبر مما عهد العيام بها ، وسنهدف الصالح العام ، فذكر لهم أن قصده هو أن يذهب لحطه الى الامبراطور لحت الجيش الامبراطورى على الاسراع ، وان يعد المئونه اللارمة من الطعام لبحملها معه من الناحية التى على هذا الجانب من المدينه فلم يعارضه أحد من قادسا ولم يرفضوا اقتراحه ، رغم أنهم كانوا يدركون مد الوهلة الأولى مكر نابيكوس وخياسه التى حاول سترها بما زعمه لهم من دعوى بحملهم على تصديقه ذلك أنه نرك معسكره وجاسا غير صئيل من أتاعه لم يئصصحبهم معه ، والحق أنه لم يفعل ذلك الا لأنه لم يكن نعباً بما فيه سلامهم أو ربما لانه أوعز اليهم سرا أن يرحلوا فى أثره ، وحعل بننه وبينهم موعدا يوما يلقاهم فيه عند مكان حدده لهم .

ورحل نابيكوس مدعيا أنه عائذ الهم عن قريب ، لكنه لم يأت بعد ذلك أبدا ، فدل ذلك على لؤم نفسه ، وخيب طويته ، وبكه لعهده وأنه بذلك يستحق الموت الأبدى .

لعد كان رحيله سابقه مؤذية فلم يعد القادرون على المسلل خلسه من المعسكر يعبأون بما قطعوه على أنفسهم من الأيمان ولا بكرنون بالعهود الفوية التى أخذوها على أنفسهم منذ البداية .

وكانت المجاعة فى نفس الوقت تزداد افحاشا ونفسيا ، وعجز القاده عن ايجاد حل بات ينعذهم من هذا السر المستطير ، فنحبروا من بينهم جماعة انفقوا على أن يجرح منهم كل اثنين معا مرة بعد الأخرى بعوات كبيره الى أرض العدو ، وغالبا كانوا يعودون الى قومهم منصرين ، وان لم يغنموا شئاً وليس معهم شئ من الميرة التى كانت حاجتهم لها ملحة بل يعودون صعر الأيدى ، ذلك أنه كان قد نردد

بين العدو نبأ اعتياد خروج الصليبيين وشبههم الهجمات ، فبادر الأعداء
لنقل قطعانهم ومواشيهم وغيرها مما يملكون من صفوف الجيوش الى
الجبال التي لم يكن ثم سبل لافتحها ، ولم يكن الصليبيون قادرين
على التوغل في تلك النواحي البعيدة التي اعصم خصومهم بها ، وحتى
لو قدر لهم أن يجتاحوا في الوصول اليها فانه لم يكن من الهين أن
يغنموا شيئا .

- ٢٢ -

كانت المجاعة اذ ذاك تزداد تمشيا وشدة في الجيش يوما بعد
يوم مما نجم عنها انتشار الطاعون وكثير من الأمراض الأخرى ،
ونسب أصحاب السن الكبيرة وأهل الخبرة الواسعة هذه الأحوال
الى خطايا الناس ، وان الرب استشاط غضبا منهم ، وحق له أن
يفضب ، فصب سوط عذابه على أطفاله المارقين لذلك اجتمعوا
فيما بينهم للساور فيما يفعلون ، وخافوا الله كانه أمامهم يرويه
رؤيا العين ، وشرعوا يتحاوون فيما يجب عليهم ، فرأوا أن يبادروا
بالتكفير عن آثامهم واعلان بوبتهم الصدوق ، ولارحوع عن أخطاء
الماضي ، وتجنب الوقوع في مثلها في المستقبل ، مؤملين من وراء
ذلك أن يغفوا عصب الرب . واذ ذاك قام صاحب الشرع فبهم أسقف
بوى نائب الكنيسة الرسولية وسواه من كبار رجال الدين أحباب
الرب ، وأجمعوا الرأي على مطالبة الجيش كله وأمرائه العلمانيين
بصيام ثلاثة أيام عسى أن يكون تعذيبهم الجسد مؤديا الى شدة
عزائمهم ، فلما فعلوا ذلك مخلصين صمموا على تطهير المعسكر من
كل عاهرة وامرأة كريهة السمعة ، وجعلوا الإعدام عقوبة للفحشاء
والفجور بنسبتي أنواعه ، وصدر قرار الحرمان على المجان والسكيرين ،

ووقع تحت طائلة هذا العقاب شتى أنواع ألعاب العمار والمسم
بالأيام الكادبة والتطيف في الكيل والعش في المعاييس ، وكل
صروب الاحسال من سرقة العير ، وبهيم ، وسلمهم .

ولما بقرب هذه المواعد ووفى عليها بالاحماع عينوا فصاه
وكلوا اليهم مراجه هذه الآنام ، ومحوهم كل السلطة في الكشف
عن أصحابها ، وائرال العقاب بهم فما لبوا أن وجدوا بعد قليل
جماعة شحبت هذه القوابن ، فلما قامت البيئة على هؤلاء الخطاه
سهر بهم شهيرا قاسيا ، وأدانهم الفضاة ، وحكموا عليهم بأقصى
ما يقضى به القانون تسعا لنوع الجريمة التي اركبها الواحد منهم .
فازدع سواهم وكهوا عن افراف جرائم كهذه الحرائم .

وهكذا عاد الناس برضوان الله ورحمه يبحون ثمار الحياه
الطاهره وهذا عصب الرب عليهم ، ويجلى هذا في أن أحد اللورد
حود فروى - الذي كان وحده أشبه بدعامه الجيش كله - في المعافه
واسرداد صحبه ماما ، ونعافى من وعكه الحاده التي آدته طويلا
بسبب الجرح الذي أصابه من الدب في بسبديا من صواحي
أنطاكية ، وكان شفاؤه عزاء كبير للمحاربين في محنتهم .

- ٢٣ -

ترددت في هذه الأثناء اشاعات وأخبار رن صداها قويا في
كافة أنحاء المشرق ، وجاورنه حتى بلغ ممالك الجنوب والشعوب
الأخرى الخارجة مفادها أن قوات كبيرة من الصليبيين زحف حو
بلغت أبواب أنطاكية وأنهم كانوا يدا واحدة في حصارهم إياها

فخاف كل حاكم على بلده ، وباروا ، فاندس الجواسيس يسملون الى جيشا الوافد للوقوف على التفاصيل الدقيقة حول أسلوب عدا مزودين بالنفارير عن أحوال المعسكر الصليبي الى من دسوهم علينا ، ثم يحل سواهم مكابهم لعس العرض ، ولم يكن دون أن يتعرف عليهم أحد لأنهم كانوا يعنون عده لغات ، فرعم البعض منهم أنهم اغريق ويزعم سواهم أنهم سريان ، ويدعى غيرهم أنهم من الأرمن ، ويصطنع جميعهم فى يسر وسهولة ما لهذه الامم من خصائص فى لهجتها وعاداتها وزيتها .

لذلك اجتمع الفادة للنظر فيما ينبغى عليهم اتخاذه لبامبى السلامة العامة من هذه الناحية ، ولم يكن من اليسر اخراج هؤلاء الجواسيس من المعسكر لأنهم كانوا قل ان يختلفوا - الا نادرا - عن أهل هذه الأمم النى ذكرناها : لغة وعادات وتقاليده ، فرأى القادة أن يوقعوا ما يرون من عقاب على أفراد فلائذ فقط ، حتى ينفقوا تماما على الاجراءات التى يتم اتخاذاها ضدهم جميعا .

كان هناك ما يدعو هؤلاء الزعماء الى النجوى من مقبة معرفه الكبيرين بأخبارنا ، والى ما ينخدونه حيال هؤلاء الناس فبنسامع بما اتخذوا من يفلونه الى العدو رعبه فى الأضرار بالصليبيين ، واذ بدا للزعماء صعوبة الوصول الى ما يمنع هذه المكائد منعا بانا فقد قام بوهيموند - ذو الذهن الناقب والعكر الوفاة خطيبا فى الزعماء قائلا لهم : -

« سادتى وأختى : خلوا مسئولية هذا الموضوع كلها على عاتقى ، وكلوها الى فانى بعون الله واجد لها العلاج الباجع » .

فوافقوه على ما سألهم وانفض سامرهم ، وعاد كل واحد منهم الى معسكره ، وما كاد الليل يرخى سدوله على المعسكر ويستعدون

لاعداد العشاء ، حتى قام يوهيموند - وهو ذاكر ما قطعه على نفسه من عهد - وأمر بإحضار بعض الأسرى من الترك الى مجلسه هذا ، وأسلمهم الى الجلاذ أمرا اياه بشمهم ، ثم أوفد نارا عطيمه كما لو كان يهين العشاء ، وأمر بغسل هذه الاجساد ثم سبها على النار ، وألقى بعلمانه الى رجاله أن لو سألهم سائل عن معنى الذى يرون أجابوه بأن الأمراء فرروا من الآن فصاعدا أن نرود موائد القادة بلحوم جميع الأعداء والحواسيس ، بعد طينها على هذه الصورة •

وانشرت فى جميع أرحاء الجيش أخبار هذه الاحراء اب الى اتخاذها بوهيموند فى معسكره فسابق الجميع الى فسطاطه فى دهنه ليشاهدوا هذه الحطة الجديدة . وملك الفرع من كان بالمعسكر من الحواسيس ، وأيقوا أن ما ظنوه آساعه صار واقعاً ، وأدركوا ما سوف يؤول اليه مصرهم فعادروا المعسكر فى لحطهم هذه ، وعادوا الى بلادهم من حيب أنوا وأحبروا سادتهم الذين كانوا قد بعوا بهم ان لس لأمة [الفرنجة] مبل فى الوحسة بين الأمم بل ولا بين الحيوانات المفترسة ، فهم قوم لا يقنعون باحتلال مدبر عدوهم وفلاعه ، ولا يكفهم أن يعموا سى أنواع المناخ والرمي بخصوصهم فى السجون أو تعذيبهم أو قتلهم ، بل ان هؤلاء الصليبيين يسعون كذلك ملء بطونهم بلحم عدوهم ، ولحق شحمه •

وانتشرت هذه الشائعات وأمالها ، وتوغلب حتى أقصى بلاد المشرق ، فشب الذعر فى نفوس جميع الأمم ، يستوى فى ذلك من قرب منها ومن بعد ، كما استولى الخوف على كل مدينة أنطاكية وارتعدت أوصالها فرقا وفزعاً من وحشية هذه الاجراء اب ، وهكذا أدت احراءات بوهيموند الى التخلص من شر الحواسيس الذين كانوا طاعونا ، وأصبحت خططنا مصنونة قل أن يعرف العدو شيئاً عنها •

بصاف الى ذلك أن خليفة مصر - وهو أقوى السلاطين المارفين بسبب كثره ما لديه من المال والرجال - كان قد أرسل رسله الى قانا ، وبلغت أسباب بعثه اياهم الى وجود عداوة مأسلة وعسفة الجذور منذ سنوات طويلة بين أهل المشرق والمصريين ، وهى عداوة ناجمة عن اختلاف معتقداهم الدينية بعضها عن بعض ، ومساوية مذهب الواحد منهم للمذهب الآخر ، وطلبت هذه الكراهية دون انقطاع حتى يوما هذا ، ومن ثم طلعت هاتان المملكتان بحارب كل منهما الأخرى حربا لا هوادة فيها ، وطلبت المنافسة بينهما موصولة فكانت كل منهما تسعى الى مد حدودها على حساب الأخرى ، كما بينا ذلك بدقة فى الكتاب الأول من هذا التاريخ ، ونأرجحت السادة بينهما على مدى الأيام ، فتكون تارة لهذه وتارة لتلك ، وتكون السجدة أن ما يرداد فى روعة أملاك واحدة منهما ببعض ملة من أراضي الأخرى .

أما الآن فقد كانت جميع البلاد الممتدة من مصر الى اللاديه الشام (ونقدر بمسيرة ثلاثين يوما) تحت حكم خليفة مصر ، ولكن حدث قبل ذلك أن قام سلطان فارس - كما ذكرنا آنفا - واسمولى قبل مقدم الصليبيين على أنطاكية المناخمة لحدود المملكة المصرية - كما احصل البلاد الممتدة حتى مضيق البسفور ، وكان حاكم مصر ينظر بعين الريبة الى كل توسع من جانب الفرس أو الترك على السواء ومن ثم كانت مفرحة بالغة حين جاءته الاخبار بضياغ نقطة من يد قلج أرسلان ، وبهزيمة جيشه فيها ، وأثلج صدره ما علمه من قيام الصليبيين بحصار أنطاكية ، وعد كل خسارة تصيب الأتراك مكسبا له ، ورأى أن المصائب التى تلم بهم تعمل على اسنقرار أمه وأمن رعاياه ، وخاف أن تؤدى أهوال طول الحصار الى قتل

رجالنا ، ومن ثم بعث بسفرائه ورجال من حاشيته الى رعمانا .
يحملون اليهم رجاءه فى أن يستمروا فى حصارهم الذى فرضوه على
أنطاكية ، وعهد الى مندوبيه أن يؤكدوا للصليبيين أن مولاهم السلطان
سوف يعينهم بالجند والذخيرة . كما حاول هؤلاء السعراء أيضا
كسب الزعماء وحملهم على عقد معاهدة صداقة بين الطرفين .

وأطاع الرسل أمر مولاهم طاعة صادقة وركبوا البحر فوصلوا
الى المعسكر الصليبي . وهم أحرص ما يكونون على أداء المهمة التى
حملوها ، فنلقاهم زعماء جيشنا بما يليق بهم من الحفاوة والنجيل ،
وعقدوا معهم عدة اجتماعات ، ليبينوا لهم العرصة لابلاغ رسالهم .

وأعجب المعوثون بما رأوه من رجالنا وكثرة عددهم ووفره
سلاحهم وقوة صبرهم على تحمل الشدائد . كما املات فلربهم حزنا
من هذا الجيش ذى القوة المتين . لما أحسوه فى فرارة أنفسهم برا
يمكن ان يحدث فى المستقبل مما قد تعرض له مولاهم من تجربة
مريرة وهو يحاول سرا نزع قوة واحلال أخرى مكانها .

ومجمل القول أنه بعد أن تمكن الصليبيون بفضل الله التقدير
من فتح أنطاكية ، وردّها الى العقيدة المسيحية وحريتها الأولى
أن تحررت كل البلاد الممتدة من تلك المدينة حتى حدود مصر القرية
من غزة ، وهى بلاد تقدر مساحتها بمسيرة خمسة عشر يوما ، وقد
أصبحت الآن فى أيدي الشعب المؤمن .

هنا ينتهى الكتاب الرابع

الكتاب الخامس

حصار أنطاكية واحتلالها

فصول الكتاب الخامس

- ١ - أهل أنطاكية يطلبون من جيرانهم مساعدتهم
فيستنجييون لندائهم ويعسكرون حول حارم .
- ٢ - فاده جيشا يركون الرجالة وراهم لحماية
المعسكر ويزحفون بالخيلة ضد العدو
ويعودون منصرين .
- ٣ - ألفزع الأكبر يستولى على المواطنين لسماعهم
بنكبة حلفائهم .
- ٤ - زعماؤنا يشيدون حصا لهم ، ويصل الى
الميناء سفن من جنوة ، فيسرع الناس الى

الشباطى، فيقع بعضهم فى كمين من الكمائن
فيهلكون .

٥ - خطة رائعة للدوق ثارا لهذه النكبة العادحة .

٦ - العدو يعود مكلا بالصر ولكن سيوف
الصليبيين تنوشه عند مدخل المدينة فيهلك
الغان من رجاله ويوسط الدوق فارسا كافرا .

٧ - رجالنا يقيمون مناراسا على رأس الجسر
ويرسلون الى السفن [الجنوية] ما يدل على
انتصارهم .

٨ - احاطة المدينة بقلعة جديدة أقيمت فى مواجهة
الباب الغربى .

٩ - العسكر الذين كانوا قد تشردوا هنا وهناك
يعودون الى الجيش ، ويرسل بلدوين الهدايا
من الرها الى كل واحد من الزعماء .

١٠ - عندما ينشر فى المعسكر خبر اقتراب جيش
العدو يدعى سيفين كونت بلوا المرض ويمضى
الى الميناء مصزما عدم العودة .

١١ - وصف حال أنطاكية ، ووصف الصداقة التى
قامت بين بوهيموند وبين [فيروز] أحد
مسيحيى المدينة .

١٢ - المؤامرة التى تمت على يد الرسل بين بوهيموند
وبين ذلك الرجل الوفى [فيروز] .

١٣ - بوهيموند يبدل جهودا سافه ليتسلم وحده
المدينة حين استسلامها فيوافق الزعماء
باستثناء كوث بولور .

١٤ - الحلفاء [المسلمون] يحاصرون الرها اساء
زحفهم لنجده أنطاكية لكنهم يضطرون ازا.
مقاومة بلدوين الشديدة الى الارتداد عسر
العلوات دون ان يكسب لهم النجاح .

١٥ - المسيحيون يسحرون بالعزع الشديد بسبب
اقتراب العدو ويرسلون الكشافة للاستطلاع .

١٦ - الزعماء يجتمعون لبادل الرأي فيما بينهم
وبوهيموند يعلن السر الذي اسموده اياه
صديقه فيروز .

١٧ - الزعماء يسألون عن المدينة لبوهيموند عن
طيب خاطر فيقوم هو بمفاوضة صديقه [فيروز]
في السر بشأن تسليمها اليه .

١٨ - الاهالي يشكون في فيروز فيعلن براءه ساحبه
أمام والي المدينة .

١٩ - وصف ما كان يكابده مسيحيو أنطاكية من
الارهاب في القيام بأعمال كبره يسوء بها
كاهلهم وكيف فشلت المذبحة التي دبرت
للقضاء عليهم .

٢٠ - الجنود [الصليبيون] يغادر معسكرهم
تنفيذا لخطة فيروز مع عزيمهم على العودة
ليلا .

٢١ - بوهيموند يوسسل الى صديقه كى يم ما بداه
فيعد فيروز الى قتل أخيه لمخالفه اياه ويدخل
الصلبيين الى المدينة بواسطة سلم من الحبال .

٢٢ - المهاجمون يسولون على أحد المداحل ويفتحون
الأبواب ، ويندفع العسكر الذين شاركوا في
هذه الحطة الى داخل المدينة ، ويسم الاسلاء
على أنطاكية عنوة .

٢٣ - الأهالي يريدون الى القلعة اما ياعى سيان فيلامى
مصرعه خارج الأسوار أثناء محاولته الهرب
وهلاك الكيرين لسقوطهم من الجبل .

★★★

هنا يبدأ الكتاب الخامس حصار أنطاكية واحتلالها

- ١ -

في نفس هذا الوقت كان أهل أنطاكية وواليتهم في أقصى حالات الدعر بسبب الظروف التي يعيشون فيها . ولم يفهم سده سجر الحجاج من المنفعة التي يحملوها . مع ما يربهم على ما بيدهم من عمل ، وعدم انصرافهم عن مسروعاتهم رغم وطاء الظروف الفاسدة من الجوع والبرد العارس ، بل لقد جرى العكس من ذلك إذ طل هؤلاء الصليبيون - رغم ما عيهم الجمة - مابرين على السر قدما بعزم ثابت نحو تحقيق الهدف الذي وضعوه نصب أعينهم .

وراح المواطنون - نظرا لما هم فيه من الشدة - يعمون بالكنب والرسائل . واحدة نلو الاخرى الى من حاورهم من الأمراء ، يسألونهم المصادره الى بجة احوانهم . ويدلونهم على أجدى السبل لأداء هذه المساعدة ألا وهي أن يدعوا حلفاءهم يوجهون الى المدينة ويستخفون هم في كمن حتى تشبك المواطنون - كعادتهم - في قتال العدو عند الجسر ثم يركوبهم منصرفين الى القتال في هذا المكان ، وحين يكون من بداخل أنطاكية مسغرقين تماما في تلك المواجهة . يخرج أهل الكماش من كمانهم ويباعون الصليبيين الذين يكوبون من عر حرس بحرسهم ، فنقعون تحت وطأة الهجوم

عليهم من الأمام والحلف في آن واحد ، فلا ينسى لأحد منهم
النجاة من الموت .

ولبي هذه الاستغاثه جيش كيف من أهل حلب وشير
وحماه وحمص ومنبج وغيرها من المدن المجاورة ، وخرجوا
في سكون بالغ وصمت مطلق - حسب الأوامر التي صدرت اليهم -
حتى فاربوا مدينه « حارم » التي لا يبعد عن أنطاكية بأكثر من
أربعة عسر ميلا وضربوا معسكرانهم أناء انشغالهم بالهجوم على
المدينه ، غير أن المحلصين من سكان الناحية ، والذين طالما ساعدوا
سعيها ، أحبروا القصاده بأمراب هذا العسكر ، وشرحوا لهم
أوضاعه . فلما بلغهم التدبر اجمعوا للنساور فيما يفعلون في هذا
الوضع . فانعى الرأي مهم أخيرا على أن يغتنموا فرصة دخول الليل
ويطلق سرا كل من بالجيش من الفرسان أصحاب الجياد الصالحة
للخدمه . وبربون صفوفهم للقتال خلف أعلام قادتهم . على أن
يبقى الرجال في الوقت ذاته لحماية المعسكر حتى يعود رؤسائهم
الذين حرحوا امتثالا لأمر الرب .

- ٣ -

لم يكد الليل يسدل طنبه على الكون حتى غادر الزعماء المدينه
حسب الاتفاق ، فساروا على الجسر المصنوع من العوارب . ومعهم
سبعمائة فارس ، حتى صاروا قرب مكان يبعد ميلا من هنا ، وهو
واقع بين نهر العاص والبحيرة التي أشرت إليها في وصفى المدينه ،
فأقام الجند هنا هذه الليلة مستجمين ، دون أن يعلم العدو بخبر
تقدمنا هذا ، ولكن رجاله عبروا النهر هم أيضا في نفس الليلة عن
طريق الحسر الأعلى .

★★★

على أنه لم نكد طلائع بهار اليوم السالى يظهر فى الافق حتى أعد الصليبيون أسلحتهم وفسموا كائنهم سب فرو جعلوا كل واحد ميا تحت قيادة رئيس معين كانوا قد انفقوا عليه من قبل . وأما الترك فقد اتخذوا مكانهم فى ناحية من الصحاح ، لأنهم علموا من كشافهم أن جماعتنا راحه عليهم ، وقد أرسلوا أمامهم فرفين من العسكر حرسا للجيش الرئيسى الذى كان يتبعهم .

لم يكن مع الصليبيين - كما دنا - الا فرابه سعمائه رجل وساعات الاراده الالهية أن يهزم هؤلاء أنفسهم الى كائب حسب ما يقضيه أصول الحرب ، فكان يحيل لرائهم أنهم آلاف مؤلفة من فواب اضافيه قد يعنها لهم السماء .

ولما أحد عسكر العدو فى المقدم والرحف جماعه بلو جماعه ، شرع من كانوا فى الصفوف الأماميه فى سس هجوم عسف على خطوطنا ، وراحوا يرمونها بوابل هبان من السهام ، ثم يريدون فى الحال . فلم يعبأ حدودنا بهجومهم . بل رجعوا عابهم . واضربوا منهم كل الاقرب ، وكروا عليهم مسدسين بسوفهم وشجاعهم ، فسعوا لأهسيسهم طريقا الى عدو عقيدهم . والسوف مسرعه فى أيديهم فاصطرب صفوفهم ودافع بعضهم بعضا . واحتلظ حائلهم بسابلهم وأحبط بهم فى بعة كائب البحيره فيها على أحد حاسهم . والنهر على الحاسب الآخر ، وفقد الترك حريه الحرك فمحروا عن استعمال فنوبهم المألوفه من الرستق بالسيفم فالارنداد لكهم بجمعوا خوفا من أن تموشهم السوف ولم يعودوا قادرين على تحمل الضغط الذى مارسه الصليبيون عليهم . وسرعان ما أبعدوا أن أملهم الوحيد فى السلامه اما يكون فى فراهم . فانفذوا على أعقابهم هاربين ، فجد رجالنا فى بعضهم وقد بملكهم الحماسه ، حتى بلغوا مدينه « حارم » التى كانت تعد عن سباحه المعركة عشرة أميال ، واستمر القتل فى العدو أناء ارنداده .

ولما رأى أهل البلد أن الدائرة قد دارت على عسكرهم الذى هلك معظمه بسوف الصليبيين المنتصرين ، خافوا البقاء فى القلعة بعد هذه الكبة التى ألب بأصدهائهم . فأشعلوا النار فى المكان ، ولادوا فرارا .

غير أن الأرض سكان هذه المنطفة ، وغيرهم من البصارى الذين كان الكبرون منهم يقطعون تلك الناحية ، استولوا على المكان ، وأسلموه فى الحال الى فادنا قبل عودتهم الى المعسكر . ولقد هلك فى هذا اليوم مائة ألف من رجال العدو ، فكاتب بشوه الصليبيين عظيمه بما جرى . وفرحتهم ظاهرة بما وقع من النصر المزدوج ، الذى بب فيه الشجاعة ، وحمدوا الله على ما أناهم من قصصه ، ثم عادوا الى محبتهم حاملين معهم خمسائة رأس من قبلى العدو ، وكميات ضخمة من الأسلاب ، من بينها ألف من الجناد القوية ، كانت ذاب جدوى عظيمه لنا .

- ٣ -

ظل أهالى أبطاكيه ذلك الليل فى انتظار الساعة المربعة ، وراحوا يسمعجلون فى لهفه سروو الفجر بطلعا لهجوم من الخارج يقوم به حلفاؤهم على بصارى المدينة ، فان نم ذلك خرجوا هم من المدينة ملصصين وباعسوا الصليبيين على غفلة منهم ، وكانوا يؤملون أن يؤدى عصر الماعنة التى لم يستعد لها الصليبيون الى دمارهم .

وجاءت الساعة الأخيرة من الليل وقد أخذت السماء بشرى بصوء دون أن يظهر أى شيء يدل على تقدم حلفائهم ، ومع ذلك

بعد ذكر اكتشافهم أن بعض الرعاء الصليبيين خرجوا كما لو كانوا
 ماضين لمواجهتهم . ومن ثم جمع المواطنون قواهم . واندفعوا
 اندفاعا عسفا من الابواب . وطلوا معظم هذا اليوم في مصادمات
 سديدة مع هؤلاء الصليبيين وأحرقوا أعاذهم حراسهم الذين كانوا
 في مواضع عالية بالمدينة أن هناك جيشا آحد في الاقرب ، ومن
 ثم ارتدوا الى ما وراء الأسوار . ورابطوا في الأبراج حلف الممارس
 في النواحي المرفعة من البلد في انتظار الجماعات القادمة ، لأنهم
 كانوا لا يدرون ان كان هؤلاء القادمون من الأعداء أم من الحلفاء ،
 فلما دنا العسكر من المحاصرين رأوا ملابسهم الحربية وما معهم من
 الغنائم والأسلاب فعرفوا حقهم . فاستد بهم العرع منهم بعد
 أدركوا أنها القوات الصليبية عائده بعد انتصارها على الحلفاء
 الذين كان المحاصرون يرقبون حضورهم في لهفة ، فأسلموا
 أنفسهم للبقاء ، فقد تلاشت آمالهم الحسام . وبعد حذنا من
 المدينة ، واطلقوا الى المعسكر ، ثم أمروا بطرح رؤوس مائتين من
 الأنراك قبل ان الآلات قذفت بها الى داخل المدينة ، لكي تكون
 شاهدا على ما أحرزوا من نصر . وليرد في مصاعفة آلام العدو
 المبرحة .

أما بعة رؤوس القليل فقد رفع على سارياب صببها أمام
 المدينة رامين من وراء ذلك أن تكون هذه المناظر المفعمة قذى في
 عيون المحصورين فنضاعف همومهم البقلة ، وعرف من روايه
 الأسرى الدفقة أن الحلفاء الذين كانوا يجمعون الحصور
 لمساعدة أنطاكة قاربوا ثمانية وعشرين ألف مقاتل .

وقد حرى هذا الأمر في اليوم السابع من فراير عام ١٠٩٧
 من موله السيد المسيح .

فى هذه الأثناء صدق عزم فادنا على تشييد حصن مسج .
أقاموه على راسه مسرفة على معسكر بوهيموند ، راجين من وراء
ذلك أن يفد هذا الحصن الحديد سيدا أمام الترك لو راودتهم
بعوسهم بالاعاره على فوايا مى ساءوا . فلما فرغ رعمائنا من
تشييده أقاموا به حامية يفضة تمام اليغظه . فاطمانت جوانح العسكر
كلهم ، وأحسوا كأنهم داخل مدينة منبجة ، ذات قلعة تكفل أسوارها
لهم الحماية ، وتقنهم عادية الهجوم عليهم .

كان هذا المعقل يعع شرفى القلعة التى شيدت منذ أمد قريب .
كذلك كان يوجد الى الجنوب سور يجاوره مسننec ، على حين
كان الى الغرب والشمال النهر الذى يجرى معرجا حول أنطاكيه .

وبعد خمسة أشهر من هذا الحصار دخل مصب النهر من
ناحية البحر سفن فادمه من جنوه ، محملة بالحجاج والمثونه ،
فلما أرسدت حيت وصلب أقامت ، ثم بعث جماعة منها الى المعسكر .
سأل معجى بعض الزعماء الى الحنويه ليقودوهم فى أمان الى
المعسكر .

وكان العدو يعرف أن قومنا اعتادوا الخروج الى الشاطيء غير
حذرين ، كما كان يدرك ما عليه البحارة من لهفه سديدة للذهاب
الى المعسكر ، فسد رجاله عليهم جميع الطرق والمسالك ، ونصبوا
الكمانن لنصدد السابلة الذين لم يحاطوا لأنفسهم ، مما أدى الى
مصرع الكثيرين منهم ، حتى لم يعد أحد يجرؤ بعدئذ على الذهاب
الى المعسكر الا أن يكون فى حراسة مشددة .

وصمم الزعماء في هذا الوقت ذاته على افحامه حصص عند رأس
الجسر . مكان مسجد كان لخصوصهم ، راجين أن يسهل هذا الحصص
الطريق في وجه العدو بعض الشيء ان أراد الوصول الى الحسر .

وحدث أن أعدادا كبيرة من الصليبيين كانوا قد برلوا ناحية
الشاطئ لانجار بعض الأعمال التي كانت لهم هناك ، فلما فرعوا
منها عادوا الى مواضعهم .

★★★

وكان الاحيارد قد وقع على كل من بوهيموند وكوت بولور
ومعهما لورد ايراردى نويسيه وكوت جاربييه دى جراى من
الزعماء لمرافقة السفارة المصرية حى الساحل . على أن يقوموا في
عودتهم بحراسة الحاجاج (١) الذين وفدوا منذ قريب ، والحفاظ على من
خرجوا من معسكرنا ، فلما علم أهل أنطاكية بنزول هؤلاء السراة
من القوم الى الشاطئ بعوا ضدهم أربعة آلاف فارس مدحجين
بالأسلحة الحصفه وعهدوا اليهم بصيب الكمائن ، فاذا خاطر
الصليبيون بالعودة ولم يأخذوا الاحتياطات اللازمة كر عليهم هؤلاء
الفرسان كرة ضارية .

وحدث في اليوم الرابع أن كان الحراس عائدين مسرحين
معهم عددا كبيرا من الناس ، وكثيرا من دواب الحمل عليها شتى
أنواع الدخيرة دون أن يكون معهم سلاح ، فلم يشعروا الا بالعدو
يباغتهم في بعض الشعاب الضيقة ويسدنها عليهم ، وكان
كونت تولوز يسير في المقدمة مع حرس الطليعة ، أما المؤخرة فقد
وكلت حمايتها الى لورد بوهيموند .

(١) المصون بهؤلاء الحاجاج الحربية .

وعلى الرغم من بسالة هؤلاء العاده الجديرين بكل احترام ،
 الا أنهم لم يستطيعوا - كما أرادوا - السيطرة على من معهم من
 جموع راح بعضا يزاحم بعضا ، كما عجزوا عن مد يد المعونة لهم
 لكن ذلك لم يمنعهم من الصمود طويلا حفاظا على شرفهم وحمايه
 لرفاههم ، فلما نبين لهم أحيرا عدم جدوى أى مجهود يبذلونه فى
 هذا السبيل وأن هلاك أرواحهم انما يكس فى ابطائهم تخلوا - بدافع
 من حرصهم على سلامتهم - عن هذا الصراع الذى هو بين طرفين عر
 مكافئين ، وانقلبوا الى المعسكر بمن اسنطاع اللحاق بهم ، واذاك
 نخل الناس عن دوابهم وماعهم وفروا على وجوههم الى نواح
 مختلفه ، فانطلق بعضهم الى الغابات ، وهرب البعض الآخر الى
 السلال أما من لم يسهفهم القرار فقد ساوشهم صفوف
 العدو ، فكانت الكبة التى حلت بعواننا فى هذا الموضع حسيمة ،
 وقد وصلتني معلومات شتى عن عدد من هلكوا فى هذا الحادث ،
 وان قالت الأغلبية انهم كانوا فرابه بلائنا من الجسسين ومن
 مختلف الأعمار .

- ٥ -

فى هذه الاثناء وصل الخبر الى المعسكر بأن العموم الذين كانوا
 راجعين من ناحية البحر قد وقعوا فى كمين نصبه العدو لهم ،
 وأنهم قتلوا جميعا عن بكره أبيهم فى هجمه لم يكونوا يوقعونها ،
 ولم يستطع أحد ما أن يخبر عما اذا كان العاده مازلوا أحياء أم أنهم
 صاروا فى عداد الهلكى .

واذ كان الدوى جود فروى رجلا جم النشاط ، سريع المبادرة
 الى حمل السلاح ، فقد تفجرت نفسه عطفًا على شعب الرب ،

ونفطر قلبه رحمة بهم حتى لكأنهم أولاد صغار له ، ومن ثم استدعى الرعاء والجند وأمرهم بحمل السلاح في لحطهم هذه ، ثم بعث المادى ينادى في الناس الا يعيب أحد عن هذا الموقف الخطير والا استحق الموت . بل يحتم على الجميع ان يهبوا لأسلحتهم انفعاما لدماء احوانهم ، فجمع كافة الجند وكانهم رجل واحد ، ولم يوانوا عن عبور الجسر المصنوع من العوارب ، ثم قسمهم الدوق الى مجموعات . ورأس عليهم جمعا روبرت كوت بورماندى وكوت فلاندرز ، وهنج الكبير ، وأجاء اساس . وحدد لكل طائفة مكانا لا يشاركها فيه غيرها ، ولا نعداه هي الى سواء ، وأمر أن نقف كل جماعة بقياده قائدها .

ثم أخذ الدوق بشرح لهم الوصح بأعصارهم رجالا مدركين لمسئوليتهم ، وأثار حميتهم بكلماته الملهمة اذ قال لهم : « لو صح ما فعل الينا من أن أعداء النصرانية . اسما وععبدا . قد أظهرهم الرب على سادتنا واحوسا بسبب آثامنا ، فالراى عندى أيها الرجال الأمجاد أنه لم يبق لنا الا أن نمحو العار الكبير الذى ألحقوه بسببنا المسح . أو بهلك مع من هلكوا . وصدفوني أن لسب الحياه ولا السلامه أحلى مدافا من الموت او أى ألم من الآلام ان نذهب دم هؤلاء السادة هدرنا فى البرى . ومحال أن يمر هذه المديحه المروعة التى جرت على سعب وهب نفسه للرب دون أن نواجه بانفعال عاجل . ويبدو لى أن أعداء الملة سوف يبطرهم انتصارهم فلا يحتاطون لأنفسهم كما حرت عاديتهم ، لذلك فأنهم لن يترددوا - اعينادا منهم على بأنسهم - فى أن يشفوا طريعتهم بين صفوفنا أثناء عودتهم بالاسلاب والغنائم ، واعلموا أن ما نحن فيه من موقف معزّن دام حرى بأن يحملنا على مزيد من الحذر . أما الكاسل فبغرى صاحبه بالاهمال .

« فان رأيتم الصواب فيما أقول فيها بنا نسعد لهم ، وطالما
كنا على حق فاننا نطمح ان نحرر النصر بواسطة الواحد العوى الذى
نؤمن به ، ونحارب فى سبيله ، فادأ ترائى للعدو أن يعود فيقتحم
صفوفنا فلنتقابلة سطبي سبوفنا ، ولتكن ذكرى ما صنه علينا من
المصائب مذكية فما ما كان عليه آباؤنا من الشجاعة » .

★★★

ووعب خطبه [الدوى حودفروى] هذه موقع الرضا من
هموسهم واستنصوبوها كلهم ، وبينما هم يتدارسون كلامه هذا اذا
ببوهبموند يطالعهم عائدا من الساطىء الى معسكره ، وفى ابره
الكونت لم يفب دونه الا قليلا .

ورحب الناس برعيمهم ررحبيا صادفا لم يستطيعوا سعه أن
يحبسوا دموعهم من الانهار ، اذ أدركوا أنهم كانوا على وشك أن
يفقدوا هؤلاء القاده ، ولم يكذ الزعماء يعلمون بخطرة الدوق حنى
وامعوه على فكره وصرخوا بوحوب نفعدها .

★★★

كان ياعى سبان فى هذه الأناء - رعم علمه باصصار قواه -
مشغول الخاطر ، فلقى المال بشأن سلامة عودتهم ، لاسيما منذ أن
عرف أن الجند الدين تركوا المعسكر كانوا أكر عددا مما جرت
العاده به ، ومن ثم نودى فى الناس جمعا أن يخرج فى الحال من
فى المدينة من أهل الخبرة بالحرب والقادرين على حمل السلاح ،
وأن يجتمعوا عند البوابة القائمة عند الحسر لنجدة أهل البلد
العائدين ، ان دعت الضرورة الى مل هذه النجدة .

كما أن قوادنا بعوا من ناحيتهم كسافة سفق الطريق الذي
يحمل أن يسلكه العدو في إيايه ، إيماناً من هؤلاء القواد بأن الرب
لا بد أن يمسحهم النصر .

- ٦ -

لم يوان الصليبيون لحظة في تنظيم صفوفهم ورفع أعلامهم .
وسمما هم يرقبون طلائع الجسس الركنى اذا برسليم قد جاءوهم
مسرعين ، ينبؤونهم بأن العدو قد رابط على ممره منهم ، فعالت
صرخاتهم المجنونة نحب ناسبا على حمل السلاح والرحف لصدده ،
ومن ثم تقدمت الكائب ما وسعها النقدم ضارعة الى السماء أن
يعيها ، وراح كل واحد منهم يشجع رفيقه ، وقام الصليبيون - وفي
ذهنتهم شهره بطولهم - بهزون الرماح في أيديهم ، وكرؤا على
حصمهم كرة رحل واحد وكفؤا ضعظيم عليه - كمالوف عادتهم -
يعالولوه بالسيف وجها لوجه ، دون أن يدعؤا له فرصة يلفظ
منها أنفاسه انغاما للمصائب التى أنزلها بهم والى لا رالت عانته
بأدهابهم ، فما لب العدو أن دارمه سجاجنه ، وطار فله سعا ،
وأذبر موليا وجهه سطر الجسر المؤدى الى المدينة ، يسابق كل واحد
من رجاله الآخر فى الهروب .

على أن دوق اللورين كان قد جابه كيرا من أصال هذه الارما ،
وكان عسكره قد احملا موقعا أمام الجسر يقوم بجاهه ربوة عالية
بعض الشىء ، وكان النرك فى فرارهم أمام زعمائنا الموقرين أحد
رجلين : اما رجل يتعصر فيسقط وهو يحاول بلوع الجسر السما
للمجا له هناك ، واما رجل لامحصر له من العودة الى موب مؤكده
يلقاه فى ساحة المعركة التى كان قد لاذ منها فرارا .

(الحروب الصليبية ح ١) - ٣٢١

واذ كان كونت فلاندر محاربا صديدا ، يارعا كل البراعة
فى استعمال السلاح ، فقد خرج بعسكره مضعبا أثر الأعداء فى نرم
لائل شيباه ، ففرق صغوفهم ، وأنزل بهم من الأهوال مثل الذى
أبرلوه من قبل بعسكرنا ، ولم يكن كونت نورماندى أقل سباجة من
آبائه ، فأبلى البلاء الحسن فى هذه الموقعة .

وكان هنا كونت تولوز المحمس لربه ، والى جانبه هيج
العظيم الفخور بما يجرى فى عروقه من دم ملكى ، والذى لم يشن
نسب أسره العريق بأى شين ، وكذلك كونت اوسساس أحو
الدوى ، وبلدوين كونت هيسولت ، وهيج كونت سبب بزل ،
وغيرهم من أهل المكاة - فحملوا جميعهم على العدو حملة صدق ،
وأظهروا من أعمال البطولة ما أذهق قوة المعادين ، ودبحوهم دبح
الحراف ، وكان باغى سبان لما أرسل قواه للحرب أمر باغلاق
أبواب المديسه من خلفهم ، ليقطع عنهم كل خطة للارتداد ، ساعيا
من وراء ذلك الى مصاعفة ضراوتهم ، وحملهم على المزيد من السده
فى القتال ، معصدا أنه بذلك يسلك أحسن المسالك وأجداها ،
عبر أن الخائمه جاءت على غير ما كان يرحوه ، فقد هلك رجاله
الدين لما رأوا احداثنا بهم لم تعد لهم قدرة على صمد هجونا ،
أو الفكاك من ضغط رجالنا عليهم ، فالتمسوا خلاصهم فى الفرار الذى
لا خلاص لهم سواه ، ولكن خانهم هذا الأمل اذ كان الموب ائهم
المرصاد ، فتناوشب سيوفنا الفارين منهم ، وفرفتهم شر ممزق .

وتردد فى أنحاء المعسكر فرع الأسلحه ، وقعقة السبوف
البراقة ، وصهيل الخيل ، وصراخ الرجال ، واختلط الحابل بالبابل ،
ولولا اخلاف سلاح كل فريق عن الآخر لكانت اتمه غلطة مؤدية
الى الخطر الداهم الذى يحمل فى طياته الهلاك .

ويجمع على أسوار انطاكية ودوق أراجيسا ، سناء المدينة
وبنايس وصغارهن وسبوح البلد . وكل من لس عده قدره على
الدفاع عن نفسه ، شاعدون - من مكابهم الذي يعرفون منه -
المديحة الى بحرى من بحيم ، رتلا بكأؤهم وراحوا نندبون مصارع
أصحابهم ولسان حالهم يقول « ما أسعد من برقى بهم الموت تنص
أرواحهم قبل أن يمسيهم هذه الخطوب » .

أما الأمهات اللاتي كن يعاقرن بكره أولادهن ، فقد أصبح
موضع الرئاء وصارت العافر منهن أسعد من كل داب ولد » .

ولما رأى ياعى سبيان أن الدائرة قد دارت على نومه ، وأن
البقية الباقية منهم لا بد سالت في هذه المديحة الى بئرن الى
قرب منه ، أمر بسرعة فتح الأبواب حتى يمكن الباقون من جيسه
من دخول المدينة سالمين ، لكنهم راحوا على الأبواب الى أزيلت
متاريسها تراحما شديدا . رتالى ضحججهم وصراخهم ، ذلك لأن
المفارين الذين كان الحصم بينهم حاولوا عبور الجسر ، نكارب
جموعهم ، وندافعوا فزعين يدفع بعضهم بعضا مما أدى الى سقوط
الكثيرين منهم في النهر فغرقوا في لجنه .

ولقد صال دوق الناورين أبدع صوله في هذا الاستدراك
فبرهن على أنه مستر حرب وخواض غمرات ، وشاعده المساء
اذ اقترب وهو يقاتل حول الجسر ، وقد جاء بالدليل اليه على
باسه الذي ميزه عن سواه ، وكان ما قام به من العمل أدرا بأعرا
خالدا ، ومأثرة زادته اجلالا في نظر الجيش كله ، اذ اندفع بما
طبع عليه من جراه فكان يصرب الضربه الواحده يقطع بها رؤوس
أكثر من فارس مدرع ، ثم قص بشجاعة فارسا آخر لم يمنعه
ما عليه من زرد الحديد من أن يصيبه بضربة قطعه نصفين ،
فتدحرج أعلاهما على الأرض ، وأما أسفلهما فقد دفعوا به الى المدسة

محمولا على فرسه ، فبث هذا المطر العجيب الخوف والدهشة في نفوس كل من شاهدوه ، ولم يعد خبر هذا الأمر العجيب حافيا على أحد ما ، وتناقله الألسن ، فشرى وعرب .

ويقال ان خساره العدو يومذاك فاربت ألفى رجل : ولولا دخول الليل الذى حسدنا على أمجادنا وانتصارنا لانتهى حصار أنطاكية من غير شك فى هذا الوقت ، وكانت آثار المذبحة واصحه كل الوضوح حول الجسر والنهر الذى تبدل لون مائه ، وراح يصب فى البحر سيلا جارفا من الدماء . ولقد قل ان اننى عسر من الحكام الأتراك لعوا مصرعهم فى هذا القتال ، فكابوا خساره للمدبته لا تعوض ، وأكد هذا الخبر فيما بعد تأكيداً قاطعاً المواطنين المسيحيون الدين قلموا من أنطاكية الى معسكرنا .

- ٧ -

حين طلع النهار على الدنيا عاود القادة اجتماعهم ، ساكرين الله العذر على ما آتاهم من النصر ، ثم عهدوا - فيما بينهم - مجلساً لمنافسة الوضع فانفقوا بلا استثناء على تنفيذ خطتهم الأصلية بحذافيرها ، ألا وهى اقامة حصن على رأس الجسر لمنع المواطنين من مغادرة المدينة ، وليسر فى الوقت ذاته على رجالنا حركتهم ويزيد من سلامتهم اذا ما رغبوا فى النحوال هبا وهباك .

وكان فى ذلك المكان - كما قلنا سابقا - مسجد يؤدى الرك فبه شعائرتهم الدينية ، وقد جعلوا ناحية منه موزعا لدفن موتاهم . فلما كانت الليلة السالفة ، وصدر من اليوم النالى ظلوا ينقلون

جئث موتاهم الى ذلك الموضع ، فلما تأكد رجالنا من صدق هذا الخبر ، اندفعوا اندفاعا شديدا الى ذلك المكان ، يحدوهم الأذل في العنور به على غنائم نكون مدفونة مع الموتى ، فنبسوا العنور وأخرجوا الجثث ، ولم يقتصرؤا على أخذ ما وجدوه من الذهب والفضة والأفضة الغالية بل امتدت أيديهم حى الى الحب دابها فعبؤا بها .

ولما فشا هذا الخبر أيقن الجمع مدى ما أصاب العذر من خسائر كانت فى نادى الأمر موضع شك ، لان الصال اسبى اسلا . فاعبط الصليسون بهذا النبا عبطة حاوز عبطهم بالبصر الذى أحرزوه فى يومهم السابق ، ولقد وحدوا فى تلك المثرة أعا وخمسائة جنة سوى من ابلعهم النهر فى مراب كيره حاب فيها الخسارة بهم ، وسوى الذين قبروا فى المدينة اضافة الى من أنعمهم حراحتهم القائلة فصاروا معها على سفا الموب ، وأرسل الصليسون ما يقرب من ثلاثمائة رأس من رؤوس القتلى الى من كانوا موجودين بالمياء ، فنضاعف سرور رجالنا الذين كانوا قد ذهبوا الى هناك بعد معركة اليوم السالف ، وكان هذا تحذيرا نافعا للسفراء المصريين الذين كانوا لا يزالون فى المساء ولم يغادروه .

★★★

كان الصليسون الكثيرون الذين فروا من أخطار اليوم الغابر مختفين فى كهوف الجبال وأعماق الغابات ، فلما سمعوا بخبر انتصارنا بادروا فى الحال الى الرجوع الى المعسكر ، وهكذا شاء ارادة الرب أن يعود الى الحش كثر من الجند الذين اعتقد الناس أنهم هلكوا فى المعركة ، لكن ها هم الآن يعودون الى الجيش سالمين ، معافين من كل أذى بفضل الرب .

لم يكنه يرجع هؤلاء الذين كانوا قد فروا الى مختلف الجهات حتى أقيم على رأس الجسر متراس من الأحجار النى حملوها من

المفابر ، وأخذ العوم يتبارون فى مساعده بعضهم البعض ومعاونه كل منهم زميله فى تشبيد المعقل الذى حصن بسور قوى وأحيط بخندق عميق .

ثم أخذ الزعماء بعد ذلك فى النشاور عن يقوم بحراسة هذا المكان ، ولم يكن أى واحد منهم مستعدا لحمل مسئولية ثقيلة كونه المسئولة ، وراح كل منهم يقدم هذا العذر أو ذاك ، غير أن كونت بولوز - وهو المرضى عنه من الله - نطوع لحمل المسئولة ، وبعهد من أحل الصالح العام أن يقوم بحراسة هذا البناء الجديد ، فاستعاد ناما حب كل رجال الحملة له ، وهو حب كان قد ففده مدة عام لوقوعه فريسة لمرض عطله عن الحركة والفعالة على مدى الصف الماضى وطول الشتاء التالى له ، ففي الوقت الذى كان بقية الأنادة إياته يتحملون مسئولة الجيش بعزيمة لا تقهر كان هو د، نهم كأنما لا يمتنه من الأمر شىء ، وكانت تنقصه البشاشة ، ولم يظهر الود تحاه كائن من كان ، وتجلي هذا واضحا غاية الوضوح لكل ذى عينين، فعزوا ذلك الى أنه كان أكنسر القوم مالا وأعظمهم ثروة بصورة ينوقون معها أن تحمله على بذل الكثر من أجلهم ، ولقد أراد أن يعوض ما كان من تراخيه وعدم اكترائه فقام من نلقاء دانه وتحمل عبء هذه المهمة ، وقبل أيضا انه وضع نحت تصرف أسعف بوى وبعض النبلاء الآخرين خمسمائة مارك فضة وزنا ، تعويضا لأصحابها عن الخبل النى هلكت لهم فى هذه المعركة .

فلما عرف أتباعه أنهم عوضوا خيرا عن جياهم التى فقدوها أظهروا من ضروب الشجاعة والتفنن فى محاربة العدو ما لم يظهره من قبل فهذات حدة الشعور ضد الكونت ، وسماء الجبع بأبى الجيش ورابعه .

لقد سدت بوابة الجسر بالقلعة الجديدة الى امام بنا الكوب
خمسمائة من الرجال الأشداء ، مما جعل مرور المواطنين من خلالها
لا يسسى الا بشق النفس وبالمعرض للخطر البالغ ، لكنها من ناحيه
أخرى جعلت قومنا أكثر قدره على الخروج من أجل فضاء مصالحهم
الضرورية ، أما العدو فلم يعد قادرا على مغادرة أنطاكية الا عن طريق
البوابة الغربية الواقعة بين سفح الجبل والنهر ، ويظهر أن تمسح
العدو بالقدرة على الخروج من تلك البوابة لم يحرص قوائنا لكبر من
الخطر ، اذ كانت جميع خيامنا منصوبة على الحائط الآخر من النهر ،
ومع ذلك فقد شعر الكل أن المحصورين كانوا أكثر من كثر من
الحرية في السجالات ، لأن حاجات المدونة الصرورة كانت لا تزال تمر
بهذا الطريق ، لذلك عقد القادة الشجعان الحائرين الذكر مرة أخرى
مؤتمرا من بينهم للتداول في شأن هذه المشكلة التي رأوا واجبها
بإقامة بعض النحوصات في موضع ملائم على الحائط الآخر من النهر ،
وقرروا أن يقسم بها بعض هؤلاء الزعماء ، لرصدوا العدو ان أراد
الخروج منها أو الدخول اليها فحولون بنه وبين ما يريد ، وعلى
الرغم من انعقاد اجماعهم على وحوب تسييد ذلك الحصن ، الا انه
لم ينقدم قط أحد منهم فتنطوع ونهض بحراسه ، وترددوا كأيام
تحاه هذه الصعوبة ، ولم يدرؤا أى سبيل يسلكونه فيها ، وطال
برددهم ، ثم استقر الرأى منهم فى النهاية على اختيار تانكريد الحم
النشاط لأداء هذه المهمة ، وكان على وشك الاعتذار عنيا لقله ما لديه
من المال ، لولا أن نهض كوب تولوز وقدم اليه مائة مارك من الفضة
لتشيد الحصن ، ضاف الى ذلك تخصيص مبلغ مناسب قدره أربعون
ماركا شهريا يقطع من المال العام يدفع للذين سوف يعملون مع
تانكريد .

ولقد ترتب على كل ذلك أن سئد حصن ملاصق لملك البوابة يقوم على أحد اللال ، حيث كان موضعه فى السابق أحد الأديرة ، وعهد بحراسته الى رهط من أهل الحجى الأشداء فبقى هذا الحصن سليما حتى نهاية الحصار بفصل جهود دانكريد الناجحة .

وكان يوجد على بعد ثلاثة أميال أو أربعة نحت أنطاكية ، وعلى امتداد نهر العاصى مكان للتعبد ، يتمتع بموقع رائع بين الجبال وس النهر ، حسب كانت قطعان الأغنام سرح هناك فى المراعى الحضراء القسة ، السى كان العدو قد نقل إليها معظم جناده لقلته ما قى المدسه من العلف ، فما كاد الصليسون يسيون هذه الحقبعة حتى جمعوا فى هدوء بضع سرايا من الفرسان الذين أسرعوا الى تلك البقعة ، وسلخوا إليها طرفا مهجوره حتى لا ينكشف أمرهم ، فلما صاروا هناك وثبوا على رهط من الفرسان القوامين بحراسة الماسبة ، وداوهم ، واستولروا على ألقى حصان من الحبل الصافنات ، ناهك عما أخذوه من البغال واناها ، وعادوا بكل ذلك الى المعسكر ، ولم يكن ثم عنائهم من أى نوع أكثر أهمية من هذه الغنائم عند الصليبيين فى ذلك الحين ، لأن جميع حيادهم كانت قد هلكت تقريبا فى المعركة ، أو نفقت من الجوع أو البرد أو غير ذلك من الكوارث .

- ٩ -

أحيط بالمدينة من كل جانب ، وعجز سكانها عن محاربة أسوارها لمزاولة أعمالهم ، وهكذا أهدقت بهم الصعاب الجمة من كل ناحية ، كما بدأت تهددهم أيضا مسكلات أخرى كنقص الطعام الذى

واحيهم نجاه وأصبح سمحه تحسبهم بصورة نصب النباح السديد فى
حلوب المراطيين . كما أصبح العلف نادرا بدره نالعة . فهراب
الخول ، وعجزب عن القيام بما كانت تقوم به من فعل .

أما رجالنا فقد أصبحوا أكر حرية فى الذهاب الى شاطئ
البحر ، أو حينما تدعوهم الضرورة الملحة ، ورال الى حد يعد
ما كان يكابده الجيس كله خلال الساء من هم مقم بسبب قلة
المثوبة ، تعد ولى الساء ، وجاء الربع الطاق ، وهذا البحر ، ولم
يعد الأسطول الراسى بالمياء يلتقى مسعة فى الدخول أو الحروح دى
شاء ، عدا الى جانب أن الطرق غدت سهلة المسالك بفصل الدف
المزايد . فاستطاع كل ذى مصلحة أن يخرج لانجاز مصلحه من
غير عسر .

كذلك رجع الى الجبس الصلسون الذين كانوا مصوا لعضاء
وقهم فى الفلاع والمدن المجاورة ، فرارا من شطف الحناء وتسويها
فى المعسكر ، وجهزوا أسلحتهم وقويت عزائمهم ، وأعدوا عديهم
للقتال .



على أنه فى هذا الوقت بالدات جاءب الأحبار الى بلدوين - أخى
الدوق - بأن الجيش فى صراع مرير ضد المجاعة ، فتفطر دابه
بالأسى الصادق ، وعزم على امدادهم بضرورات العيس من فائص
أمواله الخاصة الى أنعم الله بها عليه ، فكانت عطاياها السخية من
الذهب والفضة والإخمسة الحربية والجياد الصافيات رعب ذلك من
كل غال وثمين بلسما داوى ظروف كل زعم ، ولم يهصر كرمه على
كبارهم فحسب ، بل تعداهم الى الكثير من عامة الناس ، مما أكسبه
ميل الجميع اليه وحبهام اياه ، وزيادة على ذلك فان سخاءه لم يقل

عن هذا بجاه مولاه وأخيه الأكبر ، فأمر بأن يحول الى حودفروى
جميع ما تغله أملاكه الخاصة الواقعة على ذلك الجانب من نهر الفرات
حول بل باشر والاقليم المجاور له ، فأمنه بالحبوب والسعير والزيت
والنسذ ، الى حاسب خمسين ألف قطعة ذهبية وصله بها .

★★★

كان هناك عظم من عطاء الأرض شديد البأس اسمه
« نيكوسوس » تربطه ببلدوين وشائج المودة الصادقة ، وقد قام
من لماء ذاته وبدافع من تقديره لبلدوين ، بإرسال طائفة من رجاله
يحملون الى الدوق فسطاطا كبير الحجم ، بديع الصنع هديه منه
إليه ، الا أن باكراد نصب كميناً لاصطاد الحدم الموكل أنهم حراسه
هذه الهدية ، وأمر باغتصاب هذا الفسطاط ، وأن يحمل الى
بوهمود ، كانه هديه منه هو ذاته إليه ، فوصل الى سمع الدوق
بأ هذا العمل السخيف مع تفصيل شامل للحادث كما رواه خدم
نيكوسوس ، وحنداك خرج جودفروى مسرعا معه كويت
فلاندرز الذى نوبى بسه وبسه وشائج الصداقة الصنفة طوال
الرحلة وذهب الى بوهمود طالبا اليه أن يرد عليه الهدية التى
كانت مرسلة اليه هو ذاته ، ولكنه اغتصبها لنفسه ، غير أن
بوهمود ادعى أنها مهداة اليه هو ذاته من النبيل «باكراد» ، وزعم أن
من حقه السرعى الاحتفاظ لنفسه بما يطلبه منه الدوق ، فلما خيف
أخرا من وقوع شقاق فى صفوف الناس ، أو حدوث نزاع بين
القادة ، استجاب [بوهمود] لالتماسات الزعماء ورد الى
[حودفروى] الفسطاط الذى كان مهدى اليه ، ومن ثم عادت المباه
الى مجاريها مرة أخرى بين القائدين ، على أحسن ما تكون العلاقات .

ويخل الى أنه من المستغرب جدا أن يصر رجل كالدوق يماز
بدمانة الخلق وحسن الطبع هذا الاصرار الشديد على المطالبة بشيء

ناوه غير هام كهذا السئ . ولا يستطيع حيال ذلك الا أن أقول ما حاء
في المل « ومن ذا الذي يرضيك سجاياه كلها » وما حاء في مل
آخر « لكل جواد كبوه » ، كما ان هناك ملا غير هدين يقول « يجور
للمرء في المهمة السافة أن يفتّر لحظة » . ذلك لأنه كثيرا ما يرى
في أنفسنا انحرافا عن حادة الصواب يقضى به قوانين الطبيعة
البشرية .

- ١٥ -

سرب في هذه الآونة سائته عمت كل المواحي يقول أن أحد
أمراء الفرس الأقوياء استجاب لمطالب الاطاكين الخاصة - ولالاح
قومه المسنمر ، فأمر بحشد العسكر من كافة أرجاء مملكته ، وارسالهم
بحدة الى المدينة ، وقد أداغ مرسوما تالفا يأمر فيه بزحف حرس
بركي قوى على بلاد السام ، اصطفى لقادته جماعة خاصة من الأمراء
وكل البنيم هذه المهجة ، ولم سر هذه السائنة في العالم الخارجي
وحده فحسب ، ولا عرفت هناك فقط ، بل لقد تحدث بها أيضا جميع
اللاجئين من المدينة الذين فروا الى معسكرنا وكدوا صدقها الذي
أخذ يزداد يوما بعد يوم ، حتى قيل ان هذا الجيش أصبح على أبواب
المدينة ، فاستبد الذعر بجيشنا واستولى عليه الفزع .

في هذه الأزمة قام ستيفن كونت شارترز ، وهو رجل نسل
واسع النفوذ ، نصبه الزعماء رئيسا لمجالسهم يستشيرونه ، وينزلونه
منزلة الوالد لرجاحة عقله التي لا تجارى ، وحسن حكمه على
الأمر ، أقول قام هذا الكونت يسأل اخوانه أن يأذنوا له - وقد تعلق
بالمرض - أن يفارقه ليذهب الى الساحل ، مستصحبا معه خدمه
وأتباعه وكل ما يملك ، وكان ما أخذه معه شيئا كثيرا للغاية ، أما

عذره الذى قدمه بين أيديهم نهر رغبته فى الإقامة بعض الوقت فى الاسكندرية حتى يسرد صحبه وبسه بتاحه نصسه على العوده اليهم .

وقع الاسكندرونه على شاطئ البحر ، ولا بعد كبرا عن المناء ، وعسر المدخل الى صليعبا .

وصحب [سبتس] فى مبادرته هذه أربعة آلاف رجل كانوا قد جاءوا فى معيته ، فلما بلغ الساحل مضى الى الاسكندرونه فى انتظار ما تتمخض عنه الأحداث ، ورسم ختلنه على أن يعود الى الحس ان احرزت فواننا النصر الذى يسده بحجة أنه نقه باما من وعكبه ، أما ان حرت الأحداث على العكس من ذلك فسوف يرجع الى مقاطعه الخاصة فى السفن التى كان قد جهزها ليكون على أهبة الاستعداد لذلك ، فانطوى هذا المسلك من جانبه على العار المقم وضاع حسه الى الأبد .

ولقد أزعج فعله المشين هذا الفاده الذين خلعهم فى المعسكر ، وراوا - وكان حقا ما راوا - أن ما فعله ان هو الا سبة لا يحى عارها ، ولا يذهب شئها ، وأحسوا فى الوقت ذاته بحزن تنفطر له المرائر على هذا الرجل النابه الذكر ، الذى لطخ بمسلكه هذا شرف بيه وحط من شهره ، فراحوا يتنافسون - وكلهم فزع - كبف يواجهون هذا الحادث الذى لم يكن موقعا قط ، لما يحمل فى طياته من خطر يتمثل فى أن قد يقنقى خطاه سواء ممن لا زالوا معهم فى المعسكر فيجروون على القيام بمثل ما قام به ، ومن ثم انفقوا أخبارا على أمر لم يشذ عنه أحد منهم الا وهو أن يبعثوا من ينادى بمنع أى شخص كائنا من كان هذا الشخص من مفادرة المدينة ، فان ترك أحد ما المعسكر خلصة من غير اذن الزعماء ، لم تشفع له قط وظيفته الرسمية ، ولا خدماته التى يكون قد أداها ، من أن يصدر ضده قرار

الحرمان ، وأن يحكم عليه بالعار الأبدي ، كما لو كان قد فعل نفساً من غير ذنب ، أو أمتس قدس نفسه ، غداً إلى حجاب المزال أقسى أنواع العقاب به ، وترتب على هذا الفرار بما تضمنه من الزجر والخوف من العقوبة أن أصبح الكل مدد ذلك الحى عن برك المعسكر ، حتى ولو لفترة وحشة ، وأطاع كل واحد منهم القرار كما لو كان هذا الواحد دبرياً يستحب للأمر طواعية ومن غير معارضة .

- ١١ -

اعتنقت أنطاكية - مدينة الله الحبية - مله المسيح زمن الحواريين ، حين بسر بها أميرهم - كما قلنا - وظلت ومة لها ماهرة بها حتى وقتنا الحاضر .

وسنما كانت أقاليم السرق كله تدخل تحت حكم خلفاء حميد [صلى الله عليه وسلم] ، وتنتشر فيها عقيدتهم ، أبت هذه المدينة أن تخطر عليها أنه أحد بصرى ثم ما بصرى هي ، وعلى الرغم من سيطرته [المسلمين] تل جميع البلاد المملدة من الخليج الفارسي حتى المسفور ، ومن الهند إلى أرض الأسمان إلا أن مدسه أنطاكية هذه انهدرت دون غيرها من المدن المحاطة على إيمانها سليماً غير مضمور ، وحرص على حرمها وهي بصرى وسط أم محالفة لها .

غير أن ما كابده [المدينة] من كربة الحصار على مدى أربعة طويئة قل في ساعد مواطنيها الفضلاء ، كما أرققهم هجمات العدو التي لم تعد محتملة ، فما لبثوا - قبل أربعة عشر عاماً من الوقت الذي نكلم عنه الآن - أن تلاشى صمودهم ، واضطروا لتسليم بلدتهم

أنطاكية الى عدوهم ، وحدث انه لما بليت جيوسنا أسوارها كان جل سكانها من المؤمنين الصادقين ، ولكن لم يكن لهم أى حول أو قوة فى المدينة ، وقد احترف معظمهم التجاره ، واشتغلوا بالحرف البدويه أجراء عند عربهم ، ولم يكن مسموحا لهم ولا لأهل المال الأخرى غير الترك بمزاولة الأعمال الحربية أو شغل الوظائف الهامة .

وحرّم على الصليبيين احرار السلاح ، أو ممارسة أى سىء بمب باى صلة لسنون الحرب ، لذلك ما كاد الحبر بافتراب الحجاج القادمين من الغرب يصل الى مسمع كبار رجال أنطاكية ، حتى ازدادت ريبتهم فى المؤمنين(١) عن ذى قبل ، ومنعهم - لاسيما بعد حصار المدينة - من مفادرة ييوتهم ، فكانوا لا يخرجون منها الا فى ساعات فرضوها لهم .

☆ ☆ ☆

كان بين أهل المدينة بعض أسرات معسة شريفة الأصل كريمة المحتد ، توارثت المجد القديم عن الفضلاء ، وكان من بينها أسرة بارزة بسبب أصلها العريق تدعى بسى «زردة» ، التى تعنى فى اللغة اللاسسة أبناء صناع الزرديات ، ولهذا سمي بنوها بهذا الاسم ، وربما كان ذلك نسبة الى اشتغال جدّهم الأكبر بهذه الحرفة ، أو لأنهم هم أنفسهم استمروا فيها ، ومن المحتمل أن بعض رجال من هذه الأسرة كانوا لا يزالون هذه الصنعة ، ويعملون فى هذا الفن الذى ظل على مدى أحوال متعاقبة وقفا عليهم ، حتى أورنهم هذا اللقب .

(١) يعنى المؤلف بهم المسيحيين من سكان أنطاكية .

وكان هناك برج يعرفه الناس ببرج الأحبين يقع في الجانب
العربي من المدينة ، ومجاورا للبوابة التي يعرف اليوم باسم سبت
جورج ، وقد خصص هذا الرمح لملك العائلة حتى يمكنهم مراقبة
عملهم في طمأنينة في هذه الحرفة التي كانت ذات أهمية قصوى لكل
من المدينة واليهما .

وكان من هذه الأسرة شقيقان يدعى أكبرهما بفروز ، وهو
رجل قوى النفوذ ، عظيم الجاه ، الى جانب أنه كان كبير عسيرة
وأسرته ، وكانت تربطه أواصر صداقة مينة الثرى بوالى أنطاكية
[باغى سيان المسلم] الذى أهدق عليه نهما كبيرة سرفه بيا ، فكان
فروز كاتم السر فى القصر ، الى جانب تقلده غير ذلك من الوظائف
السامة .

وسمع فيروز بأن « بوهيموند » أمير كبير دائع الصب ، رله
صلح بارز فى كل ما هو جار فى الخارج ، ومن ثم ما كاد الحصار
يبدأ حتى نجح فيروور فى كسب ود بوهيموند بواسطة الحانات
المراذفة بينهما ، كما ظل فرووز طوال اسنمرار الحصار حريها على
هذه الصداقة ، فلا تنقصى يوم حتى يوافى بوهيموند بمشمل
ما يجرى بالمدينة ، ويبعث اليه بخطط ياغى سبان ، واذا كان فيروز
رحلا داهية ، فطما ، يقظ الفؤاد ، فقد حرص كل الحرص على أن يظل
خير اتصاله بوهيموند سرا مكبوما بينهما ، ويحج فى ذلك غابة
البحاج ، لانه كان يخاف أن يحدق الخطر الكبير به هو وأسرته من
كل جانب ، ان وقف سواهما على هذا السر .

وكان بوهيموند هو الآخر شديد الکتمان لما بينه وبين هذا
الرجل من صداقة فطواها فى أعماق قلبه ، ولم يعلم أحد بشئ قط
عن صلة الواحد منهما بالآخر ، ولا بالرسل المستمرة بينهما ، بل
لقد خفى أمر ذلك عن الجميع ، حتى عن خدمهما وأهل ستها .

اسمى التفاهم السرى بين هذين الرجلين - والذى أسرى اليه حالا - قرابة سبعة أشهر ، زخرت بالاصال الودى بينهما بساا الطريقة التى يمكن أن يتم بها اعادة المدينة الى المسيحيين ، وطالما ذكر بوهيموند فيروز بهذه المسألة حتى انتهى الأمر أخيرا بغيرور - كما قبل - بأن بعث اليه بالرد التالى على يد ولده الذى كان يحمل الرسائل المتبادلة بينهما :

« اعلم يا أحسن الرجال ، ويا من هو أغلى على من الحفاة دابها، أننى قد أحببتك حبا خالصا منذ اللحظة التى ساءت فيها اراده الله أن تقوم بيننا هذه الرابطة من الصداقة المتبادلة ، ودعنى أدكرك أكر من هذا أننى وجدت فى كلمائك صادق العزم الذى لا سوفر الا فى الرجل الصالح ، ومن ثم فان حبك أخذ بزداد رسوحا فى فؤادى يوما بعد يوم ويعظم قدرك عندى . أما عن الأمر الذى كسر نذكرك لى به فقد أمعنت فيه النظر مليا ، وعنبت ببحة مرارا ، وقلبت على شتى جوانبه ، فأيقنت يفينا جازما أننى اذا استطعت أن أعود بلدى الى حريته السالفة ، وطردت هذه الكلاب القذرة التى تعانى تحكمها فبنا ، وأحللت بدلا منها شعبا يعبد الله ، فان بضعب أخرى يوم الحساب ، وسوف أنعم بصحبة القديسين المماركن الى الأبد .

« ومن ناحية أخرى ، فلو قمت أنا بهذه المهمة الساقة الخطرة ، ولم يكب لى النجاح فيها ، فلن يسك أحد فى أن سيكون ذلك ديانا ببنى وانهار سمعة عسيرتى الطيبة تمام الانهار ، ولن يجرى على اللسان اسمنا أبدا ، غير أن الأمل فى النصر لا يزال يراود النفس فى القيام بهذه المخاطرة ، ومع ذلك فأننى مستعد للنهوض بهذا العمل ان وافق رفاقك على أن تؤول اليك أنت وحدك دون سواك

عده المدينة حين استسلامها بعصل جنودى القويه ، وبعون الرب
الذى ربط بيننا برباط الصداقة الوثيق ، وساقوم بالمهمة مهما كانت
صعوبتها ، وسيكون قيامى بها بسبب حتى لصغارى الذين أرجو
لهم ولك كل الخير » .

« وسأسلم اليك من غير عائق هذا البرج السيد الحصانه .
الذى يعرف أنه فى حوزتى ، وحينذاك نستطيع أب ومن معك دخول
المدينة آمين سالمين » .

« أما ان رأيت انكم جميعا مساوون فيما سبكم ورأيب أب
أن نقسم وإياهم المدينة حين يؤخذ على هذه الصورة فاسى لى أرج
بنعسى فى هذا المأزق الخطير ، ومن أجل خاطر قوم ليس لى هوى
فيهم » .

« وانه لينحتم عليك - من أجل الصالح العام وسلامة الجمع -
أن ببذل قصارى جهدك للحصول على هذه الموافقة من القادة المربطين
بك ، وكن واثقا كل الثقة أننى حالما أتسلم منك الخبر البمين بأنكم
وفيم بهذا العهد ، فلن أنواى فى فتح باب المدينة لكم لدخلوها .
وهذه هى الغاية الى تلح على من أحلها » .

« وأزيدك علما بأنك ان لم تتحرك بأسرع ما يمكن ، فلن
تدخلوها بعد ذلك أبدا ، لان حاكم هذه المدينة تصله الرسائل ،
وتنوالى عليه الكتب كل يوم ، مقسرة الى أن الامدادات الى تسبح
من كافة أرحاء الشرق لمساعدته قد عسكرت حول نهر الفرات ، فى
قوة بلغت مائتى ألف فارس ، فاذا وحدتكم هذه الجيوش لا زلم
خارج المدينة فلن تكونوا قادرين بعد ذلك أبدا على مقاومة قوة الأهالى
وحوش حلفائهم القادمة » .

نزع بوهيموند مد تلك اللحظة في بذل أقصى جهده لاسسكاه مساعرا كل شخص من القادة ، ومعرفة ما يدور بفكر كل منهم على حدة ، والوقوف على الخطة المتوقعة اتخاذها بشأن المدينة المحاصرة حين يتم الاستيلاء عليها ، وبرع كل البراعة في اخفاء مسروعه . الا عمن اعتقد أنهم موافقوه على رعيانه ، وكان اذا رأى الأمل صعبا في نجاحه لدى بعض القادة أرجأ الموضوع الى وقت آخر ليكون اكبر ملاءمة . ومع ذلك فقد وافقه على مطالبه كل من دوف حودفروى . وكونب نورماندى ، وكونب فلاندرز ، وهيج العظم ، وصارحوه بأيديهم لما يريد ، واستصوبوا سر الرجل النبيل [فيروز] وأنشوا على قطته . وكنمو عزمه في صدورهم كمانهم لأمر لا يسعى أن يعلم به أحد قط .

أما كونب تولوز فكان الوحيد الذى شذ عنهم فيما يتعلق بهذا الموضوع . وترتب على موقفه هذا ارجاء المسألة ارجاء كاد أن يدمر ما اتفق عليه ، لان صديق بوهيموند الحميم [أعنى فيروز] ، كان رافضا كل الرقص أن يقوم بعمل فنه كثير من الخطر عليه من أجل خاطر الآخرين ، كما ان بوهيموند لم يكن بالشخص الذى يجهد نفسه فى عمل للصالح العام ان لم يعد عليه بالجدوى ، لكنه اسمر مع ذلك فى الحفاظ على مودته الصادقة مع فيروز فحافظ على الدوام بهداياه زملائه ، كما ظلت الرسائل موصولة ومتداقة سنهما ، وأخذ كل منهما يراعى ما بينه وبين صاحبه من الصداقة ونتمها .

عاد في هذه الأثناء الى أنطاكية المبعوثون الذين كان باعى سيان وأهل أنطاكية قد أرسلوهم الى فارس بغية استجداء العون ، وقد نجحوا في انجاز سماربهم ، وبحققت مطالبهم ، ذلك لان أمير فارس العظيم كان قد سمع بما تلفاه أنطاكية من الأهوال فتحرك فله عطفها عليها ، وكان من صالحه صد محاولات الصليبيين والعمل على سل فونهم حتى لا يطلعوها لفتح بعض أحرار من مملكه بحد السف « ومن ثم بعث الى بلاد الشام حشودا لا يحصيها العد من الفرس والبرك والأكراد ، بقيادة واحد من أصدقائه المقربين ، كان يستطيع أن يعتمد على شجاعه وإخلاصه وهمه كل الاعتماد ، والقي اليه بالقيادة ، وجعل تحت امرته أمراء سنين وفودا وأمراء خمسين وصاطا آخرين دونهم مربية ، يطعون أمره وينفذون كل ما يقضى به ، كما روده يكتب لها قوة القانون وجهها الى ولاية جميع الأقاليم البابعة له ، والخاضعة لسلطانه متضمنة أمره الى كافة الناس والأمم والقبايل والشعوب على اختلاف ألسنتها ، أن ينبعوا - من غير تردد - ابنه المحبوب «كربوغا» الذي وكل اليه قيادة جيوشه بسبب خدماته ، وأمرهم بالامتثال لسلطان هذا الرجل ، والزمهم بطاعته في كل ما يأمرهم به ، وأن يكونوا وفق مشئنه فلا يعارضه فيها معارض .

رأس كربوغا - بأمر مولاه - الجيوش التي ذكرناها حالا ، وزادها عددا بمن ضمه اليهم من العسكر الذين جمعهم خلال زحفه في البلاد ، فدخل العراق بمائتي ألف رجل ، وعسكر في ناحيه الرها ، حيث حافته الأخبار المختلفة وهو بها بوقوع هذه المدينة وكل الاقليم المحيط بها في قبضة أحد قادة الفرنجة الذي كان زاحفا ضده فأجمع النية اذ ذاك على مهاجمة هذه المدينة - قبل عبوره الفرات - وعزم على الاستيلاء عليها قسرا .

ببد أن بلدوين كان قد علم بقدوم [ياعى سيان] فجلب أناسا شجعانا من كل النواحي الى حول [الرها] لمساعدته ، كما عى بتوفير كل ما يحتاجه مدينته من الطعام والسلاح ، لذلك لم يزوجه كثيرا بهديدات كربوغا السديده له ، حين أمر الأخير أن يبادى المنادون بأن الجيوش موشكة أن تغير على الرها ، وأن تضرب الحصار عليها بكل ما أوتيت من قوه ، ولكن المدينة قاومتها فى عناد . وسرعان ما نحلى للعساكه لى 'جسى كبرا من هذه المحاولة ، ولن يكون تقدمه فيها ملحوظا ، مما حمل فى النهاية جماعة من أهل الحجى على الذهاب الى قائدهم ، وطال بينه وبينهم الجدل ، حتى انتهى به الأمر الى نبذ هذه المحاولة وعدوها محاولة عارضة ، انصرف ياعى سنان اثرها لمتابعة خطته الأصلية ، التى تنلخص فى عبور الفرات والاسراع لنجدة أنطاكية ، وهو الهدف الذى جاء من أجله ، وذكر له هؤلاء الرجال أن أخذه الرها وأسرهم بلدوين لن يستغرق منه أكثر من يوم واحد ، وذلك فى طريق عودته من أنطاكية بعد رفعه الحصار عنها .

★★★

ظل كربوغا محاصرا الرها ثلاثة أسابيع (١) ، اضاع فيها وقته سدى وبدد جهوده عبثا ، ثم بدا له أن يأمر فواكه بعد ذلك بعبور النهر فأمرها فاجنارته فسار خلفها محمى الحظى فى همة كبيرة الى هدفه الذى خرج من أجله ، وكان توقف جسس الأعداء أمام الرها ، هو السبب فى عدم استطاعة بلدوين أن يكون حاضرا أثناء حصار أنطاكية ، كما كان السبب فى خلاص قوما الذين كان لابد أن يتخرج موقفهم - كما تنبأ فيروز صديق بوهيموند - لو أن كربوغا زحف مباشرة على أنطاكية ، وأخذها قبل استئلاء الصليبيين عليها ولكن شامت نعمة الرب أن تقع أنطاكية قبل وصول المارفين ، والا كان من الصعب على الصليبيين أن يقفوا فى طريق كربوغا .

(١) ذكرت الترجمة الانجليزية أنها من ٤ الى ٢٥ مايو .

عمت التسائحه أرجاء المعسكر في نفس الوقت بتعلم هذه الحشود الكثيفة وأكد الكثيرون صدق هذا الخبر ، فأيقن المعسكر أن العدو قد وصل الى اطراف أنطاكية ، فاستبدد الدرع بجم استبداداً كبيراً ، واذ ذاك قام القادة فبعثوا في اتجاهات مغلقة رجالاً من دوى الخبرة لا يسك أحد أبداً في اخلاصهم وشباطهم ، وطلبوا اليهم أن يقاتلوا وجهاً لوجه أناساً لا يفر ولا يؤم حتى يمكن الحكم الصحيح عن مدى صدق ما أذيع من الأنباء ، وقد اخبر لهذه المهمة محاربون سجعان من ذوى الرتب العالية هم « دروحو دى برل » و « كلاريبولد دى فنديل » و « جيرارد دى سيريلى » ، و « رينالد كونت بول » وغيرهم ممن عاب عما أسأؤهم فانتسروا مع أسباعهم في نواح محله. وبدلوا همهم في التقصى الدقيق فأرسلوا من قبلهم وبدورهم الكسافه الى النواحي القاصية ، فصارت بين أيديهم بهذه الطرعه اخبار موثوق بها تؤكد بجمع المعسكر [الاسلامى] من سنى النواحي واصمامهم بعضهم الى بعض في جيش واحد ، كأنهم الأنهار نجمع لتصب في البحر ، فلما فرغ الزعماء من ذلك عادوا مؤكدين للقاده الدين كانوا قد بعثوا بهم أنه لا موضع للشك في الأنباء التى بلغهم . وبذلك أخذ كبار قادة الجنس الصليبي حذرهم فبسل سبعة أيام من وصول كربوعا بقواته أمام أنطاكية . فأوصوا الحواسس أن يعملوا جهدهم على بقاء هذا الحرس طى الكمان ، فلا يسمح به أحد من الناس ، خوفاً من استنبلاء الذعر على جموع العامة التى أضاعها الجوع ، وأرعبها الشدائد التى استمرت طويلاً مما قد يدفعها الى تدبير خطة للهرب الذى كان طريقاً سلكه فى الواقع منذ وقت قريب بعض الزعماء الكبار .

وحينذاك نجمع الزعماء لنبادل الرأي حول الموقف الذى أصبح يكرب الحمله بأجمعها ، ويهدد بمآزى يذهب ريحها ، فسرعوا بروح مواضعه وقلوب > سعه بدبرون الاحراء الى بجعى علمهم اتحاذاها فى مثل هذه الحال الطارئة ، فافترح بعضهم أن نحرر كل القوة المشتركة فى الحصار ، فننصدي للجموع القادمة على بعد مئس أو ثلاثة أميال من المدينة ، وهناك - بعد رفعهم أكف الصراعة الى السماء أن نمدهم بالعون - يحاولون مقابلة ذلك القائد المتغطرس . المسفحة أوداحه بما يس معه من الألوف المؤله .

على أن فريقا منهم فضلوا أن يخلعوا وراهم فى المعسكر فسما من الجيش ، لمنع الأهالى من التسلل والانضمام الى المعسكر الوافد اليهم ، وأما ذلك القسم من الجيش الصليبي الذى يساو هؤلاء فوه وكان أخبر منهم بفن الحرب فعله - حسب الاقتراح الأول - الخروج لصد الكفار على بعد مئلين ، فان رضى الله القدير بما فعلوا فابلوهم بعون منه .

وبينما كانوا يناقشون هذا الموضوع منافسته دفيقه ، ويبادلون رأى فيما بينهم تبادلا حرا ، نسلل بوهيموند فى هدوء وانحى جانبا بطائفة من كبار القادة هم : جودفروى ، وروبرت كوت فلاندرز ، وروبرت كونت نورماندى ، وريموند كونت نولوز ، حنى اذا أصبحوا وحدهم فى ناحية منعزلة ، وعلى مبعده من الآخربن خاطبهم قائلا :

« اسى أرى أنها الاحوه الأحياء العاملون فى خدمة الرب . انكم قد انزعجتم فرعا من دنو هذا الزعم ، والذى يقال انه أصبح قريبا منكم كل القرب ، ولقد كاني لكل منكم - أثناء المؤتمر الذى انعقد

مد قليل - رأيه الذي يخالف رأى سواء ، والذي يصدر عن رعاياه
الحاصه . ومع ذلك فلس نم اقترح مس الموضوع من حدوده .
مساوا- حرجا حتما معا كما اقترح بعضكم ، او امام قريبي من
الجند فى المعسكر ، فالواضح أن وجودنا الكثيره مهما طال
استمرارها ، لن يجدى فضلا ولن يؤتى ثمرها . ذلك لأن فى حرجنا
جمعا معا نهاية للحصار . وفصاء على أهدافنا . اد يعود المواطنون
احرارا لس علبهم رغب ، وحسناك فد يصمون الى العدر أو
يدخلون عسكر حلقائهم الى المدينة .

« كما أنه لا محيص من حدود نفس السيجة لو بقى قسم من
الجند فى المعسكر ، ذلك لان جميع قواتنا المتحدة حتى الآن لن
تكون قادرة على كبح جماح المواطنين رغم ما هم فيه من ضيق يعب
على الناس . ورغم أنهم لا يأملون قط فى جنده بأنبيهم فعيبيهم ،
فكيف ينسى اذن لجزء ضئيل من جيشنا أن يلزمهم بالبقاء داخل
الأسوار ان وصل حلفاؤهم ؟ ويبدو لى أنهم اذ ذاك سيعملون واحدا
من اثنين : اما أن ينصموا الى حلقائهم وحينذاك سسد شوكة قواتهم
المتحدة فى الهجوم علبنا بأعداد نفوق أعدادنا . واما أن يحالوا
بطريقة أو أخرى لادخال جند الحلفاء المدينة ، مع نذلهم الجند فى
برود أنطاكية بالسلاح والميرة مما يسد من ساعدها . وفى هذه
الحالة لن يكون عندنا ما يؤكد لنا الغلب على المدينة - حتى واو
أعانا الله فهزمننا العدو خارجها ، لذلك يبدو لى أيبا الساده العظام
الموقرون أن الواجب يفرض علبنا أن نسعى السعى كله للاستيلاء
على أنطاكية قبل وصول هذا القسائد الكبير ، فان سألمونى
وما وسلبك الى ذلك ، وكف يمكن بطسق خطة كهذه الخطة . فابى
أقرر لكم - حتى لا أبدو وكأنى اقترح عليكم مقسروعا بسجل
اتجازه - أننى قادى على أن أقسح لكم طريقا ، نستطيع منه أن نحقق
هدفنا المنشود نحققا سرعا وسبلا . ذلك أن لى نأنطاكية صدبقا

صدوقا ، عافلا كل العمل ، بعدر ما برى عين الانسان العقل ، وأبعد أننى فد بينت للبعض منكم منذ قليل أن تحت امره هذا الرجل برحا منيعا شديد الحصانة ، وأنه قد رضى عن طيب خاطر أن يسامحه لى تحت شروط خاصة ، وكنت قد التمسنت منه مرارا أن يفعل ذلك فاستجاب لى بعد الحاح طويل ، والتزمت له - ردا لهذا الحميل - أن أصله بقدر كبير من المال ، وأن أصحن له ولذريته من بعده أملاكا شاسعة ، واميازات سى نمنا يكافىء ما قام به ، ان جرت الأمور وفق ما بهوى

» فان رصبم أيها الساده الأعزاء أن نصبح مدينه أنطاكية بحب حكى - ان تم الاسبلاء عليها بجهودي الكبيرة - وفلم أن تكون ورائه فى ييسى الى الأبد ، فانى مسعد حينذاك أن أخرج الى حير الوجود ما اتفقت عليه أنا وصديفى (١) هذا ، أما اذا أبسم ذلك ، فلمحاول كل واحد منكم أن يلتمس طريقا أحسن مما ذكره ، يمكنه من الاسبلاء على المدينه بنفسه ، فان نجح فى ذلك كانت ملكا خالصا له لا يسافقه فيها أحد ولا ينازعه ملكيها مبارع ، وسوف أذعن أنا لما فيه صالحه ، كما أننى مسعد لأن أتنازل له عن أى نصيب يكون لى فى الأمور الحالية » .

- ١٧ -

أصغى الزعماء جميعا لكلمات بوهيموند هذه بقلوب نعمرها الفرحة ، واستجابوا لرجائه ، معترفين بجميله ، ولم يشذ عنهم سوى كوست نولوز ، الذى أعلن فى اصرار أنه لن يخلى عن نصحه

(١) المقصود به « ديور » .

كائن من كان . على حين قطع الآخرون على أنفسهم العهد ان يصحوا
 المدسه بملحقاتها ليوهمود . لتكون وراثة في بسه الى الأبد .
 وأقسم كل رجل منهم - وقد سخط بهما - أن يبيع الأمر سرا
 مكسوما لا يحتر به احدا قط . ثم أخذوا كلهم في الوفاء دانه بلجون
 على الأمير بوهمود أن سادر لحسم هذا الموضوع بما عهد فيه من
 الششيط . حتى لا يؤدي الإبطاء الى حدوث خطر ما . ثم انص
 الاجتماع . فقام بوهمود بما أئر عنه من طبع لا يعرف الإبطاء، وعبر
 بحرق لتعدد عشروعه . فاتصل في لحظه بصدبه فرور بواسطه
 الرسول الذي اعاد ان يكون الواسطه بينهما . واحمره أن الزعماء
 سمحوا له بكل ما سألهم اياه ، وراح يلج على فرور ، وسجله
 بما بسهما من الايمان الصادق ، أن يوم في اللله الماله عون
 الله ببعيد الحطة التي اعقا عليها . فابلق ذلك الحر نفس سامعه
 الوفي . وغلبت عليه نشوه السرور فو كل ما تصور .

★★★

على أنه جرت حادثة قرب هذا الوقت سلبت من عزم [فيروز]
 على السير قدما في المؤامرة التي دبرها ، ذلك أنه بينما كان مسعولا
 انسد الاسعال بأداء ما بفرصه عليه واحسانه الكبيرة التي
 يعتصمها وضعه في بيت مولاه . بل وفي البلد كله ، اذا تأمر عاجل
 لا ندره يجد أثر ارساله ولده الشاب الى داره ، اذ ما كان الغني
 يلقها حتى طائع منطرا مشييا فاضحا . حين ساهد أمه بين ذراعي
 أحد كبار الأبرك في وضع مزر أسخطه غايه السخط . وارتعد
 منه أوصاله فرعا . وتعزرب له نفسه . فانكفأ سرعا الى أبيه
 واخبره بالفصحة . فحق فيروز حين الزوج المعلوم في سرفه ،
 المهان في كرامته ، وقيل انه قال في مرارة ، ألم بكف هذه الكلاب
 القدره أنها تعرض علينا رقاها الظالم ، وتذهب أملاكها بما ستزده منا

بوما بعد يوم حتى تسبى بالنساء الأسرى ، ونقطع الروابط
الزوجه ؟ والله لأضعى - ان عسى - نهاية لهذا العجور .
ولأحارسهم بعون الرب الجزء الأوفى الذى هم أهل له .

قال فرور هذه الكلمات وقد كم حواشي على ما يحسه من
شعور بالاهانة التى لحقت به ، ثم أرسل الى بوهيموند - كما جرت
العادة - ولده الذى يشاركه أسرار ، والذى كان هذا الانيم الذى
نزل بأمره قد اسورى غضبه ، وأضرم غيظه ، وأمره أبوه - اد
عه الى المائدة بيهيموند - أن يطلب اليه أن يسعد لكل شيء
يستلزمه العمل الذى بين أيديهم اسعدادا دقيقا ، وان يخبره أنه
لن يقصر في شيء من جانبه ، بل انه موف بما عاهده به ، وموعدهما
اللغة التالية .

كما أشار عليه أن يفادر الزعماء جميعا المعسكر
ووراء كل منهم أتباعه ، وأن تكون مغادرتهم المعسكر قرب الساعة
الناصفة ، حتى لحسبهم الرائي وكأنهم قاصدون الزحف على
هدوهم . فاذا قرب موعد الحراسة الليلية الأولى عادوا سرا ومضى
سكون مطبق ، ونهاوا قرب منتصف الليل للعمل حسب تعليماته ،
فاستصحب بوهيموند هذا الشاب فى السر الى القواد العالمين
بنخب المؤامرة ، وذكر لهم كل تفاصيل ما رتب حسبما اتفق عليه
مع فيروز بمساعدة ولده ، فتملك العجب نفوسهم جميعا من خطة
الرجل وصادق إخلاصه ، وأقروا ما رسمه ، واتفقوا على تنفيذه
حسبما رتب .

عبر أنه كبيرا ما يجد حذب من الاحداث لم يكن موقفا معمرص
مساريع لها مثل هذه الخطوره . اد ساور الربيه - الى يعورها
البريهان - نفوس مواطى أنطاكيه لاسبما من دفع على أكابهم
المستولية المباشرة عن أمس المدينه . واحك الشك فى نفوسهم اكبر
من اليقين بأن هناك مفاوصات تجرى فى الجفاء رمى الى تسليم
أنطاكيه ، وما لبب هذا الشك أن أصبح موضوعا عاما بلوكة جمع
الأسسة . مما دفع كبار المواطنين للاجتماع . وساروا الى الوالى
للتشاور معه فى حمر هذا الخالج الذى يضطرب به نفوسهم ، والذى
بندى محتلا كل الاحتمال ، ونقوم الدلائل الكبيره على ترجمحه .

وكان بأنطاكيه - كما قلنا - رجيل كبير من المسيحيين نحوم
حولهم الريب رغم براءتهم براءه نامة من هذه المؤامرة ، وكان من
يسهم ذلك الرجل النبيل الذى نمحدث عنه الآن ، والذى رغم اعنماذ
ياعى سبان على احلاصه الصادق اعنماذا كبيرا ، الا أن الرجال
الباردين الآخرين كانوا يربابون فيه أكبر من عمره ربية لم يجعله
موضع ثقهم .

لذلك عقد اجتماع منير بشأن هذا الموضوع فى حصره ياعى
سبان . تردد فى أثنائه اسم « فيروز » مع أسماء بصمه أفراد آخرين
كانوا مبار النشكك ، وكان هناك على ما يبدو كثير من الأسباب
التي تجعل على عدم تصديق ما ابهم به ، لأنه كان رجلا جم النشاط
وصاحب نفوذ فى المدينه يفوق نفوذ سواه من المسيحيين . وأخرا
رضح ياعى سبان لالحاح مسنساويه فأمر باحضار فيروز ، فأحصروه .
ويعمد الموجودون اثاره نفس الموضوع فى وجوده ليسمعوا ماذا يكون
قوله ، لكونوا فادرين على أن يقرروا - بناء على ما يقوله - اذا كان
ما يثار حوله من شك حقيقة أو منيا .

ولكن فرور كان رجلا شديد الذكاء حاضر البديهة فأدرك في لحظته ان هذا الاجتماع انما عقد من أجله هو وحده ، وانه هو ذاته موضع الاتهام ، ولذلك أخذ يراوغهم في إخفاء سره ، واطهار برأئه أمامهم ، ويقال انه رد على أولئك الذين اجتمعوا ليقصى أمره بقوله « ان بشكككم أيها الرجال المحترمون ، وأنتم كبار رجال هذه المدينة وسراتها ، لأمر يستحق أعظم السناء ، ولا يوفر مثله الا عند دوى العطف ، لانه من الحكمة الخدس بما يمكن وقوعه ، كما ان شدة الحذر في الأمر الجليل ليس بضاره ، لذلك يجعل الى انكم قد صدرتم عن وافع ليس بالنافه في أمر يتعلق بعيانكم وحيثكم ونسائكم وأبنائكم ، ومع ذلك فان قبلتم بصحني فان هناك طريقه عادلة عاجلة تؤدي الى العلاج الساجع والشفاء الفعال لهذا البلاء الذي يهددكم ، فالخيانة الملعونة التي يبعثكم بعد نظركم على النحوف منها لا يطدر لها النجاح الا بواسطة الموكول اليهم حراسة الأبراج والأسوار والعوامير على حفظ الأبواب ، فان ظنم ظن السوء بولاء هؤلاء الناس فاعمدوا الى مداومة استبدالهم بغيرهم ، حتى لا يطل الواحد منهم أمدا طويلا في مكان واحد ، يمكنه من أن يوثق مع العدو وشائج صداقة مدمرة ، لانه ليس من السهل اعداد مؤامره من هذا القفل في سرعه ، بل يحتاج في الواقع الى زمن طويل ، كما انه لا ييسر لشخص ما بمفرده أن ينجز عملا خطيرا كهذا العمل الذي لا بد ان يساهم فيه معه مواطنون يسعلون مناصب رفيعة قد أفسدتهم الرشوة حتى صاروا شركاء في الجريمة ، لكن اذا عمدتم الى القيام بتغييرات فجائية لهؤلاء الناس على غير توقع منهم لها تكونون قد قضين على كل فرصة لمفاوضات مهلكة من هذا القبيل » ، ثم أمسك فروز عن الكلام عندما بلغ هذا الحد من العول . وكان ملاحظاته ومعها الطيب في نفوس الذين سمعوها فاستصوبوها ، واتضح لهم انه قدم الدليل القاطع والبرهان الجلي على برأته ، وأنه قضى الى حد بعيد على ما خاومهم من السك في أمره .

وكان من الممكن ان يبادروا في لحطيم عده بسعيد ما أوصى به ، لولا أن النهار كان موشكا على الابصرام ، واللبل موشكك على الدخول ، مما يسحيل معه القيام - في ساعه متأخرة كهذه الساعه - بإجراء مثل هذا التعبير الرئيسى فى حراسة المدينه . لكن الذى استطاعوا عمله هو اصدارهم الأوامر بشديد الحراسه . شديدا صارما لحماية البلد ، غير أنهم كانوا جميعا فى جهل بما دبره ذلك الرجل من تدابير فى الخفاء ، واذ كان على بيته من أن الموقف سيبذل حالا ببدلا كبيرا ، فقد بذل عايه حينه فى السر فلما بمؤامرنه . وفى عجلة قبل وقوع أى شىء بحول دون تنفيذها .

- ١٩ -

ما كاد حسنا ينف أمام أسوار مدينه أبطاكة ، ويعرض عليها الحصار ، حتى ساور الشك الأهالى فى الاعريق والسريران والأرمن وغيرهم من معنقى المسيحية ، دون النظر الى الجنس الذى يهتمون اليه ، ومن ثم أخرجوا منها جميع المعزة . ومن لا يملكون المواد الضرورية لاعالة أنفسهم وأسرهم الصغيرة ، وقد فعل الأهالى ذلك حتى لا يكون هؤلاء عمثا بنقل كاهل المدسه التى لم يؤذن للنساء فيها الا الأبرياء ، ومن أملأت محارنهم بالثونة ووسائل العيش الكبيرة التى توفر الحياة لهم ولذويهم . وان كان هؤلاء لم سلموا من ارغاصهم على أداء خدمات كبيرة فرضت عليهم فرضا . الى جانب ما يكلفون به من أعمال جرت العاده على تكليفهم بها . وكان ذلك سيئا ثقلا بدا معه أن المنفيين الذين أخرجوا من المدينه كانوا أسعد طالعا ممن أذن لهم بالبقاء فيها ، فقد ضوعف عليهم الغرامات القدية التى أخذت منهم اغتصابا حتى لم يبق فى أيديهم

من المال سوى النزر اليسير الذى لم يسلم هو أيضا من استعمال
السدة فى ابتزازهم •

ولم يكثر أولو الأمر باحتجاجات هؤلاء ، اذ فرصوا عليهم
الغبام باردل الأعمال واسقها فى المدينة ، فاذا أريد بشييد الآلات ،
أو نقل حدوع الشجر الضحمة البعيلة ، كلهم بذلك فى لحظهم ،
كما أجبروا البعض منهم على حمل الحجارة والأسمنت وكل مواد
البناء ، وألزموا سواهم بجلب الأحجار الكبيرة التى اعتادوا دائما
وضعها وراء الأسوار بالآلات وربطها بالحبال التى سد بها ،
وما كان لهؤلاء الناس الا الامسال وطاعة رؤساء القفلة الذين لم
يكونوا يسمحون لهم بقسط من الراحة ، ثم بلغت هذه الشدة القفلة
ذروتها حين عقد مضطهدوهم اجتماعا سرىا قبل سمانية أيام من
الجلسة التى استدعوا إليها فيروز المشكوك فى ولائه وفرروا من
هذا الاجتماع الفتك سرا - وتحت جمع الظلام - تجمع المسيحيين
الذين يعيشون فى أنطاكية • على أنه كان بالمدينة زعيم عاقل قوى
النفوذ ، لا يكف عن اظهار صداقته للمسيحيين فى كل الأحوال ،
فسعى سعيًا حثيثا حتى تمكن - بعد لئى ورغم معارضة الآخرين
له - من أن يؤجل تنفيذ القرار العاصى بقيلهم مدة ثمانية أيام ،
ولولا مسهم هذه المهلة لكان من المؤكد ارسال الجلادين لتنفيذ
هذا الحكم القف ، ولهلك المسيحيون عن بكرة أبيهم بالسيف فى
نلك الليلة ذاتها •

كان الغرض من السماح بهذه الأيام الثمانية أن يثبت عندهم
باليقين الجازم عما اذا كان فى الامكان رفع الحصار عن المدينة ،
فان تأكد لديهم عزم رجالنا على الاستمرار فى الحصار فتكوا
بالمسيحيين ذبعا ، أما ان ثبت عكس ذلك مواء بالحياة على الأهالى
الذين سبقوا أن قضوا عليهم بالموت •

فلما انتهت فتره تأجيل الحكم ، وحالت الليلة الأخيرة عنه صدر الأمر سرا بسعيد ما فصوا به ، وكانت المدحة على وشك أن سم في نفس الليلة التي حددتها زعمائنا لتنفيذ الحطة التي زعمها بوهيموند وفيروز منذ أمد طويل . والتي سمع بعون الرب . اذلك فعى اللحظة التي شرع الصليبيون فيها فى احلال المدينة لم تشعر كبارها بالخوف من الصحة التي سمعوها ، فقد ذهب بهم الظ الى أن ما سمعوه لا يعدو أن يكون السروع فى بطمس الأوامر التي فصوا بسعدها فى مواطنهم البصارى .

لذلك فانه حين سم لرحالنا الاسيلاء على المدينة بلك الطريقة ، عتروا فى دور بصارها على كسر من حصوم ملتهم الذين كانوا حاءوها مأمورين بالفتك بالمؤمنين الصادقي .

- ٢٠ -

ولما كانت الساعة التاسعة سمع صوب المادى ينادى فى تسمى أرجاء المعسكر بخروج جميع كتابت الفرسا فى كامل عديهم وراء فوادهم ، وألا يوانوا عن تنفيذ الأوامر التي سوف تلقى اليهم . ولم تكن العامة هي وحدها التي تحفل جهلا باما بما دبر فى الخفاء . اذ الواقع أنه لم يكن يعرف السر سوى ثلة ضئيلة من كبار الرعاء .

ومن ثم فانه تبعاً لتربيئات فيور الحكمة ، عا درت كتابت الفرسا بأجمعها المعسكر ، ومنحت كل كتية منها وراء علم قائدها وساروا حتى ليطنهم الناظر اليهم أنهم ماضون لجهة بعيدة . لكن

الحقيقة هي أنهم كانوا يسطرون أن يسدل الليل سدوله على الكون
ويظلم الدنيا فيعودون الى المعسكر في صمت تام .



كان لفرور - رجل الرب هذا - الذي أدى للمسيحيين هذه
الخدمة الجلى الجليله - أقول كان له أح يخلب عنه كل الاخلاف ،
سواء في مساعره أو عرضه . ومن ثم لم يكن فرور يس في اخلاص
هذا الأخ ولذلك لم يفض اليه بالسر لعدم ائمانه عليه . بل انه
بدل عنه جهده لإخماء حططه عنه اخفاء تاما .

وحدث في الساعة التاسعه من نفس ذلك اليوم ، وقد أحدث
كانسا في معادره المعسكر أن وقف الشيعقان معا على إحدى شرفات
البرج . يطلان على المعسكر ، فشاهدوا الجند يغادرونه .

وأراد الأخ الاكر أن يسبر عور أخيه ، ويعرف ما يدور في
باله ، فحاطبه فائلا . -

« لكم أرى : أحى لهذا السعب الذي يدين بعض العقيدة
الى يدين بها أنا وأنت ، وكم تحزنى الميه الى سوف يلقاها
عاجلا . فها هم عسكريه بغادرون مخيمانهم في نقة وسكبة ،
لا يخافون سنا كان أوصاعهم أمه ، لكنهم لو عرفوا ما نصب لهم
من السراك وما يسطرهم من الدمار السامل ، فلربما اتخذوا اجراءات
أخرى تضمن لهم السلامة » .

فأجابه أخوه : « انه لحق منك أن تحمّل نفسك هما لا مبرر له ،
فانه لا محل لعطفك عليهم ، الا لبتهم جميعا هلكوا بسوف البرك
منذ أول يوم مست أقدام الترك هذه الأرض ... اذن لما

ازدادت أحوالنا سوءاً ، وما كان من المستطاع أن تكافأ الفوائد التي
نحنها من حيودهم مع المساق التي يحملها سببهم » .



لم يكن فيروز حتى هذه اللحظة قد فرر ما اذا كان يفشى
بهذه الى أخيه أم يكنه عنه ، غير أنه لما سمع هذه الكلمات التي
فاه بها شقيقه ، فزع فرغ الشخص من الطاعون ، وراح يلعه في
سره . ويدبر حطة للقضاء عليه حتى لا نقف أعماله عمدة في طريق
طاعة المسيح ، وهكذا وضع فيروز سلامة المسيحيين فوق عاطفة
الاخوة .

- ٢١ -

في هذه الأثناء راح بوهيوند يندل عايه وسعه لاحتاز
مشروعه ، ويلوغ غايته التي يسعى اليها سعياً حسناً ، وكذلك خوفه
من أن يؤخرها أى تراخ من جانبه ٠٠٠ أقول دفعه ذلك الى زيارة
الزعماء : فردا فردا ، راجيا منهم أن يكونوا متاهبين للعمل .

وكان يحمل في يده سلباً مجدولاً على أحسن ما تكون الصنعة
من حبال القنب ليعلقه بأعلى جدران السور ، وليثبتته من أذناه
بكلاييب حديدية .

وما كاد الليل يؤذن بالانصاف حتى كان جميع سكان المدينة
قد هجموا للراحة وعطوا في سبات عمى بسبب سهرهم المستمر ،

(الحروب الصليبية ح ١) - ٣٥٣

وهو اصلتهم العمل ، وحيداك بعث بوهموند الى فيروز بواحد من
أصدقائه من خاصة حاشبه وأخلص الناس اليه ، وعهد الى هدا
المرجم أن يستوثق من فيروز تمام الاسميان عما اذا كان الوصف
ملائما لينعدم رفاق مولاة .

فلما وصل الرسول الى فيروز وجده يطل من كوه صغيره في
السور . يرقب منها ما يجري وراءه ، فأقضى اليه في صوب حافت
برسالة سسده ، فقال له فيروز احلس مكانك ساكنا ، ولد
بالصمت حتى يمر من هنا كبير الحراس الذي هو في جولانه المعاد.
وفي صحننه طائفة كبيرة من أساعه ، وفي أيديهم المشاعل المضيئة .

ذلك أن تقاليد المدينه حرب - بالاصافه الى الحرس الموجودين
في كل برج - أن يدور كبر الحراس كل ليلة ثلاث مرات أو أربعاً
بالسور ، ويدور معه في كل دورة نلة كبيرة من العسس يحملون
المشاعل المضيئة ، فان صادف أحدا فد عليه النوم ، أو مراخيا في
أداء واجبه ، أنزل به القصاص الجدير به .

وسرعان ما وصل الصابط المكلف بهذه المهمة . فالتقى فيروز
براقب الأمور ويؤدي واجبه بمم الأداء ، فأننى على نشاطه ، وانصرف
مطمئناً البال هادئاً الخاطر .

حينذاك رأى فيروز أن قد جلب اللحظة الملائمة للعمل ، فجاء
الى رسول بوهموند الذي كان مسواريا حتى الآن حتى لا يراه أحد
وقال له : « ها عمل بالذهاب الى مولاك واطلب اليه الحضور برحاله
المخارين على جناح السرعة » ، فانكفأ الرسول عجلان الى سسده ،
فوجده على أتم أهبة ، فاستدعى بوهموند اليه القادة الآخرين سرا ،
فاستجابوا له سرعاً ، ثم انطلق كل واحد منهم بمن ينبعه
من رحاله حسبما اتفقوا عليه ، وما انقضت لحظات قلائل حتى

كانوا جميعا واقفين اسفل البرج وفعه رجل واحد ، دون أن يسمع
أحد لقدمهم صوبا ، أو يتحدثوا جلئة .



فى خلال تلك العره القصيره كان فيروز قد دخل السرج .
فوجد أحاه يفظ مى بومه ، ولما كان قد ناكذ لديه حصقة مشاعره
وانها ضد المشروع الذى دبره واسعد لتنفيذه . فقد خشى أن يقوم
شقيقه هذا بما من شأنه عرقله بحقيقه . بعد أن أوشك على
احراجه . ومن ثم طعنه بسيفه طعنه نافذه . فكانت ضربة طيبة
ودبيثة فى الوقت ذاته . ثم عاد فأطل من الكوة الموحودة بالأسوار .
فطالع بحبها حلقاه . فحنا كل منهما الآخر بحبة فيها الرحاء بسلامه
كل حائب . ثم دلى فيروز حبلا حذب به السلم من أسفل السور .

لكن على الرغم من رفع السلم وتسييه تبيبا محكما من ناحيتي
العمه والقاع الا أن الجراء لم يوات أحدا على تسلقه . ولم يوجد
من يخاطر بحياته فيسلقه . بزولا على أمر رئيسه ، أو حسي
انصاعا لأمر بوهيموند نفسه الذى لم يكذ يبين ذلك الاحجام منهم
حتى بادر وأقدم هو ذاته على ارتقاء السلم غير هياب ولا وجل .
فلما بلغ القمة وعلق بحدار الشرفة امسك يد فيروز من الداخل
وأمسكت باليد المتعكة بالسور ، فلما عرف فيروز فيها يد بوهيموند
نفسه ، قيل انه هتف « عشت يدا ، وسلمت » .

وأراد فيروز أن يرفع قدره فى نظر بوهيموند وفى عون
المسيحيين الآخرين حين يعلمون بما حرى من اغياله شقيقه الذى
لن يقبل مشاركته فى عمل مقدس كهذا العمل ، فأخذ يبد
بوهيموند القائد ، وسار به داخل البرج ، وأراه جئة أخيه
الهامة غارقة فى دمه ، فما كان من بوهيموند الا أن احتضن

هذا الرجل الصادق في اخلاصه ، والبايت على عهده ، وقد فاضر قلبه بالحب ، ثم عاد الى الشرفة مطلا برأسه قليلا من خلال احدى الفتحات ، ونادى برجاله في صوت هامس آمرا اياهم بالصعود ، لكنهم كانوا مترددين اد لم يجرؤ أحدهم على تلبية أمره ، لأنهم كانوا لا يزالون في شك فيما سمعوه من الشرفة ، فلما أدرك يوهيموند ذلك الأمر من أصحابه نزل اليهم عن طريق السلم ، فكان ذلك برهانا لا ريب فيه على سلامته ، وسرعان ما أخذ كل واحد منهم يزاحم رفيقه ويدافعه بغية الوصول الى السور ، حتى اذا تكامل جمعهم لم يسئلوا على ذلك البرج وحده ، بل وفعت في أيديهم أيضا أبراج كثيرة غيره على كلا جانبيه ، ولقد سمعنا أنه كان من بين الذين تسلقوا السور ، كوت فلاندرز ولورد تاكريد .
اصفى غيرهما أثرهما •

- ٢٢ -

لما رأى الزعماء الآخرون وصول الرجال الأنداء الى سرفات الأسوار في أعداد كبيرة مما أدى الى فتح أكبر من بوابة لهم ، عادوا سراعا الى المعسكر ليستعد أتباعهم لتلبية الاشارة باقحام المدينة حين يرسلها لهم رفائهم الموحودون بها ، وأحس الذين تسلقوا الأسوار كأنما سرت فيهم حماسة علوية ، فقادهم فيروز بنفسه الى داخل المدينة ، فاستولوا على عشرة أبراج في ضواحبها ، بعد أن فكوا بحراسها ، وقد تم ذلك كله والمدينة يلفها السكون المطبق ، فلم يسمع أحد لهم صوتا •

كان في ناحية السور الذي صعد منه الصليبيون باب سرى
فزلوا البه ، وحطموها قصاده ، ونقضوا أفعاله ، وفجوه وأدخلوا
من خلاله العسكر المسطر في الخارج ، فارداد عدد المتباحين خلف
الأسوار زياده صخمه ، واندفع هؤلاء وهؤلاء جميعا الى المكان المعروف
بباب الحسر ، وأعملوا الذبح في الحراس في هجوم سرس عليهم .
ففتحوا هذا المدخل أيضا .

في هذه الأناء حمل بعض أبناح بوهيموند رايه الى تل
مسرف على المدينة ، وركروها في مكان بارز للعدن على مربع قرب
العلقة العليا .

ثم بالآلات السماء مؤدنه بطلوع الشمس . ففتح في الأبواق
لتكون اشاره لرجالنا الذين أحدثوا ضجة صاحبة عند مدخل المدينة
ولمحلوا الجند الذين لا زالوا في المعسكر على النحر ، فلما فهم
الزعماء معنى هذه الاشارة - التي كان متفقا عليها من قبل - هربوا
الى صفوفهم وأمرعوا يأخذون فرهم كلها ، وانطلقوا على عجل الى
المدينة ، واستولوا على منافذها وأبوابها .

وحينذاك تحرك العامة [اللادين] الذين ظلوا حتى هذه الساءه
على جهل بما دبر من خطط في الخفاء ، فلما أدركوا أن المعسكر
تنبه خال قد غادره جل من كانوا فيه انطلقوا هم أيضا في أعقاب
الآخرين وشمقوا طريقهم - وقد تملكتهم الحماسة - الى داخل المدينة
الى اسسقت أهلها على الضجة العالية ، ولم يستطيعوا أن يبينوا
نادي دى بدء حبة هذا الصباح العالي الذى لم يألوه من قبل .
لكهم طالعوا مطر العرسن العجيب وهم في دروعهم وزرديانهم
سدافعوا خلال المدينة ، كما شاهدوا آثار الدمار في كل دكن وناحيه
في السوارع والمادين ، حينذاك أدركوا حقيقة الأمر ، فغروا من
بيوتهم وهاموا على وجوههم ، محاولين الهرب بسائهم وأبنائهم .

واطلعوا على عبر هدى قد ضل صوابهم ، فى محاولات مجنونه
للدخلى من عصابات الجند المسلحين ، بحثاً عن مكان آمن يلوذون
به ، فاندفعوا وهم لا يدرون أن مضون فوقعوا فى طريق المحاربين
الآخرين .

أما من كان يسكن المدينة من المسيحيين والسرير والارس
ومؤمنى الشعوب الأخرى فقد جاورت فرحهم كل فرحة لما جرى ،
وبادروا الى امتشاق السلاح وانصموا الى الجيش ، واذ كانوا على
دراية نامة بكل ركن فى المدينة فقد كانوا نعم المرشدين لغيرهم عبر
مسالك البلد المتشابكة المعوجة ، وكانوا اذا وجدوا بوابة لازالت
مغلقة ونوا على حراسها وفنكوا بهم ، وشقوا الطريق بكسر الأقفال ،
ثم أدخلوا رفاقهم ، وخيل اليهم أن هذا النغير المدهش قد جاء
من الرب .



أما أولئك الذين كانوا يغاسون سدة نير الرق من تلك الكلاب
النجسة ، والذين كابدوا وطأة ثقل الخدمات والبعذيبه دون أن
يرحمهم أحد فقد أصبحوا قادرين على أن يصبوا على أعدائهم منل
الذى صبوه عليهم من الأهوال ويعملوا على تدميرهم .

فى هذه الأثناء تمكن جيشنا كله من دخول المدينة بعد أن
اسولى على أبوابها وأبراجها وأسوارها من غير مشقة ولا كلفة ،
وأخذت رايات الزعماء ورنوكهم المعروفة للججمع بحقق من أعلى
الاماكن رمزا للنصر الذى أحرزوه . فانى ألفت فسم مذبحه وآلام
مبرحة وعويل نساء ، وأرباب بيوت يجرى عليهم القبل هم وأهلهم ،
وراح الصليبيون يشقون طريقهم الى البيوت ، محطمين كل الأدوات
المنزلة ، وصارب جمع حاحات العدو بها مسنماها لأول من
يسعه حظه أن يصل اليها ، وحاس المنصرون حينما شاءوا ،

فامسحوا الاماكن التي كان دحوليم النيا مجرما عليهم . وطمى تلهم
حنون القمل والنهب فلم يراعوا ذكررا ولا أنى . ولم يوفروا كسرا
لسننه ثم راحوا يسنفرون من كل عابر لسوارع المدينة وماديتها
أين تكون بموت سراه الأهالى وأنس يسكن أتراهم . وكونوا من بسهم
المحادع . وتعمل السيوف فى الأمهات وأطفال النبلاء . ثم راحوا
يتقاسمون فيما بينهم ما بالبيوت من أناب وذهب وقصة وثاب
غالية .

ويمال انه قتل ذبيحا فى هذا اليوم ما ربو على عشره آلاف
من الأهالى . واكسظت الشوارع فى كل مكان بحف القلى الى لم
تجد أحدا يوارىها ، فبقيت حب هي .

- ٢٣ -

حي رأى راعى سنان أن المديه قد استسلمت لخصمه الذى
تملك جميع أبراجها وحصونها . وحي شاهد الناحين من الهلاك
يربدون الى الفلعة على عجل . بدأ الحوف يسرب الى نفسه من أن
ينعمه المسيحيون الى حب هو وافف . ويحدوا به هو أيضا .
فاندفع - كأنما قد أصابه مس من الحنن - نحو بوابة حلقه .
وهرب وحده من غير رفيق ، ولم يكن يعنه سوى الانقاء على
مهجنه . وببما كان يخطط لها وهناك فى حرع قابل ويهم على
وجهه من غير هدف واضح ادا بطاقه من الأرض يصادونه فعرفوه
فى لحظتهم ، فاقربوا منه حى لكأنهم يهمن بعظمه ، فأذن لهم
بالدنو منه وهو جزع ، فلما بينوه وحده عرفوا أنه هارب . وأدركوا

فى ساعهم أن المدينة قد سقطت فوبوا عليه وطرحوه أرضا فى
غلظة ، وأخذوا سيفه وقطعوا به رأسه وحملوها الى المدينة ،
ودموها هديه الى العادة وعلى مرأى من الناس جميعا .

ورجدوا أيضا يديه أنطاكية جماعة من الأشراف كانوا قد
ودوا اليها من أماكن قاصبة لنجدتها ولاظهار جرائهم ، فلما بينوا
سقوطها فى أيدي المسيحيين أجمعوا العزم على الازداد الى العلة
العليا دون معرفتهم بالذاحة ، واسمى بهم الذعر والخوف على
أنفسهم فانطلقوا هائمين على وحوهم ، لائذين بأذيال الفرار ، لكنهم
وجدوا أنفسهم وقد أجدى بهم فى مكان شديد الصبى أعجزهم النزول
فه لشدة انحدار البل تحتهم ، ولا يستطيعون الصعود الى أعلى
لتكاثر رجالنا عليهم هناك ، وبينما هم يلمسون فى يأس أى سبيل
للنجاه اذا بلانمائه واحد منهم على جباههم يسقطون من أعلى الد
ومعهم رنوكهم التى تمبر الواحد منهم عن الآخر ، فدفقت أعناقهم .
وبشمت عظامهم ، حتى لم يكذب يبق منهم شئ يدل عليهم .

أما الذين يسكنون المدينة وما حاورها ويلمون بدروبها
وشعابها فكانوا أسعد حظا من هؤلاء ، اذ ما كادوا يعلمون بخبر
سقوط أنطاكية حتى نجموا وانطلقوا مع الفجر الوليد هاربين الى
البنال من خلال أبواب أنطاكية التى بدأت تغلق من جديد . لكن
فواتنسا تعقبهم ، فردت البعض منهم ، وأمسكت بهم وقيدتهم
بالسلاسل ، أما من أسعقهم حسادهم بالوصول الى النلال فقد
اسحدوا من الاجراءات ما حفظ عليهم حياتهم ، وضمن لهم السلامة .

واذ بلغت الساعة الخامسة عادت قواتنا المطاردة ، فلما تجمع
كل من كانوا قد انشروا فى المدينة أجرى استقصاء دفين دل على
أنه لم بعد بها شئ من المثوبة ، ولم يكن ذلك بالأمر المستغرب لأن
الحصار ظل مسمرا بغبر انقطاع ما يهرب من سبعة شهور متتالية .

علما أنه وجدت كميات ضخمة من الذهب والعصه الجواهر
والأواني الثمينة والنسج والأقمشة الحريرة فاستولى عليها الناس ،
وفاضب بها أبدى من كانوا حتى الآن حناعا مسولين فاثروا فقاه
وصارت لديهم وفره من كل شيء * .

على أنه لم يوجد في كافه ارجاء المدينه أكبر من جسمائه
حصان من جيات الحرب . ولكنها كانت حولاً ضامره عزيزاً تكاد
تموت جوعاً * .

وكان الاسيلاء على مدينه أنطاكيه في اليوم الثالث من شهر
يونيو من سنة ١٠٩٨ من ميلاد المسيح * .

هنا ينتهي الكتاب الخامس

هنا يبدأ الكتاب السادس

محاصرة الصليبيين : النصر المعجزة

فصول الكتاب السادس :

١ - وصف الجبل المنرف على المدينة والذي لا يزال
بعضه في يد العدو الذي أقام حراسا هناك ،
وارسال رسل الى الساحل الشامي وحصن
المدينة تحصينا قويا .

٢ - مقبلة من حش كريبوعا فوامها ثلاثمائة رجل
يحطرون أمام المدينة ويخرج لقتالها روجردى بار
تفيل غير أنه يلقى مصرعه مذبوحا .

٣ - الأمير الكبير يقدم الى الإمام ويصرب معه ، على

المرتفعات المسرفة على الفلحة ، والتغلب على الدوق
عند الباب الشرقي وهلاك مائتين من رجالنا .

٤ - الصليبيون يحرقون خندقا داخل المدينة يمتد
على طول سفح التل ، وهناك تنسب معركة بدور
الدائرة فيها على العدو الذي ينزل قائده من الجبل
ويحاصر القسم الأسفل من المدينة .

٥ - الصليبيون بأبطاله يكابدون مراوة الجسوع
فيسل بعض البلاء خلسة ، ونوضح القيادة
العليا في يد بوهيموند .

٦ - كوث فلاندرر يصرم النار من نلقاء داته في
الحصن المواجه لباب الجسر حين يجد نفسه
عاجزا عن استخلاصه ثم يفاديه ، كما أن القائد
العام لقوات العدو يبعث الى فارس وهما من
أسراء الصليبيين .

٧ - اضطراب الشعب لآكل الطعام القذر - وإن كان
على مضض - أمام استنفحال المجاعة .

٨ - العدو يكاد أن يستولى خلسة على أحد الأبراج ،
لكن هنري دس نفاومه مقاومة بأسلة وينجح
بعد قتله لكثير من الأتراك - في الاستحواذ على
البرج بقوة السلاح .

٩ - العدو ينزل الى الساحل ويحرق المراكب ويقتل
الكثيرين من رجالنا على طول الطريق .

١٠ - سنيين كوت ساربرر يرور امبراطور
القسطنطينية .

١١ - حديث سيفن الكاذب الى الامبراطور مما يعود
بأوخم العواقب على الصليبيين .

١٢ - الامبراطور يعود الى بلاده ثقه منه في كلام الكوب
ثقة حملته على وقف الحملة التي كان قد أعدها
لمساعدتها .

١٣ - أنباء اسحاب الامبراطور سجع العدو على
تكيف صعطة على الصليبيين الذين يحملهم اليأس
على رفض القيام بواجبهم ، فيصرم بوهيمونه النار
في المدينه ليحملهم على الخروج من مخائهم
ويدبر الزعماء خطة للهرب ، ولكن الدوق يفسد
عليهم خططهم .

١٤ - الرؤيا التي رآها سحس اسمه بطرس [بارلميو]
والكشف عن حرية المسيح وعودة السكينة الى
نفوس الناس من جديد .

١٥ - الزعماء يجمعون الرأي على بعث بطرس الناسك
رسولا من قبلهم الى العدو فمضى ويؤدي
السفارة بشجاعة .

١٦ - بطرس الناسك يعود الى الزعماء ويهتل لهم
الحبر عن وجهة نظر العدو المعجرفة ، فتعلن
الحرب .

١٧ - الصليبيون يعادرون أنطاكية بعد اعتقاد صفوتهم للقتال ويتركون كونت تولوز لحراسة المدينة .

١٨ - كربوعا يسعد الملح الصليبيين من معاصرة المدينة ، ولكن رجالا يسفون لهم طريقا بالقوة .

١٩ - بينما الصليبيون يعلمون أخذت السماء نساقط عليهم الندى فنزلت السكينة عليهم جميعا .

٢٠ - كربوعا يربب عسكره للحرب ويشب القتال في الأحياء المجاورة ، كما يس فلج أرسلان الهجوم على الصليبيين الموجودين في المؤخرة ويكثف الضغط على صفوف بلدوين فيسرع الزعماء الآخرون ليجده وبعلمون الترك الذين يضرمون النار لكوين سائر دخاني .

٢١ - فائد قوات العدو يهر ويهلك عسكره ، أما الذين فدرت لهم النجاء فيلودون بأذيال القرار .

٢٢ - بعد أن يهرع رجالا من فكهم في العدو يعودون إلى المعسكر محملين بكميات وفيرة من الأسلاب .

٢٣ - الهدوء والنظام يعودان إلى أنطاكية ، ويأخذ الصليبيون في تنظيف الكنائس وترميمها ، ويعود رجال الدين للإشراف عليها .

هنا يبدأ
الكتاب السادس
محاصرة الصليبيين : النصر المعجزه

- ٩ -

هدأت الجلبه أحراراً ، واستعادت المدينه هدوءها . وكلت سبوف
العالمين الى اربوب بالدماء من المذابح التي لا نهايه لها . واذا ذاك
البحر الرعماء للساور فيما بينهم . ادراكا منهم أنه لإزال عمالك
عمل كبير أمامهم حتى يكتمل الفتح . لذلك أقاموا حراساً على الابواب
والأسوار وعزموا على ارفاء الجبل وعهاجمه القلعه . وبعثوا المادى
يأمر جميع القتالى العسكريه بصعود البل المسار الى . فلما صاروا
على المرتفعات اصبح لهم صعوبه اصحام القلعه بسبب حصانها ،
وانه لا سميل الى الاسسلاء عليها الا ان احاعوها . واذا كان هذا
الأمر سطلب انما طويله فقد أدرك الرعماء صناع كل ما سبدلونه
من الجهود ، وأنه لابد لهم من سلوك سبل أخرى غير هذه .

كان الجبل المتشرف على المدينه يسعه من وسطه واد عميق .
له حاببان شديدا الانحدار . وكان انحداره المواحه للسرق أعشى
المحتدرين ولكنه يبسط من اعلاه لسنهى الى سهل فسبح راحر
ببساتين اللعب وبالمراوع . وكانت المسافه بين سقى هذا الوادى
العمق شديده الاسماع حتى لمختل للناظر أن هناك حبلن وليس
جبلا واحدا مسطورا الى سطرين .

أما المنحدر المواجه للعرب فكان أعلى من الآخر . وهو يصرب
بعمته في العلا حتى تكاد الجوراء . كما تقوم القلعة على أعلى نقطة
فيه ، وهي محصنة بالأسوار القوية والأبراج الضخمة .

وبعد من السرى الى العرب هوه سحيقه الصق مما يسجل
معهما بصور مدى الخطر الذى يتعرض له من يحاول الوصول الى
القلعة من أحد هذين الجانبين .

كما توجد الى الغرب بل أقل ارتفاعا ، ويفصل بينه وبين
القلعة واد متوسط الاساع . وان كان أمبل الى الضيق . وضعه
منحدرات يسيره . ويشقه طريق واحد يخرج من القلعة وينحدر الى
المدينة . وهو طريق يمثل فى دانه خطوره حتى ولو لم يكن هناك من
يهاجمها . ورأى فوادنا أن الحكمة تقتضيهم الاستيلاء على هذا البل ،
حتى لا تناح للعدو فرصه الوصول الى المدينة ان خرج من باب القلعة
لمهاجمه فواننا ، ولذلك نم وضع طائفه من الرجال الشجعان فى ذلك
المكان ، وزودوا بما يلزمهم من الطعام والسلاح . كما نم بناء سور
به مارييس حجره ، نم نصب فوق هذا كله الآلات وأعدت فى
وضع اسرانهجى لرد العدو على أعقابيه .



ونزل الرؤساء مره أخرى الى المدينة للتساور فى أمور أهم مما
سبق لهم التساور فيها ، وعقدوا العزم على الرجوع حالما يفرغون
من بحثها . وكانوا قد أزمعوا على البقاء جميعا - ما عدا البوق - فى
هذه الناحية حتى يتم الاسيلاء على القلعة .

كما انعم اجماعهم على أن يعوم جودفروى بحراسه الباب الشرقى
والطابية الواقعة خارج المدينة ، وذلك لما عهدوه فيه من علو الهمة ،
وكانت هذه الطابية فى أول انساؤها موكولة الى بوهيموند .

وحاص الاحبار الى القاده ان كربوعا الرعم الكبير المسار
ربه سابقا سوف يصل قريبا جدا ، اد أنه دخل أرض أنطاكية وبعب
بالالوف المؤلفة من عسكره في البلاد . فكان حير ما يسمى عمله في
هذا الطرف هو ارسال أحد زعمائنا الى جهة الساحل ، لاسدعاء
الاحوه الدس ذهبوا الى هناك حُتب المثنوه اللازمه الى يمكن العور
عليها هناك .

وفي حلال اليومين السابقين لوصول جنس كربوعا الكبير .
لم يترك الصليبيون سيرا من ادرص المحطة بالبلد الا ذرعوه
وفسوه بعيشا دقيقا ، ثم عادوا بكل ما صادفهم من طعام وعلف
ايا كان مصدره ، وبذلوا جهودا مصنية لنموين المديه ، كما ان
الاهالي والفلاحين الذين يعيشون في ريف البلاد جاءوا بكل ما استطاعوه
من طعام حين أدركوا استسلام أنطاكية للصليبيين ، بيد أن كل
ما جرى به من شنى الواحى لم يكن شيئا مذكورا . ان لم يكن
شيئا أبدا يكفى ما تربى على الحصار الطويل الذى استنزف في
مدى شهوره التسعة المسالية موارد الاقليم بأجمعها ، ولم يحلف
شيئا يمكن الاعتماد به لمساعدة رجالها حتى ولو بضعة أيام .

- ٢ -

فلما كان اليوم السالى للاستيلاء على أنطاكية ويسما كان
الصليبيون باذلين غاية الهمه في حراسه المديه ونزويدها بالمثونة .
اذا بلائمائة من فارس جيش كربوعا مدججين بالسلاح من فمه

(الحروب الصليبية ج ١) - ٣٦٩

رؤوسهم الى أخمص أقدامهم قد امطوا الجناد الصافيات واحمروا في
كمين قريب من المدينة ، وكانوا قد جاءوا طليعة لأمر عاجل هو
القبض على أى جماعه من رجالها يكون قد عادت موضع حراسيتها
خارج الأسوار ثم بعد بها السير دون أن تسد الحيطه لحمايه نفسها ،
وكان نلابون من هؤلاء اللابمائه على حبول سريعه الركض قد أخذوا
بروحون وبحيثون امام المدبته مطهرس بعدم الاكرات بأى خطر
بدهمهم ، فلما رآهم المسحون الذين وراء الأسوار يحمون بيده
الصورة بفجر مرجل غضبهم عليهم ، أو لعلم أحسوا العار السديد
ان هم كفوا عن مهاجمهم ، واداك نحرك « روجر دى بارنيل » وهو
من أساع روبرت كوت بورماندى ، وكان محارباً بأسلا أنجز كبرا
من الأعمال الباهره فى هذه الحمله ، وأسرع بامطاء فرسه وخرج
من البوابه واطلق يضى مهاجمهم ، واستصحب معه ثله قوامها
خمسه عشر رجلا من أساعه ، وعزم على أن يحرر - كدانه - عملا
من أعمال البطونه . وعدا عدوا سريعا مهاجما هؤلاء القوم بسحاعه
عظيمه ، فمطاهروا بالفرار هربا منه ، وظلوا مبعين فى الراحه
حتى بلغوا الموضع الذى يحتفى فيه رفاقهم الذين برروا من مكمنهم .
وبرايت أعدادهم بكنره ، وانضم بعضهم الى بعض فى مهاجمه
« بارنيل » ورهطه هجوما عسفا لم يجدوا ازاءه بدا من الهرب . ولم
يكن روجر ورجاله فى جمعهم يعادلون العدو فى جمعه وبأسه .
لذلك حاولوا الرجوع الى المدبته ، غير أنه حال بينهم وبين مايتشدونه
سرعه العدو حاد الحصى الذى رمى روجر بسهم قاتل أصاب قلبه ،
فأوقعه من على ظهر حواده وأرداه قتلا ، فحزن عليه رفاقه أشد
الحزن ، لانه كان قد أخلص النة ، فأنجز أهداف الحجاج
الصلبيين .

ونجح رفاقه فى الوصول الى المدبته ، أما هو - وهو الرجل
البارز - فقد حز الأعداء رأسه على مرآى جميع من على الأسوار.

والأبراج العاجريين - والاسقاء - عن اسعافه . ورجع العدو لم يلحظه أدى .

لم يكذب [المهاجمون] يعودون من حيث جاءوا حتى حرق الصليبيون يدرفون الدمع السحين على روجر وببكونه ، وحملوا جسمانه الى المدينة في احتفال يلحق به ، ثم أقاموا المراسم الاخيره للبيب الراحل في حضرة القاده والناس أجمعين ، ووسدوه البري في احتفال رائع أقيم في ظله كسسه أمير الرسل [القديس بطرس] .

- ٣ -

ما كاد يطلع فجر اليوم التالي . وهو الثالث بعد استخلاص المدينة ، ثم ما كاذ انسمس بدر فرنسا حتى كان اقوى الامراء الذي أسرنا اليه مرارا قد احتل القطر بأجمعه الى آخر ما يمكن أن يراه عن المظل من القسم الأعلى بالمدينة ، واستطاع بجموعه العفيره - التي تريد رباذه أكثر مما يذكره الأحبار - أن يعبر الحسر العلوى ، ويصرب بحمه فيما بين البحيره والنهر . وكان كل منهما يبعد عن الآخر مسافة ميل واحد ، وكانت حملته تسفل مساحه كبيرة وعسكره كبيرين جدا حتى ضاق بهم السهل العسبح الذي يقع فيه أنطاكية ، فنصبت مخيمات أخرى غطت اللال المجاورة .

٣١٩

ولما كان اليوم الثالث من نصبه معسكره أمام أنطاكية نبين له شدة بعده عن المدينة ، فبحث الأمر مع رجاله . وسن ليم أنه يريد أن يكون على مقربة ممن يحتلون القلعة ، ليستطيع نحدثه ان

٣٧٨

سعت الضرورة الى المجتهد ، كما أنه أراد أن يدخل فوانه الى أنطاكية عبر البوابة الموحوشه أسفل القلعه ، ومن ثم فوض معسكره ، وارهق المرتفعات ، وادخل بكل الجانب الجنوبي الشرقي للمدينه ، محنلا المطعه الواصلة بين البوابين الشرقيه والغربيه .

كانت هناك طائفة أقيمت في البداية لحماية العامة . وهي واحة على تل مرتفع بعض السبي قرب الباب الشرقي ، وقد عهد بهذا المكان أولا الى رعايه بوهيموند الذي شرع - بعد أن تم الاسيلا، على أنطاكية - في نصريف الاداره العامه للمدينه ، كما عهد بالطائفة المسار إليها والبوابة الغربيه منها الى الدوق ليمون بحراستها . وكان الأعداء قد صربوا أحد معسكراتهم حول هذه الطائفة ، ودأبوا من هناك على سى هجماتهم الموصوله على من بداخلها ، وسرعان ما ضاق الدوق درعا بعربدهم التي استحال عليه تحملها أكثر من ذلك ، ومن ثم كر عليهم برجاله لاسعاف المدافعين عن الحصن . الذين كانوا على وسك الاسنسلام . كما راوده الأمل في أن يتمكن من المقلب على المعسكر المصروب أمام البوابة ، لكنه بينما كان ماضيا ليجده رجاله ، اذا بمعسكر من الانراك يهاجمونه ، وكانوا أشد منه بأسا وأكثر عددا ، فادرك عجزه البام عن الصمود أمامهم . ونجح بعد لآى في النجاة من سيوفهم ، فانقلب على عقبه مرندا الى المدينه ، ومضى الترك في انه يطاردونه بعزم كبير ، غير أن العوغا من الحجاج الذين لا يعرفون النظام نكاثروا وراح بعضهم يزاحم بعضا في هروبهم البائس ، فسند المدخل وحال كل واحد منهم بين صاحبه وبين الدحول ، مما أدى الى سقوط الكثيرين ، فوطأتهم أقدام الآخرين ، واختب بعضهم جراحهم ، وأسر سواهم ، وقد قدر عدد القتلى منهم بمائتى فنيل هلكوا عن بكرة أبيهم .

كان الابرار يعدون الدون الرعيم الأكبر للجبس الصليبي .
وفد أدخلت هزيمته الفرحة في قلوبهم حتى انهم طمعوا في القيام
بأعمال أكثر جرأة ، لذلك نزلوا الى المدينة عبر باب القلعة الأعلى ،
سالكن طرفاً حاسه معروفه لهن تمام المعرفه . وباغوا رجالها
بالحجوم عليهم ، وأدركوهم وليس عندهم حراسه . فمكوا بالكثيرين
منهم صربا بالسيوف ورميا بالسهم . ومع ذلك فانه لما حاول
الصليبيون مطاردتهم ارتدوا سريعا الى الواحي المربعه . واسولوا
على القلعة هناك ، لانه كانت لديهم طرق أكثر من تلك الطرق التي
كانت بالسل ، والى كان رجالها قد اسولوا عليها وأحسوا
بحصيتها .

وتكرر حصول هذا الأمر ، وهلك الكثيرون من أهل المدينه من
حراء هذه المناورات المحيرة ، حتى أدب بالزعماء الى اجماعهم الأمر
على وجوب إيجاد علاج لهذا الشر المسطر . فانفقوا برصاء نام على
قيام بوهيموند وكونت تولور بحفر خندق عميق عظم الانساع .
يكون عند سفح اسر بأسفل المدينه . مما لابد أن يؤدي الى الحد
من غارات البرك المساله في برولهم من أعلى المدينه ، ولقد ترنّب
على حفر هذا الخندق أن نعم أهل البلد بعثره من الهدوء .

كذلك رأى الصليبيون أن يشيدوا هناك أيضا طاييه لمرداد
فعالبه هذا العمل في حماية الأهالي ، وشارك في بناء هذه الطاييه
جميع القوات مساركة صادقة مخلصه ، كأنها يهيموبها من أجل
سلامتهم هم انفسهم . أما البرك - سواء من كان منهم بالقلعه في
نلك الباحية أو من كان منهم يحاصر المدينه من الخارج - فقد
اسمروا ينزلون من خلال البوابة العليا . عن طريق ممراب سرية .

واكثروا من هجماتهم على هذا العمل الجديد بعنه تدميره . محدثين
من أحل ذلك سسى الوسائل المباحه لهم .

ثم جاء يوم من الأيام خرجت فيه طائفة من الترك أكبر ممبا
جرب العاده به كل مرة ، وكروا عبر المسالك المعروفة لهم ، بم
اندفعوا نحو هذه القلعة الحديدية البناء ، وسرعوا يهاجمون من
بداخلها هجومًا عسفا ، مما كان لابد ان يؤدى الى وقوع من كنوا
فى تلك الطائفة اسرى فى أبدى الترك ، لولا أن هب لمجدنهم العاده
الذين كان قد وكل اليهم الدفاع عن نواح أخرى من المدينة الى جانب
كل دسهم المبعثرين فى انطاكية ، وكان هؤلاء العاده هم . بوهيموند ،
واهرار دى بوبسه ، ورالف دى موسى ، ورسالد كرينون ،
وبطرس بن حسنلا ، والبريكوس ، وايغو .

ولعد كرى الدوق وكوت فلاندرز وامير نورماندى كره صادفه على
لك الساحة مما أدى الى فصل محاولات العدو ، وهلاك الكبريين من
الأتراك ذبحا ، ووقع بعضهم فى الأسر ، أما البقية فقد حملها
فرعها على الهرب ، لس من الطائفة وحدها ، بل من المدينة كلها :

وانقلب هؤلاء العارون الى مولاهم وهم معجبون بسدة بأس
الصلبيين ، وألسمهم بسد سجعهم العجبة ، كأنما قد تمت
فيهم النبوءة القائلة : « ارجع لكى تصبح رحلك بالدم . ألس كلابك
من الأعداء تصيبهم » ، لأن الجميع - حتى من اضطهدوهم - كانوا
لنسان مدح وتناء على هذا السعيب المخلص .

أقام كربوعا أربعة أيام فى الحبال كما فلنا . حتى اذا فقد كل
أمل له فى النجاح ، وأدرك أيضا أن علف حوله قد نفذ أو كاد
فوض معسكره ، وبرز الى السهل مرة أخرى بكل جسمه عابرا بهم
النهر من مخاضة عند فناء موجودة هناك ، وعهد الى فواده بجند

الذين ربيهم على شكل دائره وحلهم على مسافات مسايه ، ثم راح
يحاصر أنطاكيه .

فلما كان البرم السالى انفصل بعض الأنراك عن بقية الجيس .
وراحوا يحرقون زنايا للعالم ، ويرحلوا عن حيدهم . واستند
حرأهم فى الهجوم على المدافعين المرحودين على السور حراة اخضت الى
هلاك بعضهم ، ذلك لأن نائكريند قام بهجوم فحائى عند الباب السرى
وباغب الترك وهم على هذا الوضع الذى لم يستطيعوا معه معاوده
امطار حادهم ، فدخل منهم سبه ولاذ الباقون نادال القرار ثم أمر
يقطع رؤوس ضحاهاء وحملها الى المديسه عراء لأهلها وسلوى لهم .
ومسحاً للحزن الممض الذى كان يقطع بساط فلوب المؤمنين لصرح
« روحى دى بارنفلى » الذى قبل هناك .

- ٥ -

فى هذه الأساء كان السعب الصليبى الذى قام بحصار
أنطاكيه والاستلاء عليها عبوة ونعوه السلاح قبل ذلك بوفت قصر
- قد أصبح الآن يعانى سده الحصار . وهو يعر كسر الحدود فى
حياء الانسان . ورياده على ذلك فقد أنهك الصعاب الصليبى انباكا
لم يعد معه فى مقدورهم احتمالاه ، كما كانوا سطف العس بسبب
المحاعة التى حاوزت كل حد ، وهكذا وقعوا فى حطس السيف فى
الخارج ، والفرع فى الداخل ، ثم انه كان من الطمعى أن يسند بهم
الخوف من حسود العسكر الكبيرين المحاصرين للمدينة من الخارج
هذا بالاضافة الى أن الأنراك كانوا لايرالون بحكمون قبضتهم على
القلعه ، حتى راحوا يسبون منها - كما قلنا - هجماتهم الآخذ بعضها

بحجز البعض الآخر ، فلم بعد المؤمنون يعرفون معنى للراحة ، وماك الناس الكثيرين منهم عدنا لهم على خطاياهم ، حتى أن معظمهم ساسوا مهمتهم والعهود الحمة التي قطعوها على أنفسهم فانفصلوا عن رفاههم ، وبرلوا نلسه من الأسوار مسعيين بالسلاسل والحبال . منجمعين وحدهم هربا ناحية الساحل ، وسقط بعض هؤلاء في أيدي العدو فضرب عليهم الرق الدائم ، أما الذين نجحوا في الوصول الى البحر فقد أزعمو أهل السفن الراسية هناك على قطع حبالها والابحار في لحظهم هذه ، وصاحوا فيهم « ان هذا الأمير الكبير [يعنى كربوعا] الذى جاء بعسكره الدين لا يحصيهم العد ، قد اسولى بالقوه على المدينة التى كانت منذ قليل فى أيدينا ، ولم ينج من هناك أحد من رجالنا ، وديح فوادنا ، ولكن شامت ارادة الرب أن ننجو وحدنا دونهم ... فهما أسرعوا لفك الحبال والابحار قبل أن يبلغنا [كربوعا] ويلحق بنا عند الشاطئ» ويصيبكم ما أصاب قومنا » .

ثم اعلوا سطح السفن مع من كانوا عليها ، ولادوا بأذيال الفرار المسين ، الذى لم يقتصر على القوغاء وحدهم ، ولا على طعام الناس منهم فحسب ، بل كان بين الهاربين رجال بارزون ، من دوى المراتب الساميه ، واطهرهم « ولسم دى جراند مسنيل » وهو من وجوه أهل « أبوليا » المعروفين ، زوج أحت بوهيمود ، وأخوه « أليركرس » ووليم البحار ، وجى دى تروسييل ، ولا مبرت الفقير وغيرهم ممن لا نذكر اسماءهم التى لا ينبغي أن يتصمها هذا الكتاب . مسذ أن محيت هذه الأسماء من كتاب الحياة .

وكان هناك غير هؤلاء وهؤلاء جماعات قد أزعجها التفكير فى الأخطار الجسمة ، وعجرت عن تحمل المجاعة والمصائب . فلبجات الى العدو ، وكان ذلك من حذنبهم أكثر ما ارنكبوه من الموبقات ، لأنهم بذلك أنكروا فى لؤم نعاليم المسح وعقده ، فكان هؤلاء المريدون

يعلون الى السرك احوال الجيس الصليبي ، مما أدى الى وصع الصليبيين في أسد المآزى خطوره ، كما أن الكيريين من طولوا مفيين بالمدينه كانت براودهم سرا الآمال في أن يعرفوا هم أيضا ، وبوسع أسعف بوى المومر والعائد العظيم بوهيموند هذه المحاولات من جانب هؤلاء ، ومن ثم جاءوا الى رجال من أهل العطه الذين دلت التجربة على أحلاصهم ، والموثوق بهم ، وعهد اليهم بحفظ الأبواب ، كما عهد بحراسه الابراج الى رعاء لم يعصروا في رعايتها بلا كلل : ليلا أو بهارا ، ومن ثم لم يعد أحد ما - بارعا كان أم مراوعا - بقادر على الهرب ، وأراد العوم أن يكون لهؤلاء الحراس - صغيرهم وكبيرهم على السواء - حق ممارسة السلطة الكاملة فجعلوهم يقطعون البين على أن يطيعوا أوامر بوهيموند بكل الصدى والوفاء حتى ينتهى حصار أنطاكية ، وحتى يقع المعركة التى كانوا فى انتظارها ، ولما أصبح بوهيموند محاطا ، بباعه وحواسه وأصدقائه ، وكل من له ثقة بامة فيهم أحد غاية الحذر ، فلم يحظ قط - ليلا أو بهارا - بقسط من الراحة ، اذ كان يسغل وقته بالجول فى السوارع والبياديين ، والفنييتس على الابراج والحصون ، لتطمش نفسه ويهدأ باله من أنه ليس هناك من أحد منهاونا فى مهمه ، ولستأكد من عدم وجود أى فرصة للعدو لدخول المدينه عن طريق الحناة .

وكانت هناك أربع فلاع نتطلب حراسها رعايه خاصة تلك هى الطابية العليا التى شيدت فى مواجهة القلعة العليا مباشرة ثم تليها ثالثة تقع دونهما داخل المدينه ووراء الخندق الذى حفر لصده الهجمات الى نائى من بوابة المعسكر العالى .

وأما نالسا فكانت خارج الباب السرفى ، وكانت قد أقيمت لحماية المعسكر قبل احلال المدينه .

وأما رابع هذه الطوابي فضع على رأس الجسر وهي التي
يمكن الصلصون بفضلها مد قريب من مهاجمة بوابه الجسر ، وقد
عهد في بداية الأمر بحراسة هذا الحصن الأخير الى كوت بولوز .
لكنه تحلى عن هذه الحراسة حين تم الاسيلاء على أنطاكية ، ودخل
المدينة مع الآخرين .

وحدث بعد الاسيلاء على أنطاكية أن قام كوت فلاندر مع
خمسمائه من الأبطال الأساوس بحراسه هذه القلعة وكف من
استعداداتها الدفاعية ، محافة الا يستطيع سعبا الرواح والمجئ
عن طريق الجسر ان سقطت القلعة في يد العدو ، الأمر الذي لابد
أن يؤدي الى وضع أسد سوءا .

- ٦ -

لاحظ كربوغا أن رجالا أصبحوا الآن أكثر حرية في القدره
على الخروج والرحوع دون عائق . كما رأى أن الحصن القائم عند
الجسر يصل عقبه كآداء أمام خطته ، لذلك أصدر أمره - في يوم
من الأيام - الى كنبية مؤلفة من ألفين من الفرسان المدربين أن تحمل
السلح وبتن هجوما عنيفا على ذلك الموضع ، فأطاعوه في لحظتهم ،
وبحروا لأنفسهم مواقع حصينة حول حائط الطابية التي أسرنا إليها
حالا ، وفسموا أنفسهم جماعات راحب تتأوب فيما بينها فدفع الطابية
بسبل لا ينقطع من السهام ، منذ الساعة الأولى من النهار ، حتى
الحادية عشرة منه ، ولكن الكونب ورجاله استنبسوا في صدهم ، ولم
يدحروا وسعا في الدفاع عن المكان الذي عهد الى الكونب بحمايته .

ولما فاربت الشمس العروب ، وأخذ الليل يسر علائله على الكون .
بين للمهاجمين أنهم لم يقدموا الا قليلا ، فحلوا عن هجومهم وعادوا
الى معسكرهم ، غير أن الكوب حسي أن يعاود الاعداء الكره في اليوم
التالي بفوات أضخم من فواته التي نحب يده الآن . فلا يعود في
استطاعه أبدا حمايه القلعه ضد حسود العدو الكبيه . لذلك دم
في سكون الليل وأصرم النار في هذا الموضع وبركها برعي كل
ما به ، ثم انكأ الى المدينة من خرجوا معه سعيًا وراء هذا الأمل
الصائع .

ولما أسرف الصباح رجع عسكر الأمس المهاجمون يعاودون
هجومهم مرة أخرى ، وقد انصم اليهم العان ، فما بلعوا هذه الساحة
حتى وجدوها خاوية على عروشها ، وقد نهزم أكرها . فاضطروا
للعوده من حب حاءوا دون أن ينجزوا مهمهم .

وفي حلال هذه الأيام التي كانت قوات العدو فيها بهاجمنا
جلسة ، حدث أن صادفوا بعض الصليبيين من العراء المعلمين الذين
خرجوا دون أن يأخذوا حذرهم . فأمسكهم وساروا بهم الى اميرهم ،
عديه منهم اليه كأول عبيده أسفر عنها بجاههم ، غير أن سلاح الأسرى
الضعيف ، وما عليهم من رب اللياب أثار استمزاز الأمير ، اذ لم
يكن معهم سوى أقواس حسية ، وسبوف باليه علاها الصدا . كما
سنتر أجسامهم ملايس مرفه من حراء عملهم الدائم وبسبب قدم
هذه اللياب لأنه لم يكن لدى فعراء الحجاج ما سدرون به غير
هذه الأسمال ، ويعال انه ما كاد هذا الأمير يعرسمهم حتى صاح
فائلا : « أبمل هؤلاء الناس يدب الدعر في فلوب الأمم الأجبيه ؟ وهل
يحق لعوم كهؤلاء أن يعبروا أنفسهم أرياء وما هم الا قاعفر المرتزة
يحدو الناس عليهم بلعة الحز ؟ » .. الا فاضطروا الى ما يمين أسراف
أهل السرق من سلاح . . . أما هؤلاء فان الصربه من سلاحهم ظل أن

يؤدى عصفورا أو سسقطه على الأرض ، وعلكم أن يوبعوا هؤلاء الرجال ، وسوفوهم مكبلين بالأصفاد ومعهم أسلحتهم هذه ، وعليهم نياهم المهلهلة ، وبخذوهم الى مولاي الذى أرسلنى فيعرف من مطهر هؤلاء الاسماء أن العلبة على رجال كهؤلاء الرجال لا سمعرو من الوقت الا قليلا ٠٠٠ ودعوه يعكر : أى صيت لمل هذا السعب النعس فى نفاخره بما يفتح !! واطلبوا اليه أن ينام فريز العين ويلقى بالسبعة على أنا وحدى ، لأنه لن يمضى وف فصيىر حى لا يكون نم وجود لهذه الكلاب القذرة ، ولن يحسب لهم حساب بعد ذلك بين الأمم » .

وأمرهم بهذه الكلمات أن يسلموهم الى رجال عتّهم لهم ، كى يسوفوهم الى الساطان فارس ، وأن يقضوا اله بما فاله هو الآن ، ذلك لأنه كان على نعه نامه من قدره فى يسر على فهر رجال هؤلاء الرجل وان لم يحرب بأسهم بعد ، غير عالم بأن هذه الكلمات التى ظن أنه يحط بها من دىر هذا السعب عد مولاه ، وأنها تجلب له المجد ، سوف تكون فى النهاية سببا لتكبته ، ولأنه حين تحيق به الهزيمة الكراء ، ويفوص فى حما الفوصى على يد هذا السعب الحفير ، فان العار الذى يلحق به اذ ذاك سوف يكون أشنع عار ، ذلك لان القاعدة العامة هى ان الهزيمة تكون أيسر احتمالا ان لقيها المعلوم من رجال شجعان أفوياء ، أما اذا أحرز النصر عليه قوم لا اعتداد بهم ، ولا سطوة لهم فان شوار الهزيمة يكون أبلغ ، وعارها أفدح عليه .

أصبحت المدينة الآن محاصره من كل جانب ، وقد نعام وضع الصليبيين سواء لأنهم أصبحوا عاجزين عن مبارحتها لغناء مالهم من أعمال خارجها ، كما سلب المسالك أمامهم في دخولها . مما نرب عليه عدم قدرتهم على جلب الطعام إليها ، فعص الجوع بنابه أكرهم . واختب المنون في السفن وانعم يوفر مصالب الحياه الضرورية مما حمل الجوعى على سلوك سبل محجلة لسد هذا النقص ، ولم يعد بم مجال لاختيار نوع الطعام حتى عند أكبر القوم بأنسا في أمورهم ، ولم يعودوا يأنهون بنطاقه اللحم الذى يجدونه أو قذاره ، ولا كيف جيء به ، سواء أكان مسنرى أم مسروفا ، ذلك لأن المعدة الحاويه بصرخ عاليا فى طلب أى نوع من الطعام يسد جوعها .

كذلك فارق السلاء وفارهم ، ولم يردد الأحرار فى فرض أنفسهم على موائد من لا يعرفونهم ، من غير دعوة بكون قد وجهت اليهم ، وماهفوا على الصدفة بوجد عيرهم بها عليهم ، ولا يكسون عن الإلحاح فى استجدائها من ايدى غرباء لا يعرفونهم ، وكان هذا العمل أمرا مفوضا عندهم من قبل .

كما تخلت العقائل عما كن عليه من الحسنة التى كن قد طبعن عليها ، أما العذارى فم عن يأنهن بالجل الذى كان سمة لهن ، ونسبن أنوثتهن ، وطلعن بوجوه عليها غيرة ، وأصواب حرية تحرك أفسى القلوب ، ورحن يلمسن الطعام أى وجدته لا يمسهن خوف من أن يراهن أحد .

لكن كان هناك آخرون لم تستطع المجاعة حملهم على التحل عن وفارهم ، فانكفؤوا بوجوه حامدة الى جهات قاصبة ، يمشهم الأسى ،

لأنهم كانوا يؤثرون الموب على المسى بين الناس يسألونهم لعمه نعيمهم
أودهم *

أما الرجال الذين كانوا من قبل أسداء العزم ، أصحاء البسة ،
دوى ، بأس سديد ، والدين لم يكن أحد يجهل قدرهم فقد بدوا وكأنهم
أنصاف موسى ، يوكأون فى ضعف على عصيهم ، ويجرون أنفسهم
فى السوارع والمبادين جرا ، وعلى الرعم من أنهم لم يصرحوا بكلمه
الا ان وجوههم المكتئبه كانت تعصح عن أنهم يلتمسون احسانا وجود
به عليهم العابرون *

كما أن الأبطال الباكين ، والرصع على أنداء أمهاتهم كتب براهم
فى كل مكان وفي معرى الطرق ، يلتمسون اللعمه بسد رمقهم ورمق
من جاءوا بهم الى هذه الدنيا ، لكن يعجزهم الحصول على الغدر اليسير
من الطعام لأنفسهم ولا يقول لأمهاتهم *

وفى خضم هذا الزحام الكبير فل أن وجد أحد عنده من
الطعام ما يمكن أن يكفه هو وحده ، اذ مضى فى الواقع جميع
الموارد ، فلم يعد أحد الا وهو يسجدى الآخرين ، وادا شاء الصدقه
أن يكون هناك فرد كان قد بلغ من البراء مبلغا كبيرا وبقي عنده
من هذا المال الحاص شيء ، فما كان لهذا المال أن ينفعه فتبلا ،
اد لم يعد يكفه لسراء ضرورات الحياة التى لم تعد متوفرة *

كما أن الأشخاص الذين كانوا معدودين أسحي الناس يدا
وأكرمهم ضباة ، أصبحوا الآن يلتمسون الأماكن النائيه التى فل
أن ينساها أحد فليقتطون منها ما يقبمون به أودهم ، ويكالبون فى
نهم على الطعام - أيا كان هذا الطعام - الذى استطاعوا الحصول
عليه من مصادر مختلفة ، ثم يأبون أن يكون لهم فيه شريك *

... أخرى من الضرورى أن أقول ، أكرم من هذا ؟

لقد أصبح لحم الجمال والحمير والحمل والبغال وغيرها من الحيوانات
اللدبا وكأنها اسمي ما تكون ان وجدها ، وانه لمن المؤسى ان يقول
انهم كانوا يبتسون الأرض ويخرجون منها حنف الحيوانات الجحوفه
أو التي ماتت بالطاعون ويعبلون على النمامها .

هكذا كانت أنواع الاطعمة التي راحوا يدرءون بها عن انفسهم
عائلة الجوع المضى وبطلون حبابهم النعسه قدر طافهم .

لم نضب سده الكدره الرهبه - واعنى بها المجاعه - العامه
وصغار الناس وحدهم فحسب ، بل جاورهم أهوالها فمست كمار
الرعماء الدين عدوها حطبلا لا يمكنهم احماله ، اد كانوا أكر من
سواهم اعاله للكبرين من الناس ، ولا يستطيعون ان يكفوا رءفهم
عن جاءهم يلنمسه منهم .

وان ابناء هد الحفبه من الرمن لا يرال محفوره فى اذهن
السيوخ والكهول وسحاب الى مؤلف خاص يروى ما جرى لكل واحد
من هؤلاء الرعماء ، ويضمم أخبار العمه والصعاب التي عمل فيها
هؤلاء العاده الانقياء من أجل خاطر المسيح ، على أنه يمكن القول
ان رجالا كهؤلاء الرجال العظام وجيسا كبيرا كهذا الجيس ، امب
يحملو ذلك كله صابرين غير منمريين .

- ٨ -

كان من جراء ما أبداه كريبوعا وبسعيه من حماسه قوية أن
أصبحت أنطاكية محاطة من كل نواحيها بصورة لم يستطع الصليبيون
المحصورون داخل أسوارها مفادرتها ، كما أعجرت من كان جارحاً

عن دخولها والوصول اليهم ، أصف الى ذلك ان الانشباكات
الموصولة - داخلها وخارجها - قد أنهكت قوى الصليبيين انها كما فاق
كل احتمال . هذا الى جانب أن المصائب الهمة التي نزلت بشعبنا ،
وما ابلى به من ساء المجاعة قد عملت كلها على فل عزيمة ، فأظهر
النراخي في حراسته .

اما الذين لم يعد يسفل بالهم سوى البحث عن كسره الحبر
يمسكون بها رمعهم فقد كانوا أكثر بهاونا بالنسبة للأمور الأخرى .
مما سيج عنه نجاح العدو في دخول المدينة في أحد الأيام ، وذلك
بسبب عدم توفر الحراسة لبرج كان مجاورا للبرج الذي اصحم منه
الصليبيون المدينة .

وكان بعض الأتراك قد طمعوا في املاك هذا البرج ، معتمين
سكون الليل ، فعلقوا السلالم الى الأسوار ، وفكروا في النزل بعدئذ
الى المدينة كما فعلنا من قبل ، فلما بسط الليل طنبه ، وسكت كل
نأمة في الكون ، أقدم ما يقرب من ثلاثين رجلا وسلعوا السلم واعلوا
السور ، مستهدفين الاستيلاء على البرج الذي وجدوه خالبا من كل
مدافع عنه ، وبينما كانوا منهكين في عملهم هذا اذا برئيس العسس
يصل الى المكان الذي كانوا يعملون به ، وكان هذا الرجل يقوم اد
ذاك بها اعتاده من المرور حول السور ، فاكتشف المؤامرة ، فأخذ
يصيح محذرا من بالأبراج المجاورة ويعلن اليهم أن العدو قد استولى
بالخديعة على البرج ، فأيقظ صاحبه جميع الحراس في تلك الناحية
من المدينة ، وكان بينهم الشجاع المرموق « هنرى ديش » فاسرع لتوه
الى تلك الجهة مع فارسين آخرين ، هما « فرانكو » و « زيجمار » ،
وكانا من ذوى قرباه ومن أهل البلدة المسماة « مالين » الواقعة على نهر
« الموز » ، وخاف ثلاثتهم أن تكون الرشوة قد استفتوت البعض
فاستسلموا للخيانة وغدروا بالمدينة .

كذلك هب لمساعدته جماعات من الابراج المجاورة . فباحم بينهم
الاعداء في عصف كدابة السط . فابدى الترك مقاومة سديده . لكن
عمرى دس ما لبث الا قاملا حتى ينجح في طردهم من المرح . وصل
سبع اربعة افعس ، أما البقية - وكانوا منه وعشرين رجلا - فقد
القي بينهم من الاسوار . فسقطوا على أم راسيتهم ، فدمى عظامهم
وبنوا أسلاء مرفه .

وكان هؤلاء الرجال النازون الذين صعدوا البرج قد عزموا
على ادخال بعيه رفاقهم .

ولقد نكب الرعيم البطل [هري ديس] في هذا التمدام . منذ
صديقه « ريجمار » الذي احرقه السيوف فهلك ، كما اصيب
« فرانكر » بجرح قابل حملوه معه الى داره وهو يكاد يلفظ أنفاسه .

- ٩ -

تزايدت الحاجة للطعام يوما بعد يوم ، ورايدت معها مصايمة
المنحصرين ، كما صاعقت المجاعة آلام الصليبيين . فصحروا من هذه
الاهور العسرة زاعوال النى نزل بهم كل يوم ، فداحلهم الناس
حتى لم يعودوا حريصين على حياتهم وسلامتهم ، فاسلوا من المدينة
لا يعلم بهم أحد ، ولم يكتروا بما كان يكتشفهم من آلاف الاحطار .
فراحوا يسفون طريقهم وسط صعوف العدو كي يتسر لهم الوصول
الى السطاطىء حيث كانت ترسو هناك بعض السفن النوانسة
واللابينية ، وكانوا يبنون من وراء ذلك شراء الطعام وجلبه الى المدينة
غير أن الطمع في النجاة من هذه الاخطار الجسيمة حمل بعضهم على

(الحروب الصليبية ح ١) - ٢٨٥

انرجبل ، عافدين العرم على الا يرجعوا أبدا ، ولم يوقعوا أن قد
ربما يحسن موقف من حلفوهم وراءهم ، أو أن تنجح لهم فرصة
النجاة من سيوف العدو .

في هذه الاساء نكسف للترك أن بعضا من رجالنا يخرجون
جلسه تحت جبح الظلام الى البحر ، ويتجولون هنا وهناك قرب
المدية سعيا وراء الطعام ، فبيعوا في الحال بعضا من رجالهم العارفين
بدروب تلك الواحي وسعابها ليصبوا الكمائن لهؤلاء الناس
ويملوهم كما فعلوا اخوه لهم من قبل ، فحالف البجاج الترك في
كثير من هذه المحاولات مخالفة حراهم أخيرا على ارسال العين من
فرسانهم المختارين ، وكلعوهم بامساك البحارة والسجائر وحرق
السفن ، مؤملين من وراء ذلك استئصال هذا النوع من البحارة
واد داك يحال بين الصليبيين وبين كل أنواع الموثوه ويعقدون كل
امل في السلامة .

وصح ما بوقعه الترك ، اد تعد فرسانهم الأوامر الصادرة اليهم
سعيدا دفعا ، فأضرموا النار في بعض السفن ، وأمسكوا طائفة من
ملاحها الذين خرجوا من عبر حراسة ، ففتكوا بالحارب الأكبر منهم .
مما حمل الباقين على الهروب .

ولما ذاع خبر النكبة وساخ ببؤها وبجاوز هذه الساحة الى
ما وراءها ببلبل حواطر النجار الذين كانوا يحصرون الى هنا في
رحلات تجاربه من فرص ورودس وغيرها من الجزر ، كذلك من
سلوقية وابسوريا وبامقيلية ، وسواها من الأقطار البحرية ، وتملكهم
الفرزع من هذه الأحوال السائدة حتى انهم خافوا أن يعودوا الى هنا
أو بجلووا سلعهم . ولم يجرموا على الاقتراب من تلك الناحية .
ونرنب على ذلك أن الم السبلل الكامل بالمجارة وتوقف الاستبضاع ،
وتدهور موقف الصليبيين تدهورا أخطر مما كان عليه من ذي قبل .

وعلى الرغم من صآله كعبه السلع التى أحضرها الجار صآله لا تكفى
ابدا لسد أحساجات الناس العديدين ، الا أن بقاء الاتصال البحرى
موصولا أعطى بصصا من الانهاد للصليبيين .

★★★

ولقد صادف العدو فى طريق عودته من ناحية البحر طائفة
من المؤمنين عرضهم جميعا على السيف الا سُرمة قليلى عاية الفلح
تمكوا من السسل عبر الغابات ، والأعدال ، ولحوا الى الكهسوف
هاسخنوا بها .

ولقد ادى حر هذه الطامه الكبرى والمصيه الفاذحة الى حر
ومما حرنا لا يقل عما أئرله بهم المجاعة العاسة ، ويجدد هبهم اد
طرق سمعهم خبر النكبه التى حلب برفافهم وما يعرض له أصحاجهم
كل يوم من هلاك . فنسرب لهوسهم الناس حنى من الحماه ذاتها
ولم يعودوا يتسمون بالحرص عليها ، ول احياطهم على أنفسهم .
وبصاء لب طاعهم لزعمائهم .

- ١٠ -

فى هذه الأثناء وصل الى الإسكندرونه « ولم دى حراند ميريل »
ومن فروا قعه ، ووجدوا بها ستيفن كونت شاربرر ويلوا الذى كان
العاده وكل الناس يرحون عودته بين يوم وآخر ، لكه كان ممسا
هناك منذرعا بالمرض ، فأجبره ذلك الرهط بكل ما حرى بأطاكة .
وحملهم الرعبه فى الا يظهروا أنهم فاروا رفافهم جسا سب نافه
عر ذى موضوع ، فانهم راحوا يالفون فى وصف الأحوال والسفاه ،

'مُسْرِين هَناك ، والحق أن الموقف كان قد بلغ من السوء حدا يعزى الوصف ، غير أنهم بالعدا أسد المبالغة فأظهروه بصورة أسد اسودادا وعلامة وزادوا في ذكر الظروف السيئة السائدة . ولم يكن «سسي» في حاجة إلى سماع مزيد من مثل هذا الكلام حتى يصاحف جيبه . لأنه لم يهجر صحابه ولم يهر عنهم إلا لنفس هذه الأسباب ، وإن ادعى المرضى .

وبعد أن فلبوا الأمر فيما بينهم على سبي وحوه ركبوا السفن التي كانت في الميناء معه لهم ، وطلوا مبحرين حتى أرسوا أحيرا بعد رحله استعرب بصعه أيام عند إحدى المدن الساحلية ، حب راحوا بعضهم أين يكون الامبراطور وما ينوي أن يفعله . وبلغوا عددا من الاحبار عن ذلك الأمر - يحلف بعضهم عن بعض في المصنوع المصنوع والصدق معادها أنه سدد الرجال إلى أظفائه على رأس طائفة كبيرة من العسكر اللاتين والاعريق لمد يد المعونة إلى الصليبيين وفاء منه بألفاه معهم ، وأنه الآن معسكر بمن معه في « فوا مينيوم » .

وكان قد انصم إلى الامبراطور ما يعرب من أربعين ألف من اللاتين ، زياده عن الجبوس التي جمعها من سبي السعوب وكان رأيهم أن يخلعهم وراءه في بلاده مع الكتائب التي عنده ، وما كان يركه اباهم إلا لفرهم المدفع أو لنفسى المرض فيهم ، أو لغير هذا أو ذلك من الأسباب القوية ، أما الآن فقد زال عنهم ما يسكونه من وصب ، واستند عزائمهم بحضور الامبراطور وحشوده الكسفة ، واسردوا معهم في الزحف ، وأصبحوا يلهمون قلبا وروحا على الانضمام إلى رفاههم الحجاج .

حين علم كونت ستيفن والذين في صحبته بأن الامبراطور مرابط في تلك الناحية في انتظار امدادات أخرى كثيرة ، وأنه يقوم

بجعل استعدادات اصافيه للزحف ، أقول انه حين علم بذلك يادر
فسيلك أقصر الطرق المؤدية الى الحينس الامبراطورى ، فلما وصل
الى هناك فوبل بأعظم آيات الرحيب المروجه بالدهسة البالعه .
وكان الامبراطور قد عهد اوامر الصداقه مند بداية الحمة مع اسيعس
حين جاء مع بقيه الرعماء الآخرين ، ولما راح الامبراطور يستفسر
منه استفسارا دقيعا عن احوال العادة الآخرين وسلامهم وأوصاعهم ،
وعما دعاه لتركهم وراهه ، أجابه ستيفس بقوله :

- ١١ -

« أيها الامبراطور الذى يسير الطمر فى ركابه أى مسار .
ان رعاياك المحلصين الدين أدت لهم بالمرور عبر امبراطوريك مند
أعد قصير ، وشملهم بفيض جودك ، قد اسولوا - أول ما اسولوا -
على بيعه ، ثم وصلوا بعد مسيرة ناجحة الى مدينة أبطاكيه فحاصروها
سعة أسهر سويا ، حصارا لم يرفعوه عنها حتى أحدها عنوة بتوفيق
من الرب ، ولم يعرف عليهم سوى فلمها الى كان اقحامها صربا من
المحال ، فاستعصت عليهم بسبب وقوعها على جبل شاهق . وبفصل
أبراجها المشرفة على المدينة التى يبدو وكأنها وكر العقاب . وكان الطن
عند سُنعبا أن قد انتهى الحصار ، وانهم بخلصوا من كل خطر بعد
استسلام المدينة ، بيد أنه ظهر أنهم قد نردوا الآن فى خطر أبلس
هولا من سابقه . وأنهم وقعوا لى صعوبة يعوق كل صموده واحتوها
من قبل » .

« ذلك انه لم يكد تنقضى غير ثلاثة أيام بعد احلال المدينة حتى
جاء قائد فارسى شديد المراس اسمه « كرىوتا » على رأس حواصل من

السرف يجاوز عددا كل مدير ، فاحدق بالمدينه من كل جانب ، ولم يدع مدخلا من مداخلها أو مخرجا من مخرجها الا سدده . وحافف المحن بالفادة والعامه على السواء بصورة أيا سبهم من كل شئ حتى من حنانهم .

« وهل أن يمكن العقل من تصور ما عليه هذا الجبس المحاصر من كرهه هائله في العدد . وموحر الفول ان عامه عسكرهم غطوا كل ما حول المدينه ، وانسروا كأسراب الجراد ، حتى ضاقت الأرض بما رحبت فلم تسع كل خيامهم .

« أما رحالنا فكن أمرهم على الفص من ذلك ، اد أحدوا بسافصون سافصا مفرعا بسبب الجوع الذي برل بهم ، ومن جراء البرد والحر اللذين فاسوهما ، وبسبب ما ابتلوا به من قتل وموت . حتى أن كل ما نبقى بعد ذلك من الجبس في أنطاكية لم يبعد كافسا للدفاع عنها .

« أضف الى هذا أن المعوية التي كانت تجلبها لهم السم من مملكتكم والمراكب القادمة من الجبر والمدين الساحله قد انقطع ورودها نهائيا - كما تعلمون - بسبب العسكر الذين أرسلهم العدو ، فلم يدعوا سبرا من الأرض بين أنطاكية والبحر الا احتلوه ، كما دمروا الاسطول ندميرا يكاد أن يكون تاما ، وحكموا السيف في البحاره والجار مما حال بالفعل بين شعبنا وبين كل أمل في شراء الطعام .

« ولقد جاء الخبر بأن الطعام الموجود الآن في أنطاكية لا يكفي الناس الا يوما واحدا فقط ، ومما يضاعف مناعبهم خلو المدينه من مكان أمين يلجأون اليه لكنرة سسلل الترك الى المدينه عبر القلعه التي سرف عليها ، فبسموس هجمانهم على قلب البلد ، ويهاجمون المسيحيين في الشوارع والبيادين ، وهكذا فان ما يقاسيه رجالنا خلف الأسوار لا يعمل هولا عما يكابدونه من غارات يواليههم بها العدو من الخارج .

« لذلك فامسى ومن معى الآن من العاده وسراه العوم - قد ايقنا تمام المعنى أن ما يقوم به احواسنا إنما هو جهد صائح ، وطالما سبنا اليهم بسب الامر وسبدينا الصبح الاحوى للعمل على ما فيه سلامتهم ، وأن لا يسببوا بأمر يستحيل بحقيقته ، لاسيما وقد نحلل عنهم العناية الربانية ، فلما وجدنا أننا عاجزون عن ربحهم عن هدفهم رحنا نلمس الوسيلة لما فيه نجاحنا حتى لا يؤدى بنا الطيس الى الغاء أنفسنا فأبدينا الى الهلكه ، ففعل ما فعلوا »

« والآن فلعل حلالتم نرون - اسم ومن حولكم من السلاء المنجلدين - أن الخير كل الخير فى الرجوع عما كنتم قد اعترضتموه من الزحف الى أخطائه ، حتى لا نحقق نفس الاخطار من تعودوهم من عسكركم المطهر ٠٠٠ وان العقل ليسأندكم ان تعودوا من حب جنم دون أن تلمح فوائكم بالقوات الكسفة التى بعث بها السرى . وذلك أمر أجدى عليكم من الاندفاع من غير رويه لنجريب فوكم مع هذه الاعداد الضخمة من العسكر الأشداء مادامت السحفة غير مؤكدة تسامها »

« وان هؤلاء الرجال البارزين الموحدين الآن بحضرتكم قد نالهم نفس هذا الصيب ، ويستطيعون أن يؤكدوا لكم صدق ما أقول . كما يعرف ذلك أيضا « تاتكبوس » الألعى الحصيف الذى أرسله حلالكم معنا ، لأنه رأى بعضى رأسه مدى ضعف رحائنا ، فسار على هدى العقل فانتسحب من العمل معهم ، وانه لعادر أن يحل الموقف أمام جلالنكم »

وكان منى حسن الامراطور أح للورد بوهموند من أبه - اسمه «جيدو » ، فلما سمع ما قاله « سفس كوت ساربرز » من حونه ، واستخرط فى المكاء حربا على مصر أخيه ورفاقه ، ورغب

فى نادى الامر أن يعارض روايه الكومب ، ورمه بالجبن لهوره ميه
الاستحباب من صفوف هؤلاء الرعاء الأحلاء ، ولكن أحدهم واسمه
ولسم دى حراند سسل - وكان سريف المولد لا الحلق - وهو صيبر
بوهنمويد يمكن من اسكات « جلدو » .

- ١٢ -

بعد أن سمع الامبراطور هذه الكلمات . اسدعى اليه جميع
نبلائه للساور فيما اذا كان يجب عليه الرحف الى أنطاكية ، او
النوف والرجوع الى مملكته ، وبعد أن فلبوا الأمر على سى وحوه
انتهوا الى أن الحكمة تعصى العوده بالجبن سالا ، بدلا من اثاره
ممالك السرى كله والتعرض لقلبات الحرب .

★★★

لقد ولى الامبراطور كل السه بكلمات سبعين ، فاعتقد أن
كل شيء سجرى كما قال اعتقادا جعل الحوف يتملك قلبه من كربوعا
الذى زعموا أنه دمر قواتنا ، فخسى الكسسوس من صام كربوعا
بمهاجمة الامبراطورية بما يحب يده من الجبوش الكنفه التى أكلت
الأخبار أنه بوهدها فى زحعه ، واذا ذاك بصنع من يد الامبراطور مره
نانه نقبة وجميع سسلا الى اسرديها جهود القادة الصليبين
السيطة ، ورأى - نجنا منه لهذا الخطر - أن بأمر بحرق
ونهب جميع الأراضي الواقعه على طول خط ارنداده ، سواء
ما كان منها على يمينه أو على يساره ، بدها من قونه وانهاء بنيعية ،
وكان يطمع أن نفع هذه الأراضي بعد تخريبها - وفد هجرها أهليا

يرفض موارد العس فيها - عائفا فى طربى الأعداء ان حملهم
الطروف على العكفر فى بوجه فوانهم ضد ملكه .



ولعد أدى مسلك سسمن هذا الى حرمان الصليبين من
المساعدة النى كانوا فى مسس الحاجة اليها والى كان
الامراطور بابهب لامدادهم بها وفاء بعهدهم معهم .

وإاا بمعنى المرء تمعنا دفقا فى كلمه الكونت هذه وفى حماقتها
الجهرية ، تين له أنها عمل لا يمكن عمرانه أبدا . وأنه صادر عن
برعة سريره ياباها السرف .

عبر أن رعاية الله القادر - ولا قادر سواء - والحكم ولا حكم
غيره - فصب الا أن بجى أحسن النمى من أكبر الأمور سرا .
وأفصت الى ما فيه مجد شعب الله وقاده ، واء بحى أولئك الذين
بحملوا حمارة العبط ، وبركوا ساءهم وأطفائهم ، كى يحاربوا
كحجاج للسيد ، رجاء أن تكلل حيودهم بالمجد الدائم مما كان لابد
أن يحرموا منه حرمانا تاما لو كان الامراطور حاصرا ، اذ أن وجوده
هو وحده حيداك فى هذا الموقع كان لابد أن يؤدى - بلا مساحة -
الى أن يصدر أمره برفع الحصار ناء على سلطانه الأعلى وقوانه
الصخمة ، ويكون له السرف كل السرف له وحده دون غيره .

على أنه يجب على المرء أن يؤمن أن السبد بعسه هو الذى جاء
بهذا السرف ، وحاده على من أخلصوا البية فى العمل وأدوه نامانة
وصمدوا تحت الظروف القاسية النى لا يحصنها العد . حى يجروا
ثمار بعهم . ونعتقد لهم راية النصر .

اطلعت الألسن في هذه الأثناء سائعه عمت أرجاء المدينة ،
نفول برحوق الامراطور الى بلاده ، فصاعف هذا السبا من قطاعه
الأهوال التي يعابها الصليبون ، وملا قلوبهم بأسا ونقررت
بهمسهم استمرازا من مجرد ذكرهم كونت سبتبعن ، ووصموه
بالفحور الأندى . كما راحوا يلعبون ولم دى حراند منزل
وكانه من ساركوا نى هذه الحانة الماعونة ، وراحوا يبنهلون الى
الرب أن يزح فى النار الأبدية مع يهوذا الخائن كل من انسحبوا من
هذه الأهوال الطامة ، والذين حددوا سعب الرب فحرموه من
المساعدة الكبرى التي كان الله قد أعدها لهم .

★★★

ولما علم كربوغا وكنار حواده - عن طريق جواسيسهم - أن
الامراطور راحف عليهم اسند اضطرابهم ، وعظم كربهم ، وحس
لهم أن يعزعوا من قواته المؤلفة من زهرة المحاربين فى امبراطوريه .
فلما جاءهم هؤلاء الجواسيس أنفسهم مرة ثانية بخبر تراجع
الاغريق عن زحفهم ، أخذت كربوغا العزة بالاثم فازداد عتوا وبعا
وحمل اليه أنه قد ضمن النصر وحاره ، فبالغ فى الضسبيق على
رجالها مبالعه سرسه ، واسند فى الاحداق بهم مما ترتب عليه أن
اكتسب العاسه كل المؤمنين الموجودين داخل المدينة ، وخاب كل
أمل لهم فى الجاه . كما ففدوا الرحاء فى أن يصلهم أى نجدة من
أى جهة كانت ، ولف البأس المطلق الناس أجمعين ، وراح التسعور به
برداد يوما بعد يوم .

والقبت المسئولية العامة لكل الجيس على عائق بوهموند .
الذى سس له - وهو يدور حول المدينة - أنه سيسحيل عليه باللبن

أو السند - أن يحمل ولو فردا واحدا من الناس على الخروح من حبس يحبىء ، ولم يعد يوحد ثم رحل واحد يهوم بالحراسه أو بقابل العدو داخل البلد أو حرقه ، على الرغم من أن الجمع كانوا يصجون من الأهوال التي أرسلها بهم الأعداء .

ثم جاء يوم عاد فيه المادون والعمال منهوكى العوى من محاولاتهم هذه العسيلة في استدعاء الناس ، فلما ساعد بوهيموند ذلك المظنر آيفى الا حنوى من بدل محاولات جديده لارغامهم على الخروح من مخابئهم ، ومن ثم أمر معاونه باضرام النار في أماكن متعدده من المدينه ، عسى أن يحفز البراء هؤلاء الذين غلظ قلوبهم ورفضت الامسال للارادة الربانية ، فحملهم على البروز الى العراء ، وبجحت معاوريه هذه وآتت أكاثها ، فعند أن كان عاجزا عجزا تاما قبل هذه اللحظة عن أن يجمع الرجال للقيام بواجبات خدمه العامه ، اذا بهم يقبلون رراوات بقلوب ماؤها الحماس السديد يدافعون لأدائها .

ويقال ايضا ان الناس من الحياء دفع بعضا من وجوه الرجال الى عقد اجتماع خاص ، فرروا فيه أن يسموا هذه الليلة بالذات للفرار خلسه الى الساطيء ، ياركين وراءهم السعبد وحيس الحجاج ناكمله ، عر أن حمر تدبرهم هذا بلغ سمع الدوى وأسقف بوى الموفر فاستدعيا اليهما هؤلاء المذنبين وأسرفا فى تأنيهم النائب المر ، وذكرهم أن وصمه العسار الأبدية سيطبعهم هم ودراريهم بيمسحها ، ان هم خرجوا على ما يعرضه عليهم سرفهم وكريم أصولهم ، أو اذا انسحبوا من هذا الحشد الكبير من المؤمنين بالمسيح .

فى وسط هذه الصائقة كان هناك نقص بشن فى الطعام بين شعب الله بسبب أهوال المحاعه المهلكة ، وما يمارسه العدو من

الضغوط ، سواء من الداخل أو الخارج ، حتى لم يعد ثم علاج لما هم فيه ولا أمل لهم في نجدة نأبهم من أية ناحية ، وعمد البلوى صغيرهم وكبيرهم على السواء ، وعجز كل واحد عن مساعدة الآخر .

وكابوا اذا نذكروا نساءهم وفكروا في صغارهم الذين خلفوهم في بلادهم ، وأملأهم الساسعة التي ورنوها عن أسلافهم ، وكيف هجروها حيا في المسيح ، أسلموهم أنفسهم للتشكوى من عدم مجازاة الرب إياهم ، لأنه لم ينظر بعين الشفقة الى المتشاك التي يحملوها ، ولا الى صدق اخلاصهم ، بل ابلاهم بدلا من ذلك بالبلانا كما لو كانوا شعبا غريبا عنه فأسلمهم الى أيدي الأعداء .

- ١٤ -

بينما كان سعب الرب يعاسي اللاء على هذه الصورة ، اذا بالسيد يعطف عليهم ويسمع الى أسهم ويرسل السلوى من كرسه السماوى ، فيقال ان قسيسا اسمه [بارتليميو] من المقاطعة المعروفة باسم « بروفنس » جاء الى أسقف بوى وكونت نالوز زاعما لهما أن الحوارى المبارك أندروز كان قد طهر له فى المسام ثلاث أو أربع مرات مسالبة وأمره أن يبادر ما وسعه البدار الى اخبار القادة أن الحربة التي طعن بها سيدنا عيسى المسيح فى جنبه مدفونة فى كيسة أمر الحوارين ، وعليهم أن ينسطوا كل النقنط فى النفس عنها فى البعقة الى بنها له الحوارى بعلامات مميزة .

ومن ثم مضى بطرس الى خادمى الرب هذين المحبوبين ، وفصل

لهما الأمر الذى أقسم أنه حمله . وبين أن الرسول [أندور] ارعاه على ذلك مهيدا اياه فكسر من الماعب . بيد أنه رفض أكثر من مره اداء هذه الرساله ، لأنه لا يريد أن يكون رجلا ففرا جاهلا ، غير أنه لم يستطع فى النهاية أن يجيب فنعد أمر الرسول العاجل أكثر من هذا ، حتى ولو تعرضت حياته للخطر .

وبوسلوا بالسره الباء ، فى نعل هذا الخبر الى القاده الآخرين ، الذين جئء أمامهم بطرس [بارليميو] لسمعوا منه حقيقه الأمر وصوره فصدقوا روايته . ثم اجتمعوا فى المكان الذى سماه لهم فى ارباض الكنسه المسار الى آفا . رحفروا الارض هناك الى عمق معين . فوجدوا الحريه كما قال بطرس [بارليميو] يوما .

ولما سمع الناس هذا البأ اندفعوا الى الكنسه كأنهم رجل واحد . لأنهم شعروا أن السماء أرسلت لهم العزاء . وانهاالت الهدانا والنجح معجدا لاكساف هذه النعمه العاله . وطرحوا عنهم ما كان بهم من العزع ، ونفسوا الصعداء ، وأحسوا أن قد عاودهم ناسيتهم من حديد لسعد الاوامر المباركه ، وكان هناك البعض الذين ادعوا أنهم رأوا رؤيا العين اسباح الملائكه والرسل الطويانيين ، وكان ادعاؤهم هذا تعرييرا لقوة ايمانهم بحام بطرس فارفعت نفسه الناس العابطه الحائرة ارباعا عجبنا .

وحينذاك استجاب جميع الزعماء لافراح الرحال الموقرين الذين يخسون الرب وحدوا ايمانهم . وقطعوا على أنفسهم العهد بأن يحلص كل منهم النية للآخر ، وبعاهدوا - لأن نذاركتهم رحمة الرب مما هم فيه الآن من وضع حرج . ومعهم البصر الذى يرحونه وطهرا على عدوهم .. ألا يقارق بعضهم بعضا . حتى يسعدوا بعون الله المدينة المقدسه والقبر المقدس ، ويرودهما للايمان المسيحى وحريةهما القديمه .

ظل الناس يفسون هذه الظروف غير المحتملة ستة وعشرين يوما مساليه أطمانب بعدها فلوبهم بعد طول وجنب ، وراحوا يسمرون عن سواعدهم فى شجاعة لم تكن لديهم من قبل ، وأحسوا بالراحة بعد طول عذاب ، وكأنها أمل جاءهم من السماء ، وانفق الجميع صغرتهم وكبرهم على أن لابد لكل هذه المساء من نهاية ، وأنه لابد لهم من يوم قريب جدا يقابلون فيه الحصم وبسطعون صد أعدائهم الذين يعدون كثيرا بعوهم الكبيرة ، فتنحدر يومذاك المدسة التى وهبها الله لهم ، ومن ثم راوا الحر فى الصام بمحاولة حوص الحرب مرة أخرى ، بدلا من أن يتركوا أنفسهم نهب الصياح يوما بعد يوم ، وهم فى عمره المدعة التى استمرت طويلا وأنه أجدى عليهم أن يحاولوا الصال بدلا من أن يتركوا أنفسهم للناس ينسوء عليهم بكلكلة الذى لا نهاية له فيمصهم ارحافا .

كانت هذه هى أحاسيس الجمع الدين لم يعد ثم معر أمامهم من الحروح من المدينة لمقابلة العدو ، ولم يعصر هذه الرعبه على البلاء وحدهم ، بل كانت تلتهب فى نفوس العامة أيضا البهايا حملهم على انهام فادبهم بلراخى ، وكرهرا كل نريب من جانبهم .

ورأى القادة أن حماسه الناس اما هى أمر علوى ، فاحصعوا للتنساور ، واتفق اجماعهم على أن يرسلوا وفادة الى القائدة العام لفسكر العدو بصرح عليه الأخذ بواحد من انين :

اما أن نرحل وينترك المدينة للصليبين لتكون ملكا لهم الى الأبد ، وهى المدينة التى عاذب الآن البهم باراده الرب ، واما أن بسعد للفسل ، ويكون السيف هو الحكم بين الفريقين .

واحبر لهذه البعة الرجل الطاهر الذيل ، الذى ورد الكننر

عنه في الصفحات السابعة ، واعنى به بطرس الناسك ، وأسركوا معه ربيعة العادل الفطن « هيرلوي » (١) الذي كان ملصقا بعض الإلغام باللعنة الفارسية وممكنا من لسان الباريين ، وعيد انهم إلى هذين الرجلين بسلبهم العدو الافراح الذي ذكرناه . على انهم اضافوا إلى ذلك شرطا آخر هو أنه اذا أسر الأمير الحرب فله أن يحاصر : اما المبارزة الفردية مع أحد الرعاء الصليبيين . أو أن يخرج عدد معين من رجاله ضد عدد مساو لهم من رجاله ، فيبارر بعضهم بعضا . واما أن يلنعي الحسان وحيا لوحه في معركة عامه .

ويهادن الطرفان هدنه امان لارسال الوثاده . فابطلى الرحلان اللدان أسرنا النهما إلى معسكر الأمير [كربوغا] مع الحرس الذي حصص منها . فوحدا كربوغا محاطا بكبار رجاله وبوانه .

وعلى الرغم من ان بطرس الناسك كان رجلا فطنا الا انه كان يسمح بروح عالية ، فأدى المهمة التي وكلت اليه في صدق وحماسه ، واستطاع سنوكة الرصص ولما طع عليه من حراه لا يعرف الحوف ، أن يقرب من البساط الفارسي دون أن يبدى أى خضوع ، وسلم الانذار وثلا :

« لقد أرسلناي مجمع الرعاء المقدس أحباب الله الموحودين في أبطاكة ، يهون الى سموكم أن تكف عن مصايهم . وورع الحصار عن المدينه التي أعادتها الرحمة الالهة الى أديهم . والتي طهرتها

(١) يساعد من هذا أن « هيرلوي » هذا كان يعرف الله ساسي العربي والفارسي الى جانب لغة ذلك العصر وهي اللاتينية ، وربما كان هناك مثله كيرون اصطنعهم الصليبيون من يرمون لمات هذه اللاد الشرقية وان كان عددهم سلا . أو كانوا معدودين دون الصليبيين مكانة لأنهم لم يكونوا محاربين ولكن ازعسهم الاوضاع أن يكونوا في صفوف المقاتلين . انظر الترجمة الانجليزية ، ص ٢٤٩ . حاشية رقم ٨ والمراجع الواردة بها .

من الوسبه بطرس أمير الحواريين العادل المكمل لايماننا ، والذي
اهتدب أنطاكنه بهديه الى دين المسيح ، وصاربت حقا لنا بفضل
فوه معجزاته وكلماته الكريمة المطوية على النصح والإرساد ، ثم
فدّر لب ان يغضب ما عدوانا وظلما ، فاعادها البنا السند القوي
ذو البأس السديد •

« وعلى ذلك فان العادة الصليبية بعرضون عليك بما ينفع
واحساسهم العميق بالمسئولية الموروثة من آباءنا خدام المسيح
المخلصين ان نحار واحدا من عدّه امراضا بصعها آماهك ، وهي
أن نرفع الحصار ونسحب ونكف عن مضاهة الصليبيين ، فان لم
يفعل أندرياك بحرب بعد بلانه أيام تكون الحكم فيها للسيف بسكم
وبسب ، ورياده على ذلك فان أردب نحب الصدام ببعديم عدر
مقبول فانهم يحرونك بين عدّه أمور نختار منها واحدا ، وهي اما أن
نلعي نفسك وحها لوحه مع واحد من فوادنا في مبارزه لا يكون
فيها سواكما ، فان نلعب فيها عليه ملكك كل شيء ، وان هرمك
رحلب ونركسا آمنين ، وأما الافراح الباني فهو أن يحرخ نضعه
من فرسانك بعاملون بصعة من فرساننا بماياوبهم عددا نحب نفس
السروط والا نعال الجيسان بأجمعهما من الجانبين في معركة تقرر
المصر » •



لكن الأمير [كروغا] اذدرى هذه العروض المقدمه اليه .
وفل انه قل : « ما أظن يا بطرسى العزير أن وصع رعمائك الذين
أرسلوك الى يسمح لهم بافتراح اختيارات يعرضونها علىّ . أو أن
يعرضوا علىّ احسارا معيننا حسب أهوائهم ، ذلك لأن بسالسا
أحربهم على أن يكونوا في حال لا يملكون معها حرية الاختيار ، بل

معرض عليهم اما أن يغادروا البلاد ، واما أن يخلوا عن رعبانهم بما
يتفق وهوأى أنا .

« فاذهب الآن الى هؤلاء العاده الأعباء الذين أوفدوك ، - وقد
عم غانهم الآن الوضع الذى هم فيه - وقل لهم انى سوف أستبقى
عندى منهم كل من هم فى زهره السباب من الحسين لكونوا فى
خدمة مولاي [السلطان] ، أما من سواهم فسوف أجعلهم يهب
السيوف كأوراق السحر المسدطة حتى لا يبقى منهم من يذكر
بهم ، ولولا أنى أدرب أن أتركهم يلافون الموت بالجوع القاسى بدلا
من قتلهم بالسيف لدكتت الأسوار عليهم مسد رمى بعيد
ولاسولت على المدييه عنوه ، فنجون نمره مسلكتهم بحث صرنا
السبب المنعم » .

- ١٦ -

بعد أن عرف بطرس غفلة الأمير كربوغا الذى أرساه الله ،
وأدرك مدى سلوكه المنعطرس الناحم عن اعتداده بما لديه من ثروات
لا سانها أية ثروات أخرى ، وكف عربه كره حمله . أقول بعد أن
عرف بطرس ذلك كله استأذنه فى الانصراف وعاد الى حماه .
فلما بلغ المدينة أراد أن يقضى الى الرعاء الذين بعوه بالرد الذى
حمله اليهم ، وكانت الجموع كلها من الكفار والسعب نلهمون على
سماع فحوى الرد وسبجه السعارة .

وعزم بطرس [الناسك] على أن يقدم فى حصره الناس جميعا
بفرير مفضلا بكل ما جرى خلال اجتماعه بكربوغا ، وعن مسلك
هذا الأمير المنعطرس ، كما قرر أن يسر الى تهديداته وكبريائه

(الحروب الصليبية ح ١-٤٠١)

وعروره ، لكن جودفروى العظيم حاف أثر ذلك على العامة ان هم
أثثوا بجميع تفاصيل الموضوع ، ذلك أن العامة وفد أنهكتها السدائد
المستمرة ، وضعضع نفسها براكم الأحوال عليها ، وقد يسبب بها
الفزع الشديد فتتكب على وجهها خوفا ، لذلك قام [جودفروى]
فاطفا حماسه بطرس ومعه من الاسنرسال وسرد كل ما عنده ،
وجذبه بعيدا عن الناس الذين براحموا عليه لسماع ما يقول .
واقترح عليه الا يفصل كل ماحدث ، بل عليه أن يقتصر على موجز
رد كربوغا الا وهو تصميم العدو على القتال ، وأنه يسفى على
الصلبيين أن صرفوا كل اهتمامهم للاسعداد للحرب .

ومن ثم لم يعرف الناس مما حكاه بطرس الا أن العدو يطلب
الصلال ، فاحاسب الجميع صعرهم وكبرهم رغبة غارمة ولهفة ملحة
للحرب ، واعبطوا أسد العبطة اذ نلفوا هذا الخبر ، وكانت عله
فرحتهم هى ثقتهم بالنصر ، حتى كان يخيل للناسظر اليهم أنهم
سوا نماما ما كانوا فيه من الصراع ضد الأحوال النى كانوا
بكابدونها ، وأفصح وحوهم جمعا على انفاق كلمتهم بأن يكونوا
فلما واحدا وفكرا واحدا . فتودى فيهم أن المعركة واقعة غدا ،
فعادوا بحواج قد ملأها الفرحه حتى لعد انقصى الليل دون أن
يبيض لهم عين . سوا للمعركة ، وجهزوا أسلحتهم ، وأعدوا
حيادهم ، وراحوا ينظفون صديراتهم الحديدية ومغارهم . وهماوا
دروعهم ، وشحنوا سيوفهم ، ومن ثم لم يكن عندهم وقت للنوم
أو الركون الى الراحة ، ونادى المادى بن الجميع أن يخرج كل ذى
سلاح وقادر على القتال عند نباسير الفجر وقبل شروق الشمس
وينصم الى كتبته ويف خلف راية قائمه المعين له ، فلما بزغ فجر
البوم النالى أقام القسس ورجال الدين الخدمة الدينية فى كل
الكنائس ، وقدموا الفرائين ، ثم دعوا الناس الى الاعتراف بنفس
ملوؤها التواضع والمذلة كالعادة وحضوهم على التوبة وتحصين أنفسهم

صد رذائل الدنيا بنناول الفربان الذى هو دم المسح ولحمه ، فلما عفروا لهم خطاياهم وبعضوها الى نفوسهم وفاصب العلوب بمريد من الحب الصادق ، مضى العوم الى العال وهم أكثر ثقة من قبل كلاميد وابباع العائل (١) : « أنا أعطيكم أن نحبوا بعضكم بعضا . كما أحببكم أنا نحبون اسم أيضا بعضكم بعضا . بهذا يعرف الجميع أنكم بلامدى ان كان لكم حب بعض لبعض » .

بعد أن تلقى جميع الكنائس الخدمة الدينية ، وغمر الهدوء العلوب ، انهالت عليهم النعمة من السماء انهالا عجيبا .

كما ان أولئك الدس كانوا بالأمس واليوم الذى قبله مطروحين كان قد فارقتهم الحياه . وقد بلغ الضعف منهم مبلغا عجزوا معه عن أى شيء حتى عن تحريك حقونهم أو رؤوسهم ، وناخت عليهم الفاقة تكلكها ، وأمصهم الجوع . حتى راحوا يلتمسون الأماكن الخفية عن عابثين بمكانهم السى كانوا عليها من قبل ، أقول انهم برزوا فى هذه اللحظة من تلقاء أنفسهم للعنان ، وتخلصوا من كل خوف وامشقوا أسلحتهم فى بطوارة كما لو كانت الفوه دس فى أوصالهم من حديد واستردوا اقدامهم الذى اعتادوه وراحوا يستعدون للحرب وكلهم أمل فى النصر ، وقل " ان وجد فى هذا الحشد الكثيف شخص أيا كان عمره أو ظروفه لم يهين نفسه للاضطلاع لكل عمل مجيد ، وحملوا كلهم سلاحهم ، وتنأوا الجميع بانتصار الصليبيين .

وراح الفسفس بطوفون بين صفوف العسكر ، وحيث يتجمع الناس ، وعليهم ثيابهم الكهنوتية حاملين الصليبان وصور القديسين فى أيديهم ، واعدى القوم بغفران الذنوب ومحو جميع آثام الخطاة ان هم استسسلوا فى القتال فى المعركة كحماة للعقدة المسيحية التى

(١) يوحنا ، ١٣ . ٣٥ .

ورثوها عن آبائهم ، كما قام الأساقفة نارحاء الصبح لأمرأء الجيئش وفواده أفرادا وجماعات ، وحثوهم على النضال ما أسمعتهم البلاغة التى أعدقها عليهم السماء ، ومحووا السؤس تركائهم ، واسودعوهم فى رعاية الله ، وكن فى معمة هؤلاء الأساقفة حادم المسيح الطوبائى أسعف بوى الذى دأب على اسداء الصبح والمداومة على الصوم وملازمة الصلاة ، وبر الجمع كرما فى احراج الصدقات ، وكن مسعدا على الدوام للمصجبه بعمة من أجل حاطر السند .

- ١٧ -

نجمع الجمع كائهم رجل واحد أمام باب الجسر وذلك ساعه اسراق صباح الثامن والعشرين من يومه ، بعد أن اسهلوا الى السماء أن نمدهم بالعون ، وأعدوا صغوفهم للمعركة بعد أن «موا للفيالق نظام السر وأسلوبه ، وذلك قبل مغادرتهم المدينة ، وبولى هنج العظيم - أخو ملك فرنسا - أمر القلق الأول كمائد له وحامل لراينه ، وجعلوا معه أنسلم دى ريمونب الجدير بالبناء على كل ما يفعل ، وأشركوا معه أشرافا آخرين نعجز عن ذكر أسمائهم وعددهم » .

وعهدوا بالفريق الثانى الى روبرت الملقب بالعريرائى كوت فلاندر ، ومعه من ضمهم معسكره من البدايه ، أما روبرت دوق نورماندى فقد وكلوا اليه قيادة العسكر الثالث ، وكان معه ابن أخيه الفاضل سمفن كوت أو مال وغيره ممن كانوا فى بطانته من النبلاء .

أما المبحل أدمار أسفغ بوى ، دو الذكر الغالى ، فقد عاد
المجموعة الرابعة الى كاتب سسمل على حاصة أباعه وأساع كونف
بولوز ، وكان [أديمار] يحمل حربة السمع المسح .

وأما رينارد كونف بول فقد كلموه بأن يعود العيفقين الرابع
والخامس ، وكان معه أخوه بطرس دى سنيناي ، وكونف جارسيه
دى حراى ، وهبرى دس ، وريولد فون أمررباخ ، وولتر دومندارد

وأمر الزعماء أن يكون على الفيلق السادس رينبالد كريب
أورانج ، ولدفع دى موسسون . ولاهبرب بن كونف دى موساج .
أما جودفروى دوى اللورى ذلك الأمر العظيم المبحل ، وأخوه
الموفر لورد اسساس ، فكانا على الكنسه السابحه ، التى ربهها وفق
الطعم الحربى .

وأما القسم الثامن [من الجنس] فكان بقيادة نانكريد
الفارس المعلم فى نبل حلهه وبراعه فى استعمال السلاح .

وأما القسم التاسع فكان فيه هيج كونف سب بول ، وابيه
اسجرايد ، وبوماس دى لاهر ، ويلدوبس دى بورج ، وروبرب بن
جيرادر ، ورينو دى بوفيه ، وجالو دى شومونت .

وأما الفيلق العاشر فقد عهدوا به الى روبرو كونف بيرش .
وايهرارد دى بويسيه ، ودروجو دى مونسى ورايت ابن جودفروى
وكونون روتو .

وقاد الفيلق الحادى عشر كل من ايزورد كونف ديبى ،
وريموند ببله ، وجاسنون دى بزييه وجيرارد دى روسيلون
وولم دى مونبليه ووليم أمانجو .

أما الفيلق النابى عشر وهو أكبر الفللق جملعا فبؤلف مؤخره
الجيش ، وقد عهدوا به الى لورد بوهموند رعيما وقائدا ، ووكلا
اليه أمر هذه المؤخره كى يساعد القواب الأمامبه فى اللخطاب
الخرجه ، كما عهدوا اليه أن يرعى من فد يشمد عليهم صفط
العدو .

واشدت وطأة المرض يكومت بولوز فى هذا الوقت ، فخلعوه
وراهم لحماية المدينة ، اذ لازالت فلعبها فى قبضة الترك الذين
خيف على المدينة منهم أن يظوها بلا مدافع بسبب غياب الزعماء ،
فيحاولون الاعارة عليها ، ومباغنة من بها من الشيوخ العجرة
والساء وغيرهم من أهلها الذين ليس هناك من أحد بحبهم .

ولقد أمام الصليبيون على النل المواجه للقلعة سورا فويا من
الأسمنت والحجر ، الى جانب اسحكامات اضافية نصبت عليها
بعض آلات الرمى ، كما تركوا بها مائنين من الشجعان الأشاوس
المدججين بالسلاح للحفاظ عليها .

- ١٨ -

حب ريب دوانا نفسها على هذه الصورة وهأوا صفوفهم
للقال ، قرر الزعماء بانفاق الآراء أن يسر أمام الجيش بأجمعه
وينقدمه كل من هيچ العظيم [أخو ملك فرنسا] . وكونت فلاندر ،
ودوى نورماندى . أما البقبة فلعلهم مراعاة الترتيب الملقق عليه ،
وجات المشاة أولا ومن بعدهم مباشرة الخباله كحراس لهم ،
وأعلن نداء عام يحذر تحذيرا قاطعا أى شخص من النجرؤ
على مد ناظره الى الغنائم والاسلاب ، بل يكون الاهتمام منصبا
على كل ما فسه تحطيم الأعداء ، حتى اذا ما نم النصر للصليبيين ،

ودارب الدائرة على العدو . امكنهم العودة نفس راصه لجمع
الغنيمة .

بوقع كربوعا منذ اللحظة الأولى - لا سيما بعد رياره بطرس
[الناسك] له - أن لابد من قيام الصليبيين بسن عاره فحانه على
معسكره ، ومن ثم فانه اتفق مع الانراك الموجودين في القلعة أنه
إذا لاحظ أحدهم جماعة الصليبيين وهم يسمعون للحروح من
آية ساعه من ساعات يومهم فعلى اهل البلد المبادره بمواقاه معسكره
بإشارة اتفق عليها من قبل .

شرع رجالنا منذ أول ساعه من النهار في تنظيم صفوفهم ،
فلما لاحظ أنراك القلعة بحركابهم بادروا فأعطوا الاشارة لى في
معسكرهم ، فمزم كربوعا على التقدم والحيولة دون ما يريد ،
وأرسل في الحال نحو ألفى فارس ليصرف نظر قواتنا الموجوده
عند الجسر ويمسها من مفادره المدينة ، ثم رجّل هؤلاء الرجال
ونزلوا عن ظهور جيادهم ليكون هجومهم اشد عنفا ، ولكى يجدوا
مجالا أوسع لاستعمال أقواسهم ، فأمكنهم الاسيلاء على الطريق
البعيد من الجسر ، وأما الصليبيون فقد ربوا صفوفهم . وزرعوا
رجالهم وفق قواعد علم القتال ، ثم قاموا بعد ذلك بفتح البوابه .
وزحف فبالعهم واحدا بعد اخر ، وكاتب لا نزال مرابطه في مواضعها
على نفس المسافات النتي بفصل بين بعضها والبعض الآخر .

وبينما كانت كنانثب العدو التى قدمت لمنع جماعنا من الهجوم
تجهدهم نفسها أشد الاجهاد لبلوع هذه الغنايه . عمد صبح العظم
الذى يولى - كما قلنا - قيادة العيلق الأول بارسال كوكبه من
المشاة ورماة الأقواس ، فشنت هجوما عنيفا على البرك الذين حاولوا
المقاومة فى بداية الأمر ، لكنهم ما لبثوا أن عجزوا أخيرا عن صد
فواسا ، واضطروا الى الفرار على عر نظام ، فاصفى صبح أثرهم فى

عنف لم يستطيعوا معه الوصول الى جسادهم وامتطائها الا بعد
لأى وجه ، وبسبب كانوا لا تذب نأذبال الهرب اسبسل في
مهاجمهم اسبسل دي ريموب الذائع الصيت الذي كان واقفا في
الصف الأول ، وقدم الدليل الناصح على شجاعته ، واندفع
غير عابئ سلامه حتى صار في وسطهم وقد كسوه من كل
ناحية ولكنه صمد مردبا بعضهم وطاعا بسفه ناوب البعض
الآخر ، وأبدى في العنك بهم كيرا من البسالة التي دلب على قدره
واسنلعت اليه الأنطار ، وحذب اليه اعجاب جمع المحاربين ،
فحف لجسده هج العظم ، وروبرت كوت فلاندر ، وروبرت
كوت بوماندى ، وبادوين كوت هسول ، واساس أحو الدوق ،
وقد املاأ نفوسهم اعجابا بطوليه فضموا فوانهم بعضها الى
بعض ، وكروا على العدو كره اساصلوا بها سافة من لازال هناك
من عسكره ، ثم نابعوا انشاء أنره الى محييه وكندوا الماربين حساره
بعجر اللسان عن وضعها .

- ١٩ -

سما كاب فوانا بغادر المدينة جرى أمر يسنحق السحبل،
ذلك أنه في اللحظة التي أخذوا فيها ينهأون للعمل ، وقه صاروا
بعسكرهم خارج الباب ، اذا ببعض من رجال العدو الذين دبوا
أمر منهم من الخروج يحرون صرعى ، ويلوذ غرهم بالقرار ،
وحدث في هذه اللحظة بالذات أن أخذت حبات الندى اللذيذ
تنساقط على الجيش الصليبي ، وكان رذاذا خفيفا لكنه أنعش
رجالنا كل الانعاش ، ونزل عليهم بردا وسلاما ، حتى لكان السند
ذاته هو الذي بمنحهم بركاته وعطفه .

وما كان هذا الندى العاوى المعطر تصيب أحدا إلا وابت
الفرحة فى بده . ونسى روحه . وسبرد فوه بمام الاسترداد ،
حتى لكأنه لم يشك قط مشقه ولم يأتى صعوبه طوال رحاة الحج .
ولم يفتصر ذلك على الرجال وحدهم . بل ان الحاد دانيا عاذب -
بقوه الله - الى ما كات عليه من النشاط . على الرغم من انسا
طلب لبضعة أيام سألته لهذا الحب لا يجد علقا داء به .
ولم يكن لها من طعام سوى ورق الأسجار ولحائها . أما اليوم فقد
حاوزت سرعتها وصبرها سرعه خبز العدو مع أن علم حاده كان
من السمر والس .

أدى هذا الأمر الى أن باب الأمل فى النصر فويا . وبعد هذا
الندى فى حدودنا قوة اعمال طاغية فكانه هو المراد بقول العائل (١)

« اللهم عند حروك ... الأرض ارتعب . السماوات انتسا
فطرت ... مطرا غريرا أنضجت يا الله ... مراياك وغر دعى أنت
أصلحه »

والواقع أن حدودنا لم يخامرهم أدبى سك فى أن الذى بالهم
انما هو رحمة الروح القدس قد برلت عليهم .

★★★

ولما أصبح جمع الكائب خارج المدييه صمم الرعاء على
نشر العسكر حتى الجبال التى بعد عن أنطاكية فراه ميلين ،
واحتلال السهل بأكمله مخافة أن يحول العدو - بأعداده الضخمة -
جلسه - او عنوة - بين فواسا وبين المدييه . فيكون فى ذلك الخطر
علنا ، كما أنه يستطيع بهذه الطريقة - كما هى عادته - الإحداق

(١) مرايم ، ٦٨ ، ٩ - ١٠ .

رجالنا من كل جانب - فمقطع حط الرحعه على المتسللين الى المدنه . واخذ السامبون يقدمون سطه حتى لا يحاط صغوفهم بعضها ببعض ، او يخلل نظامها . وقد ساءت الاراده الالهيه ان الصليبيين الذين كان بخيل لرائيهم - وهم وراء الأسوار - أنهم دون خصمهم عددا . أو بقول أدق أنهم لا شيء مطلقا بالنسبة اليه - فد صاروا وهم خارجها يواروه عددا ان لم يكونوا أكثر منه جمعا ، وهكذا فان « الواحد الذي بارك الأرغفه الخمسه فراد في بقاها ريادة جمة بعد أن أكل الجميع حتى سيعوا قد جاء بمعجزه ليست دون هذه المعجزه حين راد عدد هؤلاء الناس ، الذين وهبوا أنفسهم للعمل الصالح في نظره . وكان ذلك مه مجندا لاسمه » .

وكان القسس واللاويون الذين وهبوا أنفسهم للرب يسبرون في ركب من خرجوا للقتال متسربلين بمسوحهم البيضاء ، ورافعين بأيديهم الصليب المجيد ، كما ظل بالمدنه طائفة من الكهنه وكانوا كأعمالهم مديرين بمسوحهم الكهنوسه ، واعلوا الأسوار ورفضوا أيديهم الى السماء لا يكون عن الابنهال الى السند بدموعهم وصلواتهم أن يخلص شعبه الوفى ولا يأذن لمنكريه أن يرثوه .

- ٢٠ -

فهم كربوغا من الاشارة التى ظهرت على العلهه ومن مطالعنه الهاربين المهزومين من انطاكية عند زحف رجالنا ان الصليبيين أخفوا في النقم ، فدعا الى اجتماع عاجل حضره كبار الرجال في السن وقواد عسكره ، للنشاور في الوضع الذى كان ينظر اليه بازدراء ، ولكنه أصبح يتشكل أمرا خطرا حمكه على أن يحوف

من هؤلاء العوم النافعين ، الذين سحر مد فليل جدا من معدائهم وعددهم الضئيل ، ومن ثم سرع في ترسب فوانه ، وسطم صفوفه استعدادا للفعال ونزولا على صبيحة مستساريه . واحده بحربه الأنطاكيين بعين الاعتبار واستطاع بكثير من انيازه وسطم فوانه وترسب صفوفها للفعال ، وأقام حدا فاصلا بارزا بين العالي الى يأتلف منها حرس مقدمه وبين السائرين خلفهم . وكان من بين نظمائه الصارمة ما يلي .

هو أنه أرسل ناحيه الساحل كتيبه امنازت بكفاءه رجالها وسجاعتهم ، وقد فعل ذلك قبل أن يشغل الصليبيون كل السهل الواصل بين المدينة والجبال ، ويقال ان هذه الكتيبة كانت بقيادة قلع أرسلان أمير نيقية المشهور الذي تردد ذكره كثيرا فيما سبق ، وكان الهدف من هذه المناورة هو أنه اذا دارت الدائره على سعب الرب ، واضطروا للهروب ، وجدوا أنفسهم وقد سدت سبيل السجاء من خلفهم وقدامهم ، سواء كانوا يريدون الفرار الى البحر أو الى المدينة ، وبذلك يقعون بين القوات التي تطاردهم . وبين الذين يحاولون منهم من التقدم فتطرحهم رحي القنال بين سعبها .

ثم أقام كربوغا بقية عسكره على اليمين وعلى الشمال ، واصعا كل جماعة تحت قيادة قائدها الخاص . ونادى في عسكره أنهم ان أرادوا كسب عطفه عليهم ، فعليهم أن يندكروا ما عرفوا به على الدوام من الشجاعة الفائقة ، وأن يحاربوا خصومهم حربا لا هوادة فيها ، ولا يلقوا بالا الى مجهودات قوم لا يدرون ما الحرب ، ولا يزيدون عن أنهم رعا انهم أنهكتهم المجاعة ، وأعوزهم السلاح ، وفل قى يدهم المال .

★★★

ولما احلب فواسا كل السهل احبالا أموا معه أن يحدو بهم أى حطر أمروا بدق الطبول ايذانا بالزحف ، وسرع العسكر فى التقدم شيئا فشيئا نحو صفوف العدو ، بنعمتهم حاملو الرايات ، حتى اذا صاروا قريبين من المارقن قريبا أعجز الآخرين عن رميهم بالسهم ، اندفعت الى الامام فى آن واحد صفوفها الثلاثة الأولى ، وقابل رجالها العدو بالسيف والرمح فى الأحياء القريبة .
أما مشاننا وهم رماة الأقواس والمجنسو ، فقد سموا كائب الفرسان ، وراح الجمع ينافس بعضهم بعضا ، وشؤوا من الهجوم أعنفه .

ثم جاء الفرسان فى أعقاب المشاة ، بادلين أقصى الجهد لحماية الطليعة ، وبينما كانت الصفوف الأولى تبدل فصارى جهدها فى القتال ، هب لمعاونتهم من كانوا وراءهم مسلسلين فى الهجوم ، فاناروا الطليعة للقيام بأعمال أكثر شجاعه وأعظم جرأه ، وهجمت جميع العواب الصلبة باستثناء المؤخرة - التى بقيادة بوهيموند - على العدو وحاربه فى بطولة ، واسمحر العمل فى كثير من الترك ، ودبت الفوضى فى صفوف الباقين فركبوا الى الفرار ، وصى الدوى ووحدته فضاء مبرما على أقرب وحدات العدو اليه ، غير أنه جذب فى هذه اللحظة أن عاد فليج أرسلان بعيلقه الذى كان - كما قلنا من قبل - قد فاده منجها ناحية الشاطئ وكر به كره عنيفه من الخلف على كتيفة بوهيموند ، وراح برشقها يوابل من السهم التى راحت تتساقط مدارا حسي غطتهم جميعا ، ثم نحت قواف قلع أرسلان الأقواس جانبيا وجنبتا كنسكانها المألوفة ، وهاجمت بوهيموند بالهراوات والسيف وكانت الكرة عليه أخرى ما تكون، حتى لم تعد صفوفه قادرة على تحمل ضغط هذا الهجوم الشرس ، فدب الاضطراب فى صفوف كنيبته على الرغم من صموده للعدو ،

هو وبله صنيئله من رفاقه ، كما أبدى من البسالة العاتقه ما هو
مميز به كقائده ، على أنه فى هذه اللحظة الحرجة استجاب الدوق
جودفروى لما نودى عليه ، وأسرع بعونه لمساعدة بوهيموند ، وكان
ممن جاء مع الدوق من الرجال تنكريد القائد المقدام ، وربي على
مجى هؤلاء الرجال خير كبير ، نسل فى نوارى فوانهم مع قوات
العدو الذى نلاشى بأسمه مما شجع الصليبيين على ملاحقه ، غير
عابئين أن يصابوا فبحرحون أو يهلون ، فلما رأى الحصم أن
فونه ليست معادله لهواننا ، وأدرك أنه لن يستطيع بحمل بأس
حصومه أكثر من هذا عمد عسكره الى حيل أخرى ، وكان منها
رجوعهم الى مالوف عادهم ، فأصرموا النار فى الروح ، فأججت
لوجود كميات وفيره من الحسائش الجافه وآكوام العش التى
سرعان ما أمسكت بها السيران ، وساعدت على انشاع مدى الحريق ،
وعلى الرغم من أن اللهب كان بسيطا الا أنه أسفر عن دخان كيف
حائق ، فحالت هذه القمامة بين جيشنا وبين مطارده العدو بشده ،
ذلك لأن ما أثاره أقدام كثير من الرجال والجسود من العبر
والتراب ، أزاغت أبصارهم وكادت أن تعميها ، حتى لم تكدر ترى
سببا ، فاعنتم العدو وجود هذا الدخان ، وانخذ منه سارا استخدمه
بمهارة فى تحقيق غرضه ، فهاجم فواننا وفك بطائفة من مشاننا ،
غير أن سرعه عدو جباد العرسان ساعدتهم على تجنب أخطار الدخان
الكثيف ، فكروا عائدين الى ساحة المعركة ، وجاءهم الفوت من
السماء ، فاسمروا فى القتال حتى نجحوا آخر الأمر بفضل تجدد
نشاطهم ، فى ارغام العدو المارق على الهروب أمام سدوهم الظامئة
للانعام ، ولم يكفوا عن مطارده ، حتى حملوه - وقد اضطربت
'صفوفه أشد الاضطراب - على الارتداد الى حيب يوجد اخوانهم .

كان على معربه من ساحة المعركة واد صغير ، اذا حل الشناء غمره السيل المتدفق من فمة الجبل العالية ، وقد تمكث فوانا من طرد العدو الى ما وراء هذا المجرى المائي ، ولم ينوان رجاله عن بذل أقصى جهدهم في سبب أقدامهم فوق نل يعلو هذا السهل قليلا ، وراحوا ينفخون في الأبواق ، ويدقون الطبول في محاولة منهم لاستدعاء عساكرهم المشتتة هنا وهناك ، ولكن زعماءنا انطلقوا بنعيقهم دون أن يوقفوا ولو لحظة واحدة ، وسرعان ما أدركهم ، وبينما كانت المعركة الكبرى دائرة اد أفل من المؤخرة الدوى جودمروى وبوهيموند وتانكريد وغيرهم من أشرف الرجال ، وقاتلوا كتائب قلج أرسلان واستاصلوا شأفتهم بمعونه الرب .

في هذه الأناء تمكنت الطليعة المؤلفة من هيح الكبير ، وروبرت كونت فلاندرز ، وروبرت كونت نورماندى مع الكثيرين ممن يستحقون الذكر الأبدى ، من حمل العسكر المعادى لهم على الهرب ، فاجتاز هؤلاء المحاربون الوادى ، وأزاحوا العدو عنوة من على الجبل ، وأرغموه مرة أخرى على الفرار ، وقد صربت الفوضى أجرائها عليه ، ولم يعد قادرا على احتمال الضغط الذى مارسته القوات الصليبية عليه .

ظل كربوغا منذ بدء القتال بعيدا عن ساحة المعركة مرابطا على تل معين ، وكانت الرسل موصولة الغدو والرواح حاملة له أخبار المعركة ، وبينما كان يترقب فى لهفة نتيجة هذا الصراع العام ، اذا به يطالع - فجأة - اختلال نظام قواته وتفرقها ، وفرار عسكره على وجوههم فى شتى النواحي على غير هدى ، وتفرقهم أيدي سبأ ، فغمره الحزن المحض حين أدرك مدى النكبة التى حلت بهم فنصححه

أنباعه بالعمل بكل الوسائل على ما فيه سلامه ، فنادر المعسكر على
عجل لائذا بأذيال الفرار غير عابئ مطلقا برجاله ، ولا مسطرا أحدا
منهم ، وأحد يتبدل على الدوام الجياد على طول الطريق لستيل
هروبه ، حتى بلغ نهر الفسرات ، فعبره وهو في حال من العزع
الشديد ، فلما بلغ شاطئه الآخر لم يصدق أنه بلغه سالما .

حين ساعدت فوات العدو تخلى فائدها عنها وحرمانها من
مساعدته أياها ، زایلنها شجاعنها وبلاش عزمها ، فاسولى رجالها
على كل ما عسروا عليه من الجبل ، وحدوا حذو كبيرهم فأمعوا فى
الهروب حتى لا يكونوا طعما لسوف مطاردتهم .

ولم يكف رجالها عن مطاردتهم الا لحوقهم من أن سق
جبادهم بحهم من طول المطاردة ، بيد أن نانكرید وشرمة صئلي
معه قصوهم مسافة ثلاثة أو أربعة أميال ، حتى حانت ساعة العروب
فرجعوا بعد أن أوقعوا الفرع الأكبر فى فلوهم .

ابتلت العوة الالهية نفوس هؤلاء الفارين بالحواف ، حتى انهم
لم يستطيعوا الصمود لهجمات المبعدين عليهم ولا صدها .
اذ يخالون العشرة من رجالنا آلافا مؤلفه ، كما أنهم لم يجدوا أحدا
يهددهم ويأخذ بيدهم أثناء هروبهم أماما ، وتوضح هذه
الحقيقة أنه ظهر صدف الملل القاتل (١) .

« ليس حكمة ولا مطنة ولا مشورة نجاه الرب » .

وظهر جليا فى هذه التجربة ذانها أن قوما أهل مرربة نكاد
المجاعة نقضى عليهم يصيحون ذوى بأس شديد ، فادريس بمعوته
الرب على هزيمة مل هذا الجيش الكبير من المحاربين الأقوياء وأن

(١) أمثال ، ٢١ . ٢٠ .

ينحقق لهم فى معركة واحدة فوق كل ما كانوا يأملون ، اذ يتمكنون
من دحر جميع قوة المسرف الذى لا يعرف الرب . .

- ٢٢ -

حين فرح رجالها من المعركة ومحتهم السماء النصر ، انغلبوا
الى مخيمات العدو فوجدوها راحه بكل ما هو ضرورى وما لا غنى
لهم عنه ، وعبروا على أحمال كبيره من الأمتعه الشرقيه الغاليه التى
بلغت من الصخامه فدرا كان من المسنحيل معه عدها وتقديرها ،
وهى غنائم من الذهب والفضة والجواهر والحريز والملابس الغاليه،
الى جائب الأدوات المرلبه الرائعه الصبغة ، النفيسه الماده ،
كما وجدت هناك أعداد ضخمة من الجياد وقطعان الماشية وأسراب
الأغنام ، بالإضافة الى مفادير هائله من الأطعمة والجبوب ،
وكان ما عنموه شيئاً عظيم الوفرة ، حتى لقد حير من كانوا حتى
الآن مملئين أشد الاملاق ماذا يأخذون وماذا يركون ، واستولوا
على خيام العدو وفساطيطه التى كانوا فى حاجة ملحه اليها ،
لأن ما كان لديهم منها من جبل قد قدم العهد به ورت ، وأبلاه
هطول المطر الغزير عليه ، مما جعله فى الواقع غير صالح
للاستعمال .

ثم عادوا الى أبطاكية وفد فاضت أيديهم بالغنائم الجمة ،
فكان مما عادوا به مما خلفه الأتراك وراءهم حين فرارهم الاماء
والأطفال ، كما استولوا على مخيم القائد العام ، وهو قطعة من
الابداغ فى الصبغة فد سجع أغلبه من أحسن أنواع الحريز المتعدد
الألوان ، وكان هذا الفسطاط مؤلفاً من حجرات تمتد الى جهات

بعيدة ، ويفضلها بعضها عن بعض الشوارع ، وييل ان هذه الحيمة كانت تسبح لالعين من الرجال لايراحم الواحد منهم فيها الآخر ولا يصايفه .

رجع الصليبيون الى المدينة محملين بكل ما أصابوه من الغنائم والأسلاب ، وعدوا يومهم هذا يوم فرحة عامرة بسبب النصر الذي أحرروه ، وعادوا ساكرين من جادب يده عليهم بالقلبة الى واصلهم بعد طول انتظار ، وبعدما فاسوه من الكوارث . وما نزل بهم من المصائب العديدة .

أما الترك الذين لازال القلعة في أيديهم فقد أدركوا الآن أن قد حاصب الهزيمة بحلفائهم ، ودارت عليهم الدائرة ، ففقدوا كل أمل كان براودهم في نجده نائهم من أى مصدر ، وحينذاك أسلموا القلعة لعادسا الدين خفف أعلامهم على شاطئ أبراجها ، غبر أن الترك اشترطوا عليهم أن يأتوا لهم بالخروج سلالين ، لايعرض لهم أحد بسوء فى أنفسهم ، ولا فى أولادهم ، ولا فيما ملكت أيديهم .

ومن ثم تم نصر الصليبيين ، واستحوذوا على القلعة رحمة الرب الكبيرة الساملة ، وأصبح من كانوا بالأمس الدابر فى شدة الاملاق والخور : أغنياء كل الغنى اليوم بما ملكته أيديهم من كل طبب .

لقد مرت عليهم أيام عجاف صار فيها أصلب الحجاج عودا من أصحاب الأسماء الرنانة وذوى الصبب الذائع - ولا نذكر العامة أقول مرت أيام صار فيها هؤلاء وقد ضاقت بهم الحياة ضيقا اضطرروا معه الى الاستجداء ومد أيديهم بالسؤال ، وحسبنا أن نذكر منهم كونت هارتمان - أحد نبلاء المملكة التيوتونية - فقد صحا ذات يوم ليجد نفسه فى فقر مدفع ، وأصبح هذا النبيل

العظيم يرى الملة الكبرى أن يصدق عليه الدوى كل يوم بحبر
يجود به عليه من مائدته .

وشابيه أيضا « هنرى ديش » ، وكان رجلا فاضلا مرموقا ،
اذ كاد - من غير مبالغة - أن يهلك جوعا ، لو لم يستنضه الدوى
على مائدته .

وفى أثناء هذا الحصار كابد الدوى دانه مشقة كبيرة قبل
المعركة لعدم وجود حيل لديه ، لكنه استطاع بعد لأى ومثسه ،
وبعد ان قدم ما قدم من الماسات جمة الى كوب بونور ، أن
يحصل منه على حواد واحد يمضى به الى المعركة ، وكان جود فروى
وسواه من الزعماء الآخرين قد أنفقوا هم أيضا كل ما كانوا قد
حاءوا به من المال ، اذ بذلوه فى أعمال البر والرحمة ، لاسيما
ما كان منها متعلقا بالنفقة العامة .

وهكذا شهدت ساحة المعركة - يوم نشبت المعركة - رجالا
أبطالا دوى حسب يصون اليها مشاة ليس عندهم ظهر يركبونه ،
وبصهم يسطى الحميز وأمالها من دواب البعل ، ذلك لأنهم كانوا قد
أفنوا كل ما معهم من المال ، وأصبحوا اليوم مملقين ليس لديهم
خيل .

غير أن الله كالأهم برحمته قبل غروب شمس ذلك اليوم ،
فأنزل الهزيمة بالإعداء ، وأعدى على أساعه المحتاجين من الثروة
فوق الذى يشتهون وفوى ما تصورون ، ومن الواضح ان هذا كان
تكرارا لقصة السامرة الغديمة حين بلغ ثمن بيع المكالم من الدقيق
الطحين والسعير قطعة واحدة من النقود (١) ، ولكن لم يمس المساء

(١) هذه اشارة الى ما جاء فى التوراه من خبر نوح الشح بالرحص فى
السامرة ، اذ ورد فى الملوك الثانى ١/٧ « وقال الشح اسمعوا كلام الرب ،
هكذا قال الرب فى مثل هذا الوقت . عدا تكون كيلة الدقيق بشاقل ، وكيلسا
القمير بشاقل فى باب السامرة » .

على من لم يكن عنده عذر ما يمسك رهنه الا وقد يوفر له منه ما راد
عن حاجته وما يكفى أن يقيم أود الكثرين معه .

ولقد وقعت هذه الواقعة في اليوم الثامن والعشرين من شهر
يونيو ١٠٩٨ من ميلاد المسيح .

- ٢٣ -

لم يكن القادة يعودون من ساحة القتال ويسبب شيء من
السلام والنظام حتى انصرفت همه الجميع للعناية بالكنائس . وكان
أشد الهوم احساسا بالمسئولية تجاه هذا الأهتمام [أديار دى هوسل]
اسقف بوى المعظم ، باعباره راعي الجنس . وعاونته بقيه من في
الجنس من القسيس معاونه صادقة مخلصة ، كما أقبل الناس يمدون
بد المساعدة عن طلب خاطر ، وبهذا عادت الكنيسة الرئيسة المنهدة
الى أمير الحواريين وبقيه كنائس أنطاكية الى مكانها التي كانت
عليها في الأصل ، وأقام فيها المساوسة الذين وهبوا أنفسهم على
الدوام للقيام بالخدمات الدينية .

كان الترك قد دنسوا الأماكن الطاهرة وأخرجوا منها من كان
بها من أهل التقوى ، واستخدموا الكنائس اسخداما شائنا .
فحولوا بعض هذه الأماكن المقدسة الى اسطبلات للخيل ولغيرها
من دواب الفل ، وممارسوا في غيرها أعمالا دنسة ، وطمسوا صور
العديسين المبجلين التي كانت على جدران هذه المواضع ، وازالوا
المرمر التي كانت تقوم مقام الكتب والقراءة لعباد الرب المسعفة .
وكان ما طمسوه أشياء نبعت القوى في نفوس البسطاء ، فصب

(الحروب الصليبية ح ١) - ٤١٩

الترك عصبهم على هذه الاشياء كما لو كانت ابناء يسمعون ، فراحوا يسادون عبودهم ، ويحذعون أبوفها ، ويطمسوا هذه الصور بالطين . ويلويرونها بالعادوراب ، ويهدمون المدايح ، ويدسون هبكل الرب بفعاظهم المسكرة ، فانهم الاجماع حينذاك على أن يعود رجال الدين في لحظتهم لممارسته الأعمال التي كانت مطاطه بهم من قبل في الكنائس ، وأن يجمع المال ليعسوا به المحاربين في سبيل الرب . وأن يؤخذ ما عموا من ذهب العنبر وفصنه فيصبعون من ذلك السمادات والصلبان وكؤوس العرايين ، ويرسم عليها صور مسمومة من الكتاب المقدس ، ونستخدم في كل ما هو ضروري ولازم للخدمة في الكنيسة ، كما قدموا الأقمشة الحريرية لصنع الملابس الكهوتية وأعطاه المدايح .

وأعيد البطررك «يوجنا» الصادق الإيمان الى أبرسيه ، وكان قد كابد من العذاب على أيدي الترك منذ مقدم الصليبيين ما يعجز اللسان عن وصفه .

أما المدن المجاورة التي كانت نتمتع بوجود كنائس كلدائيه بها فقد نصبوا أساقفة يرعونها ، كما وجدوا - من ناحية أخرى - أنه لبس من اللائق اختيار أو رسم بطرك لاسنى في الوقت الذي كان ٢٠٠ ساعل هذا المكان الموفر لا يزال على قيد الحياه ، وذلك تحاشيا من وجود انبئ يشغلان نفس الكرسي في وقت واحد ، مما يعتبر مخالفة صريحة لقوانين الآباء المقدسين وفراراهم النظامية . على أنه قبل انقضاء عامين غادر البطررك يوجنا بمحض ارادته أنطاكية ، ومضى الى القسطنطينية ، وذلك ادراكا منه أنه لن يكون قادرا - كبوناني - على أن يحكم فعالية على اللاتين ؛ فلما غادرها اجمع رجال الدين والشعب واخاروا بطركا آخر لهم هو برنارد أسقف « أرناح » من أهل فالنسيا وهو الذي صاحب أسقف نوى في هذه الحملة كاشين له .

ثم امنل الجميع للعهد الذى قطعوه على أنفسهم فى البدايه
الا وهو أن تكون السلطه والحكم فى أنطاكيه لبوهيموند ، فعملوا
ما اتفقوا عليه ، ولم يشهد عنهم سوى كوث بولور ، الذى احفظ
بالبوابه الملاصقه للجسر وبجميع الأبراج المتصله بها ، وأقام فيها
حاميه من رجاله تتولى أمر حراستها •

على أنه بعد معادرة الكونت لأنطاكية عمد بوهيموند الى طرد
حمد [ريموند] من هناك ، وأحل حاميه من رجاله محلهم لحراسها ،
واسمولى على المكان كما سرى خبر ذلك فيما بعد •

ولقد حلق حاصه رجال بوهيموند عنه لقباً معظيماً الا وهو
« الأمير » ، الذى أصبح مد هذه اللحظه لقباً لصاحب أنطاكيه
لا يشاركه فيه أحد غيره •



هنا ينتهى الكتاب السادس

● ● بهذا ينتهى الجزء الأول من الترجمة العربيه لكتاب
الأعمال التى تم انجازها فيما وراء البحار أو تاريخ الحروب
الصليبيه تأليف وليم الصورى ، ويليه الجزء الثانى متضمناً الكتاب
السابع حتى الثانى عشر •

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
مقدمه المرجم	٩
مؤلفات ولیم الصوری	٢٧
نارنخه الکبر	٣٣
کامه سر	٥٥
التمهید	٥٧
الکتاب الأول : المسححة بهب لاسحلاص بب المقدس . وبطرس الماسک بدأ فی الزحف مع جماعات أخرى	٥٧
الکتاب الثاني : جهوش الحملة الصلیبة الأولى تزحف الی القسطنطینة	١٣٩
الکتاب الثالث : الاسلاء علی نیقبه والزحف عبر أسما الصغری	١٩٣
الکتاب الرابع : اجتاحت الصلیبیین شمال الشام وشرعهم فی حصار أنطاکیة	٢٤٩
الکتاب الخامس : حصار أنطاکیه واحلالها	٣٠٧
الکتاب السادس : محاصرة الصلیبیین . البصر المعجزة	٣٦٣
	٤٢٣

● صدر من هذه السلسلة :

-
- ١ - مصطفى كامل فى محكمة التاريخ
د. عبد العظيم رمضان
 - ٢ - على ماهر
اعداد : رشوان محمود جاب الله
 - ٣ - ثوره يوليو والطبقة العاملة
اعداد : عبد السلام عبد الحليم عامر
 - ٤ - النضال الفكرى فى مصر المعاصرة
د. محمد نعمان جلال
 - ٥ - غراب أورنا على الشواطىء المصرىة فى العصور الوسطى
عليه عبد السمیع
 - ٦ - هؤلاء الرجال من مصر ج ١
لمى الطیعى
 - ٧ - صلاح الدين الأيوبي
د. عبد المنعم ماجد
د. محمد أنيس
 - ٨ - رؤيه الجبرىة لازمة الحناء الفكرية
د. على بركات
 - ٩ - صفحات مطوية من تاريخ الرعیم مصطفى كامل
 - ١٠ - نونق دباب ملحمة الصحافة الحزبية
محمود فوزى

- ١١ - مائه شخصه مصره وشخصية
شكري القاضي
- ١٢ - هدى سيراوى وعصر النوير
د. نبيل راجب
- ١٣ - اكدوبه الاستعمار المصرى للسودان
د. عبد العظيم رمضان
- ١٤ - مصر فى عصر الولا
د. محمد اسماعيل كاسف
- ١٥ - المستشرقون والتاريخ الاسلامى
د. على حسن الحروبلى
- ١٦ - فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر
د. حلمى احمد شلبى
- ١٧ - القضاء السرى فى مصر فى العصر العثمانى
د. محمد نصر فرحات
- ١٨ - اوارى فى مجمع الدائرة الماوكه
د. على السيد محمود
- ١٩ - مصر المدنية وفصة بوحيد الطرس
د. احمد محمود صابون
- ٢٠ - المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فيمى
د. محمد أنس
- ٢١ - الصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ح ١
توفيق الطويل
- ٢٢ - بطران فى تاريخ مصر
جمال بدوى

- ٢٣ - الصوف في مصر ايان العصر العثماني ج٢
 بوفيق الطويل
- ٢٤ - الصحافة الوفدية
 د نجوى كامل
- ٢٥ - المنهج الاسلامي
 ترجمه : د عبد الرحيم مصطفى
- ٢٦ - تاريخ الفكر الربوي في مصر الحديثة
 د سعيد اسماعيل عل
- ٢٧ - فتح العرب لمصر ج ١
 ترجمه : محمد فريد أبو حديد
- ٢٨ - فتح العرب لمصر ج ٢
 ترجمه : محمد فريد أبو حديد
- ٢٩ - مصر في عصر الاحشيديين
 د سيدة اسماعيل كاشف
- ٣ - الموطعون في مصر
 د حلمي أحمد شلبي
- ٣١ - خمسون شخصية وشخصية
 شكرى القاضى
- ٣٢ - هؤلاء الرجال من مصر ج٢
 لعي الطيعي
- ٣٣ - مصر وقضايا الحروب الافريقي
 د خالد الكومى
- ٣٤ - تاريخ العلاقات المصرية العربية
 د يوانان لبيب رزق

- ٣٥ - اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة
عبد الحميد توفيق زكي
- ٣٦ - المجمع الاسلامى والعرب ج ٢
ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم مصطفى
- ٣٧ - النسخ على يوسف
تأليف : د. سليمان صالح
- ٣٨ - فصول من تاريخ مصر الاقتصادية والاجتماعى فى
العصر العثمانى
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم
- ٣٩ - قصة احتلال محمد على لليونان
د. جميل عبيد
- ٤٠ - الأسلحة الفاسدة
د. عبد المنعم الدسوقي الجهمى
- ٤١ - محمد فريد الموقف والمأساة
رفعت السعيد
- ٤٢ - تكوين مصر عبر العصور
محمد شفيق غبريال
- ٤٣ - رحلة فى عقول مصرية
ابراهيم عبد العزيز
- ٤٤ - الاوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر
العثمانى
د. محمد عفيفى

هذا الكتاب ، تاريخ الحروب الصليبية ، عمل علمي
كبير لويليم المصوري الذي يعرفه طلاب الدراسات
التاريخية كأحد اعظم المصادر في تاريخ هذه الحروب ،
وهو يعالج الفترة التي امتدت من عام ١٠٩٤ - ١٩٨٤
والفترة التي تليها اى على مدى قرن ونصف من الزمان
والتي اخذت تندفق فيها الهجرات الشعبية المسلحة
المنسربة بمسوح الدين والصليب ، وهي التي عرفت
باسم الحملات الصليبية .

وهذه الترجمة سوف تصدر في اربعة مجلدات - هذا
اولها - اليت فيها الأستاذ الدكتور حسن حبشى مكانته
العلمية وفرد بادر عظيم من الدقة التي ترسم للجيل
الجديد من المؤرخين الطريق للوصول إلى الاستاذية
بمعناها الصحيح .

Bibliotheca Alexandrina



0212002

٣٧٥ قرشاً